دعوة الحق

• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الرباط . المغرب

خاص
بعيد الشباب المجيد

شبابٌ قُنّعٌ لا خير فيهم
وبُورك في الشباب الطامحينا

شوقي



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه

سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

❋

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

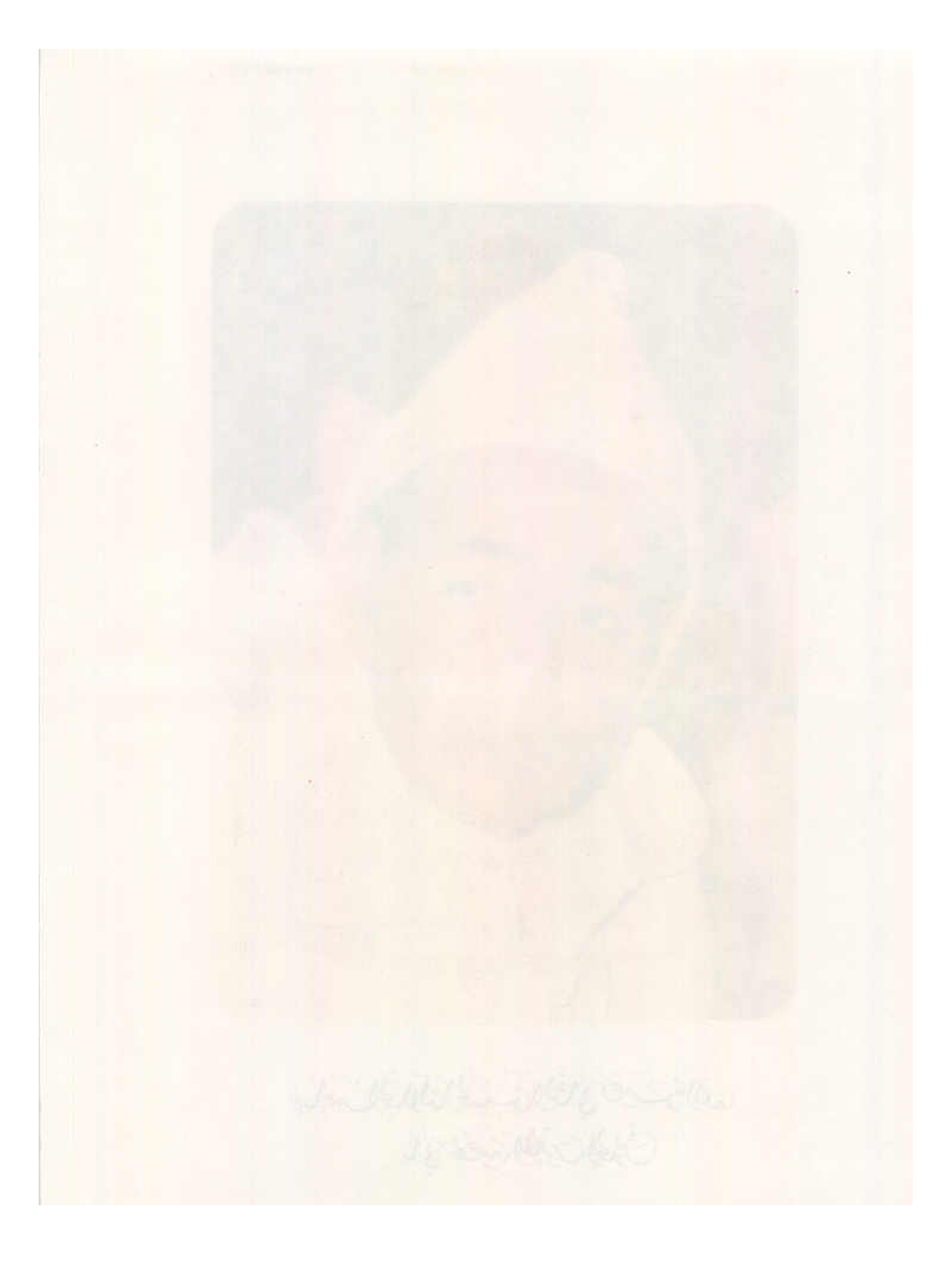
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

تهنئة

يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأسرة "دعوة الحق" أن تتقدم بكل خضوع وإجلال، وتعظيم وتكريم، إلى السدة العالية بالله حضرة صاحب الجلالة مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، بأطيب التهاني وأجمل الأماني بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لعيد ميلاده السعيد راجية منه، حفظه الله، أن يتقبل هذه الباقة الفواحة التي تعبق بأريج الحب، وتتضوع بعبير الوفاء والإخلاص تقدمها في بساطكم الكريم صفوة مختارة من العلماء والمثقفين، تعبيرا منهم واعترافا بما يقدمه سيدنا المنصور بالله لفائدة هذا الوطن المحبوب، سائلة الله العلي القدير، أن يطيل عمر جلالته، ويبارك في جهاده المتواصل، ونضاله المستديم من أجل بناء المغرب الحديث، والدفاع عن الوحدة الترابية لمملكتنا السعيدة، وأن يحفظه في ولي عهده المحبوب زين الشباب صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير المولى الرشيد، وباقي أفراد الأسرة العلوية الشريفة وشعبه الوفي العظيم. إنه سميع مجيب.

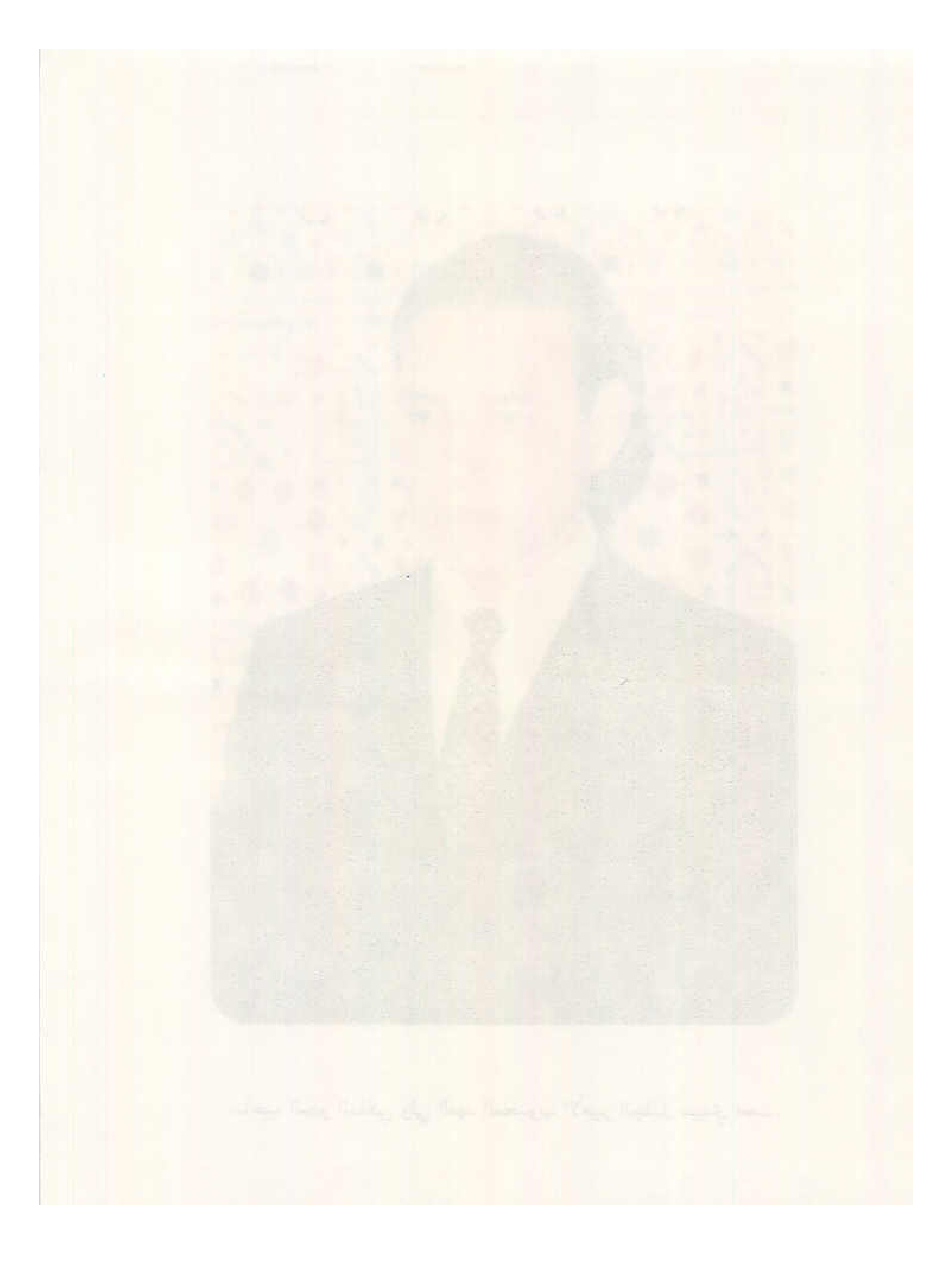


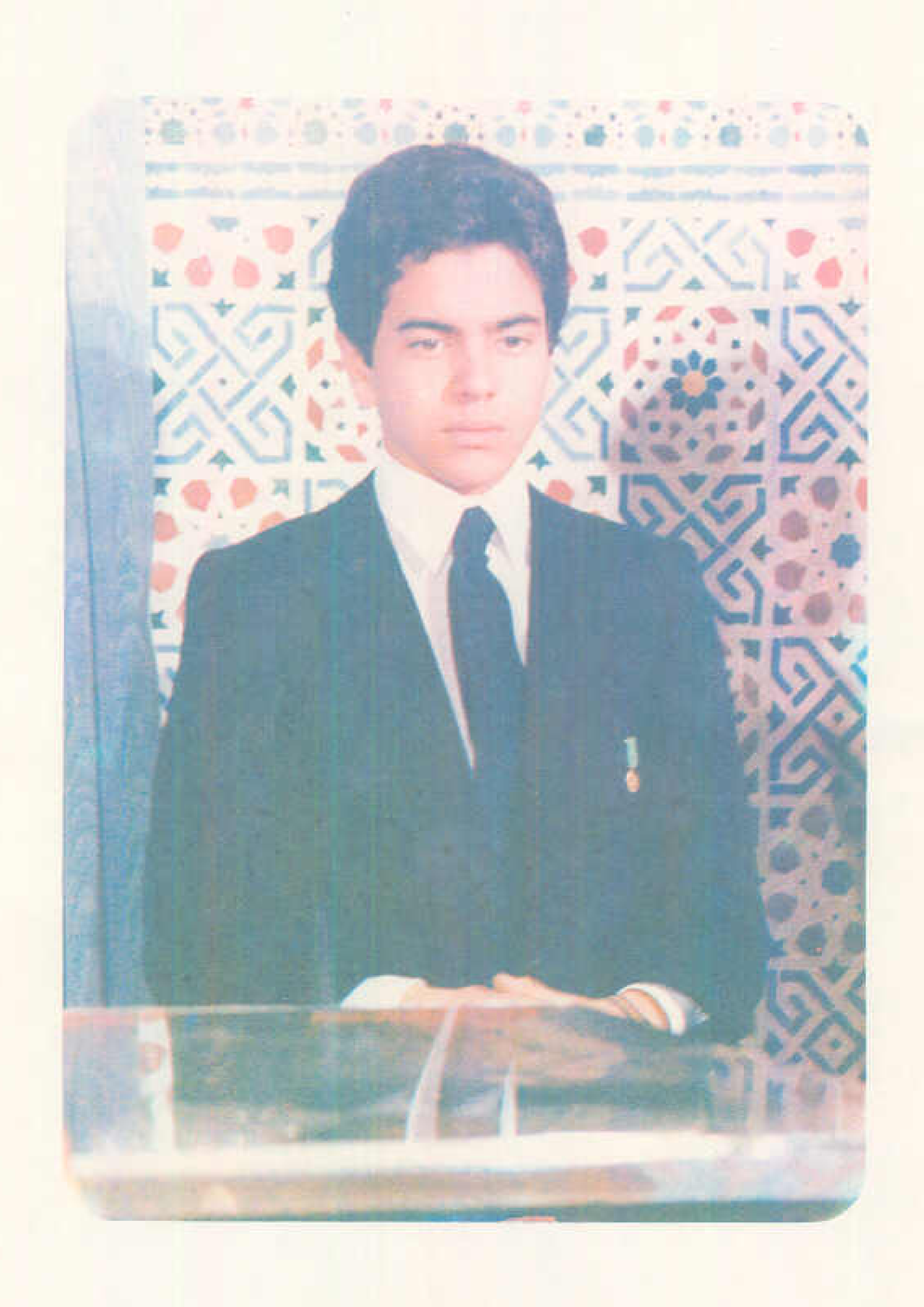
صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله
باني نهضة المغرب الحديث





صاحب السمو الملكي ولي العهد المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد





صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد



بسم الله الرحمن الرحيم

روائح الجنة في الشباب

أليس أن أهل الجنة شباب جُرد، مُرد، كُحل، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم ؟
أليس أن أعمار أهل الجنة لا تتجاوز الثالثة والثلاثين ؟

وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ، إلا شبابا نظر الله إليهم في جوف الليل، منثنية أصلابهم بمعاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة، بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار، شهق شهقة، كأن زفير جهنم في أذنيه...

ثم أليس أن الشباب المومن المسلم، في هذه الدنيا يشبه إنسان الجنة ؟

إن إنسان الجنة لا يعرف القلق والاضطراب، ولا يعرف الغل والحسد، والبغض والضغينة، بل طمأنينة في النفس، وصفاء في الروح، وطهارة في الوجدان، وأمنا وسلاما واستقرارا...

والشباب المسلم المومن، في هذه الدنيا، قد يذكرك بشباب الجنة، فهم أرق أفئدة، وأصلح قلوبا، وألين عريكة، صدورهم تفيض بالحب، ونفوسهم قريبة إلى الخير والصلاح...

ثم إن في الشباب معنى العزم والحزم، والوهج والتوقد، والإرادة والإقدام... وكلمة «الشباب» نفسها فيها معنى الحرارة والنور، والتعاطف والتحابب، والرواء والجمال...

وكثيرا ما كان الفلاسفة والحكماء والشعراء يعتقدون في براءة الشباب، وسماحته وطهارته إلى حد أن الله لا يرد دعاءهم، ولا يخيب لهم رجاء... وهذا ما صوره أحمد شوقي في قصيدته التي افتتح بها عهد عودته من المنفى بالأندلس حيث يقول :

وحيـا اللــه فتيــانـا سِماحـا
كسـوا عِطْفَيَّ، من فخر، ثيـابـا
مـلائكــة إذا حفـوك يـومـا
أحبـك كُـلٌّ من تلقى، وهـابـا
وإن حملتــك أيـــديهم بُحـورا
بلغتَ على أكفِّهم السحـــابـــا

ثم يخاطبهم قائلا :

شبــابَ النيـل : إن لكم لصـوتـا
مُلَبًّى، حين يرفـع مستجـابـا
فهـزوا (العرش) بـالـدعـوات حتى
يخفف عن كنـانتـه، العـذابـا

☆ ☆ ☆

إن عنفوان الشباب، وحركات الشباب وحماسه تفضي إلى دار النعيم، في الدين والدنيا، ويهب لهم الحق سبحانه، جنات وعيونا وكنوزا في مقام كريم...

أليس الذين قادوا الدعوات الإصلاحية وساندوها، وآزروا الرسل والأنبياء، وآثروا، بالعون، الزعماء والمصلحين، وأعلنوها ثورة عارمة ضد الأوضاع الفاسدة، فَصَلَوْا حرها، وحملوا عبئها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع، كانوا من الشباب، الذين خططوا مصارع الأعداء، ورسموا لأمتهم صور التضحية والفداء ؟...

لقد كان للشباب أثر كبير في معظم الحركات السياسية والاجتماعية الكبرى التي غيرت مصائر النظم والأوضاع، فاستعانوا على خوض غمار الحياة بالصبر والعزم، والإقدام والحزم، وتساموا إلى معالي الأمور وإلى عظائمها...

فالدعوة الإسلامية، لم تقم إلا على أكتاف الشباب، الذين كانوا يتدارسون القرآن غذاء أرواحهم، ومنهج حياتهم، وهدى سلوكهم، لا يريدون شهرة ولا دعاية، ولا يحبون أن يطلع على أحوالهم أحد، ولا يشعر بهم مستخف بالليل، أو سارب بالنهار...

ثم إن المبادئ القويمة، والمثل العليا يكون للشباب فيها النصيب الأوفر، وحظه منها هو الحظ الأوفى... وما الأحداث التاريخية، والأعمال الوطنية، والتحركات التحريرية الا من صنع الشباب... وهي قلما تقوم على غير سواعد الشباب، لأن التضحية والفداء من مستلزمات هذه الأعمال...

فنجاح النهضات الكبرى، يرجع في الأغلب الأعم، إلى ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم...

والاستقراء يدلنا على أن الرسالات العظيمة، والمبادئ الكبيرة، كانت، ولم تزل ثمار الشباب، ونتاج الفتوة، فهذا رسول الله ﷺ يقول لبني عبد المطلب : «إني والله ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به»...

فمحمد هنا، وهو في سن الأربعين، سن الرسالة والنبوة، يقر بأنه شاب، وبأن شابا آخر من قريش لم يجئهم بمثل ما جاءهم به محمد أو بأفضل منه...

فعهد الشباب هو وحده الذي يعيد بناء الأوطان، ويقيم أساسا جديدا للتفكير والتدبير، والتنوير والتطوير، ويجدد اتجاهات الأمة إلى الطريق السليم...

والرسالات العظمى، والمبادئ القويمة، عموما، لا تكون من خصائص الكهولة أو الشيخوخة، لأن الخروج عن المألوف، والبعد عن العرف، الذي درج عليه الناس، ومخاصمة الجمهور، تحتاج إلى أعصاب مجدولة، وسواعد مفتولة، لم يرهقها العمل، ولم يضنها الجهد، ولم يوهنها اختيار السير في أهون السبل، وألين المسالك...

ثم ان المثل العليا، والمبادئ الهامة، والرسالات الخالدة، لا تحتمل المواربة والمخادعة، والتلطف والمصانعة، والمخاتلة والمداجاة، كما لا تحتمل الابهام والغمغمة، وعدم الصراحة والإبانة والوضوح...

ولما كان الشباب، بجملته، مُبَرّأً من هذه الخصال، ومنزها عن هذه النقائص، وكان الصفاء والصدق والجرأة أخلص مزاياه، كان اضطلاعه بعبئها، وتحمله لأذى المجاهرة بها، والدعوة إليها، بلا تردد ولا خور، ولا جمجمة ولا استحياء، خلة وسجية من سجاياه...

والبلد الذي يرزق قادة عقلاء يتفهمون نفسية الشباب، ويتلمسون رغابهم، ويتحسسون مطالبهم، ويناقشونهم، ويأخذون بِضَبْعِهِم، ولا يوصدون دونهم، بابا، مثل هذا البلد يستقر أمره، ويهنأ عيشه، وتسير أحواله على هدي الشيوخ العقلاء ذوي الخبرة والكفاية، والتجربة الطويلة في الحياة...

وهـــدى التجـــارب في الشيـــوخ، وإنمـــا
أمـــل البـــلاد يكـــون في شبـــانهـــا

إن فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الفائرة، كما أنها أيضا، عهد النزعات النفسية الجياشة، يمدها الخيال الخصب، ويرفدها الرجاء البعيد...

على أن هناك رجالا تظل وقدة الشباب حارة في نفوسهم، وإن أنافوا على الستين، لا تنطفئ لهم بشاشة، ولا يخبو لهم أمل، يعلو صوتهم، وتلمع أعينهم، ويصرخ الدم في عروقهم، لأنهم يومنون بشيء عظيم، أو بشيء يرونه خطيراً...

فكم من شيخ أبلت الأيام بدنه، ومع ذلك بقي متماسكا، فالشباب أو الكهولة، هما ما انطوت عليه روح المرء من فتور أو نشاط، من نكوص أو إقدام، من خور أو عزيمة، من تردد أو إرادة...

إن نظام الاجتماع يقوم على عاملين أساسيين لا يمكن الفصل بينهما، وهما نشاط الشباب، وحكمة الشيوخ، وليس لنظام الاجتماع أمل في النهوض والتطور، والتقدم والرقي إذا هو استند إلى عامل واحد فقط منهما، فحركة التقدم والرقي، تحتاج إلى نشاط يدفع إلى الامام على الدوام، ولكن هذا الدفع، لا يفضي إلى رقي صحيح حقيقي، إلا إذا اقترن بالتجربة الواعية، والحكمة البالغة...

من أجل ذلك أبى صاحب الجلالة الحسن الثاني* «ألا أن يبقى هذا العيد، عيد 9 يوليوز عيدا للشباب، ويسمى بعيد الشباب، حتى يمكننا كل سنة كيفما كانت سننا، أن نشرب من كوثر الشباب إرادة وعزما وحماسا وإيمانا، وعلما منا، أن الأمة وأجيالها، مثل السلسلة المرتبط أولها بآخرها»، «وعليك شعبي العزيز أن تحتفل في نفسك، وكل يوم من أيامك بعيد شبابك، فالدولة التي تشيب محكوم عليها بالانقراض».

«فنحتفل، كما هي العادة بعيد الشباب، وقد سمي بعيد الشباب حتى يمكن أن يبقى للمغرب، بلدنا العزيز، فرصة يتاح له فيها أن يشيد بالشباب، وينصحهم، ويخطط لهم» من أجل ذلك «أصبح عيد الشباب ليس احتفالا بعيد ميلاد رجل واحد، ولا بعيد ملك، بل أصبح عيد تجديد، وتجدد الشباب، كل سنة في هذه المناسبة، مناسبة 9 يوليوز وتجدد الشباب له معان كثيرة، وله فلسفة عميقة، ذلك أن الشباب ينطوي أولا على سريرة نظيفة طاهرة، وكلما طهرت النيات تجلت الغايات والمقاصد، وسهل، إذ ذاك، الوصول إليها وبلوغها».

فلا عجب، إذا كانت روائح الجنة في الشباب...

☆ ☆ ☆

إن الشباب توثب روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة، وفترته هي القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة، ووهن الشيخوخة...

فالشباب هو الأمل والرجاء المرجو في حياة الشعوب والأمم للنهوض بها...

ولا وسيلة للنهوض بالمجتمع إلا بتربية جيل من الشباب، تربية قويمة سليمة، تكون فيصلا بين جيل فسدت تربيته، فنزلت رتبته، وأجيال قادمة صاعدة تكون أرقى وأنقى وأتقى وأبقى... وهذه الأجيال لا تتوالد إلا من أصل كريم، ولا تنشأ إلا في جو، من التربية، سليم، ولا تسير إلا على هدي العلم الصحيح، والخلق المتين...

والشباب هم البسمة المشرقة المتألقة التي ترتسم على ثغر الدولة الرشيدة الملهمة بالصواب، لإحسان تربية شبانها الذين هم مناط الأمل، ورجال الغد، وعدة الحاضر، وحصنها المنيع ضد التيارات الوافدة التي تحاول جرف فضائلها... وسيفها البتار القاطع لكل مثلمة أو نقيصة، كما أنهم أساة النطاسيون إذا أثخنتها الجراح، وعدت عليها الأيام، وتواثبت في وجهها الخطوب، وتفاقمت أمامها الأحداث، وهم في الأخير المنى الباسمة، والآمال المتبلجة الذين يضفون على الحياة جوا من المرح السعيد، والعمل الرشيد، واليمن والسعادة والعيش الرغيد...

*الكلمات الواردة بين هلالين من خطب صاحب الجلالة في مختلف المناسبات لعيد الشباب.

الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى حجاجنا الميامين

فيما يلي النص الكامل للرسالة الملكية السامية التي وجهها أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله والتي حث فيها حجاجنا المغاربة الميامين على تشخيص المبادئ والأخلاق الإسلامية الداعية إلى حسن السلوك والمعاملة والحفاظ على النظام والتعاون وأن يكونوا خير مثال يقتدى به في التواضع والأدب مع كافة ضيوف الرحمن.

وقال لهم حفظه الله :

تذكروا أنكم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية تنتمون إلى بلد أصيل في الإسلام دائم التشبث بمبادئه ومكارم أخلاقه عريق في أمجاده وحضارته يتمتع بمكانة مرموقة ورصيد كبير من السمعة الطيبة بين سائر الدول والشعوب المسلمة.

وقد تلا هذه الرسالة الملكية وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور السيد عبد الكبير العلوي المدغري أثناء توديع الفوج الأول من الحجاج المغاربة الذين توجهوا صباح يوم الأحد 11 ذي القعدة 1408 الموافق 26 يونيو 1988 إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وقد كان في وداعهم أيضا سفير المملكة العربية السعودية بالرباط ووالي صاحب الجلالة على ولاية الدار البيضاء الكبرى وشخصيات أخرى مدنية وعسكرية.

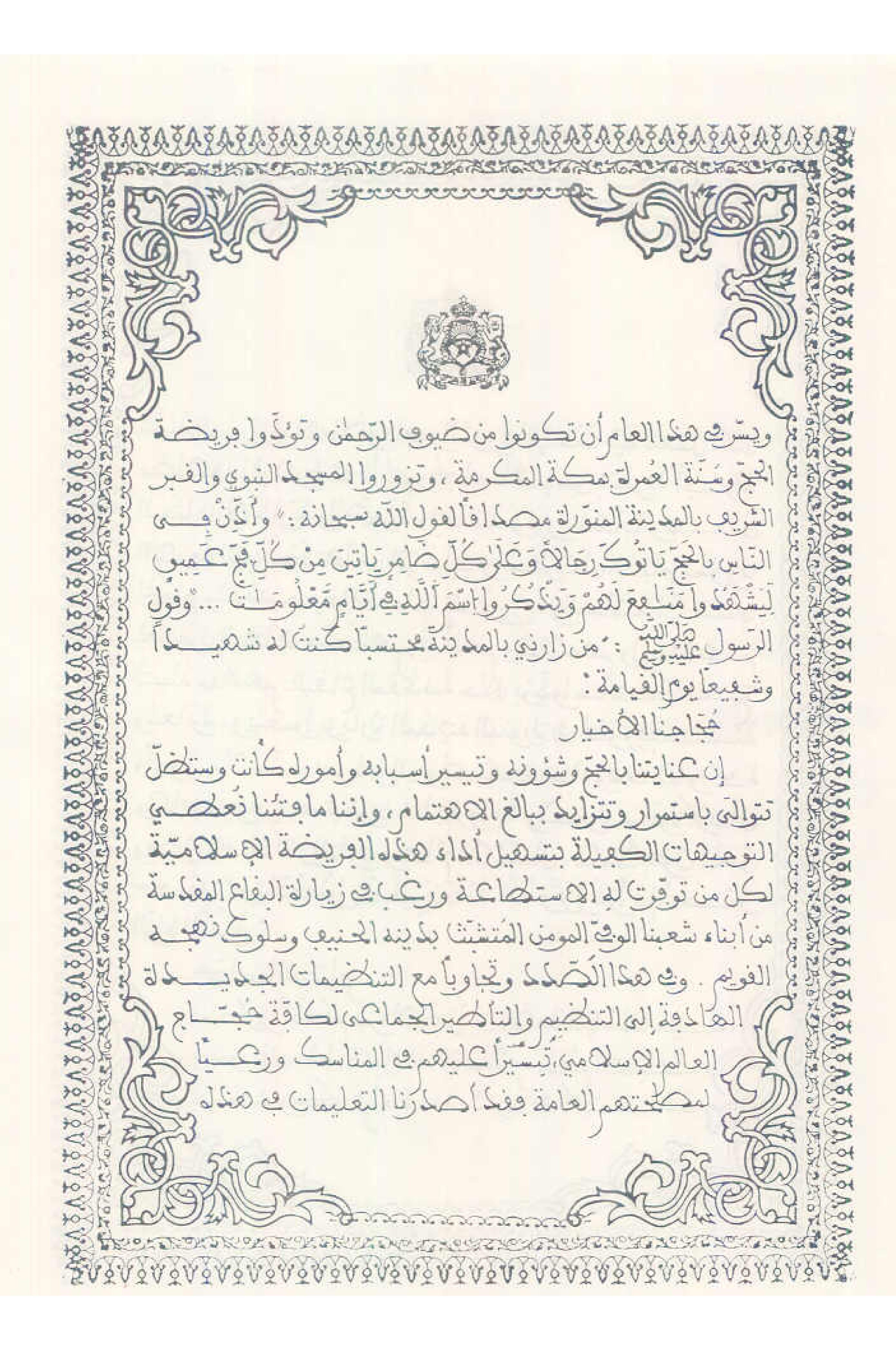
وفيما يلي نص الخطاب السامي :



الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

حجاجنا الميامين

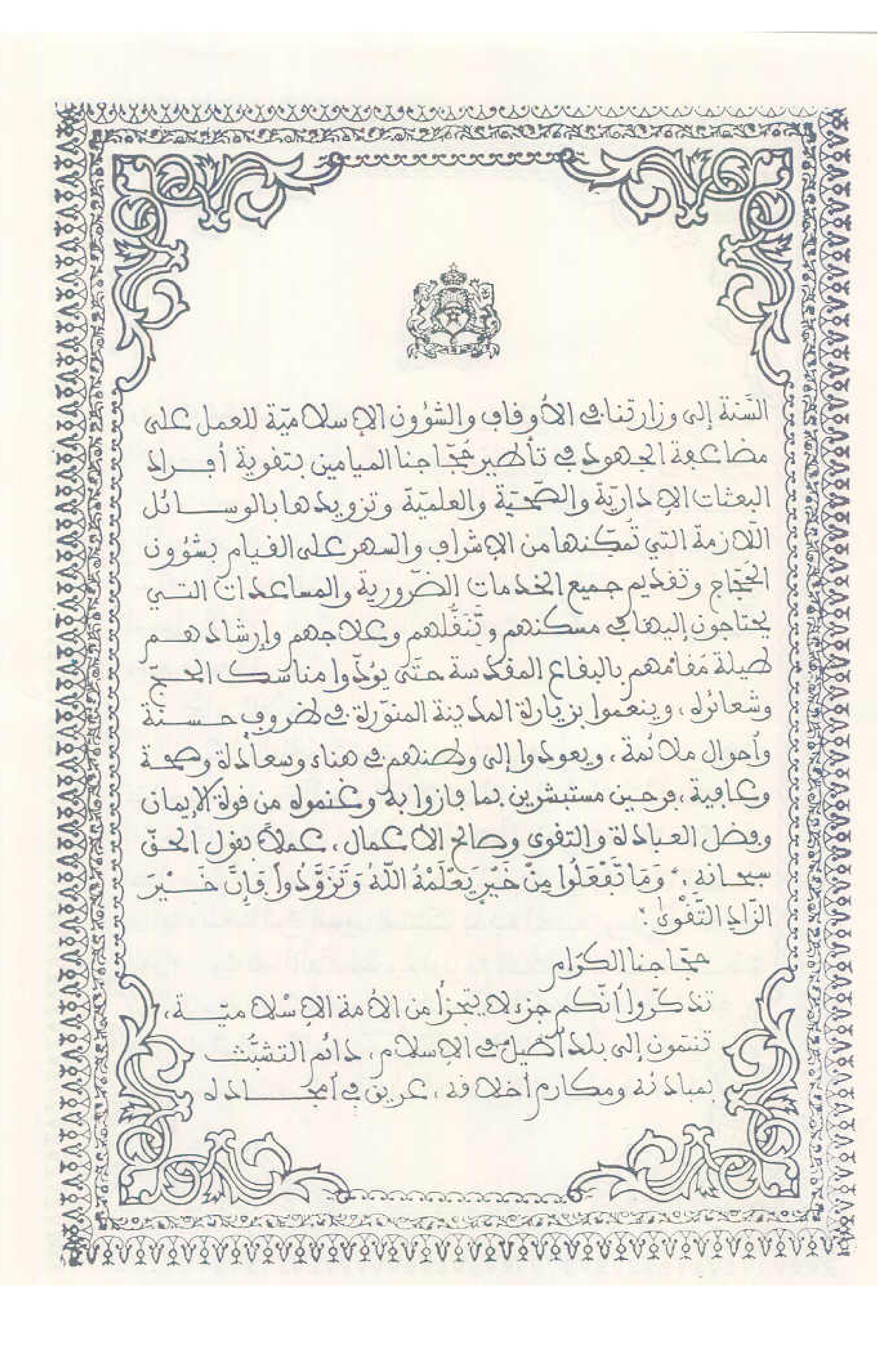
في موسم الحج من كل عام، وجريا على سنن حميد وتقليد مرعي مجيد قبل مغادرة أول فوج منكم أرض الوطن إلى البقاع المقدسة، دأبنا على أن نوجه إليكم رسالة توجيهية بوصفنا أميرا للمومنين وحاميا لحمى الوطن والدين، نزودكم فيها ببعض النصائح العامة، ونذكركم فيها ببعض التوجيهات النافعة التي تنير أمامكم السبيل، وتكون لكم خير هاد ومعين على أداء مناسك الحج وشعائره، والتزام شروطه وآدابه، وتحصيل فوائده ومنافعه الدينية والدنيوية الروحية منها والمعنوية. فها أنتم ممن سبقت لهم عناية الله وكنتم بفضله وكرمه ممن استجاب لذلك الدعاء والنداء الذي ناداه أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما بنى البيت الحرام وأمره ربه ذو الجلال والإكرام أن ينادي في الناس بالإقبال عليه، فكتب الله لكم



ويسر في هذا العام أن تكونوا من ضيوف الرحمن وتؤدوا فريضة الحج وسنة العمرة بمكة المكرمة، وتزوروا المسجد النبوي والقبر الشريف بالمدينة المنورة مصداقا لقول الله سبحانه: "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ..." وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة".

حجاجنا الأخيار

إن عنايتنا بالحج وشؤونه وتيسير أسبابه وأموره كانت وستظل تتوالى باستمرار وتتزايد ببالغ الاهتمام، وإننا ما فتئنا نعطي التوجيهات الكفيلة بتسهيل أداء هذه الفريضة الإسلامية لكل من توفرت له الاستطاعة ورغب في زيارة البقاع المقدسة من أبناء شعبنا الوفي المومن المتشبث بدينه الحنيف وسلوك نهجه القويم. وفي هذا الصدد وتجاوبا مع التنظيمات الجديدة الهادفة إلى التنظيم والتأطير الجماعي لكافة حجاج العالم الإسلامي، تيسيرا عليهم في المناسك ورعيا لمصلحتهم العامة فقد أصدرنا التعليمات في هذه

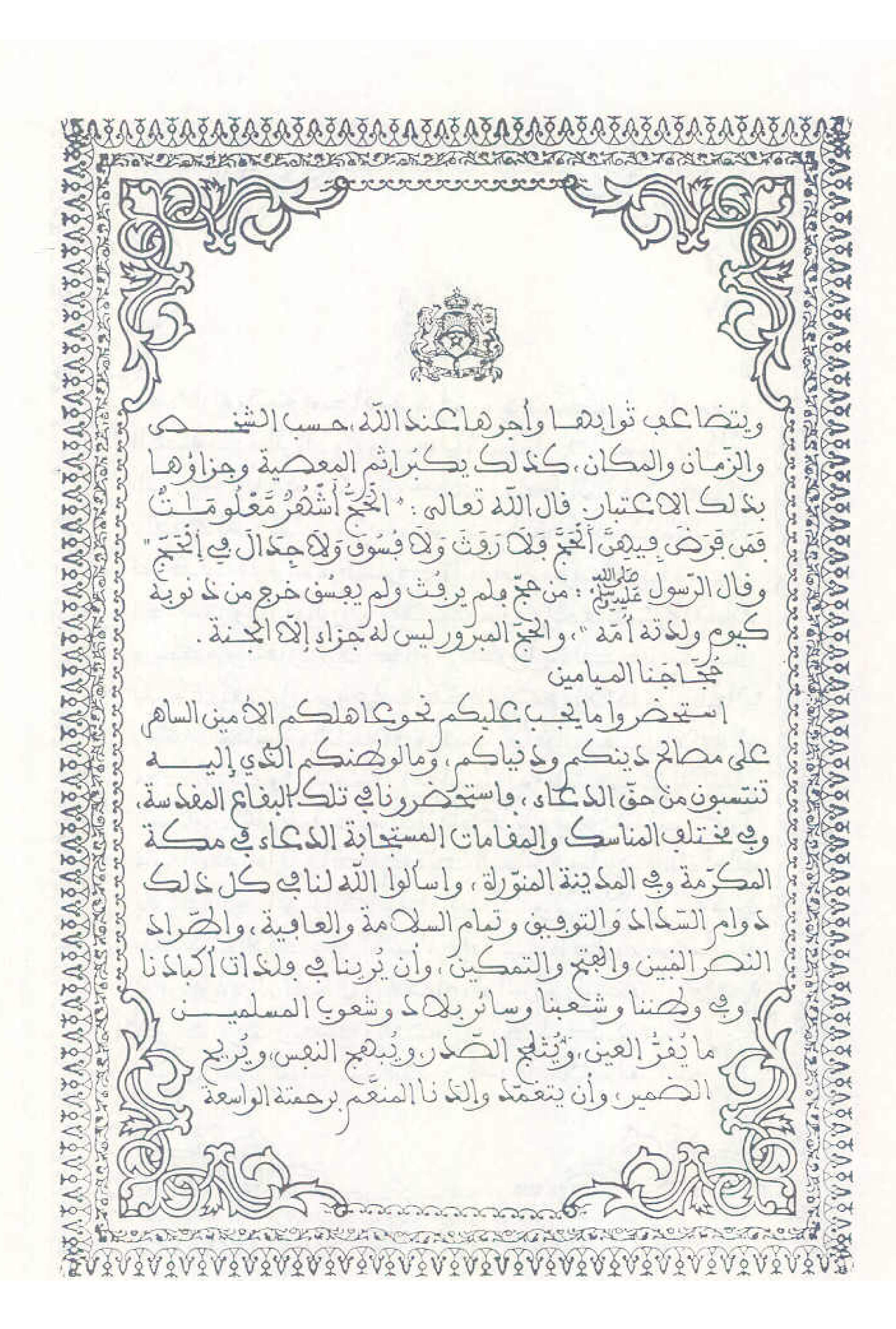


السنة إلى وزارتنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية للعمل على مضاعفة الجهود في تأطير حجاجنا الميامين بتقوية أفراد البعثات الإدارية والصحية والعلمية وتزويدها بالوسائل اللازمة التي تمكنها من الإشراف والسهر على القيام بشؤون الحجاج وتقديم جميع الخدمات الضرورية والمساعدات التي يحتاجون إليها في مسكنهم وتنقلهم وعلاجهم وإرشادهم طيلة مقامهم بالبقاع المقدسة حتى يؤدوا مناسك الحج وشعائره، وينعموا بزيارة المدينة المنورة في ظروف حسنة وأحوال ملائمة، ويعودوا إلى وطنهم في هناء وسعادة وصحة وعافية، فرحين مستبشرين بما فازوا به وغنموه من قوة الإيمان وفضل العبادة والتقوى وصالح الأعمال، عملاً بقول الحق سبحانه: "وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى".

حجاجنا الكرام

تذكروا أنكم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، تنتمون إلى بلد أصيل في الإسلام، دائم التشبث بمبادئه ومكارم أخلاقه، عريق في أمجاده

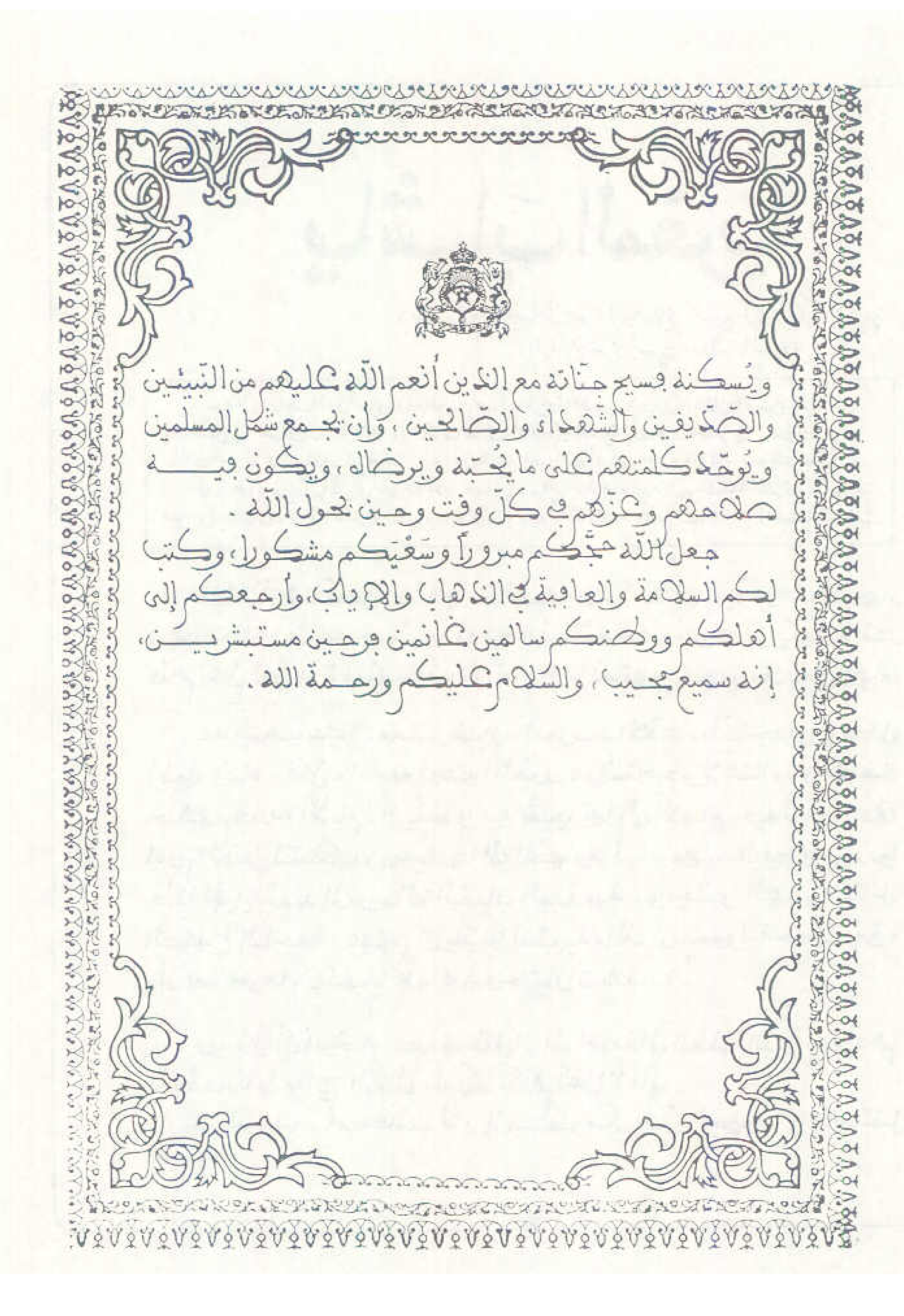
وحضارته، يتمتع بمكانة مرموقة، ورصيد كبير من السمعة الطيبة بين سائر الدول والشعوب المسلمة. فاعملوا - هداكم الله وأصلح بالكم - على أن تشخصوا تلك المبادئ والأخلاق والأصالة، وعلى أن تزيدوا من رصيد تلك المكانة والسمعة بما تتحلون به من حسن السلوك والمعاملة، وتتمتعون به من الجدية والوقار، والرزانة والاطمئنان، والحفاظ على الانضباط والنظام والتعاون والانسجام، وتكونوا بذلك خير مثال يُقتدى وأفضل نموذج يُحتذى في التواضع والآداب ولين الجانب ولطف المعاشرة والأخلاق وطيب الأقوال وجميل الأفعال مع كافة ضيوف الرحمن، ومع المسؤولين المشرفين على تنظيمكم الساهرين على شؤونكم إداريا وصحيا وتربويا، واحرصوا على أن تغتنموا أوقاتكم في تلك البقاع فيما يرضي الله تعالى بالإكثار من أنواع الطاعات والقُربات، والإخلاص لله في العبادة، والإلحاح في الدعاء، وأن تجتنبوا كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الجدال والخصام، أو النزاع والشنآن، أو يوقع في الرفث والفسوق والعصيان، فإن ذلك ينقص الأجر والثواب عند الله، وبقدر ما تعظم الطاعة



ويتضاعف ثوابها وأجرها عند الله، حسب الشخص والزمان والمكان، كذلك يكبر إثم المعصية وجزاؤها بذلك الاعتبار. قال الله تعالى: «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

حجاجنا الميامين

استحضروا ما يجب عليكم نحو عاهلكم الأمين الساهر على مصالح دينكم ودنياكم، وما لوطنكم الذي إليه تنتسبون من حق الدعاء، فاستحضرونا في تلك البقاع المقدسة، وفي مختلف المناسك والمقامات المستجابة الدعاء في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة، واسألوا الله لنا في كل ذلك دوام السداد والتوفيق وتمام السلامة والعافية، واطراد النصر المبين والفتح والتمكين، وأن يرينا في فلذات أكبادنا وفي وطننا وشعبنا وسائر بلاد وشعوب المسلمين ما يقر العين، ويثلج الصدر، ويبهج النفس، ويريح الضمير، وأن يتغمد والدنا المنعم برحمته الواسعة



ويُسكنه فسيح جنّاته مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيئين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين ، وأن يجمع شمل المسلمين ويُوحّد كلمتهم على ما يُحبّه ويرضاه ، ويكون فيه صلاحهم وعزّهم في كلّ وقت وحين بحول الله .

جعل الله حجّكم مبروراً وسَعْيَكم مشكوراً ، وكتب لكم السّلامة والعافية في الذهاب والإياب ، وأرجعكم إلى أهلكم ووطنكم سالمين غانمين فرحين مستبشرين ، إنّه سميع مجيب ، والسّلام عليكم ورحمة الله .

يا شباب المغرب

بقلم حضرة صاحب السمو الملكي مولاي الحسن ولي عهد المملكة المغربية
الرئيس الشرفي لجمعية الطالب المغربي

تفضل صاحب السمو الملكي ولي العهد المحبوب مولانا الحسن (جلالة الملك الحسن الثاني) فاستقبل في شهر نونبر سنة 1951، أعضاء المكتب الإداري لجمعية "الطالب المغربي" ودرس معهم باهتمام برنامج نشاطهم السنوي. ووافق عليه بعد أن أبدى سموه ملاحظاته القيمة ...
كما تفضل سموه فترأس في شهر مارس حفلة افتتاح النادي الأدبي للطلبة الذي يجتمعون فيه ويتعارفون ويتبادلون الآراء .. ويحتوي على مكتبة قيمة تضم كتبا عربية وأجنبية مختلفة..

قلبُ الأمة النّابض، شبابها، فالشباب مناطُ آمالها، وذُخر مستقبلها، فيهم تتجلى مظاهر حيويّتها، وبهم يُستشهد على نبوغها ورقيّها، وبقدر كدّهم يُكال لكل أمّة ما تستحقه من ثناء، وما تستهدف له من ملامة وهجاء.

قد يصعب علينا - معشر شباب المغرب - الادّعاء بأنّنا جديرون بكل إطراء وثناء، فكلّ ما نأمله في هٰذا الطّور هو التّشجيع والاعتناء، وعلى من حنكتهم تجارب الأيام، أن يأخذوا بيد شبيبتها إلى الأمام. فيدلّوها على أقوم السّبل لتسلكها، وينبّهوها إلى المهاوي لتجتنبها. عليهم أن يرشدوا هٰذا الجيل الجديد إلى رسالة الشباب المقدّسة، ويحبّبوا إليها وسائل الكفاح الناجعة. عليهم أن يبيّنوا للشبيبة ما لها من مسؤولية خطيرة، وأن يصارحوها بأن الحياة كلها محن واختبارات شديدة.

ويسرّني أن أتوجّه - بصفتي طالبا - إلى أصدقائي الطلبة الذين أسعدهم الحظ فارتقوا مدارج المعالي وأدركوا بكدّهم أعز الأماني:
إن المغرب - أصدقائي - لا يزال ينتظر منكم شتّى الجهود. وإن المستقبل

يتطلب منكم أن لا تركنوا للجمود والركود. فسيروا دوماً في مقدمة القافلة جادّين. واجتنبوا أن تكونوا في مؤخرتها شأن الجامدين. شيّدوا لهذه البلاد العزيزة صرحاً من الفخار متيناً. وجدّدوا أياماً كان فيها العزّ لها قريناً.

إن التاريخ - وهو الحكم العدل - سيقول كلمته فيكم: فإمّا ثناء على إخلاصكم وصدقكم، وإما لوم على تهاونكم وتفريطكم. على أن همتكم كفيلة بأجلّ النتائج. ونشاطكم يبرهن على اتباعكم أحسن المناهج، وليعلم الطلبة الذين هم خارج المغرب أنهم سفراء لبلادهم، فليقدّروا إذن قدر مهمّتهم.

فإذا لم يكن بإمكاننا اليوم أن نزاحم أبناء الشعوب الأخرى في ميادين الإنتاج المادي، فإنه بإمكاننا أن ندلو بدلونا، ونزاحمهم في ميادين الفكر والثقافة والأدب والفلسفة.

وإنّ جمعية الطالب - رغم فتوّتها - بذلت مجهوداً يُشكر، واعتنت بالطلبة اعتناءً يُذكر، فألّفت بينهم، وجمعت كلمتهم، ونسّقت اتجاههم. وقد أبى أعضاؤها إلاّ أن يبرهنوا على حيويتهم بإصدار هذا العدد الممتاز من "رسالة المغرب" الغرّاء، الحافل بالمقالات الطريفة والأبحاث المفيدة، وهو عمل جدير بكلّ تشجيع واعتبار، حقيق بكلّ تقدير وإكبار، ليظلّ مسترسلاً، ويضحى مستمراً متواصلاً.

وختاماً آمل أن تكونوا دائماً - أيّها الأصدقاء - عند حسن ظنّ عاهل البلاد المعظّم بكم. وأن تحققوا ما يعقده عليكم من آمال. وما يرتجيه للبلاد ولأمة من حسن المآل. كونوا عوناً لملكنا المحبوب، في رقي هذا الشعب وتقدّمه، وسنداً لجلالته فيما يصبو إليه من سؤدده ورفاهيته. وبذلك نكفل جميعاً لوطننا عزّاً مكيناً، ولأنفسنا مستقبلاً زاهراً آمناً. وما ذلك على همة شباب المغرب الناهض بعزيز.



حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد مولانا الحسن الثاني يتصدر المجلس الإداري لجمعية الطالب يوم تدشين ناديها الجديد.



ألقى صاحب الجلالة المغفور له مولانا محمد الخامس في يوم الاثنين متم قعدة عام 1375 الموافق 9 يوليوز عام 1956 خطابا رائعا بمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لمولد جلالة الملك مولانا الحسن ، ولاهمية هذا الخطاب القيم ، ولما احتوى عليه من درر وغرر ، وحكم بالغة ، فاننا نتشرف بادراجه في هذا العدد الخاص بذكرى سيد البلاد مولانا الحسن الثاني بمناسبة بلوغه حفظه الله، التاسعة والخمسين.

الحمد لله وحده

يا بنـــــى :

فى هذا اليوم الزاهر الزاهى الذى تحتفل فيه الامة المغربيـــة بذكرى ميلادك وقد أظهر الله عليك نعمته فاهتزت الاقطار لهـــذه الذكرى اهتزازا، وحج الناس اليك أفواجا ، وقد أبى الله يا بنى الآن تولد فى أوائل عهدنا ، يوم اعتلينا عرش مملكتنا السعيدة ، وتولينا تدبير شؤونها فى عهد احتدم فيه الصراع بين الحـــق والباطـــل ، وتأججت شرارة الكفاح ما بين مستعبد وشعب مناضل ، ويأبى الله الا أن يكون أول احتفال بعيد ميلادك فى عيد أضحى فيه الحق أبلج والباطل لجلج ولقد عاهد الله والدك أن يحارب فى واجهتين ، فكان يكافح لاسترجاع حرية البلاد ، ويعمل فى آن واحد لتربية أبنائه وبناته وفى مقدمتهم أنت يا بنى لتكون نموذجا للجهاد :



صاحب الجلالة مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه يعود من باريس وبيده وثيقة الاستقلال، وقد تحلّق حوله الصحفيون...



ولي عهد المملكة المغربية إذ ذاك مولانا الحسن الثاني نصره الله وأيده يترجم شكر جلالة والده المنعم لشعب فرنسا باللغة الأجنبية...

يا بنـــي :

لقد اخترت لك من الاسماء (الحسن) لاربط بين حاضر البلاد وماضيها القريب والبعيد وليكن لك فى جدك المولى الحسن خيـــر أسوة وأعظم قدوة ، فلم تكد تطل على السادسة من عمرك حتى قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن ، وليغرس فى قلبك الطاهر الفتى، حب الدين وعزة العروبة والاسلام ولما ترعرعت يا بنى اخترت بقاعك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافى فى بيئة مغربية فبنيت لك مدرسة خارج القصر ليتربى فيك الاعتماد على النفس فحرمتك من مجاملة الخادمات ، وحنان المربيات ، حتى تزدهر شخصيتك ، وتصبح عصاميا بارزا ، قبل ان تكون أميرا ، ثم احطتك برفقاء من مختلف طبقات الشعب لاننى كنت أريد أن أعدك اعدادا منتزعا من بيئة بلادك فكنت أحرص أن يعاملك رفقاؤك كباقى اخوانك التلاميذ تقارعهم الحجة بالحجة ، فلا يخضعون لك الا بقدر ما تبديه مـــن تفوق ومعرفة ، وهذا ما كنت أرجوه من المدرسة المولوية ، انعزال عن القصر واعتماد على النفس ، وخوض معترك الحياة ، لقـــد سهرت يا بنى على بناء المدرسة وبرامج التعليم وكنت المفتش فيها والمراقب ، وكنت أفاجئكم فى الدروس وأحيانا بالليل ، فكنت تقوم وتسرع الى باسما مبتهجا ، كما انى كنت أراقب دفاتر واجباتك فأجازيك اذا تفوقت ، وأعاقبك اذا قصرت ولكن والحمد لله قلمـا كنت متأخرا .

يا بنـــي :

لقد كنت صارما مع الاساتذة وكنت ألح عليهم أن يعـــودوك الطاعة والامتثال ، وان لا يتساهلوا معك والا يحترموا فيك الا القيم الانسانية المجردة وما افاء الله عليك به من ذكاء وعلم وأدب وعمل وكان غرضى أن تتعلم الطاعة لتعرف فى يوم من الايام كيف تملى أوامرك لان من تلقى الطاعة جيدا أملاها جيدا .



صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني يتلقى، باهتمام وعناية، توجيهات والده المرحوم مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه.

يا بنـــى :

لقد كنت مدققا وملحا فى أن يسود النظام حياتك كما كنــــت حريصا على أن أنسيك جو الملك والامارة لامتعــك بحنـــان الاب الرؤف غير أنه يا بنى سرعان ما أدركت منذ صباك هاته المعانى فكنت تكد وتجتهد لكى تتمتع دائما برضاى وكانت غايتى يا بنى أن أجعل منك ومن رفقائك نموذجا لما ينبغى أن يكون عليه الشباب المغربى وقد شاءت عناية الله جلت قدرته الذى يقول : ((ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يوتكم خيرا)) أن تحقق رجائى فقد حصلت يا بنى على النتيجة ورفقاؤك اليوم يتحملون فى حكومة المغـــرب المستقل مسؤولية كبرى منهم الاطباء والمحامون وكبار الموظفين .

يا بنـــى :

لقد حرصت أن أجمع لك بين أطراف المجد وأن أمكنك من فضيلة القديم والحديث فأبيت الا أن يكون تعليمك مزدوجا فلقد درســت لغتك العربية ودينك الاسلام وكرعت من معين المعرفة والعلــوم القديمة والحديثة حتى ارتويت لتعود قادرا على معرفة ما يجرى حولك فى العالم وتصبح رجل القرن العشرين الواعى العارف المطلع وكنت الى ذلك يا بنى أحرص على التناسق فى ثقافتك لانى أعلم أن مشكلة العصر هى التشبث بالقديم وحده أو الافتتان بالجديد وحده وكنت أجعل من مدرستك مخبرا لخلق هذا التناسق بين القديــم والجديد .

يا بنـــى :

لم أعتن بتثقيفك فحسب بل كنت أدربك على تعليم الاســلام واحترام أوامره واقامة شعائره كما كنت ألقنك كيف يجب أن تعامل أباك واخوتك وشعبك والناس أجمعين وهكذا نشأت يابنى للكبير محترما وللنظير أنيساوملاطفا وعلى الصغير رؤوفا حنوناتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر .



يا بنـــي :

ان والدك يؤمن بأن قيادة الامم وتسيير الدول فن قائم بذاته فلا يكفى فيه التعليم والتربية وحدهما بل لابد من تكوين عملـــى يومى مباشرة يخرج من القلب فيصل الى القلب فأعددتك مواطنا مغربيا قبل اعدادك أميرا فقد كنت أقص عليك تاريخ بلادك ومواقف أجدادك كما كنت القنك معنى المواطنة حتى تؤدى ولاية العهد التى انطناها بك واحرص على أن تؤمن بالواجب الوطنى والصالح العام وكنت أدفعك لتتعمق فى قيم معنى الشعب لتخدمه الخدمة الصادقة .

يا بنـــي :

لم تكن غاية والدك الذى يحبك ويصطفيك الا اعدادك الاعداد الصحيح وقد شاءت عناية الله يا ولدى أن تنجح فى جميع مراحل حياتك حتى اذا أصبحت رجلا وجدت فيك خلال الازمات التى مرت علينا المشجع والمعين والانيس الامين فكانت مذاكرتى معك تصابرا واطمئنانا وكانت مناقشتنا يقينا وايمانا فعندما تدلهم الخطـــوب وتشتد الازمات وقد أحاط بى المغرضون من كل جانب أخلو اليك فى القصر فأجد فى حديثك ايمان الشباب ، وأمل الشباب ، وأرى بأن المستقبل زاهر وسعيد وفى المنفى يا بنى بفضل تربيتك الصالحة لم نكن نشعر بالابعاد والاقصاء من الاوطان ، وانما كنا نعـــد أنفسنا فى خلوة نعد فيها برامج مغرب الغد لتحقيقها بعد عودتنا والا فنكون قد تركنا رسالة وبرنامجا لشعبنا الوفى والان وقـــد عدنا يا بنى أشهد لك أمام شعبك بأنك جابهت المحنة أنت والاسرة كلها بايمان الواثقين بمستقبل بلادهم ، والمكافحين المستميتين فى سبيل وطنهم وان من أغلى أمنياتى أن تنشر يوميات المنفى فى يوم من الايام ليرى أبناء الشعب كيف أن التكوين الصحيح يتغلب على كل الصعاب ويقبر الازمات .

يا بنـــى :

لست أنسى عطفك وبرك واحساسات الابن البار يوم حلقت بنا الطائرة الى المنفى ولم يبق هناك ملك ولا أمير ، وانما هناك العطف والتجاوب بين الاب والابن كنت أشعر يا بنى انك تريد أن تتقمص الالم وحدك ، وكنت تحاول ان تحل داخل نفسى لتتحمل سياط الالم والفراق وحدك ، وكنت أنظر اليك باسما راضيـــا ، وعرفت وأنا فى الطائرة أن الشجرة الطيبة التى أصلها ثابـــت وفرعها فى السماء قد أتت أكلها باذن ربها ، والبلد الطيب يخـرج نباته باذن ربه ، فكنت يا بنى رئيس العائلة المسؤول عليها تحاول أن تتحمل الاثقال وحدك ، وتتغلب على المشاكل وحدك ، وكنت واخوانك وأخواتك والاسرة كلها صابرين ثابتين متجادين ولعبتم دوركم التاريخى فأعجب بكم العدو والصديق وكـان النـــاس يحترمونكم ويعجبون بكم وذلك كله بفضل التعليـم والتربيـــة والتكوين ، فلم نكن فى المنفى نشعر بيأس ولا بألم ولا بضيق بل لم نكن نفكر فى الزمان ولا فى المكان الذى حولنا ، وانما كنا نعـــد ونستعد المستقبل ، وتوج الله هذا المنفى بازدياد أنيس عزيز هى آمنة تلك الابتسامة التى طلعت من مدغشقر فالا حسنا وبشيــرا يخبر بأن المستقبل سعيد .

يا بنـــى :

قل للشباب ان الجيل الحاضر كافح فى سبيل الاستقـــلال ، وعليهم أن يتابعوا الكفاح بتثبيت هذا الاستقلال ولازدهار البلاد ورفاهيتها وتقدمها فى عهد الاستقلال .

يا بنـــى :

ان مهمتك خطيرة فيجب عليك أن تزداد من العلم والمعرفة يجب أن تدرس الافراد أن تعرف الشخصيات ، وقل يا بنى دائما .. رب

زدنى علما ، فكلما تعلمت ، وكلما اتسعت معرفتك ظهرت أمامـك أرجاء محيط العلم الفسيحة فالعلم له بداية ، وليست له نهايـــة (فاطلب العلم من المهد الى اللحد) .

يا بنــى :

أقم الصلاة ، وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على مـا أصابك ، ان ذلك من عزم الامور .

يا بنــى :

فى هذا اليوم التاريخى الخالد يوم ذكرى ميلادك أيها الحسـن لاشك أنك ستتلقى من اخوانك وأخواتك وأسرتك وأصدقائـك هدايا .

أما هديتى اليك يا ولدى فى هذا اليوم ، فهى رضاى الدائم ، ولك من والدك أبرك الدعوات ، وأقدس التهنيئات .



صاحب الجلالة يقرر شرح الآية الكريمة : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والارض...﴾ في إحدى الدروس الرمضانية.

بعنـاية عبد الشكور الحميد

عواطف
و
مشاعر
و
ودراسات

من طلائع الشباب المغربي

أول جمعية وطنية بالمغرب

قبل الحماية في أوائل القرن العشرين

للأستاذ محمد الفاسي

في أوائل القرن العشرين وقد استفحلت مطامع الاستعمار في الاستيلاء على المغرب وحيكت الدسائس لهذه الغاية تنبه جماعة من شبان فاس لهذا الخطر المحدق وخصوصا وأن الأحوال الداخلية في البلاد تردت بعد وفاة الملك العظيم الحسن الأول رحمه الله من جراء مناورات المستعمرين باثارة الفتن وتشجيعات الثائرين كأبي حمارة الذي استلزم ردعه والقضاء عليه مصاريف باهظة جعلت الحكومة تعمد إلى أخذ قروض هائلة من فرنسا : وقد كانت الدول الاستعمارية وضعت خطة لدسائسها منذ أيام مولاي الحسن وذلك أن هذا الملك الجليل تنبه إلى وجوب السير بيلاده في طريق التقدم وأدرك أن الطريق إلى ذلك هو اقتباس المعارف الحديثة من الحضارة الأروبية فنظم بعثات لجماعة من شبان مملكته وبعثهم إلى عواصم العلم بأروبا وسهر على اختيارهم بنفسه ووجه منهم ثلة إلى لندن وثلة أخرى إلى باريس وكذلك إلى برلين وإلى إيطاليا وإسبانيا وروسيا فانخرطوا في مختلف مدارس الطب والهندسة والفلاحة وفي أواخر أيامه تخرجوا ورجعوا إلى وطنهم ليقوموا بفتح المستشفيات والأعمال العمرانية وقد كان هذا في الوقت الذي عمدت فيه اليابان إلى هذه السياسة لإدخال الحضارة الحديثة لبلادها ولكن من سوء حظنا كان الاستعمار بالمرصاد لهذه الحركة المباركة.

فقامت البعثات الديبلوماسية في بلادنا بدعاية واسعة النطاق لإبطال هذا العمل مستعينة بعملائها الذين راحوا يموجون في مختلف الأوساط خصوصا في العاصمة أن هؤلاء الشبان صاروا نصارى وسيفسدون على الناس دينهم مما أثار ضدهم غضب الشعب حتى صاروا يهددونهم وعظمت البلوى وخاف السلطان من مغبة ذلك وخشي على هؤلاء الشبان من أن يعتدى عليهم وعوض أن يستفيد المغرب من علمهم وتجربتهم عينهم السلطان في بنيقات الوزارات بدار المخزن بفاس ولم يحصل لهم اتصال بالمواطنين فقضى على هذه المحاولة الجبارة في مهدها.

ومن هؤلاء المتخرجين من الجامعات الأروبية من بقي على قيد الحياة إلى أيام الحماية وقد أدركت منهم أنا شخصيا وأنا طفل طبيبا كان درس بمدريد وفتح عيادة بالسبع لويات بفاس قرب القرويين كان يقصده الناس للتداوي وأظن أنه كان من عائلة برادة كما أدركت المهندس الأستاذ الجبلي والد الدكتور الجبلي وقد درس ببروسيا وتعرفت عليه في باريس أيام دراستي بها وكان يعطف على الحركة الوطنية الفتية إذ ذاك.

هذه هي الحالة التي كان عليها المغرب عندما تفاقم أمر المخاوف الاستعمارية عليه مما أدركته الجماعة المذكورة في أول هذه الكلمة وقد كنت وجدت منذ سنين



الطلبة الشباب المغاربة الأوائل بباريس.
الجالسون من اليمين : السادة : محمد حسن الوزاني، أحمد بلا فريج، محمد الخلطي، ومحمد الفاسي.
الواقفون، من اليمين السادة : المدني مكوار، محمد بن التهامي الوزاني، عبد القادر بنجلون، وعبد الملك فرج.



الشباب الوطنيون المغاربة بالقاهرة.

في صندوق بمنزلنا بفاس يحتوي على وثائق عدة ومخطوطات ومن جملتها مجموعة مهمة من رسائل مولاي اسماعيل رحمه الله لجدنا شيخ الإسلام سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي كنت نشرتها مع صورها في مجلة هسبريس وفي مجلة تطوان وكذلك ملف يتعلق بهذه الجماعة. وكانت تتركب من عدد صغير من الأعضاء هم سيدي عبد الحفيظ الفاسي رحمه الله كرئيس لها ومن والدي سيدي عبد الواحد الفاسي رحمه الله ككاتب عام لها وعمي سيدي المهدي الفاسي رحمه الله عضوا وسيدي السعيد الفاسي عم الزعيم علال الفاسي رحمه الله والسيد العباس الكردودي وكلهم أعضاء. هؤلاء الذين وقفت على أسمائهم وأكد لي أخبارهم عمي فضيلة القاضي المرحوم بكرم الله سيدي المهدي الفاسي.

وكانت هذه الجمعية تتبع الأحوال السياسية العالمية بواسطة الصحف المصرية التي تبعث لهم من طنجة حيث ربطوا علاقات ودية وكفاحية مع جماعة من السوريين واللبنانيين كانوا يقطنون المدينة المذكورة ومنهم من كان يصدر مجلات تعنى بشؤون المغرب كمجلة الصباح وكان رئيس تحريرها وديع كرم. وكان هؤلاء الشبان يكتبون فيها.

وكان من مبادئهم ومن شروط الانخراط في جمعيتهم التحلي بالأخلاق الحميدة والانصياع لمقررات هيئتهم وأخذوا على أنفسهم أن يتعلموا اللغة الفرنسية ليستطيعوا الاتصال بالأوساط السياسية الفرنسية المعارضة للمشاريع الاستعمارية على غرار ما كان يفعله الزعيم المصري مصطفى كامل رحمه الله وكانوا معجبين به ويتتبعون حركته ويطالعون ما يكتبه وكانت وسيلتهم في تعلم الفرنسية أن يذهبوا سرا وخفية عن عائلاتهم إلى الملاح حيث اتصلوا بمعلم للفرنسية وقد وجدت في الملف المذكور نسخة من كتاب النحو الفرنسي لدى سرمي Dussorchet وهو الكتاب الذي تعلمنا فيه بمدرسة زنقة الرطل بفاس في السنوات 17 إلى 20.

وفي هذه النسخة شروح بالعربية بين السطور مع ترجمة مفردات فرنسية بالعربية.

وقد كان أعضاء هذه الجمعية من المؤيدين للمولى عبد الحفيظ رحمه الله عندما قام بمراكش لإصلاح الأحوال المتردية وكان يسعى للحكم بطرق عصرية. فكان من أهم الأعمال التي قامت بها الجمعية في هذا السبيل أن فكروا في وضع دستور ينظم الحياة السياسية في البلاد ووضعوا بالفعل مشروعا لهذا الدستور وجدته في الملف المذكور بخط والدي رحمه الله[1]. ولهذا الاكتشاف قصة وهي أنني أيام دراستي بباريس لما رجعت مرة في العطلة الصيفية عمدت إلى الصندوق الذي قدمت الإشارة إليه ولم أكن فتحته من قبل لأنه كان موضوعا فوق مرفع عال فأنزلته وكان معي صديقي المرحوم الحاج أحمد بناني فأخذنا نبحث محتوياته فوقفنا على هذه الوثائق الثمينة ورتبت هذه المخطوطات والوثائق في خزانتي إلى أن يحين وقت استعمالها ونشرها وهذا الاكتشاف هو الذي أوحى إلي وأنا وزير الشؤون الثقافية أن أؤسس جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق التي اطلعنا بواسطتها ولا زلنا نطلع على كمية مهمة من المخطوطات والوثائق.

وأما الملف الذي وقفنا عليه فقد بقي محفوظا عندي إلى أن وقع يوما أن رآه عندي قبل الاستقلال الأستاذ السيد المهدي ابن بركة فاستلفه مني فمكنته منه ووقع أن قبض علينا وطال أسرنا ونسيت الأمر حتى أخبرني يوما الحاج أحمد بناني أنه جاءت عنده سيدة ذكرت له أنها من عائلة السيد المهدي ابن بركة المذكور وقد كان تغيب عن المغرب فقالت له أن قريبها ترك عندها أوراقا وخافت أن يحصل لها ضرر من من جراء ذلك

[1]) حبذا لو تفضل أستاذنا الكبير بنشر هذا النص الدستوري بالحروف المطبعية مع إرفاقه بصورة للنص الأصلي كاملا حتى تعم الفائدة



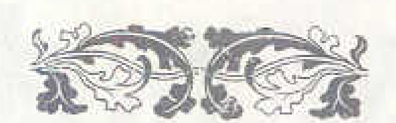
صورة لإحياء الذكرى الأولى لتأسيس مجلة «مغرب» يحيط بمحمد حسن الوزاني وهو يلقي خطابه، كل من علال الفاسي ومحمد اليزيدي ومحمد المكي الناصري... سلا، يوليوز 1933.

منظمو مؤتمر طلبة شمالي افريقيا.. وقد منعت سلطات الحماية عقد المؤتمر بفاس، فعقد بباريس، أخذت هذه الصورة عام 19[illegible]1
الجالسون من اليمين : محمد الفاسي، عبد القادر بن جلون، الحاج الحسن بوعياد، ابراهيم الكتاني، عبد القادر برادة ومحمد حسن الوزاني.

فطلبت منه أن يجعلها عنده إلى أن يردها لصاحبها إذا ما هو رجع يوما إلى المغرب. فلما اطلع عليها عرفها لأنه كان كما قدمت اكتشفها معي وكنت إذ ذاك منفيا بأغبالون كردوس كما كان الحاج أحمد بناني أيضا معنا في المنفى المذكور. ولكنه لم يخبرني بهذه القضية ولما أطلق سراحنا أخبرني بالأمر وأرجع لي الملف مع مشروع الدستور وكان قد اطلع الزعيم علال الفاسي على هذا المشروع فكتب عنه في كتابه «حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية» قال فيه في ص 7 : وقد وجدت عند صديقي ج أحمد بناني نتفة من هذه المذكرة كانت بيد سيدي عبد الواحد الفاسي والد سيدي محمد وزير الثقافة وقد كان سيدي عبد الواحد من بين الرفقاء الذين كانوا يعملون على إعلان الدستور بعد الثورة الحفيظية. «هذا كلام مهم لأن المؤلف لم يطلع على ملف الجمعية وإنما رأى مشروع الدستور وحيث كان اقتنى من عند وراق مشروع دستور مغربي كان اشتراه الوراق المزوري من تركة العلامة المرحوم سيدي عبد الحفيظ الفاسي رئيس الجمعية الوطنية التي وضعت المشروع اختلط عليه الأمر لأنه لم يطلع على الملف بأكمله لأنه وجد في ديباجة الوثيقة أن كاتبها ذكر أنه طرأ على المغرب وكان ذلك تمويها منهم لإعطائه صبغة متخصص عارف بقضايا الدستور في مصر وفي تركيا العثمانية ثم إنه قال إن الوثيقة التي اطلع عليها عند الأخ المرحوم الحاج أحمد بناني كانت بيد السيد عبد الواحد الذي كان الكاتب العام للجمعية المذكورة.

هذه قصة هذه الجمعية الوطنية الدستورية التي أنشر خبرها لأول مرة وهي تدل على أن الروح الوطنية الصادقة انبثقت منذ أحس شباب المغرب إذ ذاك بخطر الزحف الاستعماري الذي كان يهدد بلادنا وأخذوا يستعدون لمقاومته ولكن الأحداث دهمتهم وقد توفي والدي رحمه الله سنة 1911 قبل أن يفجع برؤية بلاده ترزح تحت نير الاستعمار وقد رفع مشعل تلك المقاومة أبناء أولئك الرواد ورفاقهم حتى تمكنوا من تحقيق النصر لمبادئهم بفضل تضحية ملكهم المفدى محرر المغرب محمد الخامس ووارث سره أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله وأيده.

الرباط ـ محمد الفاسي





للأستاذ قاسم الزهيري

تعود بي الذاكرة - ونحن نحتفل بعيد الشباب - إلى الأربعينات حين كان جلالة الحسن الثاني أمد الله في عمره صبيا يتلقى تعليمه بالمعهد المولوي هو وشقيقه الأمير مولاي عبد الله رحمه الله وجماعة من الصبيان اختارهم جلالة محمد الخامس رضوان الله عليه من أبناء الشعب، وكان يحرص بنفسه على تعليمهم وتربيتهم، حرصه على نشر التعليم وفتح المدارس والمعاهد لأبناء شعبه. كان يعتبر التعليم والتهذيب، ويردد ذلك في خطبه وتصريحاته، السبيل الأجدى لإنقاذ البلاد مما أصابها بيوالنهوض بها. فكان من آكد اهتماماته في الرحلات التي كان يقوم بها كل سنة ويختار جهة من جهات مملكته الأربع تدشين المدارس وإصلاح برامج التعليم وتجديد مناهج التربية الوطنية والدينية، وشرع في تقديم نجله الأبر سمو ولي العهد منذ نعومة أظفاره لمساعدته في التبشير بأفكاره الإصلاحية هذه تدريبا له على ممارسة المسؤوليات وتوجيها لسموه في طريق الخير والفضيلة.

كان محمد الخامس متألق الشباب متدفق الحيوية في الأربعينات حين نشبت الحرب العالمية الثانية وهزمت فرنسا في بدايتها، وإذا كانت ملامح عظمة الرجل قد بدت قبل ذلك، فإن الظروف لم تزدها إلا بروزا مع الأيام، حيث كان لهذه الحرب أثر بالغ في زيادة تعميق الوعي الوطني والتأهب لخوف المعارك حينما تتهيأ الفرصة، وكان للمبادئ التي أعلنها الحلفاء ولإعلان دستور الأطلسي سنة 1941 ثم لنشوء هيئة الأمم المتحدة واجتماع دورتها الأولى في سان فرانسيسكو كجزء من الحملة الادعائية ضد المحور، كان لكل ذلك صدى عميق في النفوس، فقوي الأمل في تحرير الشعوب من قبضة الدول الاستعمارية.

وكان هذا الأمل أقوى ما يكون في نفس محمد الخامس المؤتمن على سيادة بلاده، وكان رحمه الله كالأسد المتأهب للذود عن حماه ضد كل من تسول له نفسه استباحته.

قرر محمد الخامس خوض معركة الإصلاح الاجتماعي والتعلمي بصورة خاصة في ما شاهدناه ونستذكر بعضه بهذه المناسبة، وبما تجلت ملامحه بصورة أوضح مع تقادم العهد. نزل الساحة هو وأبناؤه وخاصة ولي عهده كمرحلة في درب الكفاح الطويل الشاق الذي خاضه في سبيل الحرية والكرامة.

حتى تتضح الرؤية ويفهم تسلسل الأحداث، أستسمح بالتذكير بأن جريدة «المغرب» لمؤسسها الصحافي اللامع صديقي سعيد حجي رحمه الله كانت في تلك الظروف

الجريدة اليومية العربية الوطنية الوحيدة التي كانت تصدر في داخل منطقتنا باستثناء الصحف التابعة لإدارة الحماية، إحداها بالعربية وأكثرها بالفرنسية، وكانت تغطي الأحداث الوطنية وفي طليعتها أنباء القصر الملكي، عملت فيها محررا منذ البداية، بعد اتفاق سابق أن أتسلم إدارتها في مدة أقصاها 1942 على أن يبقى لمؤسسها الاشراف وينصرف إلى مشاريع أخرى كان بصدد إعدادها منها مطبعة عصرية كبرى ودار للنشر والترجمة وإصدار كتب التراث الخ... لكن القدر لم يمهل سعيد حجي فلبى داعي ربه يوم 2 مارس 1942، وتوليت إدارة الجريدة من بعده مخاطبا روحه في الافتتاحية الأولى قائلا : «هذا مقال كنت أود أن تكتبه لتقدمني إلى قراء صحيفتك، وكان بودي أنا كذلك أن أحظى بهذا التقديم. لقد كان في عزمك أن تسلمني إدارة هذه الجريدة حينما كنت في أتم عافية، وكانت آمالك في الحياة لا تحد وطموحك لا تعرف توقفا، على أن تبقى مشرفا تدبر الأمور من أعلى ويتسنى أن تختط مشاريع جديدة تخدم بها مصلحة بلادك. لطالما دفعتني إلى ميدان العمل راجيا أن أصبح ساعدك الأيمن، ولكنها الاقدار تفعل ما تشاء، تمّ الاتفاق بيننا على أن يكون موعد تسليمي إدارة الجريدة يوم 15 مارس 1942 ولم يكن بالحسبان أن ظروفا أليمة ستجعلني أخلفك فأتقدم بنفسي إلى القراء، ولكن الله اختارك لجواره فلا مناص من قضاء الله»[1].

سبق أن أولى جلالة محمد الخامس رحمه الله عناية خاصة بإصلاح التعليم في جامعة القرويين في غضون سنة 1940 وما بعدها، وتبارى الأساتذة والطلبة في تقديم دراسات قيمة في الموضوع رددت «المغرب» صداها وأجرت حوارات بشأنها. ونجتزئ هنا بقصاصة من مقال قيم طويل كتبه المرحوم العلامة مفتي سلا إذ ذاك السيد أبو بكر زنيبر تحت عنوان «بأيهما أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟» : وهي كلمة قالها الرسول صلوات الله عليه، وذكر كاتب المقال في شأنها : «لقد تمثلت بهذه الجملة من كلامه ﷺ لما فاجأنا مولانا الإمام المنصور بالله بحادثين عظيمين في تاريخ المغرب الأقصى وهو ابتداؤه بإصلاح لكل من العدلية الشرعية وإدارة العلوم الدينية الإسلامية بمعهد القرويين في آن واحد، الشيء الذي لم يكن يخطر ببالنا انتهاز الفرصة فيه دفعة واحدة، ولكن هي الهمم قد تفل الحديد وتفتت الصخر وتصير المستحيل عادة مقدورا والمتعذر متيسرا. وما على مثل همم هؤلاء الملوك شيء بعزيز»[2].

كما نذكر بالتقرير الذي قدمه طلبة القرويين يشرحون فيه آراءهم في الإصلاح وتعليقنا عليه في افتتاحية[3] ثم الحوار الذي دار بيني وبين أخي الأستاذ إدريس الكتاني على أعمدة الجريدة في هذا الموضوع[4].

والشيء بالشيء يذكر ما دمنا نتحدث عن جامعة القرويين... فلتخط بعض الوقت لنذكر بالزيارة الرسمية التي قام بها جلالة محمد الخامس محفوفاً بنجله الكريم سمو ولي العهد في يونيو 1943 إلى فاس متعمدا زيارة الجامعة إبان الاختبارات، وقد ذهبت في ركابه لتغطية الحدث. فزار رحمه الله جامعة القرويين على حين غرة بينما كانت الامتحانات تجرى في مختلف أقسامها واطلع على المواضيع المقترحة وعلى سير الاختبارات، وقصد الخزانة وخاصة قسم المخطوطات، وقاعة المطالعة ومقر المجلس العلمي. وما كاد يتسامع الناس بمقدم جلالته حتى غصت جامعة القرويين بالجماهير مكبرة محيية. وفي اليوم التالي دشن محمد الخامس رحمه الله خزانة القرويين ومركز المجلس العلمي ومدرسة مولاي الحسن بينما ألقى سمو ولي العهد خطابا وسط الطلبة في هذه المدرسة التي أبدى الرجاء فيه : «أن تكون الحجرة الأولى في هيكل الإصلاح العظيم الذي يحاول به الجناب الشريف أسماه الله أن ينهض به حتى تدخل المملكة الشريفة في عهد إصلاح حقيقي يخرجها من الظلمات إلى النور، من الهوان إلى

1) جريدة «المغرب» عدد 979 تاريخ 1942/6/16.
2) جريدة «المغرب» عدد 346 تاريخ 1940/2/4.
3) جريدة «المغرب» عدد 715 و716.
4) جريدة «المغرب» عدد 738 و771 و775.



«صاحب السمو الملكي ولي العهد مولاي الحسن يروي من الشعر ويستمد من الأشعار ويستفيد من ذكريات الطفولة والمدرسة...».

العر، من الجهل العميق إلى العلم الحقيقي الذي يسمو بالأمم إلى أعلى مدارج الكمال»[5].

ولم يقتصر اهتمام محمد الخامس على التعليم الأصيل، بل شمل كذلك التعليم العصري، حيث زار في النصف الثاني من سنة 1941 مدرسة أبناء الأعيان رفقة سمو ولي العهد زيارة رسمية وأنصت في بعض أقسامها إلى إلقاء دروس في اللغة العربية ثم طلب من الفقيه المرحوم محمد أقصبي أن يمتحن بعض التلاميذ، وأنصت إلى ترتيل آيات من كتاب الله. ويعد ما استفسر عن الوقت المخصص للقرآن والعربية حث المعلمين والطلاب على الاستزادة من الاهتمام بالذكر الحكيم ولغة الضاد. وقام جلالته بزيارة مماثلة رفقة سمو ولي العهد إلى المدرسة المهنية حيث شهد فقيها يلقن التلاميذ أحكام الوضوء، وتجول في أقسام النجارة والحدادة وفتل القنب، وأخيرا اختتم جلالته بمعية ولي العهد برنامج الدراسات ليتفقد جمعية قدماء المدرسة الإدريسية، وقد سبق لجلالته أن قرر في رحلة السنة الماضية جعلها جمعية ذات مصلحة عامة مما سهل عليها جمع التبرعات للقيام بمنجزات اجتماعية، وبعد الاطلاع على ما قامت به هذه المؤسسة تبرع جلالته بصلة سنية تشجيعا لها.

والرحلة إلى فاس تذكرنا بالرحلة الملكية إلى مكناس في منتصف 1941 حيث تفقد مدارسها ثم إلى مراكش وناحيتها والتي رافقنا جلالته وسمو ولي العهد في غضونها وغطينا وقائعها بالكامل، كما كتبت افتتاحيات عن عاصمة الجنوب. فقد أفردت مراكش لجلالته اقتبالا حارا وأدى فريضة الجمعة في مسجد الكتبيين وزار كتاتيب المدينة رفقة سمو ولي العهد ثم جامعة ابن يوسف حيث ألقى سموه خطابا في الطلبة أوضح فيه عناية جلالة والده بالتعليم وما يبذله من جهود ورعاية للمستقبل الثقافي للمغرب، كما أعلن أنه غادر المدرسة المولوية ليجتمع بزملائه الطلبة المراكشيين ثم حث الطلبة ليكونوا عند حسن ظن الملك بهم فينتفع بهم وطنهم المفدى، وزار العاهل الكريم محفوفاً بسمو ولي العهد وسمو الأمير مولاي عبد الله تملالت حيث تفقد معهدها العلمي[6].

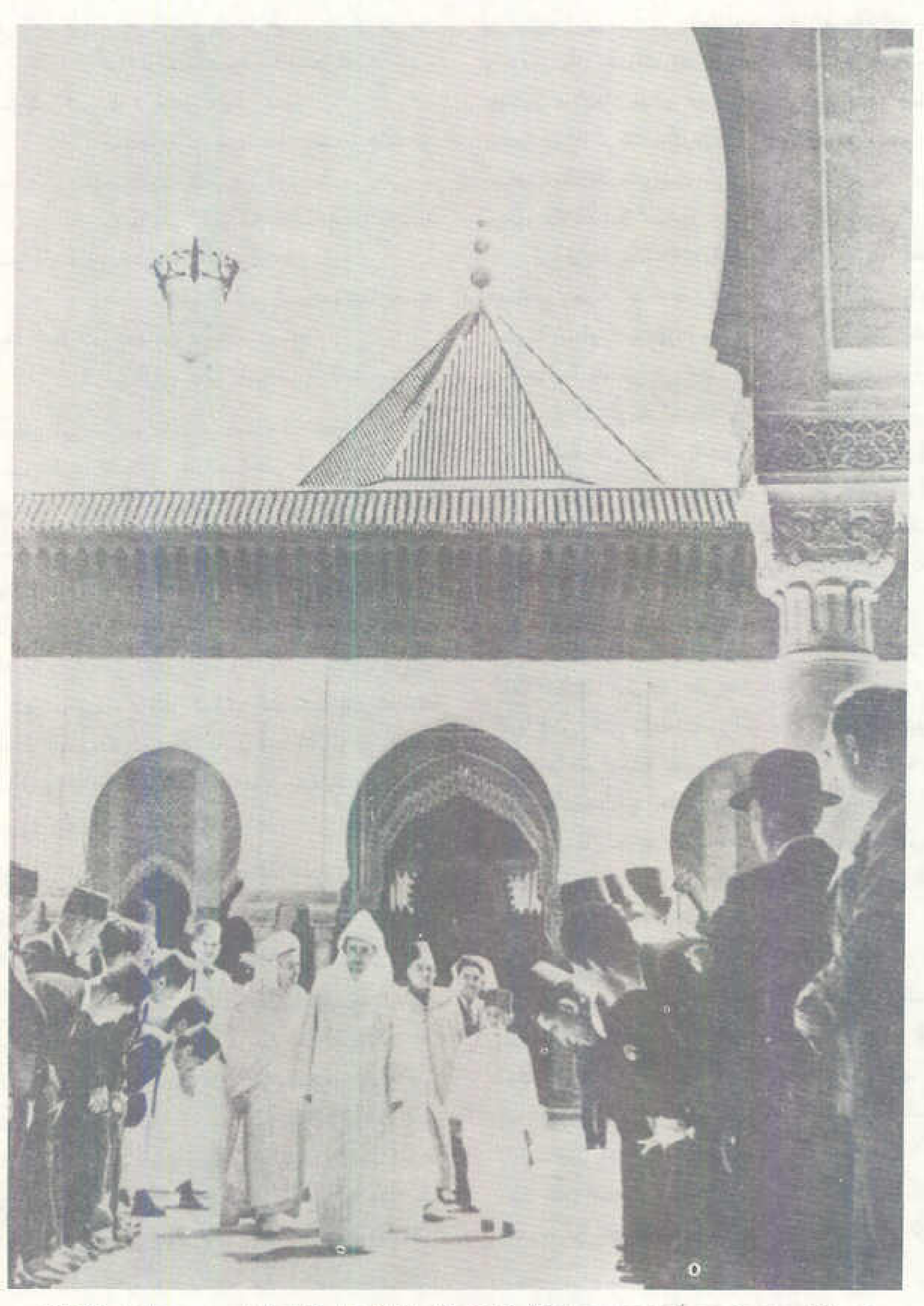
وفي ربيع سنة 1943 قام صاحب السمو الملكي-ولي العهد بزيارة لنادي سلا الأدبي تلبية لمجلس إدارته النشيط وتقديرا للأعمال الثقافية التي كان يؤديها منذ عدة سنوات، وجاءت هذه الزيارة بمناسبة عيد الشباب الذي كان يصادف آنذاك فصل الربيع من كل سنة، فكان يوما مشهودا احتفلت به مدينة أبي رقراق عن بكرة أبيها، وبهذه المناسبة قيلت قصائد وكلمات تشع عاطفة وإخلاصا للعرش رمز السيادة. وفيما يلي[7] ندرج القصيدة التي قالها بالمناسبة الأستاذ محمد الناصري نجل المؤرخ الشهير أحمد بن خالد الناصري صاحب الاستقصا :

عش للشباب فداك الروح والجسد
يا عاهلا بك هذا النشء قد سعدوا
علتهم بسمة الإخلاص وانشرحت
صدورهم ثم أمست صدورهم غرد
لما أتيت إليهم معلنا لهم
عواطفا شع منها النصح والرشد
تبغي اتصالا بهم حتى تقودهم
إلى النهوض بعزم ماله نقد
تحنو عليهم وتأبى أن يظلوا بلا
مشجع يتولى شكر ما قصدوا
شرفتهم فانبروا يبدون ما كمنوا
والحب نحمد أحيانا ويتقد
قالوا : وقد عجبوا يرمى إلى غاية
يرمي إليها أبوه ذلك الولد
فقلت لا تعجبوا يا قوم فاعترضوا
فقلت شبل أبوه ذلك الأسد
أبوك يبني صروح المجد في لهف
وأنت تعلي وهذا الشعب يعتمد

5) جريدة «المغرب» عدد 1267 و1268 و1281.

6) جريدة «المغرب» عدد 947 و950 و951 و952 و956 و960 و961.

7) جريدة «المغرب» عدد 1202 بتاريخ 1949/4/1.



محمد الخامس الذي كان «واعياً بأنه يمثل استمرارية تاريخية عريقة حاول الاستعمار تجاهلها» يزور مسجد باريز سنة 1939 رفقة ولي العهد مولاي الحسن

رمـز الشبـــاب وفخر النشء يـــا حسن
أنــا نريـد نهـوضــا مـــا لـــه أمـــد
آمــالنـــا فيـــك لا تحمي وليس لهـــا
حـــد وليس يعيهـــا كلهـــا خلـــد
(نـادي) الشبـاب غـدا يهتـز من طرب
تيهـــا بمـــا نـالـــه منكم ومـــا يجـــد
قومـوا واهتفـوا ليعش فخر الملـوك ومن
حـاز الخصـال التي لم يحـوهـا أحـد
كـــذا سمـو ولي العهـد قـــائـدنـــا
إلى الرقي بفكر زانـــــه الســـــدد

في شهر يونيو من نفس السنة قام جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه رفقة صاحب السمو الملكي ولي العهد برحلة رسمية إلى مكناس ثم فاس ثم وجدة وتاوريرت وكرسيف وتازة، وأسعفني الحظ بمرافقة جلالته فرأيت القلوب تفيض إحساسا والصدور تنبض حبا والشعب، بشيبه وشبابه، بشيوخه وأطفاله، بنسائه ورجاله، ملتفا حول ملكه وذلك ما صورته في مقال افتتاحي[8] ذكرت فيه أن عروقنا «إذ تنبض بالوفاء لشخص الملك إنما تنبض في الحقيقة لوحدتنا المقدسة فتعبر أبلغ تعبير عما تختلج في ضمائرنا من وفاء وإخلاص لبلادنا وتطلع جدير بماضينا. لذا يجب أن نكون واثقين من مستقبلنا وثقتنا بالله».

وفي كل مكان كان يقف جلالة محمد الخامس وسمو ولي العهد على المعاهد والمدارس، وفي خطاب سموه في مدرسة أبناء الأعيان بالعاصمة الاسماعيلية قال :

«أبت علي أواصر الأخوة الدينية وعهود المحبة الواجب اتصالها بيننا أن الازم الدروس المتكاثرة عند دنو الامتحان السنوي، بل تغلبت على كل واجب وجئت لزيارة تلامذة العاصمة الاسماعيلية لأحييهم ولو اختلاسا وأحمل إليهم شذا النصائح التي أرجو أن تحيي قلوبهم وتنير أفكارهم حتى تعود بالخير العميم على الدين والأمة والوطن بما يزهر نورها ويخصب بحول الله بذورها». وزاد سموه قائلا :

«ان سلفنا المقدس كان بالعلم مجليا في ميدان الحضارة والعرفان وأن علماءنا يضرب بهم المثل في علوم اللسان والأديان والأبدان فهدوا لطرق التقدم، فهل يجمل بنا أن نفتخر بهم إذا لم نقتف أثرهم في الجد والاجتهاد وتحصيل أسباب سعادة العباد وتيسير وسائل الرقي بالبلاد ؟ ذلك ما يرجوه منكم سيدنا المنصور وينتظر من هممكم».

في نهاية سنة 1943 الدراسية أقام جلالة، محمد الخامس رحمه الله حفلة توزيع الجوائز على تلاميذ المدرسة المولوية، وانتهزها مناسبة للاحتفال بجميع الطلبة والتلاميذ الناجحين في اختبارات التخريج من القرويين والمدارس الثانوية العربية والفرنسية حيث دعاهم إلى رحاب القصر من مختلف مدن المملكة وقراها وضم إليهم أعضاء جمعيات قدماء التلاميذ كما دعا العلماء وكبار الشخصيات ورجال المخزن (الحكومة) والسلطة، فكانت تظاهرة لم يسبق لها نظير في ضرورة العناية بتعليم الناشئة اثبتنا وقائعها[9]، وكان جلالته محفوفا بنجليه الكريمين وبسمو الأميرة عائشة وقبل توزيع الجوائز ألقى سمو ولي العهد خطابا ركز فيه على مزايا تحصيل اللغات، : «مع كثرة الفنون التي نتلقاها في اللغات الثلاث التي نتعلمها في آن واحد أمكننا بفضل جهود معلمينا المتواصلة أن نتبين القصد الذي نحاول إدراكه، بذلنا كل جهودنا لنميز خصائص كل لغة من اللغات الثلاث : العربية والفرنسية واللاتينية... والأمل أن نزيد عليها لغة رابعة في السنة الآتية، وهي اللغة الانجليزية... وكلما أمكننا أن نتقدم في تعلمها، يسهل أن نشرف عليها عن كثب... وستكون هذه النتيجة أحسن ما يفتخر به المعهد السلطاني إذا أمكنه أن يشارك في إنشاء برامج التعليم العمومي بتجريب الطرق المختلفة واستعمال أحسنها في كل المدارس المغربية التي يلقن فيها التعليم المزدوج». ثم وجه سموه الخطاب لأساتذته قائلا : «إن آيات الشكران التي تكنها أفئدتنا لكم، لا تزال تقوى كلما نمت أجسامنا، فعقولنا تدرك بنموها كل ما تبذلونه من الجهود لتتعهدوا ثقافتنا وتخرجوا منا تلامذة

8) جريدة «المغرب» عدد 1283 بتاريخ 1943/7/3.

9) جريدة «المغرب» عدد 1287 بتاريخ 1943/7/13.

جلالة المغفور له محمد الخامس في زيارة لتفيلالت رفقة الأمير مولاي الحسن عام 26 يونيو 1948.



... ويوليها أيضاً لأسرته الكبيرة.

أكفاء يمكنهم أن يكونوا رجال غد وعمل ينتفعون وينفعون».

وبعد أيام قليلة شخص سمو ولي العهد بنفسه إلى مدرسة محمد جسوس في موكب رسمي ليترأس حفلة توزيع الجوائز بجانب مديرها الأستاذ الحاج أحمد بلافريج شافاه الله، والجدير بالذكر أن هذه المدرسة التي أنشئت سنة 1935 كانت من المدارس الرائدة النموذجية التي أخرجت خلال ثلاث وخمسين سنة أفواجا من الطلاب الذي كان لهم دور في شتى مجالات الحياة العمومية والأعمال الخاصة، وما يزال عطاؤها سخيا، وقد سبق أن قمت بتحقيق عن مساهمتها في إعداد رجال الغد مع مؤسسها[10].

لم يفتأ جلالة محمد الخامس وسمو ولي عهده يؤسسان معاهد التعليم في شتى ربوع المملكة، بكد ومثابرة، من ذلك تدشين جلالته لمدرسة العالم سيدي محمد بن عبد الله العلوي في الدار البيضاء وتدشين مدرسة الأمير مولاي عبد الله بنفس المدينة ومدرسة الأمير مولاي الحسن بفاس وفتح مدرسة قرآنية على أحدث طراز في العاصمة العلمية. وقد روت «المغرب» تفاصيل هذه الأحداث المتتابعة، وتجدر الإشارة بالمناسبة إلى بعض الفقرات الواردة في خطاب سمو ولي العهد بمناسبة تدشين مدرسة الأمير مولاي عبد الله لما تبينه من أهداف العاهل الكريم من وراء منجزاته التعليمية. قال سموه :[11]

«جعل - نصره الله - مهمة نشر العلم وتكثير سواد المتعلمين بايالته من آكد الواجبات وأجل المهمات. فهو أعزه الله يصرف أكثر أوقاته في الاهتمام بشؤون التعليم، وذلك بتأسيس المدارس الجديدة وتوسيع نطاق المدارس الموجودة القديمة والسعي وراء إصلاح برامج التعليم بالمعاهد العتيقة والحديثة، وأن عنايته لا تخص نوعاً من المدارس دون نوع، فكما يهتم بالمدارس الحديثة التي تهيئ شباب المغرب لتعاطي الدراسات العليا بكليات الآداب والعلوم والطب وغيرها، إذ المغرب في حاجة إلى الأطباء والمهندسين والأساتذة، فهو في حاجة كذلك إلى الفقهاء والأدباء، لكن يجب أن ترتكز كل الدراسات كيفما كان أمرها على أساس اللغة العربية إذ بالمحافظة عليها نحافظ على كل مقوماتنا ومميزاتنا الخاصة، فلذلك كان اهتمام مولانا المنصور بالله بالمعاهد التي تحافظ على الثقافة الإسلامية كبيرا، وعلى رأس هذه المعاهد جامعة القرويين التي أخذ سيدنا على عاتقه أمر إصلاحها وتسهيل الإقبال عليها... وأيضا جامعة ابن يوسف التي لا يقل اعتناء سيدنا بها عن اعتنائه بالجامعة القروية».

وقد توج جلالة الملك المنعم محمد الخامس حملته التعليمية بدعوة حارة في حفلات عيد الفطر عام 1362 التي أقامها بالقصر الملكي لتعليم الفتاة المغربية مما أشرت إليه في افتتاحية تحت عنوان «عيد العلم»[12] ومما جاء في هذا المقال : «اكتسى عيد الفطر صبغة خاصة استحق معها أن نسميه العيد العلم، فلم تقتصر أيامه على إقامة الأفراح التقليدية... بل لأول مرة شاهدنا عيدا ينصرف انصرافا جديا ويكون هذا الانصراف نحو العلم بصفة عامة ونحو تعليم الفتاة المغربية بصفة خاصة، حيث نصب جلالة الملك نفسه داعية بين المهنئين من رعاياه المخلصين وحمل راية العلم بين أقوامه مناضلا عنها منافحا عن حوزتها بلسانه وسديد رأيه... فراح يقنع الوفود من أنحاء مملكته بتعليم الفتيات وتهذيبهن بحيث يصبحن خير رفيقات لبعولتهن وخير مربيات لأطفالهن وأحسن خادمات لوطنهن».

☆ ☆ ☆

خمس وأربعون سنة مرت على هذه الدعوة... وعلى هذه المنجزات التي سجلت من بين أعمال محمد الخامس رحمه الله، وساهم فيها وارث سره وهو في ميعة الشباب جلالة الحسن الثاني أطال الله بقاءه، لئن كان أصبح من المألوف اليوم فتح مآت المدارس العمومية والخاصة

10) جريدة «المغرب» عدد 1356 بتاريخ 1943/10/20.

11) جريدة «المغرب» عدد 1322 بتاريخ 1943/8/31.

12) جريدة «المغرب» عدد 1349 بتاريخ 1943/10/12.



جلالة محمد بن يوسف بمسجد انتسيرابي يحدث المؤمنين ويشرح لهم الآيات البينات من الذكر الحكيم.

والمعاهد التخصصية في كل سنة، فالحال غير ما كانت عليه في عهد الحماية مما يعزب عن علم الجيل الذي رأى النور في عهد الاستقلال فلقد كان الإدارة الاستعمارية قبل نصف قرن تنهج سياسة التجهيل مستهدفة استبعاد المغاربة عن سبيل المعرفة والتكوين لدرجة أن أحد مديري التعليم إذ ذاك أعلن صراحة : «ينبغي إلا يغيب عن اذهاننا أننا إنما نستهدف تكوين أعوان لإدارة إسلامية بحته، ولا نريد مطلقا تكوين الأهالي للوظائف التي تناسب الفرنسيين.

لقد كان المغرب في تلك الظروف في أمس الحاجة إلى من يحبط هذا المخطط... مثلما كان في أشد الحاجة إلى من يفشل المخططات الاستعمارية الأخرى... مستهينا بالقوة الغاشمة، مضحيا بكل شيء، مؤمنا بقدر الله، موقنا بمطامح هذا الشعب، متجاوبا معها... فكان ما كان مما وعته ذاكرة التاريخ.

الرباط : قاسم الزهيري

أقاليم شابة في مغرب الشباب

إقليم الصخيرات تمارة مهد تاريخي أصيل...

للدكتور عبّاس الجراري

أضواء على صفحات ناصعة من تاريخ هذا الإقليم الذي يشهد انطلاقة جديدة في عهد رائد النهضة وقائد المسيرة ورمز الوحدة جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره.

تعتبر ولاية الرباط عامة ـ ولا سيما المنطقة الواقعة منها بين نهر أبي رقراق ووادي الشراط[1] غنية في مضمار التاريخ، سواء ما كان من هذا التاريخ متصلا بالمعالم والمواقع، أو مرتبطا بالأحداث والوقائع.

ففي الشمال الغربي للمدينة تنهض شالة الأثرية[2] معزوة عند الدارسين إلى الفينقيين أو الرومان، وربما إلى البربر قبل هؤلاء وأولئك، مع كل الحضارة التي قامت على امتداد العصور حولها وحول جارتها سلا، مشعة على ضفاف النهر، إذا اكتشفت منذ العقد الثاني من هذا القرن بقايا آثار ترجع إلى ما قبل التاريخ، سواء في هضبة شالة أو في حي الطيارات وغابة أكدال داخل الرباط[3].

ومثلها قصبة الوداية التي قد يكون الرومان أسسوها[4] لتكون حصنا للدفاع عن شالة، قرونا طويلة قبل أن يتخذ منها اللمتونيون رباطا للجيوش ومنطلقا لحركات الجهاد، مما شجع الموحدين على توسيعها واتخاذها دار إقامة، بدءا من عبد المومن الذي سماها المهدية، تيمنا بلقب المهدي بن تومرت، ثم ابنه يوسف الذي ينسب إليه تخطيط الرباط، إلى يعقوب المنصور الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المدينة التي سماها رباط الفتح، بعد أن جعل لها الأسوار والأبواب وبنى مسجدها الشامخ بصومعته وأعمدته منسوبا إلى حسان.

وفي الجنوب الغربي للرباط، وعلى امتداد الشاطئ،

1) مما يعد الجزء الشمالي لما كان يعرف ببسيط تامسنا المتد ما بين نهري أم الربيع وأبي رقراق.

2) انظر : أ ـ شالة وآثارها لمحمد بوجندار (ط الرباط ـ 1340).
ب ـ حفائر شالة الإسلامية للدكتور عثمان عثمان اسماعيل (ط دار الثقافة ـ بيروت).

ج ـ H. Basset et L. Provençal : Chella une nécropole mérinide - Paris 1923.

3) انظر : Jacques Caillé : La ville de Robot jusqu'au protectorot p 31-32 - ed d'ort et d'histoire - Paris 1945

4) راجع : مقدمة الفتح إلى تاريخ رباط الفتح لمحمد بوجندار ـ ص 39 ـ (الرباط ـ مطبعة الجريدة الرسمية 1345 هـ).

ولا سيما في اتجاه إقليم الصخيرات تمارة، كشف النقاب عن مآثر عديدة ذات قيمة جلى، ليس بالنسبة لتاريخ المنطقة فحسب، ولكن بالنسبة لتاريخ المغرب كله، إن لم أقل إن أهميتها تنعكس على الشمال الإفريقي والقارة برمتها، وربما على المسيرة البشرية جمعاء.

فقد عثر في محجر الكَبيبات عام 1933 على أجزاء جمجمة إنسان هو المعروف في البحث الأثري بـ : «إنسان الرباط»[5]. وعلى الرغم من أن هذه الأجزاء لم تكن تتعدى الفك الأسفل وطرفا من سقف الحلق ومجموعة من الأسنان، فإنه يبدو أن الجمجمة لشاب ذكر، وأنها تمثل أقدم إنسان عرفه المغرب والشمال الإفريقي عامة.

هذا في الوقت الذي كشفت فيه التنقيبات عن وجود أجزاء مماثلة لهذا الإنسان في منطقة العالية بإقليم طنجة، وكذا في سيدي عبد الرحمن بناحية الدار البيضاء، وأثبتت دراستها تشابها كبيرا بينها وبين بقايا إنسان الرباط، مما يؤكد وجود حياة بشرية في المغرب على هذه العهود الضاربة في عمق التاريخ، مرتبطة بالبيئة التي هي لاشك متميزة، وكانت متميزة حتى في القديم بطبيعة معينة.

وقد أفضى البحث الأثري إلى أن هذه البقايا جميعا تؤكد أن الإنسان الإفريقي ينتمي إلى المرحلة السابقة على الإنسان النياندرطالي Neandertal الذي عثر على جمجمته في ألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر، والذي قيل إنه ينتسب للعهد الپاليوليتي Paléolithique الضارب في مئات الآلاف من السنين، والمتسم بصناعة الحجر المنقوش.

ومن ثم وصف الإنسان الإفريقي ـ من خلال آثار الرباط خاصة ـ أنه پرينياندرطالي Prénéandertalien، أي سابق على النياندرطالي، مما يستنتج منه وجود الإنسان والحياة في هذا الجزء من القارة الإفريقية قبل وجودها في أوروبا.

ثم إن مغارة «دار السلطان»[6] الواقعة على بعد نحو ستة كيلومترات من وسط الرباط في اتجاه الطريق الشاطئ المؤدي إلى تمارة، تنهض دليلا على وجود الحياة في فترة ما قبل التاريخ وما إليها من أزمنة بدائية، بما عثر عليه فيها من أدوات ترجع إلى العهد الپاليوليتي المشار إليه قبل سطور، وكذا إلى العهد الميزوليتي Mésolithique بعده، ويبدأ نحو الألف الثانية عشرة قبل الميلاد، متميزاً بدفء المناخ، واتخاذ مساكن كوخية بالقرب من مناطق الماء ثم إلى العهد النيوليتي Néolithique الممتد من الألف الخامسة إلى سنة خمسمائة وألفين قبل الميلاد، ويتميز بالحياة الأليفة المعتمدة على الزراعة وإقامة المدن على ضفاف الأنهار وشواطئ البحار.

وفي «الدشيرة» التي تبعد عن الرباط بسبعة عشر كيلومترا في اتجاه الجنوب، والتي تقع في عمق إقليم تمارة بين عين عتيق وعين غبولة، كشفت التنقيبات التي أجريت بدءا من سنة 1930 عن مجموعة من الأدوات المنتمية إلى ما قبل التاريخ[7]؛ كما دلت النقود التي وجدت فيها ـ وترجع إلى القرن الميلادي الثاني[8] على المكانة التي كانت لها باعتبارها حصنا أو قصرا ملكيا لاشك.

وقد ذهب بعض الباحثين[9] إلى أن أطلال الدشيرة تثبت وجود قصبة موحدية تشكلها بقايا أسوار وأبراج وأبواب ومرافق لا تبتعد عما شيده الموحدون من مؤسسات، وخاصة عبد المومن، لا سيما ومادة البناء تزيد في هذا

---

5) انظر : a – Jean Marçois : Découvertes de restes humains fossiles dans le gré quartenaire de Rabat, dans (L'Onthropologie) T XLVI 1934

b – L. Balont : Préhistoire de l'Afrique du nord – Paris 1955

c – Georges de cointre : le gisement de l'homme de Rabat, dans (Bultin d'orchéologie marocaine) T III 1958-1959

d – H.V. Valois : L'homme de Rabat, dans le même numéro du bultin cité

المغرب الكبير ج 1 : العصور القديمة ص 58 تأليف د. رشيد الناضوري (ط الدار القومية للطباعة والنشر) القاهرة 1966.

6) انظر : A. Ruhlman : La grotte préhistorique de Dor es-soltan, ed. lorose – Paris 1951

7) راجع : Armand. Ruhluran : objets préhistoriques de D chira (communications) dans : Haspéris 1932 T XVII

8) انظر : Jérôme Corcopino : de Maroc Ontique, p 42, ed Gollimard 1944 (14 ° ed).

9) هو : R. Thouvenot في دراسة (une forteresse Almohade prés de Rabat : Dchira) dans : Hespéris 1933 T XVII

الإثبات، وكذلك وجود بعض الحلي والأواني الفخارية، وكذا معالم يظن أنها بقايا مسجد.

ونعتقد أن وجود بعض آثار ما قبل التاريخ في الدشيرة لا ينفي إقامة حصن موحدي في نفس المكان، للأهمية القصوى التي كانت له وللمنطقة كلها على امتداد العصور. وهي حقيقة تحث على التخمين بأن هذه المنطقة شهدت في العهود الإسلامية إقامة مراكز غالبا ما كانت تتخذ للدفاع والتحصين؛ على حد ما تثبت آثار القلعة[10] القريبة من وادي يكم على بعد ثلاثة وعشرين كيلو مترا من مدينة الرباط، قريبا من دوار الصوير، في الجهة اليسرى من تمارة بالنسبة للذاهب إلى الدار البيضاء، سواء على الطريق الداخلي لتمارة أو على خط السكة الحديدية.

ويبدو أن هذه القلعة كانت على شكل مربع صغير لا يتجاوز ضلعه ثلاثة وسبعين مترا، وإن لم يبق منها إلا أطلال تنم عن باب وأسس جدران وكتل بنائية مشتتة، لعلها لدار صغيرة، مع بقايا بعض الأواني الفخارية.

ويرجح أن يكون تأسيسها سابقا على العصر الموحدي بنحو قرنين أو ثلاثة، وأن تكون اتخذت لحماية شالة وقصبة الوداية والجانب الآخر من ضفة أبي رقراق.

☆ ☆ ☆

وإن هذه الآثار المتناثرة في مختلف مناطق الإقليم لتزيد في تأكيد ما أثبته التاريخ من أهمية لهذه المناطق التي كانت تعتبر في عهد الموحدين مركز تجميع الجيوش واستعراضها، على حد ما حدث إثر عودة عبد المومن من الأندلس حيث كان نزوله بجبل الفتح في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وهو في طريقه إلى مراكش، إذ نزل مدينة سلا «وعبر النهر وضربت له خيمة على الشاطئ وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة. فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم خر ساجداً ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحيته»[11]. وكذلك فعل عام ثمانية وخمسين وخمسمائة، حين خرج «من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد، وكان خروجه يوم الخميس الخامس من ربيع الأول من السنة المذكورة (21 يبراير 1163) فوصل إلى رباط الفتح فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وجميع القبائل يستنفرهم إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير، فاجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة من قبائل المغرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس، ومن جيوش المطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل، فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة إلى عين خميس، واستدارت راجعة إلى حلق المعمورة»[12].

لذا، لم يكن غريبا أن تشتهر في إقليم الصخيرات تمارة مواقع بعينها كانت تعتبر محطات نزول وإقامة، ومراكز انطلاق وتحرك للملوك والأمراء في أسفارهم وحركاتهم وغيرها، مما كان يستدعي التوقف للاستراحة أو للاستعداد والاستنفار والتعبئة.

وتعتبر «عين غبولة» في طليعة هذه المواقع، لأسباب كثيرة سنؤجل الحديث عن بعضها إلى ما بعد، مقتصرين في هذا السياق على ما فعله يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق المريني الذي كان واليا على سلا من قبل عمه الأمير أبي بكر ابن عبد الحق حين بويع عمه يعقوب بن عبد الحق، فقد «أسفته بعض الأحوال منه فنذهب مغاضبا حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الأمر، فتمت له الحيلة وملك سلا... وجاهر بالخلع وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم»[13].

ومن أبرز تلك المواقع «واديـاشراط ويكم» «وعين

10) راجع: Thouvenot : une forteresse musulmane sur l'Oued Y quem, dans (Hespéris) T XV 1932.

11) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص 226 ت محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي - مطبعة الاستقامة - القاهرة 1368 - 1949.

12) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لعلي بن أبي زرع ص 202 (ط دار المنصور - الرباط 1973). وانظر نفس الكلام في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري ج 2 ص 143 - 144 (ط دار الكتاب - الدار البيضاء 1954).

13) الاستقصا ج 3 ص 21.

عتيق» التي سنعود إليها في موضع آخر. فقد ذكر المؤرخ محمد بن عبد السلام الضعيف متحدثا عن بعض حركات السلطان المولى سليمان سنة إحدى عشرة ومائتين وألف، أنه «خرج... من رباط الفتح... ودخل للدار البيضاء وأقام بها يوما. وفي يوم الثلاثاء 3 شعبان خرج من الدار البيضاء... وبات يوم الجمعة بشراط، وفي الغد وهو يوم السبت 7 شعبان دخل رباط الفتح»[14].

وذكر كذلك أنه «كان خروج السلطان مولاي سليمان من الرباط للشاوية والدار البيضاء، وذلك يوم الاثنين 17 قعدة عام 1211 عند الظهر وبات بوادي يكم. وفي يوم الخميس 20 قعدة نزل على الدار البيضاء»[15].

وعنده أنه «في يوم الخميس 27 قعدة رجع السلطان للدار البيضاء... وفي الغد وهو يوم الجمعة ارتحل السلطان وبات بفضالة. وفي يوم السبت بات بعين عتيق وأقام بها يوم الأحد. وفي يوم الاثنين 2 حجة عام 1211 دخل السلطان لرباط الفتح»[16].

وقبل هذا التاريخ، «وفي يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من السنة السادسة بعد المائتين وألف خرج مولانا اليزيد... من رباط الفتح لمراكش... ونزل بعين عتيق، وفي الغد بات بالشركوك...»[17].

ومن مراكز هذا الإقليم المرتبطة بأحداث تاريخية كبرى «خندق الريحان» الواقع قرب وادي شراط. ففيه التقى عبد الملك السعدي وابن أخيه المتوكل؛ ذلكم «أن السلطان أبا مروان نهض من فاس في جنده... وتقدم إلى البلاد المراكشية... ولما سمع ابن أخيه بخروجه إليه وقصده إياه تهيأ لملاقاته وسار إلى منازلته، فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط... فكانت الهزيمة... على المتوكل وفر... وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ. فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه إلى مراكش، فرعنها إلى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن أخيه وأخذ له البيعة على أهلها، ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين وتسعمائة»[18].

وفي نفس الموقع والتاريخ توفي «علي بن مسعود بن شقرة قائد قواد أبي محمد عبد الله أمير المومنين ابن أمير المومنين ابن أمير المومنين الشريف الحسني»[19].

وفي إقليم الصخيرات تمارة كانت - كما هو معروف في التاريخ - وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب عام أربعة ومائتين وألف «بين وادي شراط ووادي يكم في «عين الحمارة» رحمه الله، وحملوه لداره في القبة التي دفن بها ليلة الاثنين»[20]. وقيل في ذلك إنه خرج من مراكش متوجها إلى الرباط وقد اشتد به المرض «فلما وصل عين الحمارة بين وادي يكم وبين وادي شراط قطع الكلام فأسرع به... إلى أن نزل بعين عتيق وفيها خرجت روحه»[21].

ولعل هذه الأهمية التي كانت للإقليم في التاريخ، سواء بالنسبة للمغرب عامة أو بالنسبة لمدينة الرباط خاصة، هي التي جعلت المولى عبد الرحمن بن هشام يعنى به غاية العناية، إذ «بنى بأعمالها[22] لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين إحداهما الصخيرات والأخرى قصبة أبي زنيقة فأمن الناس بهما وارتفقوا بالتردد إليهما»[23]. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله من قبل قد شيد

14) تاريخ الضعيف ص 280 ت احمد العماري (نشر دار المأثورات ط الأولى 1406 - 1986).
15) نفس المصدر ص 287.
16) نفسه ص 289.
17) نفسه ص 232. وانظر بعض حالات توقف الملوك ورجال الدولة والمسافرين عامة بعين عتيق ووادي شراط ويكم - وعين الحمارة بينهما - باعتبارها كلها محطات للإقامة والتجمع، في نفس المصدر ص 254 - 264 - 315 - 316 - 331 - 336 - 351 - 363 - 382.
18) الاستقصا ج 5 ص 65 - 66.
19) درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن القاضي ج 3 ص 256 ت محمد الأحمدي أبو النور نشر المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة 1974. وانظر كذلك : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام لعباس بن ابراهيم ج 9 ص 187 ت ذ عبد الوهاب بنمنصور (المطبعة الملكية - الرباط 1400 - 1980).
20) تاريخ الضعيف ص 200.
21) نفسه.
22) أي أعمال الرباط.
23) الاستقصا ج 9 ص 79. وانظر كذلك : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لعبد الرحمن بن زيدان ج 5 ص 237 (ط الأولى - الرباط 1349 - 1931).

«المنصورية ومسجدها»[24] على ضفة نهر النفيفيخ قريبا من الإقليم، يهدف تعزيز المنطقة الشاطئية الممتدة من الرباط إلى الدار البيضاء.

ومن ثم كان لملوك الدولة العلوية الشريفة اهتمام كبير بهذا الإقليم وبقصباته، وعناية بالقائمين عليها والمقيمين فيها، على حد ما يثبت عدد من الظهائر التي كان المولى عبد العزيز أرسلها إلى أمناء مرسى الدار البيضاء حول تأخر وصول المؤونة إلى قصبة الصخيرات.

من هذه الظهائر[25] ما ورد فيه قوله : «خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد فقد أخبر القايد إدريس الأودي أن المئونة مقطوعة عن إدالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات من وقوع الحادثة هناكم، وعليه فنأمركم أن تبينوا ما توفر لهم من المئونة في المدة التي لم يتوصلوا بها وتكونوا تؤدونها لهم على العادة، والسلام في 5 قعدة عام 1325».

ومنها كذلك ما جاء فيه : «خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد فقد أخبرنا القايد قاسم الأودي أن ادالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون للأمناء قبلكم من قبل مئونتهم واجب أربعة أشهر كما يسألون لكم واجب ستة أشهر دفعتم لهم منها واجب شهر واحد. وعليه فنأمركم أن تدفعوا لهم ما يسألونه لكم وللأمناء قبلكم من قبل ذلك، والسلام في 22 حجة الحرام عام 1325».

ومثلهما الظهير الذي يقول : «خدامنا الأرضين أمناء مرسى الدار البيضاء المحروسة بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد فقد أخبر القايد ادريس ابن العربي الأودي أن ادالة إخوانه الذين بقصبة الصخيرات يسألون من قبل مؤنتهم المنفذة لهم بالمرسى هناكم واجب عشرة شهور، وقد لحقهم الضرر من ذلك، وعليه فنأمركم أن تبينوا الواقع في ذلك وفي ذمة من توفرت لهم هذه المدة وقدر ما توفر لهم فيها والسبب في عدم تمكينهم منها لنرى في ذلك، والسلام في 23 جمادى الأولى عام 1326».

☆ ☆ ☆

ومن بين جميع مواقع الإقليم تنفرد «عين غبولة» و«عين عتيق» بميزة خاصة، لأنهما كانتا مصدر الماء الواصل إلى قصبة الودايا والرباط عامة، وكذا مدينة سلا.

ويبدو أن جر الماء إلى القصبة كان مرتبطا بها منذ التأسيس، ففي عام خمسة وأربعين وخمسمائة أمر عبد المومن «ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا وأقام بمحلاته المؤدية على عين غبولة، والفعلة معه والمهندسون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سرب تحت الأرض حتى إلى قصبة المهدية المذكورة. ودام اشتغال الأمر بذلك شهورا وهو مقيم بعسكره حتى وصل الماء المذكور إليها فصنع له سقاية لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المفروسات»[26].

ولعله أجرى الماء في نفس الوقت إلى مدينة سلا، على ما يذهب مؤرخ معاصر في قوله عن عبد المومن : «وأمر بساقية من غبولة أن تحفر وتهبط إلى سلا»[27].

ويؤكد هذا قول ابن أبي زرع : «ثم دخلت سنة خمس وأربعين، فيها تحرك أمير المومنين عبد المومن إلى مدينة سلا فوصل إليها، وأجرى إليها ماء عين غبولة حتى وصل إلى المدينة من رباط الفتح»[28]؛ وكذا قوله : «وفيها[29] أمر عبد المومن بجلب ماء عين غبولة إلى سلا فجلبها»[30].

وقد أجري الماء مرة ثانية في العصر المريني، إذ «في سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وصل ماء عين غبولة إلى

24) الاستقصا ج 8 ص 69 والاتحاف ج 3 ص 333.

25) الإتحاف ج 1 ص 434 ـ 435.

26) تاريخ المن بالإمامة لعبد الملك بن صاحب الصلاة ص 448 ت. د. عبد الهادي التازي (ط بيروت 1383 ـ 1964).

27) أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ص 73 (ط دار المنصور. الرباط 1971).

28) الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع ص 192.

29) متحدثا عن سنة خمس وأربعين.

30) الأنيس المطرب ص 264.

قصبة رباط الفتح بأمر أمير المسلمين يعقوب على يد ابن الحاج المهندس»[31].

وفي تعليل جلب المـــاء إلى الربـــاط من العين المذكورة في هذا العهد، يذكر الحسن الوزان المعروف بـ : ليون الافريقي ـ وكان معاصرا له ـ أنه «لما كانت الرباط مشيدة في مكان يفتقر للماء الجيد، لأن ماء البحر يدخل إلى النهر ويحمله المد إلى مسافة اثني عشر ميلا فيه، ولأن مياه الآبار مالحة، جلب المنصور الماء من عين تبعد عن المدينة بنحو اثني عشر ميلا بواسطة قناة محكمة البناء على أقواس شبيهة بتلك التي ترى في إيطاليا كلها، لا سيما قرب رومة. وتنقسم هذه القناة إلى فروع عديدة يحمل بعضها الماء إلى المساجد وبعضها الآخر إلى المدارس والقصور الملكية والسقايات العمومية المقامة في جميع الأحياء»[32].

وقد كان نمو الرباط واتساع العمران بها في ظل الدولة العلوية، دافعا ملوكها الذين أقاموا بها قصورهم وجميع مرافق قاعدة الملك، إلى تزويد المدينة بالماء الصالح للشرب، وهو ما سجله التاريخ لسيدي محمد بن عبد الله، إذ «في سنة ثمان وثمانين ومائة وألف... أمر السلطان بإيصال الماء الجاري من عين عتيق للرباط»[33]. وما كادت تحل سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف حتى «دخل ماء عين عتيق لرباط الفتح»[34].

ويعقب محمد بو جندار على الضعيف، ذاهبا إلى أن المولى اسماعيل هو الذي أجرى هذا الماء، وأن سيدي محمد ابن عبد الله إنما جدده، معتمدا في ذلك على نص شعري معاصر. وفي ذلك يقول : «جاء في تاريخ الضعيف أن الذي أجرى مياه عين عتيك بالرباط هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ولعله إنما جدد إجراءها، وإلا فقد وقفت على ديوان القاضي أبي عبد الله مرينو الكبير، وفيه التصريح بأن إجراء عين عتيك هو من آثار السلطان المقدس مولاي اسماعيل. قال إنه هو الذي أدخلها وأجراها داخل المدينة ومساجدها بتاريخ يوم الجمعة العاشر من صفر الخير عام خمسة وثلاثين ومائة وألف. وأنشد في ذلك هذه القصيدة :

فللـــه الكريم الحمـــد حقـــا
على نعمـــائـه حمـــدا وقـــاهـــا
ومن أسنى الأيــــاد في البرايـــا
خليفتـــه الموفـــق من حمـــاهـــا
ابــــان بنصـــل جـــده كـــل هـــزل
وزان بعـــدلـــه فيهـــا حـــلاهـــا
وأيـــد ملـــة الإسلام صـــدقـــا
وملـــة غيره قهرا نفـــاهـــا
فكم لـــه من فتـــوحـــات وغـــزو
مشـــاهـــد نصره فرحت غنـــاهـــا
وكم أحييت عـــدالتـــه نفـــوســـا
بتهيئـــة العلـــوم لـــه سنـــاهـــا
وكم أحييت مجـــادتـــه بـــلادا
بـــإجراء الميـــاه لهـــا تراهـــا
كمـــا أحيـــا الربـــاط ربـــاط فتح
بمـــاء عتيـــك جـــدول في ثراهـــا
إلى أن قال :
وقـــال لـــسان حـــال عتيـــك إني
روي في الأقـــاول من وعـــاهـــا
بـــأن الصـــالحين دعـــوا لأبقى
رهين المرج يحبسني حمـــاهـــا
فكم عـــانى الملـــوك وكم أرادوا
ومـــا لبت ميـــاهي من بغـــاهـــا

31) نفس المصدر ص 406، وانظر كذلك الاتحاف ج 3 ص 58.

32) Jean - léon l'Africain : Daseription de l'Afrique, p 165, éd A. Epanlard - Paris 1956.

وانظر ترجمتيه العربيتين : 1 ـ وصف افريقيا ت. د. عبد الرحمن حميدة ص 208 (نشر الرياض 1399 هـ).

2 ـ وصف افريقيا ت. د. محمد حجي ود. محمد الأخضر ص 202 (نشر دار الغرب الإسلامي بيروت ط الثانية 1983).

33) تاريخ الضعيف ص 178.

34) نفس المصدر ص 179.

فلمـــــا أن تــوجـــــه لي إمــــــام
سما عنـــد الإلاه الحــق جــــاهــــا
أجبت نـــــداءه لمـــــا دعـــــاني
ولبينـــــا وأقبلنـــــا وجـــاهــــا
وجئت مهرولا في كـــــل صـــــوب
إلى الأقــواس قـــد جـزنــا بنـــاهــا
مـــددت طــويــل جيـــدي رغم أنفي
إلى ذاك السريـــح بـــــه يبـــاهى
فقـــال انظر إلى قـــدري وحسني
وقـــد ملئت جـوانبــه ميـــاهــا
ومنـــه قـــد جرى الأنبـــوب كلي
وأرغمت الـــذي بـــالمنـع فـــاهـــا
وأخرج منـــه عنـــد البـــاب حلـوا
ليكرع من جـــداولنـــا ظمـــاهـــا

وهي قصيدة طويلة كلها في مدح السلطان والعين المذكورين، وقد نقلت ما نقلت منها على علاته للفائدة التاريخية التي هي درة يتيمة في عقد التاريخ الرباطي»[35].

ومن اهتمام الملوك العلويين بهذا الماء وقنوات توصيله ما ذكر عن المولى سليمان أنه في يوم الجمعة 16 محرم 1219 صلى بجامع القصبة «وأمر... بغطاء الماء الجاري من عين عتيق، وكلف به سيدي عبو والمعلم الحسن السوداني»[36].

وبفضل مثل هذه العناية، استمرت الرباط[37] حتى أوائل القرن الحالي تستمد ماءها من عين غبولة التي كانت تغذي منطقة أكدال والقصر الملكي والأحياء المجاورة، وكذا من عين عتيق التي كانت تزود بقية المدينة، وعلى الرغم من صفاء الماء في النبعين، فإنه يتلوث أثناء الوصول عن طريق سواقي غير مغطاة مما كان يحث السكان على الإتيان بماء الشرب من شالة، أو على استعمال الآبار التي كانت في الدور والتي لم تكن كلها عذبة الماء.

ومع ذلك، فلم تزل عين عتيق «هي المادة الوحيدة المستعملة بالرباط لعدم وصول عين غبولة إلى داخل المدينة حتى بعد عام 1330 هـ حيث اهتمت البلدية بتعميم قناة عين غبولة في الانتفاع وتخصيص الأولى للسقي والرش عملا بإشارة إدارة الصحة، فوقع جلبها وصار المستخرج منها يوميا مبلغ ستة آلاف متر مكعب بعدما كان في أول الأمر لا يتجاوز ستمائة متر مكعب. بيد أنه أخيرا حصل أمر غير عادي فقل ماؤها بكيفية محسوسة. ورغما عما أضيف إليه من مياه الآبار المحدثة حوالي المدينة، فإنه لم يمكن تجاوز 5.300 خمسة آلاف وثلاثمائة متر مكعب في اليوم وأصبح هذا المقدار وما معه من عين عتيق المنتفع به في غير مسجد... والبالغ 800 ثمانمائة متر مكعب غير كاف لضروريات العاصمة التي اتسع نطاقها وازداد عمرانها وستزداد نموا واتساعا، ولذلك وقع التفكير من مصلحة البلدية في بناء سد على نهر أبي رقراق. ولا زالت الفكرة تحت النظر، ولو نفذت لكانت الفائدة جليلة بحصول العاصمة على جميع ما يحتاج إليه من الماء، زيادة عن كون ذلك يساعد على تنظيم الري في ولجتي سلا والرباط فتتضاعف ثروتهما وتتوفر خيراتهما من فلاحة وإنتاج»[38].

هذا وقد كشفت التنقيبات التي أجريت لتتبع القنوات الموحدية عن وجود الجزء الأعلى القريب من العين، وإن بدا أن قنوات العهد العلوي أقيمت على ما كان بناه عبد المومن. ومع ذلك فقد انتهت تلك التنقيبات المبكرة التي أجريت عام 1922[39] إلى أن الخط الموحدي للماء كان يمر خارج أسوار الرباط وداخلها، غير بعيد من باب شالة، مارا بالسويقة ليصل إلى قصبة الودايا.

☆ ☆ ☆

35) مقدمة الفتح ص 139 ـ 141.
36) تاريخ الضعيف ص 331.
37) J. Caillé : La ville de Rabat, p 558
38) مقدمة الفتح ص 141 ـ 142.

39) انظر : a – Henri Basset : Un aquedac Almohade à Rabat dans (Revue Africaine) 3e 4e trim 1923
b – J. Caillé : La ville de Rabat, p 150-151

ويزيد في إغناء تاريخ الإقليم ارتباطه بانتقال الودايا إليه وسكناهم فيه، وهم من العرب المعاقلة[40] الذين اعتمد عليهم الموحدون وكذا المرينيون والسعديون الذين فتحوا لهم الأبواب واسعة للدخول في الجيش[41].

وقد بلغت مكانتهم في ظل الدولة العلوية الشريفة درجة عالية بما تحملوه في نطاقها من مسؤوليات إدارية وعسكرية منذ استقدمهم المولى اسماعيل إلى مكناس وفاس ليشكل منهم جيش الودايا الذي كان يعد - إلى جانب جيش عبيد البخاري - من أقوى جيوش الدولة - وكان - أي جيش الودايا - يتكون من ثلاثة أرحاء :

1 - رحى أهل سوس، وتضم أولاد جرار وأولاد امطاع وزرارة والشبانات.

2 - رحى المغافرة.

3 - رحى الودايا.

«ويطلق على الجميع ودايا تغليبا»[42].

وورد في أصل هذه التسمية أن المولى اسماعيل أثناء مقامه بمراكش إثر حركة قام بها عام ثمانية وثمانين وألف «خرج يوما للصيد بالبحيرة، فوجد رجلا بيده شفرة يقطع بها السدر لغنمه تاكل ورقه، فقال للوزعة : نادوا أبا الشفرة. فأتوا به وأوقفوه أمامه، فسأله، فانتسب له إلى ودي - كفني - قبيلة من عرب معقل بالصحراء، وأخبره بأنهم دخلوا من القبلة بسبب الحرب، ودخلوا لسوس بنجعهم وافترقوا، كل قصد قبيلة نزل بها، ونحن نزول مع الشبانات. فقال له : أنتم أخوالي وقد سمعتم خبري ولم تأتوني، والآن أنت صاحبي، فإذا روحت غنمك فاقدم علي بمراكش. وكلف به من يوصله إليه. ولما قدم عليه كساه وأركبه وأعطاه خيلا وكلفه بجمع إخوانه من قبائل الحوز، فجمع من وجد منهم ونقلهم بحلتهم إلى مكناسة الزيتون، ثم دخل نجع آخر بعدهم فكتبهم السلطان في الديوان وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وعين لهم بجوار قصبته بمكناس المحل المعروف بالرياض، وأمرهم ببناء الدور، وأعطى لأعيانهم النوائب، وهي الزوايا التي لاتغرم مع القبائل، ثم قدم عليه مجمع آخر فكتبهم مع إخوانهم»[43].

وسار المولى عبد الله على نهج أبيه، واستمر في جمع الودايا بالعاصمة الإسماعيلية ليستقروا فيها، إلا أنهم تعرضوا لظروف متأزمة في بداية عهد سيدي محمد بن عبد الله لم يلبثوا بعدها أن استرجعوا مكانتهم، سواء في الجيش أو في إدارة الدولة والتمثيل الدبلوماسي.

وبرزت هذه المكانة في أيام المولى اليزيد الذي أعادهم إلى فاس، إلا أن ظروف الاضطراب التي مر منها المغرب في عهد المولى سليمان جعلتهم يتخذون مواقف أفضت إلى العمل على إعلان بيعة المولى عبد الرحمن الذي مكنهم من سلطات كثيرة. غير أن أحداثا طرأت لتعكر صفو العلاقات مع السلطان، خاصة وأنه تعرض لها شخصيا كما تعرضت لها أسرته[44]، مما جعلهم ينصبون سيدي محمد بن الطيب حفيد سيدي محمد بن عبد الله. إلا أن المولى عبد الرحمن لم يلبث أن تغلب على الموقف بعد حصار طويل لفاس دام أربعين يوما كلها اقتتال؛ فعين ادريس الجراري قائداً على الجيش كله، وأمر بعد «استشارته» بترحيل الودايا من فاس، فأمر بنقل رحى المغافرة إلى قصبة الشرادي من أعمال مراكش... ثم نقل رحى الودايا إلى العرائش وأحوازها ثم ردهم إلى جبل سلفات، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحى أهل السوس إلى رباط الفتح فأنزل حلتهم بالمنصورية على شاطئ وادي النفيفيخ، وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح[45]. ثم رد الحلة بعد مضي ست سنين إلى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية

---

40) انظر فيهم تاريخ ابن خلدون ج 6 ابتداء من ص 58 (ط. الأميرية - مصر) والاستقصا ج 2 ابتداء من ص 177.

41) انظر : الجيش العرمرم لمحمد أكنسوس ج 1 ص 65 فما بعد (ط. حجرية).

42) الاستقصا ج 7 ص 50.

43) الجيش العرمرم ج 1 ص 65 - 66، مع تكميل من الاستقصا ج 7 ص 51 - 52.

44) انظر الجيش ج 2 ابتداء من ص 17 والاستقصا ج 9 ابتداء منه ص 32.

45) أصبحت منذ هذا التاريخ تحمل اسم قصبة الودايا، وكانت من قبل تعرف بالمهدية ثم القصبة الأندلسية.

فأمر السلطان بعد سنتين أو ثلاث بترميمها وإصلاحها[46]. وقد اقترن هذا الترحيل برعاية تمثلت في الهدايا التي كان يغدقها على الودايا وقوادهم خاصة.[47]

وكان لهذا الاستقرار والعناية أثرهما الكبير على الصعيد العسكري الدفاعي، إذ قدر عدد الذين كانوا مجندين من الودايا المنقولين للرباط عام ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وألف بأربعمائة رجل، مما يستنتج منه وجود نحو ألفي نسمة، مع اعتبار النساء والأطفال، وهو عدد تضاعف فيما بعد.[48]

وكان لهما كذلك أثر فعال على الجانب الاقتصادي الزراعي، إذ جعل مناطق الإقليم تشهد ازدهارا فلاحيا منقطع النظير، وهي التي غدت تعرف بأراضي الجيش.[49]

من هنا يتبين الدور الكبير الذي تحمله الودايا في ظل الدولة العلوية الشريفة التي اندمجوا معها بالمصاهرة والخدمة المتفانية، بدءا من أول ظهورها على يد المولى الشريف، وكان تزوج من سيدة جرارية[50] هي أم المولى اسماعيل الذي حافظ على مصاهرة الودايا حين اقترن بالسيدة خناثة بنت بكار[51] الشهيرة بالعلم والفضل والدهاء. وكذلك فعل ابنه عبد الله الذي تزوج أخت رجلي الدولة عمارة بن موسى الأودبي ومحمد بن ناصر الأودبي،[52] وهما خالا السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومبعوثاه رفيقين للغزال في سفارته. وقد كان للمولى هشام نفس الارتباط، على حد ما يتضح من مخاطبته ابنه المولى عبد الرحمن للقواد الجراريين بالأخوال، كما تثبت رسائله إليهم،[53] وكانوا لاشك جديرين بهذه المكانة لما كان لهم[54] في مجال العلم والصلاح، وللمسؤولية الكبرى التي تحملوها في الدفاع عن حوزة البلاد في لحظات تاريخية حرجة، مما يحقق القولة الواردة في رسالة الفقيه أبي زكريا يرد على أبي محلي، واصفا أهل الودايا، ولا سيما الشبانة وبني جرار، بأنهم «أهل البنادق الأحرار».[55]

الرباط :   عباس الجراري

46) نفس المصدر ص 40.
47) انظر : J. Caillé : La ville de Rabat, p 329
48) نفس المصدر ص 331 ـ 335.
49) اشتهرت أراضي الجيش في مناطق مختلفة من المغرب، وبصفة خاصة في اقليم الصخيرات تمارة، ونواحي مراكش وأكادير وقصبة تادلة ومكناس وفاس وسيدي قاسم وطنجة. انظر : J. Le coz : les tribus guichs au Maroc, in : Revue de géographie du Maroc n° 7, 1965.
50) راجع : 1 ـ تاريخ الضعيف ص 9 2 ـ الاستقصا ج 7 ص 14 3 ـ إيليغ قديما وحديثا للمختار السوسي ص 110 (ط الملكية بالرباط 1366 ـ 1966) 4 ـ مناقب أهل الصحراء للأستاذ عبد الوهاب بنمنصور ص 44 (ط الملكية 1975). وارجع كذلك إلى الكلام الذي سقناه من قبل على لسان المولى اسماعيل وهو يتحدث إلى أبي شفرة.
51) انظر فيها : 1 ـ الوسيط في تراجم أدباء شنجيط لأحمد بن الأمين الشنجيطي ص 74 (ط الثانية مصر ـ 1378 ـ 1958) 2 ـ الإتحاف ج 3 ص 16. 3 ـ إيليغ قديما وحديثا ص 3 4 ـ أمير مغربي في طرابلس للدكتور عبد الهادي التازي ابتداء من ص 87 (منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي ـ جامعة محمد الخامس) 5 ـ Magali Morsy : Laila Khenota in : les Africains T 1 p 171, Paris 1977
وانظر هوامش السيدة خناثة على كتاب الإصابة لابن حجر م 3 و4 (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4932).
52) انظر : الإتحاف ج 3 ص 309.
53) انظر مثلا رسالته إلى القايد إدريس الجراري الواردة في الاستقصا ج 9 ص 38.
54) راجع كتابنا : العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري ص 14 ـ 15 (منشور في سلسلة : شخصيات مغربية رقم 7 دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1405 ـ 1985).
55) الاستقصا ج 6 ص 32.

العبقرية المبكرة عند الشّباب

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

النبوغ تفتق خاص في الملكات الذهنية والقوى الفكرية يرفع الموهوبين فوق المستويات العادية، فيبدر منهم ما يبهر وكثيرا ما ينبثق النبوغ عن فرط في الذكاء، أو عن تطور مبكر في المدارك العقلية ومهما يكن فإن في النبوغ قدرا موهوبا لادخل فيه للتكسب ولا للتهذيب والتشذيب والنبوغ بالنسبة للعبقرية كالحال عند الصوفية بالنسبة للمقام. فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال بوادر ولوائح والمقامات استقرار واستمرار. فالعبقرية مظهر لتركز النبوغ في دوائر التفكير والتصور والاستنتاج وسائر العمليات الصادرة عن القوى الفكرية التي قد ينمو بعضها فيسفر عن تضخم خاص في أحد أجزاء الدماغ كمركز التصور أو الحفظ أو التخيل، وبذلك تنطبع نفس الموهوب إما بملكة الفكر المجرد أو الوعي الخارق أو الروح الشاعرية.

وإذا كان هنالك انموذج لاكتمال هذه العناصر، ففي شخص ابن سينا الذي طفرت قواه الفكرية وهو لا يزال في ريعان الطفولة فقد تفتقت فيه الواعية عن قوة مدهشة فحفظ القرآن وهو دون العاشرة وتناسقت في ذهنه الملكات العليا، فلم يكد يبلغ السابعة عشرة حتى «ترامت شهرته بالتطبيب والتعليم في الآفاق الراقية، وعالج الأمير نوح بن منصور فشفاه وأصاب حيث أخطأ مشاهير الأطباء وفي الثامنة عشرة ألف كتاب «المجموع» فأودعه خلاصة علوم عصره ما عدا الرياضيات حتى قال في كهولته : «كنت يومذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج، والا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء»... وقد عده عمر الخيام من أساتذته مع أنه من أبناء الجيل اللاحق بجيله وبرز الشاب الموهوب في معظم العلوم حتى اللغة التي قيل بأنه صنف في غريبها موسوعة كبرى. وظلت ملاحظاته في أدق الفنون والعلوم كالطبيعيات مثلا محل إعجاب من باكون الإنجليزي إمام المدرسة التجريبية. وكانت مصنفاته في الطبيعيات من دعائم الفتوح العلمية الحديثة حيث ظلت في جامعات أوربا موضوع درس ومراجعة مع بحوثه الطبية عدة قرون.

وفي السادسة عشرة من عمره أيضا برع في الفقه حتى صار يناظر فيه كبار الأصوليين كما بلغ بعد ذلك درجة سامية في النثر الفني حيث صنف على طريقة ابن العميد والصابي والصاحب. وقويت شاعريته ورق شعره إلى درجة أنه لو لم يحتكر العلم ملكاته لكان من شعراء الإنسانية القليلين. ذلك انموذج انتظم فيه ما انتثر في غيره...

ولم يكن ابن سينا مجرد نابغة بل إنه أصبح وهو في ريعان شبابه رائد الفكر العلمي، فكانت أعظم مصنفاته

الطبية بعد (القانون) أرجوزته المعروفة عند الأوربيين بـ (كانتيكوم) Canticum وكان كلاهما أسية التجارب المارستانية والعيادية والجامعية في بحبوحة القرن الرابع الهجري قبل أن تتبلور مثل هذه الدراسات والأبحاث في الجامعات الأوربية وقد ظل هذا الإبداع بالإضافة إلى كتاب (الحادي) للرازي أعظم عناصر الموسوعة الطبية التي أنتجها العرب[1] بل إنها ظلت ستة قرون - إلى القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي مرجعا أساسيا، لطلبات الطب الأوربية كما ورد ذلك في قرار جامعي مؤرخ بعام 1617 م ينص على اعتمادها في تعليم الطب في جامعة لوفان التي أسست في بلجيكا عام 1425 م.

☆ ☆ ☆

وهنالك أفراد كثيرون ظهرت مواهبهم المبكرة في ناحية أو مناحي شتى، فالمعرى قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، وكذلك الفرزدق وإبراهيم بن سهل والبحتري حتى إن أبا تمام سمع إنشاده وهو فتى فأعجب وقال : «أنت والله يا بني أمير الشعراء بعدي !». وقد تأهل الشافعي للفتوى في أصول التشريع وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان آية في الذكاء حتى قال فيه المبرد والشافعي أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقرآن» وقد برع في الرماية كما برع في الشعر واللغة وتاريخ العرب.

وكتب يحيى ابن أكتم موسوعات في أصول الفقه وهو شاب، وتولى قضاء البصرة وعمره عشرون سنة فاستصغره أهلها، وقد تولى القضاء في مثل هذه السن عتاب ابن أسيد في مكة يوم الفتح ومعاذ بن جهل في اليمن وكعب بن سور على البصرة أيام عمر.

وقد أفتى صدر الدين بن الوكيل وهو ابن عشرين سنة وكان لا يقوم لمناظرة ابن تيمية أحد سواه.

وعبد الله بن عباس كان آية في النبوغ، فقد كان سنه لا يتجاوز التاسعة عشرة في أول خلافة عمر بن الخطاب، ومع ذلك كان يستشيره ويصفه بالغوص وقد ذكر ابن عتبة أنه ما رأى أفقه من ابن عباس في رأي ولا شعر ولا عربية ولا تفسير ولا حساب.

وتوفى الرسول عن عائشة الصديقية وهي في الثامنة عشرة، ومع ذلك فقد كانت من أكثر الصحابة حفظا وفتيا، وكان شيوخ الصحابة يستفتونها وقال فيها عروة بن الزبير : «ما جالست أحدا قط أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا طب من عائشة».

وغير هؤلاء كثير ممن نبغوا في ميعة الشباب نبوغا مدهشا، فهذا بديع الزمان الهمداني يناظر وهو في مقتبل العمر أبا بكر الخوارزمي، وكان إذ ذاك شيخا يناهز الستين، وهنا ابن السكيت يناظر - وهو في طُمُرَّة الشباب - أبا الحسن على اللحياني. وهنا أبو بكر الظاهري يتصدر للتدريس في حلقة والده على إثر وفاته، وقد ألف في شبابه كتاب «الزهرة» وانتحل الأشعري مذهب الاعتزال عن دراية وعلم منذ صباه وألف البخاري صحيحه لست عشرة سنة.

ولعل هنالك ما هو أدعى للاندهاش فقد وصف ابن عبد الملك في الذيل والتكملة طفلا في القرن السادس ظهر منه نبوغ غريب أدى إلى شبوب حوادث أودت بحياته وحياة والده.

وذكر الخطيب البغدادي في الكفاية أن القاضي عبد الله الأصبهاني حفظ القرآن وهو ابن خمس سنين وحمل إلى أبي بكر المقري ليسمع عليه الحديث وهو ابن أربع. ونقل إبراهيم بن سعيد الجوهري أنه شاهد صبيا ابن أربع سنوات قد حمل إلى المامون وقد قرأ القرآن ونظر في الرأي (يعني الفقه) غير أنه إذا جاع بكى.

---

1) لوكلير - تاريخ طب العرب (مجلدان) - طبعة بيروت ج 1 ص 470 جردت طبعه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

وروى الأبري عامة كتب شيخه عبد الرزاق ونقلها الناس عنه مع أنه عند وفاة شيخه لم يكن إلا ابن ست أو سبع سنين. وروى القاضي أبو عمر القاسم ابن جعفر الهاشمي سنن أبي داود عن أبي علي اللؤلؤي ورواها الناس عنه ومات شيخه وله خمس سنين.

وذهب أبو عاصم بابنه إلى ابن جريج ليسمع عليه الحديث والقرآن وهو ابن أقل من ثلاث سنين. وروى عبد الله بن الزبير الكثير عن رسول الله ﷺ ومع ذلك توفى الرسول وهو ابن ثمان سنين. وهو الذي كان له مائة غلام على ما يحكى لكل غلام لغة خاصة فكان يخاطب كل غلام بلغته.

وذكر السخاوي في (فتح المغيث) أن سفيان بن عيينة قرأ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع، وقد حفظ المصعب ابن الهائم القرآن والعمدة وجملة من الكافية وهو ابن خمس سنين. وذكر أبو بكر الاسماعيلي عن حفيده معمر أنه حفظ القرآن وعلم الفرائض وأجاب في مسألة أخطأ فيها بعض القضاة وهو ابن سبع سنين. وذكر ابن العماد الحنبلي أن تقي الدين السبكي درس بدمشق بالمدرسة الأمينية وهو ابن سبع سنين وولي خطابة الجامع الأموي بعد أبيه وله عشر سنين.

وفي سادس (شذرات الذهب) أن بدر الدين السبكي درس وأفتى وحدث وعمره خمس عشرة سنة في حياة جده تقي الدين وكان إماما عالما بارعا أوحد.

وأبو حامد السبكي مهر في العلوم وأفتى ودرس وله عشرون سنة وولي وظائف أبيه في القاهرة وله إحدى وعشرون سنة.

وقد أتم ابن الصارم مصنفاته العشرين قبل أن يبلغ عشرين سنة[2]. وكان أحمد الفبرم بن سيدي عمر الكنتي يحفظ ألف مجلد.

تلك نماذج خاطفة تتجلى فيها عبقرية الشباب الإسلامي ونبوغه وكم لها من نظائر وأشباه يضيق المجال عن استعراضها وهي تعطي لشبابنا المتوثب برهانا عن مدى حيوية فتيان الأمس الذين كانوا بوتقة نابغة انصهرت فيها معادن المعرفة في مجلاها الاخاذ.

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

2) «البدر الطالع» ص 2/240.

من نوابغ الشباب

ابراهيم التّازي

نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين..

للأستاذ محمّد المنوني

تقدم هذه الترجمة شخصية شاب عالم هو الشيخ ابراهيم التازي، وقد سافر من المغرب - في عنفوان شبابه - إلى الحج والزيارة ولقاء الشيوخ، وفي طريق عودته استوطن المغرب الأوسط في مدينة وهران، ينشر معارفه، ويربي تلاميذه، ويذيع أوضاعه المنوعة، حتى يرسم خطاً عريضاً للتبادل الثقافي (التلقائي) بين المغرب والجزائر.

ابراهيم التازي نزيل وهران : عالم أديب صوفي، اسمه الكامل : ابراهيم بن محمد بن علي، ونسبه في بني لنت[1] من مضافات قبيلة التسول الزنانية، وهم يتفرعون إلى ثلاثة بطون : الحرشة والخندق ومقورة،[2] غير أن عشيرة المترجم من هذه الفروع لم تتحدد، ولا يزال اسم بني لنت معروفاً قرب مدينة تازا إلى الشمال الغربي منها، وإليه تضاف قيادة عشائر قبيلة التسول ضمن عمالة تازا.

ويبدو أن أسرة المترجم انتقلت قبل ولادته - على الأقل - إلى السكنى بمدينة تازا، حيث كان مولده بها[3] في تاريخ ربما يرجع إلى أوائل القرن 15/9، وبنفس المدينة كانت نشأته ومتعلمه للقرآن الكريم : على أستاذه يحيى الوازعي، الذي وصف بالشيخ الصالح المقري،[4] ويستنتج من بعض الإشارات أن هذا الأستاذ يكتب الخط الجيد، ويتقن علم التجويد، ومنه انتقل ذلك إلى تلميذه

1) «النجم الثاقب...» لابن صعد : مخطوط خ.س 2491 ص 14، وهذه المخطوطة هي المعتمدة في الإحالات التالية :
2) «زهر الآس في بيوتات فاس» لعبد الكبير بن هاشم الكتاني : مخطوط خ.ع.ك 1281 عند مادة بيت بني الشولي.
3) «النجم الثاقب» ص 14.
4) «المصدر» ص 14.

المترجم، فيصف ابن صعد كتابته بالخط الرائق،[5] ويخططه بالبراعة في تجويد تلاوة القرآن،[6] ولما حج قدمه مشيخة الحرم الشريف لصلاة الأشفاع في رمضان، واتفقوا على أنه أحسن القراء تلاوة...[7]

☆ ☆ ☆

بعد هذه المرحلة الأولية فإن مصادر التعريف بالمترجم لا تذكر شيئاً عن متعلمه ـ بعد ذلك ـ بالمغرب، ومن المؤكد أنه أخذ العلوم ـ دينية ولسانية ـ ببلدته أو جهة أخرى من المغرب، قبل أن يتمم دراسته خلال رحلته للحج، وذلك ما يفيده تحليته بالفقيه في إجازات ثلاثة من أساتذته[8] الذين روى عنهم بالحرمين الشريفين وتونس، ومن المعروف أن حلية الفقيه في عصر المترجم، لا تمنح إلا لمن تكاملت ثقافته بعد تلقيه للمعارف عن الشيوخ.

☆ ☆ ☆

وخلافاً لواقع المترجم بالمغرب، فإن شيوخه خارج المغرب يبلغ عدد المعروف منهم إلى ستة أسماء.

1 ـ أبو الطيب الفاسي : محمد بن أحمد بن علي المكي الحسني الإدريسي تـ 832/«1429».[9]

قرأ عليه ـ بمكة المكرمة ـ «الشفا» لعياض، وكثيراً من كتب الحديث والرقائق، ومنها «الموطأ» للإمام مالك، و«سنن» النسائي، و«رسالة» القشيري، وفي العربية : «الألفية» لابن مالك، وفرغ من قراءته للشفا بتاريخ 30 ذي القعدة سنة 830/«1427»[10] بالمسجد الحرام.

ثم أجازه بجميع مروياته ومؤلفاته، ومن جهته يسند المترجم روايته للشفا.[11]

2 ـ أبو محمد الزواوي : صالح بن محمد بن موسى الحسني الرياحي المدوكالي، جاور بالمدينة المنورة، وانتقل منها إلى القاهرة حيث توفي بها سنة 839/«1435».[12]

أخذ عنه حديث المصافحة[13] والمشابكة،[14] ولبس منه الخرق القادرية[15] والمدْينية[16] والشاذلية،[7] ولقنه الذكر بالكلمة المشرفة.[18]

3 ـ أبو الفتح المراغي : محمد بن أبي بكر بن الحسين العثماني المدني، تـ 859/«1455».[19]

قرأ عليه ـ حسب تعبير ابن صعد[20] ـ «علوماً كثيرة، ولازمه مدة طويلة وكتب له ـ بخطه ـ عدة إجازات»، ومن جهته يسند إلى «صحيحي» البخاري ومسلم،[21] وكتاب «المجالس العراقية» لزين الدين عبد الرحيم العراقي،[22] وحديث الرحمة المسلسل بالأولية،[23] ثم حديث الضيافة، الذي أسنده له بالمدينة المنورة يوم الخميس 2 محرم سنة 831/«1427»،[24] وناوله السبحة،[25] وألبسه القشيرية،[26] وهو شيخه الثاني في الخرقة المدْينية : ألبسه إياها في المسجد النبوي الشريف : عاشر محرم سنة 831/«1427»،[27] ولقنه الذكر بالكلمة المشرفة.[28]

5) «المصدر» ص 13.
6) «المصدر» ص 14.
7) «المصدر» ص 14.
8) «المصدر» : حيث وردت به إجازة أبي الطيب الفاسي ص 15، وإجازة أبي الفتح المراغي ص 16، وإجازة العبدوسي ص 17.
9) ترجمته عند السخاوي في «الضوء اللامع» 20/18/7.
10) هذه المقروءات يستعرضها أبو الطيب الفاسي في إجازته للمترجم، حيث ورد نصها في «النجم الثاقب» ص 15.
11) «ثبت البلوي» نشر دار الغرب الإسلامي سنة 1983/1403 : ص 395.
12) ترجمته في «الضوء اللامع» 315/3 ـ 317.
13) «ثبت ابن حرزوز» : مخطوط خ.س 12767.
14) «ثبت البلوي» ص 383، ثم «ثبت ابن حرزوز».
15) «المنح البادية...» لمحمد الصغير بن عبد الرحمن الفاسي : مخطوطة خ.ع.ك 1249 : أول مجموع : عند الخاتمة.
16) «ثبت ابن حرزوز»، مع «المنح البادية».
17) «المصدران».
18) «المنح البادية».
19) ترجمته في «الضوء اللامع» 165.162/7.
20) «النجم الثاقب» ص 15.
21) «ثبت البلوي» ص 388ـ389 و 391.
22) «النجم الثاقب» ص 32.
23) «ثبت ابن حرزوز»، و«صلة الخلف...» للروداني : مخطوطة خ.ع.حـ 5، و«المنح البادية» : عند القسم الثاني، و«الآيات البينات...» لعبد الحفيظ الفاسي : المطبعة الوطنية بالرباط 13/1.
24) «النجم الثاقب»، و«ثبت ابن حرزوز».
25) «ثبت البلوي» ص 385، و«ثبت ابن حرزوز».
26) «المنح البادية».
27) «ثبت ابن حرزوز».
28) «المنح البادية».

4 ـ العبدوسي : عبد العزيز بن موسى بن معطي الفاسي نزيل تونس، تـ 837/«1434».[29]

أخذ عنه حديث المصافحة بتونس في رجوعه من رحلته الحجازية، وأجازه إجازة عامة كتبها له في 13 رمضان سنة 832/«1429».[30]

5 ـ ابن مرزوق الحفيد : محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني، تـ 842/«1439».[31]

أخذ عنه وكتب له إجازة بتاريخ ربيع الثاني سنة 832، هكذا عند أبي صعد،[32] ولعل الصواب 833/«1430».

6 ـ وفي وهران اتصل بشيخه الذي طبع اتجاهه الصوفي، وهو محمد بن عمر الهواري، حيث لازمه بوهران نحو عشرة أعوام إلى وفاته سنة 843/«1439»، وبعدها استمر المترجم بنفس المدينة، يترسم النهج الصوفي لأستاذه، فينشر فضائله، وينسخ كلامه بخطه، ويجمع متفرقه في دفاتر، وصار يفتتح مجالس إقرائه بتلاوة كتب شيخه، فيمليها بتعبير مؤلفها، ويفسر مجملها، ويفتح مقفلها.[33]

☆ ☆ ☆

وسيكون الهواري آخر الستة المعروفين من شيوخ المترجم خارج المغرب، وإلى هذا يشير ابن صعد إلى مؤلفات برواية إبراهيم التازي دون أن يحدد أساتذته فيها، وعددها ستة :

ـ كتاب «المجالس المكية» لأبي حفص عمر الميانسي.[34]

ـ كتاب «الأمثال الحديثية» لأحمد الحسن بن خلاد.[35]

ـ كتاب «التوكل» لابن أبي الدنيا.[36]

ـ كتاب «أبي القاسم بن عساكر».[37]

ـ كتاب «السمعاني».[38]

ـ «تاريخ الخطيب».[39]

☆ ☆ ☆

ولا نترك استعراض أشياخ المترجم دون العودة إلى بعض التواريخ لإجازات أشياخه، ابتداء من إجازة «أبي الطيب الفاسي، المؤرخة في 30 ذي القعدة 830/«1427»، ثم انتهاء عند إجازة ابن مرزوق الحفيد : بتاريخ ربيع الثاني 833/«1430»، فكان هذا التاريخ وسابقه قد وَقَّتا ـ في الجملة ـ بداية ونهاية رحلة المترجم.

يضاف لهذا فقره عند ابن صعد[40] تذكر أن علماء تونس خططوا ابراهيم التازي ـ على صغر سنة ـ بأوصاف السيادة، وقد تبينا أن إجازته بهذه المدينة من شيخه العبدوسي تحمل تاريخ 13 رمضان 832/«1429»، فنستنتج أن تاريخ ولادة المترجم ـ على وجه التقريب ـ لا يعدو أوائل القرن الهجري التاسع.

☆ ☆ ☆

وحسب تكوين المترجم فإن ثقافته ازدوجت فيها المعارف العامة بسلوك الصوفية، وذلك ما يبرزه ابن صعد[41] في هذه الفقرة : فيذكر أنه من أولياء الله الزاهدين، وعباده الناصحين المخلصين، إماماً في علوم القرآن، مقدماً في علم اللسان، حافظاً للحديث، بصيراً بالفقه وأصوله، من أهل المعرفة التامة بأصول الدين، إماماً من أيمة المسلمين... وكان من أهل الحفظ العظيم، معروفاً

---

29) ترجمته عند السوداني في «نيل الابتهاج...»، المنشور بهامش الديباج لابن فرحون، مطبعة المعاهد بالقاهرة سنة 1351 هـ : ص 179 ـ 182، وسمي العبدوسي عند ابن صعد ـ ص 17 ـ بعبد الله، فعلق عليه في «نيل الابتهاج» ـ ص 55 ـ قائلاً : «قوله عبد الله العبدوسي : لعل صوابه أبو القاسم عبد العزيز العبدوسي، فهو نزيل تونس في ذلك الوقت، وأما عبد الله العبدوسي فهو ولد أخيه، لم أعرف له رحلة لتونس، ولا ذكره أحد، وإنما كان بفاس وبه توفي».
ومثل ماعند ابن صعد ورد في ثبت البلوي ص 402.

30) سند المصافحة، في «النجم الثاقب» ص 27، ثم في «ثبت البلوي» مع صيغة الإجازة العامة : ص 402ـ404.

31) ترجمته في «نيل الابتهاج» ص 293ـ299.
32) «النجم الثاقب» ص 17.
33) «المصدر» ص 18.
34) «المصدر» ص 30.
35) «المصدر» ص 32.
36) «المصدر» ص 33.
37) «المصدر» ص 34.
38) «المصدر» ص 34.
39) «المصدر» ص 36.
40) «المصدر» ص 17.
41) «المصدر» ص 13.

بجودة النظر والفهم الثاقب، جامعاً لمحاسن العلماء، ممتعا بآداب الأولياء.

☆ ☆ ☆

ولثقافة المترجم المزدوجة صار يقرىء العلوم والتصوف، فدرس - بوهران - المختصر الخليلي،[42] وأسند الأحاديث والمسلسلات، فرواها عنه مجموعة من الأعلام سنأتي على ذكرهم.

وإلى هذا اهتم بدعوة الجماهير إلى معرفة عقائد التوحيد،[43] وأقام - حسب ابن صعد -[44] سوق الأذكار بوهران، وأبان بها معالم الإسلام والإيمان، ورتب المواسم الشرعية وبينها المولد النبوي الشريف، ونبه على الآداب الدينية والدنيوية، ونقل أهل مدينته عما كانوا فيه من التبدي إلى الحضارة، وجلب إليها الماء من مسافة بعيدة بعدما كان بها قليلاً : وبذلك كله عظمت عمارتها، وارتحل إليها كثير من أهل الجزيرة، وقصدها الواردون من جميع الآفاق.

ومن هنا نتبين أن المترجم كان يجنح إلى تحقيق التصوف الاجتماعي، ويترجم هذا - مرة أخرى - شكل بناء الزاوية التازية بوهران، فبالإضافة إلى مساجدها الأنيقة العالية : بنى بها المدارس المجهزة بخزائن الكتب، وبالدورات المائية والحمام، فضلاً عن المرافق المعدة للزوار وأبناء السبيل، وتجهيز آخر مهم هو **الآلات الجهادية** المودعة بالمدارس، مما يشير إلى بعد نظر الباني، وكل مؤسسات الزاوية جاءت نهاية في الفخامة والاحتفال.

ومما يعبر عن ذوق المؤسس أن سطح المدرسة يظلله عريش من شجر الياسمين العنبري الرائحة لانظير له، حسب تعبير المصدر المعني.[45]

ولإقامة شؤون الزاوية بنى عدة أماكن أشهد بوقفها عليها، ولم يترك لوارثه الأرض شبراً، ولا اذخر له فضة ولا تبراً.[46]

وبعد وفاة المترجم استمرت الزاوية، قائمة، فذكرها الرحالة المصري عبد الباسط،[47] واجتمع بشيخها مفتي وهران أحمد بن العباس، وأشار ابن صعد[48] لاستمرارها.

☆ ☆ ☆

بقي أن نشير إلى أن مرجع تصوف التازي هو شيخه الهواري سابق الذكر، فكان - في غالب أمره - على طريقته يذهب، غير أن السند الصوفي لهذا لايزال غير واضح، وذلك ما يسجله عبد السلام القادري[49] لما يذكر أنه لا يعرف سند الهواري، غير أنه يضيف عن سند التازي قائلاً : «وبعده لقي الشيخ أبا عثمان سعيد الصفريوي، وهو عن الشيخ القطب أبي الحسن علي بن وفا».

☆ ☆ ☆

بالإضافة إلى اشتغال المترجم بالتعليم والإرشاد : خلف أوضاعاً علمية وأدبية، وخصوصاً في الأدب الصوفي والمديح النبوي، فترد الإشارة إلى فهرس أشياخه[50] وعقيدته،[51] وعن أعمال أخرى يقول ابن صعد :[52] وقفت على كثير من تقاييده في الفقه والأصول وعلوم الحديث»، غير أن هذه المقيدات والفهرس والعقيدة هي - الآن - غير معروفة.

وفي اتجاه آخر يأتي في نفس المصدر :[53] «وكلام سيدي ابراهيم في الطريقة التصوفية، والمقامات العرفانية، والأمداح النبوية : لايقوم بمعناه إلا من تمكنت معرفته، وقويت في علوم اللسان عارضته..».

---

42) «دليل الحيران وأنيس السهران» في أخبار مدينة وهران» تأليف محمد بن يوسف الزياني : مخطوط خاص، ولم يصل إلينا النص المنشور.
43) «النجم الثاقب» ص 14.
44) «المصدر» ص 18 ر 20.
45) «المصدر» ص 20.
46) «المصدر» ص 23.
47) «رحلة في الغرب الإسلامي» لعبد الباسط بن خليل الملطي ثم القاهري، نشر المستشرق الفرنسي برنشفيك في باريس 1936 : ص 46 من النص العربي، مع ص 110 عند الترجمة الفرنسية.
48) «النجم الثاقب» ص 20.
49) **«المقصد الاحمد...» ط.ف دون تاريخ ص 300.**
50) «النجم الثاقب» ص 17.
51) «المصدر» ص 39.
52) «المصدر» ص 13.
53) «المصدر» ص 17.

وفي تعبير الملالي :[54] «وذكر لي بعضهم أن لـه مولديات وإنشادات لا تحصى».

1 ـ ولحسن الحظ فإن هذه الآثار الأدبية ـ تصوفاً ومديحاً ـ لا يزال بعضها بقيد الوجود، انطلاقاً من جزء يشتمل على وظيفة أذكار الطريقة التازية، مذيلة بخمس عشرة قصيدة من نظمه :

وأول هذه القصائد هي المعروفة «بالمرادية» و«بالتازية».

والثالثة تسمى «بالجمالية»، يبث فيها أشواقه للعودة إلى الحرمين الشريفين.

والرابعة والتاسعة إلى الثالثة عشرة في المديح النبوي، وغالبها «مولديات».

والرابعة عشرة في النصائح، وتحمل اسم «النصح التام للخاص والعام»، وربما قيل فيها «الدالية».

والخامسة عشرة تسمى بـ«الحام»، نظمها بياناً لترتيب قراءة الوظيفة التازية.

وباقي القصائد يغلب عليها طابع الزهد والتصوف.

ويحتفظ بهذه المجموعة ـ كاملة ـ ثبت البلوي.[55]

وقد صارت نفس المجموعة موضع عناية المهتمين، فرواها عن مؤلفها عالم من تلمسان هو التنسي : محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المغراوي الأموي، وعن هذا رواها تلميذه البلوي : أحمد بن علي بن أحمد الوادي ءاشي نزيل تلمسان،[56] ثم كانت بعض محتويات المجموعة موضع عناية خاصة عند أفراد من المؤلفين والأدباء، وكل ذلك يعبر عن الاستمرارية لأصداء أدب المترجم وتصوفه فيما بعد وفاته.

ـ وفي هذا الاتجاه نشير إلى تعاليق تناولت بعض الأوضاع التازية، بدءاً من «شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير المسمى بالمراد»، وهو شرح على القصيدة الأولى بالمجموعة المنوه بها، مؤلفه هو ابن الصباغ : محمد بن محمد بن أحمد القلعي، من مخطوطات المكتبة الوطنية بالجزائر 1856.

ونسخة أخرى في خزانة خاصة بمراكش رقم 1/1210، وسمي المؤلف فيها : أحمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ، القلعي النسب والمنزل.

ـ ولنفس القصيدة «شرح ثان» أشار له مؤلفه ابن مريم : محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني، ثم التلمساني.[57]

ـ ولمحمد بن سليمان المغراوي «شرح على وصية التازي»، مخطوط في دار الكتب الوطنية بتونس : ثاني مجموع 2810.

ـ ولابن مريم «فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام»، شرح فيه القصيدة التازية الرابعة عشرة، وأشار له في البستان.[58]

ـ ونفس المؤلف أشار في البستان[59] إلى «شرح له على قصيدة الحام» وهي الخامسة عشرة بالمجموعة المتكررة الذكر.

☆ ☆ ☆

ـ وللقصيدة المرادية «تخميس» من نظم ابن الحاج : أحمد بن محمد بن محمد الورنيدي البيدري التلمساني، ذكره ابن مريم[60] وأثبت مطلعه.

ـ و«تخميس القصيدة الجمالية» لشاعر لم يذكر اسمه، احتفظ به المقري، وأثبت نصه ـ كاملاً ـ في «أزهار الرياض...».[61]

بعد أوضاع التازي نذيل بعرض منوعات من أسانيده، حيث رواها عنه نخبة من الأعلام كالتالي :

1 ـ السنوسي : محمد بن يوسف بن عمر التلمساني، ت 895/«1490» :

54) «البستان...» لابن مريم المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1908/1326 : ص 63.
55) «ثبت البلوي» ص 320 ـ 359.
56) «المصدر» ص 359 ـ 360.
57) «البستان» ص 60 و 315.
58) ص 60 و 314.
59) ص 315.
60) «البستان» ص 14.
61) ط. القاهرة 309/2 ـ 314.

أخذ عنه حديث الرحمة المسلسل بالأولية،[62] و«الشفا» للقاضي عياض،[63] وخمس مسلسلات صوفية.[64]

2 ـ القچيچي : عبد الجبار بن أحمد بن موسى، البرزوزي الوتضغيري، كان حيا عام 895/«1490».

أسند له «صحيحي» البخاري ومسلم، و«الشفا»، ومسلسلين صوفيين.[65]

3 ـ ابن زَكَري : أحمد بن محمد المغراوي ثم المانوي التلمساني، تـ 899/«1493».

روى عنه سبع مسلسلات صوفية.[66]

4 ـ زروق : أحمد بن أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي ثم الفاسي، تـ في مسراته من ليبيا 899/«1493».

نقل عنه السوداني لائحة مشايخه وبينهم المترجم، وفي «المنح البادية»[68] ورد ذكره أحد الرواة عن التازي لسلسلة تلقين الكلمة المشرفة.

5 ـ التنسي : محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المغراوي الأموي التلمساني سابق الذكر، تـ 899/«1494».

وقد تبينا ـ وشيكا ـ أنه روى عن المترجم الجزء الذي يشتمل على وظيفته وخمس عشرة من قصائده، ونضيف أنه قرأ عليه تذكره ابن الملقن في علوم الحديث.[69]

6 ـ الراشدي : عمر بن علي بن سليمان الجزائري نزيل تونس، كان حيا عام 902/«1497».

أخذ عنه حديث الرحمة المسلسل بالأولية، وسبع مسلسلات صوفية.[70]

7 ـ أحمد حجي الوهراني، ويرسمه ابن مريم[71] بحاجي، تاريخ وفاته غير مذكور.

ويرد اسمه راوياً عن المترجم في سند حديث الرحمن المسلسل بالأولية،[72] ثم في سبع مسلسلات صوفية.[73]

☆ ☆ ☆

وهؤلاء ثلاثة من الآخذين عن المترجم دون أن يسندوا عنه في الرواية.

ـ وأولهم هو التالوتي : علي بن محمد الأنصاري التلمساني، تـ 895/«1490».[74]

ـ ثم ابن تاغزوت، هكذا ورد اسمه عند ابن مريم[75] تلميذا للمترجم.

ـ ابن يجبش : محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن التازي، تـ920/«1614».

أثبت ابن عسكر[76] أنه أدرك المترجم وأخذ عنه، ومن المؤكد أن ذلك كان في زمن شباب ابن يجبش.[77]

☆ ☆ ☆

وأخيراً نشير إلى القلصادي : علي بن محمد بن علي القرشي البسطي، تـ في باجة تونس 881/«1477».

وهو يسجل اتصاله بالمترجم في الارتسامة التالية : «...ومنهم الشيخ المتبرك به : سيدي ابراهيم التازي رحمة الله عليه، خليفة سيدي محمد الهواري في وقته، كان له اعتناء بكلام شيخه...»[78]

☆ ☆ ☆

ثم كانت وفاة المترجم يوم الأحد 9 شعبان 866/«1462»، ودفن في زاويته بوهران، وبعد احتلال الإسبان نقله تلامذته ـ خفية ـ إلى القلعة ودفن بها، بعد ما بقي في وهران خمسين سنة،[79] فمدفنه ـ الآن ـ في قلعة بني راشد في بناية محترمة.

الرباط : محمد المنوني

---

62) «ثبت البلوي» ص 439.

63) «شجرة النور الزكية...» تأليف محمد بن محمد مخلوف المطبعة السلفية بالقاهرة سنة 1350 هـ : ص 266.

64) «ثبت البلوي» ص 439.

65) «المصدر» ص 383 ـ 395.

66) «المصدر» ص 426.

67) «نيل الابتهاج» ص 85.

68) عند الخاتمة.

69) «ثبت البلوي» ص 369.

70) «ثبت ابن حرزوز».

71) «البستان» ص 104.

72) «صلة الخلف» و«المنح البادية» و«الايات البينات»، وقد مر ذكر هذه المصادر.

73) «المنح البادية».

74) «البستان» ص 140 ـ 141.

75) «المصدر» ص 53.

76) «دوحة الناشر...» دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سنة 1396/1976 : ص 67.

77) منحة الجبار لمحمد العربي البصري المكناسي، مخطوط خ.س 11286 ص 159.

78) «رحلة القلصادي» الشركة التونسية للتوزيع، سنة 1399/1978 : ص 111.

79) «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني»، تأليف أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، مطبعة البعث بقسنطينة ـ الجزائر، سنة 1973 : ص 191 : تعليق المهدي البُوعَبْدلّي.

أحاديث الشباب

في الهدي النبوي

ان هناك اهتمامات نبوية بعنصر الشباب وتتبين منها أن الإسلام حريص على أن يلفت أنظار أتباعه وأفكارهم إلى حقيقة تكوين الشباب كغرسة ناشئة غضة طرية، قابلة للتشكيل والتلوين على الصورة المرادة..

كما يلفت الهدي النبوي أنظارنا وأفكارنا إلى خطورة هذه المرحلة من عمر الإنسان للمسارعة والاستباق إلى رعاية تشكيلها وتلوينها على الصورة الطيبة الفاضلة التي يريدها الإسلام، والتي يحث عليها القرآن.

فاهتمام الرسول عليه السلام بالشباب الذين هو أمل الحاضر، وعدة المستقبل، تربية وتعليماً وإصلاحاً وتقديماً، فهذه بعض مبادئه ونماذجه :

□ قال عليه الصلاة والسلام : «أوصيكم بالشباب خيراً، فإنهم أرق أفئدة، إن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فحالفني الشباب، وخالفني الشيوخ» ثم تلا قول الله تعالى : ﴿**فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم**﴾.

□ عن عبد الله بن مسعود، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

متفق عليه.

□ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من يدخل الجنة ينعم لا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

مسلم.

□ في حديث علي بن أبي طالب في سياق حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال استفتته جارية شابة من خثعم فقالت : أن أبي شيخ كبير قد أدركته فريضة الله في الحج. أفيجزي. أن أحج عنه ؟ قال :(حجي عن أبيك).

قال ولوى عنق الفضل. فقال العباس : يا رسول الله (لم لويت عنق ابن عمك ؟ ((رأيت شابا وشابة، فلم آمن الشيطان عليهما)).

مسند أحمد

□ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما عمل...

الترمذي

□ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[1] :

□ عن أبي أمامة قال : أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أئذني بالزنا فأقبل عليه القوم فزجروه وقالوا مه مه... فقال أدن فدنا منه قريبا قال فجلس قال أتحبه لأمك قال لا والله جعلني فداءك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أتحبه لأختك قال لا والله جعلني فداءك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال أفتحبه لعمتك قال لا والله جعلني فداءك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال أفتحبه لخالتك قال لا والله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يديه عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء...

مسند أحمد

□ وجاء عن السفيان والثوري من قوله :

«يا معشر الشباب، عليكم بقيام الليل، فإنما الخير في الشباب».

□ عن علي قال : تقدم - يعني عقبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه، فنادى، من يبارز ؟ فانتدب لي شاب من الأنصار، فقال : من أنتم، فأخبروه، فقال : لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قم ياحمزة، قم يا علي، قم يا عبيد بن الحارث» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيد والوليد ضربتان، فأثخن كل منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد، فقتلناه واحتملنا عبيدة.

مسند ابن ماجة

□ الشباب شعبة الجنوب، والنساء حبالة الشيطان[2].

رواه أبو نعيم عن ابن مسعود والديلمي في حديث طويل...

□ عن عبد الله بن عمرو قال : جمعت القرآن فقرأته كله في ليلة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إني أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل، فاقرأه في شهر، فقلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي)). قال : ((فاقرأه في عشرة)) قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال : فاقرأه في سبع ((قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي فأبى)).

مسند ابن ماجة

□ سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل : وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله. ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه.

البخاري

□ كان شباب من الأنصار سبعين رجلا يقال لهم القراء قال : كانوا يكونون في المسجد فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فيتدارسون ويصلون يحسب أهلوهم أنهم في المسجد ويحسب أهل المسجد أنهم في أهليهم حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء وأحتطبوا من الحطب فجاءوا به فأسندوه إلى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعا فأصيبوا يوم بئر معونة فدعا النبي صلى الله عليه وسلم على قتلتهم خمسة عشر يوما من صلاة الغداة...

مسند أحمد

---

1) تكلم المحبي في كتابه : «جنى الجنتين» على هذا الحديث بإسهاب، ومما قال فيه : «ويرد على هذا الزام سيادتهم، لأنهم داخلون في هذا التأويل، وجوابه : أنه عام خصص بالاجماع، فإن المرسلين أفضل من غيرهم باتفاق.

2) إنما جعله شعبة من الجنون، لأن الجنون يزيل العقل، وكذلك الشباب قد يسرع إلى قلة العقل لما فيه من الميل إلى الشهوات، والإقدام على المضار، ولذا أنشدوا :

سكرات خمس إذا سكر المر ء بها صار ضحكة للزمان

سكرة الحرص، والحداثة، والعشق، وسكر الشراب. والسلطان

□ إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب، وهو في الموت. فقال : (كيف تجدك) قال : أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يجتمعان في قلب عبد، في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف)).

مسند ابن ماجة

□ كانت المناداة (اذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا...) مسلم والترمذي.

□ ـ «إن الله يحب الشباب التائب».

□ ـ «إن الله ليعجب من الشاب الذي ليست له صبوة».

□ ـ «إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله».

□ ـ «خير شبابكم من تشبه بكهولكم وشر كهولكم من تشبه بشبابكم».

□ لا يزال قلب الكبير شابا في اثنين : في حب الدنيا، وطول الأمل. قال ليث عن يونس وابن وهب.

البخاري

□ عن علي رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر وعمر رضي الل عنهما فقال : يا علي هذان سيدا كهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين.

مسند أحمد

□ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أهل الجنة شباب جرد، مرد كحل، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم)).

□ يدخل أهل الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم... أحمد.

□ (...من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه) أحمد.

سنن الدارمي

□ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه.

الترمذي

□ إغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناء قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك.

□ يا غلام : إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله.

□ هناك عبارة كريمة قالها سيدنا محمد ﷺ حينما أنزل عليه قوله تعالى : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ فجمع بني عبد المطلب في دار أبي طالب، وكان عددهم خمسة وأربعين رجلا، وصنع لهم طعاما، فلما أكلوه، قال لهم : «يابني عبد المطلب إني والله، ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بكلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان : شهادة أن لا إلاه إلا الله، وأني رسول الله» فمحمد هنا، وهو في سن الأربعين : سن الرسالة والنبوة، يقر بأنه شاب، وبأن شابا آخر من قريش لم يجئهم بمثل ما جاءهم به سيدنا محمد أو بأفضل منه.

□ قال ابن عباس :

□ ما أرسل الله نبيا إلا شابا، ثم قرأ : «سمعنا فتى يذكرهم، يقال له : ابراهيم».

□ وكان الإمام ابن الجوزي يرى : الشباب أمانة عند آبائهم، وأن قلوبهم كجوهرة ساذجة قابلة لكل نقش، فان عودهم آباؤهم الخير نشأوا عليه... وإن عودوهم الشر نشأوا عليه... فينبغي أن يصونوهم ويؤدبوهم ويهذبوهم، ويعلموهم محاسن الأخلاق، ويحفظونهم من قرناء السوء، ولا يعودوهم التنعم والرفاهية، فتضيع أعمارهم في طلبها إذا

كبروا... إن الولد جزء من والده، وهو نعمة وفخار، أو نقمة وعار...

فاختر لجزئك ما تشاء...

□ ومن وصايا علماء السلف - رضي الله عنهم - ما كان يقوله ابن شهاب الزهري لتلاميذه : «لاتحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المفصل، دعا الفتيان، واستشارهم يبتغي حدة عقولهم.

□ الإسلام يرى من الواجب على كبار الأمة نحو شبابها أن يوصوهم، دائما، بحياة القوة والفتوة والفروسة، وبالتخفيف من الترف والتنعم، وبتعود الخشونة، لأن النعم لا تدوم...

فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يوصي شباب الأمة المومنة وصية جليلة تعد نموذجا باهرا لأدب الفروسية والفتوة، فيقول لهم : «اتزروا وارتدوا، وانتعلوا، والقوا الخفاف، وألقوا السراويل، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وزي العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، وتمعددوا واخشوشنوا واخلولقوا، واقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزوا، وارتموا الأغراض».

«الفروسية» لابن القيم



الأسرة المالكة في المنفى.

رواية "ليلة القدر" تملق للمشاعر الصليبية

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

مقدمة

حصد (المغرب)، هذه الأيام، جوائز دولية بالجملة، من خارج العالم العربي، منها ما هو طبي، كالتي حصل عليها (البروفيسور عبد اللطيف بنشقرون) من (المؤتمر الفرنسي للأمراض البولية في 1987/11/18) عن أحسن عرض تقني لجراحة المسالك البولية. وهي جائزة لم يمنحها المؤتمر لطبيب أجنبي من قبل!

وكان البروفيسور (بنشقرون) قد فاز بجائزة أخرى عن طريقته الجديدة في تحويل المسالك البولية لدى المرضى بالمثانة، والحايل، والكلية...

والجائزة الثانية : فاز بها (الحبيب المالكي) أستاذ الاقتصاد السياسي والإحصاء بجامعة (محمد الخامس)، من (جمعية الإحصاء الفرنسية).

وقد سبق أن نال الأستاذ (المالكي) شرف إلقاء محاضرات بالمؤسسة العلمية الفرنسية المرموقة، (الكوليج ـ دو ـ فرانس)، أمام طائفة من علماء الاقتصاد والإحصاء، للاستفادة من نظرياته الجديدة في اقتصاد العالم الثالث.

والجائزة الثالثة، هي جائزة (الغونكور) الأدبية التي حصل عليها الكاتب بالفرنسية والروائي المغربي، (الطاهر بن جلون)، عن روايته (ليلة القدر) La Nuit Sacré وهو أول كاتب عربي، ومن العالم الثالث يفوز بهذه الجائزة القيمة ذات الشهرة العالمية. وهي جائزة مزدوجة الفائدة فهي تجلب الشهرة والمجد، من جهة، والكسب المادي للفائز بها، من جهة أخرى، فقد بيع من رواية (ليلة القدر)، بعد أسبوعين فقط من صدورها، 271000 نسخة.

وقد سبق أن حصد العداءان المغربيان، (سعيد عويطة)، و(نوال المتوكل)، باقة من الميداليات الذهبية في المباريات الدولية والأولمبية.

ومن جهة أخرى، تم ترشيح الدكتور (محمد عزيز الحبابي) لجائزة (نوبل) للآداب.

الغونكور

والذي يهمنا هنا هو جائزة (الغونكور) التي فاز بها (الطاهر بن جلون). نظرا لشهرتها العالمية، وأقدميتها في الوسط الأدبي، ونظرا لأن الفائز بها غير أوروبي.

فما هو (الغونكور) ؟ هذا الاسم الخشن الغريب الذي يشبه أسماء غيلان الأساطير، أو هديل الحمام، والذي أصبحت تخفق له قلوب العشرات من كتاب الرواية الفرنكوفونية ؟

سميت هذه الجائزة باسم المؤرخ والكاتب الروائي الفرنسي الذي أوصى بها، وترك لها وقفا من ماله الخاص، (ادمون دوغونكور) .Edmond de GONCONRT، المولود

سنة 1822 والمتوفى في 1896، لتمنح لأحسن عمل روائي يعطي صورة دقيقة ومفصلة عن عصره وبيئته. وترك ثروته لأكاديمية تكونت بمقتضى وصيته، وعهد بها إلى (ألفونس ضودي) و(ليون هينيك على أن تشمل الأكاديمية عشرة أعضاء، يقومون باختيار عمل روائي تتوفر فيه الشروط السالفة الذكر.

أسلوب جديد

وقد كان (ادمون دوغونكور) روائيا، ومؤرخا متميزا في أواخر القرن الماضي. وكان يعمل بالتعاون مع أخيه الأصغر (جول)، إلى أن توفي هذا سنة 1870. ولم يكونا يطمحان إلى أن يكونا روائيين يبتكران نوعا جديدا من التعبير الروائي، فقط، بل ومؤرخين، كذلك، وليس مؤرخين عاديين، بل واختصاصيين في قرن معين، بحيث يرصدان خصائصه الخفية والحميمة، وأن يكونا، كذلك، ناقدين فنيين متميزين، ومجددين في جانب من جوانب الفن، ولقرن بعينه، هو القرن الثامن عشر، ولبلدين بعينهما، هما (فرنسا) و(اليابان).

وفعلا، فقد كانا أول من أدخل على كتابة التاريخ عناصر لم تكن معروفة قبلهما. وتشهد بذلك كتبهما.

1 - صورة حميمة للقرن الثامن عشر - 1857.

2 - المرأة في القرن 18 - 1862.

3 - السيدة دوپري - 1878.

هذه الكتب، وغيرها من مؤلفاتهما، تتألف كلها من وثائق، ورسائل خطية، وقطع ملابس، ومنقوشات، وأغاني، أي من أشياء تبدو تافهة في حد ذاتها، ولكنها مجتمعة تكشف عن أسرار العصر وخباياه بطريقة انطباعية، ولا شعورية.

وبنفس الطريقة التدقيقية، كان الاخوان (غونكور) يكتبان رواياتهما المشتركة، أي يسلطان الضوء على أدق الحقائق الخبيئة والمهملة للحياة المعاصرة.

وبنفس الأسلوب كذلك، كتبا مذكراتهما التي تقع في تسعة مجلدات بين سنتي 1887 و1896، والتي قد تكون أصدق فصل في تاريخ الإنسان، وأشد تأثيرا حسب (دائرة المعارف البريطانية).

وقد ألف الكاتبان معا خمس روايات، وكتب (ادمون) وحده بعد وفاة أخيه (جول)، أربع روايات أخرى.

سيادة التفاصيل

وتتكون روايات (الغونكور) من عدد لا نهائي من التفاصيل مرصوصة جنبا إلى جنب، ومتساوية في البروز. فبينما تعطي روايات (فلوبير)، بجميع تفاصيلها، انطباعا عن الوحدة، فإن رواية (غونكور) تتخلى عمدا عن الوحدة لتعطي إحساسا بمرور الحياة. فهما يكتبانها فصولا صغيرة، قد لا يزيد بعضها عن صفحة واحدة، أحيانا، وكل فصل هو عبارة عن ملاحظة منفصلة حول حدث مهم، أو عاطفة أو شعور يلقي ضوءا مفاجئا على صورة نفسية. فالإنسانية، بالنسبة للأخوين (غونكور)، شيء يمكن تصويره، مثل العالم الذي تتحرك تلك الإنسانية بداخله. فهما لا يبحثان في أبعد من «الأساس المادي للحياة»، ويجدان كل شيء يمكن معرفته من تلك القوة المجهولة، مكتوبا بوضوح على أوجه الأحداث الصغيرة المفاجئة، في اللحظات القصيرة المعبرة.

فالنفس بالنسبة للأخوين (غونكور)، هي سلسلة من الحالات المزاجية المتتابعة، وطبعا، بدون منطقهما الاعتباطي المبالغ فيه.

ولا تقوم رواياتهما حول حدث حكائي بالمرة، بل هي عبارة عن معارض لوحات لمظاهر العالم العابرة.

وقد اشتكى النقاد من كون لغة الأخوين (غونكور) لم تعد فرنسية بالشكل المألوف. وذلك صحيح، وهو الشيء الذي تميزوا به عن غيرهم - وهو أرفع ابتكاراتهم - بمعنى أنه، من أجل التعبير عن أحاسيس جديدة، ونظرة جديدة إلى الأشياء، ابتكر الاخوان لغة جديدة[1].

---

1) الموسوعة البريطانية ص 512 الجزء العاشر 1960.

جائزة مشروطة

وقد حافظت جميع الأكاديميات المشرفة على منح جائزة (الغونكور) على وصية الكاتب. الروائي الراحل بمنح الجائزة لمن يسير في خطه.

ويعني هذا أن لجنة الجائزة غير حرة في اختيار العمل الابداعي، بل هي مشروطة ومقيدة بقيود فرضتها عقلية من القرن الماضي لتخليد أسلوب إبداعي معين، أسلوب تدقيقي، وتفصيلي، وتطريزي تجاوزه العصر الحديث، عصر السرعة والثراء الإعلامي الذي غير المقاييس بآلاته السمعية البصرية، وأغنى رصيد الجماهير من التفاصيل، حيث لم يعد الكاتب بحاجة إلى ذكرها، لأنها تنفر القارئ، وتضيع وقته.

الطاهر بن جلون

وقد استفاد الكاتب المغربي (الطاهر بن جلون) من معرفته الجيدة لهذه الشروط. ولا شك عندي في أن الجائز لم تسقط في حجره بعشوائية وصدفة التفاحة التي سقطت على رأس (نيوتن)، فلا بد أنه درس جميع الروايات التي اختارتها الأكاديمية الحالية للجائزة، وتعرف على ميول أعضائها وخلفياتهم الأدبية والسياسية واحدا واحدا. فهو يعيش في (باريس) منذ زمن بعيد، ويشتغل هناك، ويمارس العمل الصحافي في جريدة (لومند) الدولية الواسعة الانتشار، والمسموعة الكلمة. واستطاع إبراز اسمه وتلميعه في الأوساط الأدبية والطليعية ككاتب من فلتات العالم الثالث، وكتلميذ مطيع مخلص ومجتهد للثقافة الفرنسية من أبناء العالم العربي، هذا العالم القديم الجديد، المتخلف حاضرا، والمتقدم المتحضر قديما، والغامض العامر بالأسرار التي لا تستطيع العين الأوروبية النفاذ إليها، حتى بأقوى المجاهر. هذا العالم الحامل لتراث عظيم، وتركة من المجد التاريخي تؤهله لخلافة أوروبا، وتسلم الشعلة منها، كما تسلمتها هي منه قبل سبعمائة عام.

سياسة الجائزة

يدرك (الطاهر بن جلون) كل هذا، ويدرك رغبة الفرنسيين المبرحة في الابقاء على جذوة لغتهم وحضارتهم مشتعلة في دول (المغرب العربي) الذي أوشك على الافلات من أيديهم ثقافيا، كما أفلت سياسيا، بإقبال أبنائه على التعليم بلغتهم العربية بأعداد هائلة، وبوعيهم بقوتها وقدرتها على استيعاب العلوم والتكنولوجيا وبفرحة المستكشف لما تحمله من كنوز تراثه الديني، والعلمي، والفكري، والحضاري عموما...

التخطيط بذكاء

ولا شك عندي في أن (الطاهر بن جلون) أدخل كل هذه المعطيات في حسابه للفوز (بالغونكور)، وزاد على ذلك بروز اسمه ووجهه الجميل الملتحي، والفوتوجنيك، على شاشات التلفزيون الفرنسي، وصفحات الصحف، كاتبا، وناقدا، ومدافعا عن قضايا وحقوق المسحوقين من أبناء العالم الثالث، من العمال المهاجرين، ضد حملات العنصرية التي يقودها أمثال (جان ماري لوبين) في (فرنسا)، والتي انقشع عنها غبار الأزمة الاقتصادية الراهنة.

مزايا الكاتب

وإذا أضفنا إلى هذا كله عنصرا أساسيا، هو موهبة (الطاهر بن جلون) الأدبية المتميزة، ونضجه الفكري، واستيعابه الواعي لخبايا المجتمع المغربي، وقدرته الكبيرة على الوصف، وأسلوبه الفرنسي الجذاب، والأنيق، والمتألق، فإن جميع شروط الفوز بالجائزة الرفيعة، تكون حاضرة.

وإذا أضفنا كذلك، أعماله الروائية السالفة التي غطت العقد الماضي، واثارت الكثير من الاهتمام بنكهتها الجديدة القادمة من وراء البحار، مثل : «موحا الحكيم، موحا المعتوه»، و«صلاة الغائب»، و«ابن الرمال»، وكلها تحكي عن شخصيات وأوضاع اجتماعية، وبيئة غير مفرنسة، ولكنها قريبة جدا إلى الفرنسيين الذين عاشوا في دول (المغرب العربي)، ويعتبرون هذه الدول ملكا ثقافيا يغارون عليه أشد ما تكون الغيرة، وتعمل مؤسساتهم الثقافية بها على استمرار تلك الهيمنة، وتحصينها من الغزو الأنجلو ساكسوني بكل الوسائل.

ابن الرمال

وقد كان (الطاهر بن جلون) مرشحا للجائزة في السنة الماضية عن روايته (ابن الرمال)، ولكنها أعطيت لكاتبة فرنسية. فلم يفت ذلك في عضده، بل انكب على كتابة (ليلة القدر) التي تعد امتدادا (لابن الرمال)، واستطاع أن ينتزع بها تلك الجائزة المرغوبة والمحسدة.

ليلة القدر

وقبل أن نتحدث عن (ليلة القدر)، نعطي نظرة خاطفة عن محتواها.

فهي قصة فتاة ولدت لرجل لا ينجب إلا البنات، فقرر أن يجعل منها ولدا ذكرا، حتى لا يشمت به إخوته.

وتبدأ الراية على لسان الفتاة التي لا نعرف لها اسماً، في ليلة القدر، وأبوها على فراش الموت يعترف لها بالخطإ الذي ارتكبه في حقها، وبعقدته التي جعلته ينكر عليها أنوثتها، ويقدمها للناس كولد يحمل اسمه، بل ويتمادى في التمثيلية، فيزوجها من بنت عمها (فاطمة) التي تقبل الوضع راضية لأنه أحسن من وضعها في بيت أبيها.

وتتحرر الفتاة، بعد موت أبيها، وتدفن معه جميع الوثائق المتعلقة بها، وتهجر المدينة لتهيم على وجهها، إلى أن يختطفها فارس إلى قرية أسطورية لا يسكنها إلا أطفال مذهبهم نسيان الماضي. ويستدرجها الفارس لتحكي له عن ماضيها، فيطردونها من القرية.

وتهيم مرة أخرى، وتتعرض للاغتصاب من مجهول لاترى حتى وجهه. وينتهي بها المطاف إلى حمام عمومي للاغتسال من آثار الاعتداء.

وهناك تلتقي بامرأة في منتصف العمر دميمة سمينة تعمل «حمامية» فتأخذها إلى بيتها، حيث تعيش مع أخيها الضرير، وتتصرف في حياته كطفل مدلل. ويوحي الكاتب بوجود علاقة محرمة بين الأخ وأخته.

وتتكون علاقة سرية بين الأعمى والفتاة، فتحس (الحمامية) بأنها مهددة في أخيها، وتبدأ في البحث في ماضي الفتاة، فتعثر على عمها الذي يحكي (للحمامية) أنها كانت رجلاً يدعى (أحمد)، وإنها كانت متزوجة لابنته (فاطمة).

وتأتي (الحمامية) بالعم البغيض إلى الدار ليوجه لابنة أخيه بماضيها التعس، فتعود إليها جميع آلام الماضي المشوه، فتطلق النار على عمها، وتقتله، ويحكم عليها بخمس عشرة سنة سجنا.

ويواظب الأعمى على زيارتها في السجن ومواساتها إلى أن تقترب من نهاية مدتها.

ويطاردها ماضيها في السجن كذلك، حيث ترتب الحارسة المرتشية، لأخوات الفتاة «المتحجبات المنتميات إلى الأخوات المسلمات» الانفراد بأختهن التي كانت ذكراً أثيراً عند والدهن، لينتقمن منها بعملية ختان وحشية تعاني بعدها آلاما مبرحة.

ويطلق سراحها فتأوي إلى زاوية، وتصبح امرأة «مباركة» تشفي لمساتها لبطون النساء العقم. وأثناء ذلك تأتيها امرأة تطلب الشفاء، فتكتشف أنها الضرير الذي كان انقطع عن زيارتها في سنوات سجنها الأخيرة، بعد أن كتب لها يخبرها بموت أخته الحمامية، وتحرره من سلطانها.

وتنتهي الرواية بلقاء الفتاة بالحمامية وأخيها الأعمى في تكية أو معبد يوحي بأنه الآخرة.

كثافة الرموز

هذه مجمل أحداث الرواية التي تقع في مائة وخمسين صفحة بحرف دقيق. وهي صعبة القراءة لكثافة رموزها الدينية والفلسفية، رغم جمال أسلوبها، وشاعريتها، في اللغتين، العربية والفرنسية. فقد كانت ترجمة الأستاذ (محمد الشركي) ممتازة ووفية للنص.

ومن أسباب صعوبة قراءتها، وخصوصاً في البداية والنهاية، التزام الكاتب بأسلوب (الغونكور) التفصيلي والتطريزي المغرق في الوصف والتحليل، الأمر الذي ينفر قارىء العصر الحديث، صاحب المخزون الهائل من الرموز الأدبية التي يستغني بها عن التفاصيل، وينشد الاختزال، نظراً لقلة صبره، وتوزع اهتمامه وتنافس أجهزة الاعلام على وقته.

وتقع الرواية في اثنين وعشرين فصلاً معنوناً، تماماً كما أوصى بذلك (أدمون غونكور).

الكلمة للنقاد

فماذا سيقول النقاد عن رواية (ليلة القدر)، بعد أن يستقرّ الغبـــار، وتسكت أبـواق الاعـلام، وتخفت أضـواء المهرجان ؟

أغلب أدباء (المغرب) تقدموا بعاطر تهانيهم وثنائهم على الرواية وكاتبها، وأغلبهم فعل ذلك آليا، وقبل أن يقرأ الرواية..

فـ (الغونكور) في نظر بعض الناس، في هذه البقعة من العالم، لا تقل عن (نوبل) إلا ببضعة أشبار !

ولم يرتفع صوت مخالف لأصوات التهاني والتبريك، إلا صوت الكاتب المغربي المعروف (عبد الكريم غلاب) رئيس تحرير جريدة العلم، الذي حمل حملة عنترية على (الطاهر بن جلون) فقط لكتابته الرواية بالفرنسية، دون أن يكلف نفسه عناء مناقشة موضوعها. وتدخّل بين الكاتبين الأستاذ (قاسم الزهيري)، رئيس التحرير السابق «للعلم» كذلك، لتلطيف الجو، فأيد (غلاب)، دون أن ينتقص من قيمة الجائزة المعنوية بالنسبة (للمغرب)، والأمة العربية عموماً.

لماذا أرفضها ؟

ومن قراءتي الأولى لرواية (ليلة القدر)، أستطيع أن أقول إنها لن تعجب السواد الأعظم من المغاربة، بل والعرب والمسلمين. وهذه أسبابي :

1 ـ الرواية مكتوبة ومحبوكة بعقل ميكيافيللي يؤمن بأن «الغاية تبرر الوسيلة». والغاية هنا هي الحصول على الجائزة بأي ثمن ! والثمن الذي دفعه الكاتب عالٍ جداً، بحيث نالها على حساب التعريض بعدد من القيم الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية الإسلامية العزيزة على المسلمين. فالرواية مبنية في جوهرها لاسترضاء وتملق المشاعر الخاصة، والأحكام المسبقة التي يكنها الفرنسي ـ بصرف النظر عن مستواه الثقافي والاجتماعي ـ للأمة العربية والإسلامية. وهي مشاعر صليبية ترقد هامدة تحت سطح رقيق من النفاق العنصري، لا تكاد تهب نسمة أزمة حتى تكشف عن وجهها البشع الخبيث. وقد أسقطت الأزمة الاقتصادية الراهنة (فرنسا) القناع عن وجهها في شخص (جان ماري لوبين) العنصري الرهيب الذي يدعو إلى طرد جميع الأجانب من (فرنسا)، وخصوصا أبناء (المغرب العربي) رغم دورهم الفعال في بناء (فرنسا) ما بعد الحرب.

ـ ينزل الكاتب إلى أسفل طبقة اجتماعية ليختار فيها وقائع وأشخاص روايته. وتدور أحداثها في جو مأساوي مظلم حسا ومعنى، تسود الكراهية، والحسد، والظلم، والشعوذة، والقسوة، والشراسة، وانتهاك الأعراض، ولا إشارة فيه إلى طبع أهل (مراكش) و(أكادير) المرح السمح، وجوّهما المشمس المشرق العامر بالبهجة والمسرات، والموحي بالدعة والطمأنينة والسلام.

ـ يحرص (ابن جلون) دائمـاً على أن يزاوج بين الانحراف، والفواحش، والانحطاط الأخلاقي، وبين الرموز الدينية، والطقوس الإسلامية معربا عن جهله ببعضها.

(ويسري هذا الجهل، كذلك، على المترجم «الشركي»، والمراجع «محمد بنيس» فهو حين يصف صلاة الجنازة على والد الفتاة، يقول على لسانها : «وفي الجامع الكبير، عينت، طبعاً لأؤم صلاة الجنازة» ومعنى «طبعا»، هنا ؟ فصلاة الجنازة غالبا ما يؤم الناس فيها إمام عارف بطقوسها المختلفة عن الصلاة العادية. وليس ضروريا أن يكون ابن الميت. ويضيف :

وعندما كنت ساجدة... «وهل في صلاة الجنازة سجود ؟... لم أتمكن من منع نفسي من التفكير في الرغبة الحيوانية الذي كان جسدي ـ البارز بذلك الوضع ـ سيثيرها لدى أولئك الرجال، لو علموا بأنهم يصلون خلف امرأة. «ويستمر في التخيلات التي نتحاشى عن ذكرها في هذا المقام (صفحة 27 ـ 28).

وفي مشهد آخر. حين تخرج البطلـة مطرودة من قرية الأطفال (التي ينزلق الكاتب في وصفها إلى القول : «كانوا يعيشون بعيداً عن المدينة... وبعيدا عن الله نفسه.» (الصفحة 33) وتختلي في غابة يتبعها رجل ليغتصبها برضاها، وهو يردد : «باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على آخر الأنبياء، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه. باسم الله الأعلى. الحمد لله الذي جعل المتعة العارمة...»

وفي نفس السياق تقول الفتاة : «كان يرتجف ويتمتم ببعض الصلوات..» (صفحة 47).

ويلقى بعض الأسئلة المشبوهة على ألسنة الأطفال بأحد الكتاتيب : «هل حقا سيدخل جميع النصارى النار ؟»

و«بما أن الإسلام هو أفضل الديانات، فلماذا انتظر الله طويلا لكي ينشره ؟» و«لماذا وصل الإسلام متأخراً جدا ؟» وعلى لسان المعلم ـ الفقيه ـ الذي يلقي عليه الأطفال هذه الأسئلة يقول : «أحب أن أعلمهم القرآن كما لو كان شعرا رائعاً».

وفي صفحة (74) يحكي عن مكتبة حية هي عبارة عن بنات جميلات تحفظن نفائس التراث الإنساني، وترددنه لمن يريد سماعه بثمن. وفي نهاية المطاف بالمكتبة، يدنو من الزائرة شيخ من ليقول لها : «أنا لست سوى قارئ بئيس للقرآن» ويضيف : «إذا كنت بحاجة إلى أحد يقرأ بعض الآيات على قبور أهلك، فأنا من يخدمك...»

ـ ويبرز الكاتب بشكل مقصود ومبالغ فيه معاملة الرجل العربي المسلم القمعية للزوجة التي لا تنجب له ذكوراً. وتقابل هي قسوته بخنوع يؤدي بها إلى مستشفى المجانين، في غياب زوجها، ودون علمه، بل ودون أن يشعر بغيابها.

وموضوع المرأة حساس جداً عن الفرنسيين والغربيين، على العموم. وبمعاملة الرجل لها يقيسون المستوى الحضاري للشعوب !

وينثر (الطاهر بن جلون) الآيات والأحاديث النبوية بين سطور هذه الرواية فتبدو مقحمة في غير مكانها، كما بدت المناقشة حول الإسلام ومذهب «الزن» الهندي شاذة بين الفتاة شبه الأمية، والأعمى معلم القرآن، وفوق مستواهما الفكري الذي حدده الكاتب.

ـ ويكلل (الطاهر بن جلون) هذه الرواية الرهيبة التي تعطي أسوأ انطباع عن المجتمع العربي والإسلامي باسم (ليلة القدر) التي هي خير من ألف شهر، ليجعل من الكتاب مأدبة دسمة لأعداء العرب والمسلمين، يصابون منها بالتخمة، في أعياد رأس سنتهم !

مواضيع بديلة

هذا قليل من كثير...

فهل، ياترى، كان (الطاهر بن جلون) ينال الجائزة الفرنسية، لو كان كتب روايته عن عائلة مغربية مهاجرة في (فرنسا) وما تعانيه على أيدي العنصريين من اضطهاد ؟ هذا الاضطهاد الذي قد ينتهي أحياناً بذبح عائلة بأسرها في غياب الزوج الكادح ؟

هل كان ينال الجائزة لو كتب روايته عن كبار السن من الآباء والأمهات (بفرنسا) الذين يهجرهم أبناؤهم إلى مصيرهم في دور العجزة ؟ أو عن عشرات الآلاف من مدمني الخمر، الشراب الأول في (فرنسا) ؟ أو عن السبعة آلاف فرنسي الذين اعتنقوا الجنسية الألمانية في أول يوم فتح فيه الألمان (باريس) ؟

ولن أذكر قصة طرد (صلاح الدين الأيوبي) للصليبيين من (فلسطين) ولا قصة مقاومة شعوب المغرب العربي للاستعمار الفرنسي البغيض، وهي قصص عامرة بالمواقف الإنسانية والبطولية التي كان أولى (للطاهر بن جلون) أن يتألق فيها !

هدية مجانية

وقد قدم الكاتب لليمين الفرنسي العنصري هدية بمناسبة سنة 1988 لم يكن يحلم بها. وحين رفعت مخرجة سينمائية دعوى على (ابن جلون) بأنه سرق فكرة روايته من سيناريو أحد أفلامها واتهم هو اليمين الفرنسي بالمشاغبة عليه، لأنه كاتب من العالم الثالث. ولو أن (جان ماري لوبين)، أي زعيم العنصريين الفرنسيين، قرأ الرواية، لقدم (للطاهر ابن جلون) جائزة أخرى أكبر من (الغونكور) فهي شهادة مجانية على تخلف الشعوب العربية، والإسلامية، وشعوب العالم الثالث عموماً، بقلم واحد من ألمع كتابها.

الماضي البسيط

ولابد أن (الطاهر ابن جلون) يعرف جيداً قصة الكاتب المغربي : (ادريس الشرايبي) الذي يكتب ومثله بالفرنسية، مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الأربعينات. فقد كتب (الشرايبي) روايته (الماضي البسيط)



يولي جلالته لأسرته الصغيرة نفس الرعاية التي حظي بها من طرف والده.

(Le Passé Simple) التي كانت عبارة عن سيرة ذاتية تحامل فيها على المجتمع المغربي، وصوره في أبشع صورة، وخصوصاً أيام تعلمه القرآن بالكتاب (بفاس)، وكيف كان المعلم قاسيا على الأطفال الأبرياء، وكيف كان جو الكتاب كئيباً يسود فيه الانحراف الجنسي، والتخلف الاجتماعي. وقد أعطت هذه الرواية، آنذاك، ذخيرة سياسية حية لليمين العنصري الاستعماري الفرنسي الذي كان يطالب بتمديد فترة الحماية (للمغرب) بحجة أن (فرنسا) لم تتم رسالتها الحضارية بعد في المنقطة !

وما أشبه اليوم بالأمس ! والعالم العربي والإسلامي تتكالب عليه الصليبية المقنعة، والصهيونية العالمية من كل جانب، وهو في أشد الحاجة إلى إعطاء العالم صورة أكثر إشراقاً ونظافة من الصورة التي تعطيها عنه (ليلة القدر)، و(الماضي البسيط)، و(الخبز الحافي) (لمحمد شكري) التي ترجمها (الطاهر ابن جلون) نفسه إلى الفرنسية، وسعى إلى تقديمها، ومؤلفها في برنامج (أبوستروف) الشهير بالتلفزيون الفرنسي.

لعنة النجاح الملغوم

وكثيراً ماتلاحق لعنة نجاح هذه الروايات المشبوهة أصحابها فـ(ادريس الشرايبي) فضل الاغتراب على العودة إلى أرض الوطن بعد فعلته. وهو الآن يعيش في جزيرة (جيرزي في القنال الإنجليزي).

و(محمد شكري) انتهى إلى نفس المصير الذي توقعه لنفسه، فقد تنبأ مرةً بحق، بأنه سيكون بعد رواية (الخبز الحافي)، مثل قطعة العلك (اللبان)، «يبصقها الناس بعد امتصاص حلاوتها !»

لعنة الغونكور

ولا أدري ماذا سيكون موقف (الطاهر بن جلون) بعد أن يكتشف القراء الثمن الباهظ الذي دفعه من قيم أمته، وسمعتها، للحصول على (الغونكور)، هذه الجائزة التي قال عنها (جان كاريير (Jean Carrier) الذي حصل عليها سنة 1972 : «إنها قطعة حلوى تراكم عليها الذباب، يكثر عليها آكلها أسنانه.

الرباط ـ أحمد عبد السلام البقالي

بمناسبة أعياد الشباب

مساهمة الثقافة في معالجة مشاكل الشباب

للأستاذ عبد اللطيف أحمد خالص

أود قبل الشروع في هذا العرض أن أقدم صورة تجسم، بشكل بسيط جدا، عناصر هذا الموضوع الخطير الذي سأحاول في هذه الدراسة المتواضعة التطرق إلى أهم جوانبه الاجتماعية والسياسية وأخطر مظاهره الثقافية والفكرية بمناسبة عيد الشباب.

لقد سبق، ولاشك، لكل فرد منا أن شاهد في حياته نباتا ما، ينتشر بجانب بناية منسية عهيدة.

وقد لاحظ هذا الإنسان أن النبات يحاول، في صراع مستمر التسرب إلى جدران البناية التي تضايقه وتخنق أنفاسه معتمدة في عملها على قسوة الحجارة وتماسك البنيان، إن الإنسان الذي شاهد هذا المنظر يعود إلى حال سبيله وهو يتحسر للاختناق الذي يتعرض له النبات سواء كان شجرا أو نخيلا أو زهرة أو غير ذلك ويتألم الإنسان لكونه عاجزا عن القيام بأي عمل من شأنه أن يحافظ على حياة النبات مع ضمان سلامة البناية. ولكن هذا الفرد عندما يرجع إلى نفس المكان، بعد مدة، يجد أن النبات قد انتشر فانتصر، واستطاع التسرع إلى داخل البنيان فملأه شقا، وتوغلت عروقه في أعماق الحجارة القاسية التي لم تستطع الصمود أمام حيوية النبات واستماتته. يستخلص من هذا أن المادة الحية تقضي على المادة الميتة، وأن الطبيعة النشيطة تقهر الطبيعة العاجزة.

لقد حاولت، عمدا، تقديم هذه الصورة في مقدمة دراستي حتى يدرك الجميع أن المقارنة بين هذه الصورة والواقع الاجتماعي الذي نعيشه مقارنة صادقة، ذلك أن النبات الذي كافح ضد الاختناق والموت، بقوة وبأس، يمثل فئة الشباب الذي يسعى، جاهدا في شق طريقه، وإثبات وجوده مستعملا جميع الوسائل التي تمكنه من الحياة والوجود رغم ما يتبع ذلك من عنف وقوة وشدة، وأن البناية العهيدة تجسم المجتمع البشري الذي يعض على تقاليده البالية وعاداته الفانية بالنواجذ حتى لا يفلت الزمان من يده.

ولرب سائل يسأل : وما هو دور الثقافة، يا ترى، في هذا الصراع الحاد ؟... ذلك هو ما سأحاول التعرض إليه في بقية هذه الدراسة بعدما أقف، برهة من الزمن، لتحليل الأبعاد الفلسفية للأزمة الخانقة التي تعرفها الحضارة الإنسانية الحديثة، وألم بالأسباب الخفية والظاهرة التي أدت بالجيل الجديد إلى الاضطراب والانزعاج أولا، ثم إلى الانفجار والثورة ثانيا وإلى اليأس والانتحار في مرحلة أخيرة. وسوف لا تتم الإحاطة بالموضوع إلا إذا أدركنا التناقض المذهل الغريب الذي نشأ بين التقدم العلمي المدهش الذي عرفته البشرية، بعد الانتصارات التقنية العجيبة، والاكتشافات العلمية الباهرة التي كان، من

المعتقد، أنها ستبعث الطمانية في نفوس البشر، والسكينة في قلوبهم، بدلا من خلق البلبلة في العقول، والحيرة في الألباب، وبين التطور الاجتماعي الذي ما زال يتلكأ في خطاه لمسايرة العهد الالتكروني والفكر التلقائي رأفة بشخصية الإنسان والذي تعد أزمة الشباب اليوم أهم مظاهره وأسوأ معالمه.

وستكون الثقافة ودورها في تكوين الأفراد والجماعات، وتكييف المجتمع مع أبعاد التطور ومتطلبات التقدم خاتمة المطاف في هذه الدراسة التي نأمل أن توفى بالمراد الذي توخيناه والغرض الذي قصدناه.

ينبغي على المجتمع البشري - إذا أراد القيام بعمل مثمر فعال - للحفاظ على التوازن الاجتماعي، ومواصلة سيره نحو التقدم التقني أن يختار بين طريقتين اثنتين :

أولاهما :

بذل جهود متوافرة من طرف الكبار رغبة في توقع الأحداث وتتبع مطامح الشباب ومطامعه وميوله لأن الحكم - وهو الآن في يد الكبار - معناه التدبر والتوقع.

وثانيتهما :

نمو الشباب : وهو أمر لا يتحقق بدون اضطراب وقلاقل وثوارت. ومما لا جدال فيه أن الطريقة الأولى أصوب من الطريقة الثانية غير أنها عسيرة التحقيق لأنها تتطلب المزيد من الوعي، وتحتم على جميع الذين يتولون القيادة، سواء في ميدام الحكم أوفى مضمار النشاط الثقافي أو التربوي أو داخل المؤسسات الاجتماعية، أن يكونوا شاعرين بمسؤولياتهم الجسام إزاء الشباب الناهض، ومقدرين للتبعات العظام التي يفرضها عليهم وجود الجيل الصاعد، أن إرضاء رغبات الشباب يستلزم اعتمادات باهظة لا تتكفل الدولة وحدها بإيجادها، بل يتعين على المؤسسات التجارية، والمرافق الصناعية، والمبادرات الشخصية المساهمة في توفير هذه الاعتمادات، كما أن نمو الشباب يحتم إعداد المقاعد الكافية في المدارس، وتكوين الجمعيات الثقافية، والنوادي التربوية، والملاعب الرياضية لقضاء الوقت الثالث بها، وإيجاد أماكن العمل، بعد اجتياز فترة المراهقة، وإشراك الشباب في مسؤوليات التسيير والتوجيه داخل المعامل والإدارات والشركات.

وإذا كان عهد الشباب يعتبر، عند الفرد، عهد الحظ، وحسن الطالع، وفترة الأمل والتطلع، فإن هذا العهد يعتبر، بالنسبة للأمة، عهد اعداد برنامج دقيق محكم وتخطيط هادف موفق.

إنها مهمة عسيرة وثقيلة لأن المجتمع البشري يتلكأ دائما في توضيح معالم المستقبل، بل إنه يتأخر حتى في رسم خطوط الحاضر الذي يعيش فيه. ومن المؤسف أن المجتمع لا يتوفر على مواهب ذاتية تؤدى به إلى توقع الأحداث؛ إن الفكر العمومي يتطلع، بحماس وسرعة، إلى الأسفار عبر الكواكب السيارة والأفلاك الدائرة، ولكنه لا يجرؤ على القيام بسفر داخل قرارة نفسه رغم أن الإسلام دعانا، نحن المسلمين، منذ أربعة عشر قرنا، إلى اعتبار نفوسنا، والوقوف على دوافعنا الداخلية، وأعماقنا الشخصية عندما تساءل الله في القرآن الكريم وهو يخاطبنا قائلا : «وفي أنفسكم، أفلا تبصرون» ؟ ولكن ما هو الحل والمجتمع البشري يعطي للعلوم الخيالية من الاهتمام والاعتبار ما لا يعطيه للواقع الذي يعيشه ويحس به ؟

لقد اهتم كثير من العلماء بدراسة مشاكل الشباب، وتساءلوا مرارا، عن أسباب الحيرة والقلق والاضطراب المسيطرة على الشباب، كما وقفوا مليا للاستفسار عن الدور الذي يمكن أن تلعبه الثقافة لحصر نوازع النفس الإنسانية الامارة بالهدم والتخريب، والتساؤل عن مدى التأثير الذي يمكن أن تفعله الثقافة للحيلولة دون وقوع الهزات الاجتماعية التي عرفها العالم بسبب ثورة الطلاب والشباب.

وقد أبدع الخبراء في تصوير الأشكال والألوان التي يمكن أن تكتسيها الثقافة للاضطلاع بهذا العمل الخطير ذلك أن الأشكال التي اختارها الناس للثقافة في ماضيهم والطرق التي كانوا يعيشون عليها في الأزمان المدبرة، والتي ما زالو متشبثين بها في الوقت الحاضر هي التي تحدد، بدون ريب، تطورهم الجسمي والعقلي. وكيف ما

كان الأمر، فإن الموضوع لا يتعلق، هنا، بتحديد الصلة بين الثقافة والمراحل التي يجتازها الإنسان في حياته، ولكنه يهدف إلى التذكير بأن حقب الحياة حلقات ثقافية متصلة متجددة بتجدد الأعمار والأفكار والفئات الاجتماعية. ولا أدل على ذلك من أن الأقليات المنتشرة في العالم الآن - ولا أعني بطبيعة الحال الأقليات التي تذوق مرارة الميز العنصري وتصطلي بشواظ من نيران العنصرية - وإنما أعني فئات الشباب كالهيبيين وغيرهم - أقول إن هذه الأقليات لا تتميز عن غالبية سكان العالم بالجنس أو اللغة أو اللون ولكنها تتميز فقط بلون الحياة الغريبة التي تحياها، وبالعادات والأخلاق التي اخترعتها من لباس مخالف لما يلبسه العموم، وحلاقة تتغير عن حلاقة جميع الناس. ومع ذلك فإن رؤية هذه الأقليات تبعث في غالبية الناس مشاعر الاشمئزاز والحزازة، وتغرس في نفوسهم بذور الحقد والكراهية ضد الهيبيين ومن يدور في فلكهم وضد من يقلدهم في عيشتهم إلى حد تكاد تصبح فيه هذه المشاعر شبيهة بالاحقاد التي تتأجج في نفوس العنصريين. ولو أن الناس استعادوا خصال التسامح الاجتماعي، والتفاهم البشري، والتقارب الإنساني التي كانت سائدة في العهود البدائية نفسها لنظروا إلى هذه الفئات المتميزة، والاقليات المخالفة بمنظار الاشفاق والرحمة ولتركوا أعضاءها يعيشون عيشة راضية حتى يرجعوا عن غيهم، ويعودوا إلى صوابهم، ولكننا، جهلا، عزلنا هذه الفئات وراء حدود رسمناها، في استبداد واستكبار، متناسين أن الإنسان عنصر محترم لأنه كائن حي لا لكونه سيد المخلوقات، ولو أننا عاملنا هذه الأقليات باحترام لأجبرنا أفرادها على معاملتنا بمثل المعاملة الإنسانية الكريمة التي كان ينبغي أن تعاملهم بها. وأن الأمل معقود في أن يساعد انتشار المعرفة، وتطور الاتصالات بين الناس، وتكيف العقليات والثقافة مع الأوضاع الاجتماعية المتقلبة على خلق انسجام تام، واحترام كامل بين البشر رغم اختلاف عاداتهم وطقوسهم وأرديتهم.

ومن الغريب أن مشاكل الشباب لم تعرف هذه الحدة إلا في السنوات الأخيرة التي اتسمت بتطور الإنسان الذي نتج بدوره عن تقدم العلوم والتقنيات، وتعدد الاختراعات والاكتشافات، وتنوع الملاهي والمغريات. فقد كان الإنسان يعيش خلال القرون الماضية في تعب مستمر من أجل لقمة الخبز، وضنى متواصل من أجل الحياة؛ وكان العالم يواجه أشد الحروب والويلات؛ ومع ذلك فقد كانت تسود بعض المجتمعات البشرية سعادة اجتماعية، ورخاء اقتصادي، وتوازن بين الفئات التي تتعايش داخل هذه المجتمعات في هدوء شامل لا تعكر صفوه إلا بعض الخلافات التي تقتضيها سنة الكون، والتي تقضي بتنازع البقاء بين الأفراد والجماعات وبين الأمم والشعوب. وكان من المنتظر بعد تطور أسباب الراحة والتقدم الصناعي، وتعاقب التجارب العلمية الناجحة، أن تنعم البشرية بسلام تام في مجموعها، وهناء شامل يعم أطرافها؛ ولكننا أخذنا نلاحظ أن الهزات التي تصيب المجتمعات الراقية أشد هولا من الأزمات التي تعرفها شعوب وأمم ما زال بينها وبين الخروج من وهدة التخلف خرط القتاد، كما صرنا نشاهد أفواجا عارمة من الشباب المتسكع المنهوك تتوارد على أقطار مختلفة فرارا من النعيم السائد في بلادها، ورغبة في الانغمار في الحياة البدائية التي تعيش فيها هذه الأقطار المتخلفة.

يتضح من هذا أن الأزمة المستعصية الحالية أزمة حضارة وأنها نتجت عن التقلبات المذهلة، والتطورات المدهشة التي طرأت على المجتمع البشري بعد الانتصارات الباهرة التي حققها العلم والتقنولوجية في مضار الاكتشاف والابداع والابتكار والاختراع. ومن الجلي أن الكائن البشري لم يستطع التكيف بسهولة مع هذه الأوضاع الجديدة لأنه وجد نفسه مغمورا في مجتمع رخاء واستهلاك طغت فيه الآلية، وتعددت فيه الحاجيات الفردية، وأصبح فيه الفرد مجبورا على خوض حياة أساسها الإنتاجية، وعمادها إرضاء الحاجيات المادية المتجددة، وجدارها الاحتكارات الاقتصادية والصناعية والسياسية والثقافية، وسلاحها أجهزة إعلامية تطرق الآذان بغير استئذان وتفرض على الاذهان بوسائل الاذعان ودون سابق إعلان.

إنها ظاهرة عجيبة يتجلى فيها فقدان التوازن بين الكائن البشري وبين ما يحقق عقل هذا الكائن من معجزات باهرة كان من الواجب أن تتفق وميول هذا الكائن

بدلاً من أن تتجاوز مراحل نموه وتفوق طاقاته المعنوية والمادية.

إن تحليل هذه الظاهرة الغريبة يتطلب منا وقفة يسيرة لمعرفة الأسس التي تنبني عليها الحضارة الإنسانية، إن الفرد البشري كائن حي، قبل كل شيء، وأن تاريخ هذا الإنسان، كما يقول فرويد، هو في الواقع تاريخ تعذيبه؛ إنه تاريخ محفوف بالمكاره، مشحون بالمتاعب والمصائب التي ترجع، أولا وبالذات، إلى تركيب الإنسان الجسمي البيولوجي الذي جعله يتوفر على فطرة والهامات وحواس تتشبث بكل ما يرضيها، ويحقق رغائبها، كما ترجع، بالتالي، إلى تكوين الفرد الاجتماعي الذي يفرض عليه كبت الشهوات وضبط الأهواء. وأن الثقافة التي يتلقاها الإنسان لا تفرض الضغط على وجوده الاجتماعي فحسب بل تفرض هذا الضغط والاكراه حتى على وجوده الجسمي والبيولوجي لأن هذا الضغط يعتبر الشرط الأول لكل تقدم إنساني ذلك أن بقاء حواس الإنسان حرة في تصرفاتها، طليقة في طريق تحقيق غاياتها الطبيعية يؤدى إلى تنافي الإنسان مع كل مجتمع وإلى سلبه من كل حماية. وأن القوة الهدامة للحواس تنبثق من الكفاح الذي تقوم به هذه الحواس لإرضاء شهواتها غير أن الحضارة لا تقبل هذا الإرضاء الكلي لأن مسيرتها لا تبتدئ إلا بعد الأعراض، عمليا، عن تحقيق الغاية الأولى لهذه الحواس ألا وهي إرضاء الحاجيات إرضاء كليا. ولن يستطيع الحيوان الإنساني أن يصبح كائنا إنسانيا إلا بعد تحول أساسي لطبيعته يشمل الأهواء والقيم الفطرية أي المبادئ التي تؤدى إلى تحقيق هذه الأهداف.

ويمكن أن نعطي صورة عن التحول الذي يطرأ على نظام هذه القيم والذي يسجل أول صراع داخلي يبدؤه الإنسان مع نفسه حسب اللائحة التالية التي وضعها هير بير ماركوز في كتابه إلاه الحب والحضارة ص 24 :

فالإرضاء العاجل	**يصبح**	إرضاء آجلا
والمتعة	**تصير**	تضييق نطاق المتعة
والفرح (وهو اللعب)	**يمسي**	مشقة (العمل)
والتلقي	**يغدو**	إنتاجا
عدم الكبت	**يصبح**	سلامة

وقد وصف بعض العلماء هذا التحويل بأنه تحول من مبدأ المتعة إلى مبدأ الواقع أي من اللاشعور إلى الشعور.

فاللا شعور ينحدر من أجهزة عقلية لا تكافح إلا من أجل إرضاء الشهوات فهو يحفز النشاط العقلي إلى التخلي عن أي عمل قد يحدث له نوعا من القلق أو الألم؛ وهذا ما يؤدي بمبدأ المتعة إلى الدخول في صراع محتدم مع المحيط الطبيعي والاجتماعي لأن الشخص ينزعج عندما يدرك أنه من غير الممكن، إرضاء شهواته إرضاء تاما، وينمو على اثر هذه التجربة المرة التي خيبت ظن الشخص مبدأ جديد في الجهاز العقلي هو ما سماه بعضهم بمبدأ الواقع الذي يربى الشخص على التخلي عن «كل شهوة موقتة، هدامة، وغير مؤكدة» مقابل «شهوة مؤجلة، ضيقة النطاق، ومؤكدة»، وعلى هذا فإن مبدأ الواقع يسرع إلى إغاثة مبدأ المتعة ولا يقضي عليه ويغيره ولا ينكره. ومعنى هذا أن مبدأ الواقع لا يغير شكل المتعة وأوانها، وإنما يغير مادة المتعة نفسها، ذلك أن تكيف مبدأ المتعة مع مبدأ الواقع يفرض إخضاع القوة الهدامة للمتعة الفطرية وتحويرها كما يقرر تنافيها مع القوانين والعلاقات الاجتماعية. يستنتج من هنا أنه، بفضل مبدأ الواقع، يصبح الكائن البشري الذي كان، تحت ضغط مبدأ المتعة، شعاعا من الانفعالات الحيوانية، كائنا مهذبا و«أنا» منظما يكافح من أجل كل ما هو «مفيد له وكل ما يمكن أن يصل إليه دون الاضرار بنفسه وبمحيطه الحيوي، وبتأثير من هذا المبدأ، يعمل الكائن البشري على تنمية وظيفة العقل، ويدرك كيف يميز بين ما يضره وما ينفعه، وما يفيده وما يشكل خطرا على حياته، كما يتوصل إلى التمييز بين الحق والضلال. وهكذا يصبح الرجل يتوفر على حاسة الانتباه والذاكرة والحكم كما يصير عنصرا واعيا ومفكرا مسايرا لكل ما هو خارج عن ذاته. ولا يخرج عن هذا التنظيم الجديد للأداة العقلية إلا ميدان واحد، وهو ميدان الخيال، الذي ظل محفوظا من تأثيرات الحضارة، ومتصلا اتصالا وثيقا بمبدأ المتعة حتى

يظـل الشعراء والعلمـاء والمفكرون والفـلاسفـة يحظـون بـالحرية المطلقة في مضمار الخلق والابـداع والابتكـار والاختراع.

قد يبدو هـذا الاستطراد الفلسفي، لأول وهلة، بعيدا عن الموضـوع، ولكني تعمدت العروج عليه لأنـه يتصل بدراستنا من جهتين :

أولاهما :

الانفعـالات والاضطرابـات التي تعتري الإنسـان من حين لآخر، بصفة عـامة، والشباب، بصفة خـاصة، والتي تتصـل بـالاحتدام الـداخلي القـائم في قرارة الإنسـان بين مبدأي المتعة والواقع.

وثانيتهما :

عملية التهذيب والتثقيف وممارسة التكوين والتربية الدائمة التي تكون العمود الفقري لهذه الدراسة.

إن الثـورات التي عرفتهـا البشريـة في تـاريخهـا والاضطرابات والقلاقل الاجتماعية التي تهز أركـان المعمور لا تخرج في الحقيقة عن إطـار الصراع المحتدم القـائم بين مبدأ المتعة أو اللا وعي ومبدأ الواقع أو الوعي.

فما دام الكـائن البشري أو المجتمع الإنسـاني سـالكـا سبيل الوعي والرشد، ومتحكما في أهوائه وشهواته وأغراضه، ومعتبرا، مع مصـالحـه الفرديـة أو القـوميـة، مصـالـح الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، فإن الطمأنينـة تسـدل ر داءهـا الهـادئ الـدافئ على البشريـة جمعـاء، أمـا إذا انتصر مبـدأ المتعة، وانتشر اللا وعي، وتحكم الهوى والأغراض الشخصيـة أو القومية، فإن المصائب والويلات تعم الإنسـانية لأن الفتنـة لا تضر أصحـابهـا فحسب ولكنهـا تهـدد النـاس أجمعين خصوصا في هذا العصر الـذي اختصرت فيـه المسـافـات بين مختلف الدول والشعوب، وتوطدت فيه العلاقات الاجتماعية والدولية، وأحكمت فيه أسباب التعارف والتقارب بعد تطور المواصلات، وتقدم الوسائل السمعية البصرية، وانتشـار أجهزة الإعلام في أرجاء الدنيا بـأسرهـا. وليس من الغريب علينـا، نحن المسلمين، تعميم الفتنـة، وشمول الفـوضى والاضطراب لأن القرآن نبهنا إلى ذلك في الآيـة الكريمـة الصريحـة من قولـه تعـالى : **﴿واتقوا فتنـة لا تصيبن الـذين ظلموا منكم خاصة﴾**.

إن الصراع بين مبـدأي المتعـة والـواقـع لا يتجلى في فترة واحدة من حياة الأفراد والجماعات، ولكنـه يتجدد طوال تاريخ الإنسانية وتاريخ كل فرد؛ ففي الوسط العائلي نجد الأب يحتكر السلطـة والنفوذ والمتعـة ويفرض على الأبنـاء الاعراض والمعـانـاة والرفض، وفي المـدرسـة يقـوم المعلم بتلقين مبـدأ الواقع إلى التلاميـذ ويتلقى الطفـل في المرحلة الأولى من طفولتـه مبـدأ الواقع من الآبـاء والمربين حتى إذا انتهى عهد الآباء والأوليـاء والمربين خلفهم الأبنـاء والتلاميذ بعد ثورة أولى ثم تلاهم الحفدة وهكذا دواليك إلا أن تغـدوا السيطرة العـائليـة نظـامـا قـارا من الـوجهتين الاجتماعية والسياسية، وتصير معالم مبدأ الواقع محددة في نظـام من المـؤسـسـات يتعلم الفرد الـذي ينمـو، في إطـاره، الـواجبـات التي يفرضهـا هـذا المبـدأ في صـورة قـوانين وأحكـام، وحقـوق يتعين عليـه مراعـاتهـا واحترامهـا إلى أن يسلمها مسطرة مصونة للجيل اللاحق. وهكـذا تتطور هـذه الـواجبـات والحقـوق الفرديـة إلى أحكـام مسطرة وقـوانين محددة يتعـامل النـاس بواسطتهـا ويحتكمون إلى سلطـانهـا كلمـا طغى أحـد المبـدأين على الآخر أو تطـاول أحـد الأشخاص على حرية الآخرين فانتهـك حرمـاتهم، وتطـاول على القانون والمسطرة في معاملاته معهم.

ومن هـذه المشكلـة الأولى يبـدأ النـزاع بين الأفراد والجماعات، وتنشب الحروب الطاحنة بين الدول والشعوب، وتحتد الأزمة بين الأجيال.

ولا أظنني في حـاجـة إلى سرد الـوقـائـع التـاريخيـة والأحـداث الـدوليـة التي تسبب فيهـا، أولا وقبل كل شيء، طغيـان مبـدأ المتعـة على مبـدأ الـواقـع، وتنـاسى فيهـا المتحاربون حدود اللياقة والقانون، واطلقوا أثنـاءهـا العنـان لانفعـالاتهم العقليـة، وأجهـزتهم الـذهنيـة دون أن يحكمـوا المبدأين فيما شجر بينهم، أو يعتبروا معاييرهما ومقاييسهما قبل الدخول في ظلمات الطغيان، ودياجير البهتان.

ولست في حاجة كذلك إلى استعراض الحملات العنيفة التي احتدت في هذا القطر أو ذاك بين القدماء والمحدثين سواء كانوا من رجال الدين أو العلم أو الأدب أو كانوا ينتمون لمدارس أدبية متباينة ومذاهب فلسفية متطاحنة : فقد غني التاريخ بمثل هذه المعارك الكلامية كما حفل بالحروب النارية. ولكن الذي يعنيني في هذه الدراسة هو صراع الأجيال، وثورة الأبناء على الآباء، وانقضاض التلاميذ والمتعلمين والتابعين على المعلمين والرواد والمتبوعين هذا الصراع الذي صوره الشاعر العربي خير تصوير عندما قال :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما استد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي
فلما قال قافية هجاني

إن الاستشهاد بهذين البيتين لا يدل على الاتجاه الذي أعطيته لهذه الدراسة، كما أنه لا يحدد الموقف الذي أقفه من الثورة التي يشنها الشباب اليوم على المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لولا وجودها لما كان لهم مقام معلوم في المجتمع، ولا كلام مسموع في البيئة البشرية التي تحتضنهم. وليس معنى هذا أنني أختار من الآن جانب المجتمع البشري الحالي، ضداً على الشباب والطلاب والجيل الصاعد؛ ولكنني فضلت التعرض لهذين البيتين من الشعر العربي القديم لأنهما يصوران جانباً حقيقياً من الأزمة القائمة اليوم في المجتمعات الإنسانية بين الشباب وآبائهم وروادهم.

فالفتنة القائمة اليوم لم يذك جذوتها إلا الآباء، والمعلمون؛ ولم يوقظ شرارتها إلا سلوك الكبار الذين فقدوا، رغم الخدمات الجلى التي أدوها لصالح الأبناء، زمام السيطرة على عائلاتهم ومدارسهم إما لعوارض اقتصادية وتقنية شغلتهم عن الاهتمام المتواصل بفلذات أكبادهم وما لتشبثهم بقيم ومثل أخنى عليها الدهر ولم يكن في مستطاعهم التخلي عنها، أو كبت النوازع التي تحرك دفاعهم عنها، كما لم يكن في مستطاع أبناء الجيل الصاعد قبولها، والتعامل مع وسطهم وبيئتهم بمقتضياتها.

وهذا ما يرجع بنا حتما إلى الصورة التي رسمناها في مطلع الدراسة والتي تمثل فيها البناية المتهدمة العهيدة المجتمع الإنساني بينما يصور النبات فيها الشباب الطموح المتطلع لأن المجتمع من جهة والشباب من جهة أخرى يكونان العنصرين الأساسيين في الأزمة الحادة الحالية التي ظهرت أساليبها الأولى عندما انهار الدور الاجتماعي الذي كانت العائلة تضطلع به؛ فقد كانت العائلة هي الخلية الأولى التي يتربى في أحضانها الشخص، ويتلقى فيها القيم الأخلاقية والمثل العليا؛ ولكن هذا الدور الخطير أخذ يضمحل شيئاً فشيئاً لعوامل اقتصادية ومهنية واجتماعية يرجع أهمها للحالة النفسية التي أصبح عليها الآباء بعد دخول الآلية التقنية إلى العوامل والمصانع والمتاجر والمؤسسات، وتطور العمل من ممارسة يدوية لبقة إلى مباشرة تلقائية لا تبعث الارتياح في نفوس العاملين رغم ما تضمنه لهم من راحة. فقد كان العامل، قبل ظهور العمل المسلسل، يقضي وقته في إتقان صنعته، وإنجاز عمل من الأعمال يبدؤه من أوله إلى آخره، ولا يتركه إلا بعد الانتهاء منه، ولو تطلب ذلك أياماً وأسابيع أو شهوراً وأعواماً؛ وكان هذا العامل، عندما ينتهي من العمل الذي يقوم به، يجد نفسه قد أخرج إلى الوجود شيئاً طريفاً لم يكن له أن يوجد لولا يده الصناع وأنامله الملهمة، وذوقه السليم، وحذاقته المهنية المتناهية. وكانت نهاية العمل، عنده، مقرونة بالفرح والسرور لأن نجاحه فيما صنع ينفخ فيه الثقة بالنفس، والإيمان بشخصيته، والتقدير للمجهود الذي بذله؛ فإذا عاد هذا العامل إلى بيته عاد نشوان مما أنجزه، فرحاً بما حققه من عمل، وأقبل على زوجه وأبنائه وأفراد عائلته مفتخراً بأنه أحسن صنع تحفة من التحف، أو آنية من الأواني وأنه أسدى بذلك الخير لنفسه ولعائلته وللناس أجمعين. ولا غرابة في ذلك، فقد وفر الربح، كما وفر للعائلة قوت يومها بما صنعت يداه؛ وهذا ما كان يجعله مهاباً في بيته، موقراً بين أهله الشيء الذي يمكنه من إصدار الأوامر والنواهي دون أن يجد من ينازعه في البيت لأنه قادر على الخلق، كفيل بالإبداع. وكان سروره وافتخاره ينعكسان على أفراد العائلة الذين كانوا كلهم ـ أبناء

وبنات، ورجال ونساء - يصغون لتعليماته ويخضعون لأوامره.
أما اليوم فإن الأب يذهب إلى العمل أو المصنع أو المؤسسة للقيام بعمل محدد؛ وشغل معين في إطار سلسلة متحركة لا يعرف أين تبتدئ ولا أين تنتهي حتى إذا ما عاد إلى بيته، عاد حزيناً كئيباً لأنه لم يشعر بشخصيته تتجلى في العمل الذي أداه، ولا بفكره يبتكر، ولا بيده تنتجان عملا يدل على روحه الإبداعية، وقابليته في الخلق والابتكار. ومن المؤسف أن هذه الخيبة تعكس على البيت بأسره لأن أفراد البيت يلاحظون أن قوى عائلهم المعنوية محطمة الشيء الذي يجعلهم يعرضون عنه، وينأون بجانبه، فتضعف بذلك مكانته في البيت رغم ما يحمله في يديه من ربح مادي، وكسب مالي يضمن لهم العيش الرغيد.

☆ ☆ ☆

وليت الأمر وقف عند هذا الحد وهو اضمحلال الدور الاجتماعي في العائلة؛ ولكن المصيبة أعظم من ذلك وأنكى؛ فقد نتج عن ضعف الآباء، وانصرافهم عن تتبع مراحل تكوين أبنائهم، تمتع الأبناء بحرية مطلقة داخل بيوتهم، وتصرف تام لايحد ولا يستقصى في شؤونهم وحاجياتهم الأمر الذي مكنهم من الانغمار في الحياة الاجتماعية وهم يحملون انفعالات، وإحساسات ذاتية وأفكاراً وآراء شخصية، كونوها لأنفسهم بأنفسهم في غيبة عن الآباء وغفلة عن المربين حتى إذا خرجوا إلى المجتمع، وجدوا أنفسهم عاجزين عن التكيف مع العادات والتقاليد التي يتسم بها هذا المجتمع، وغير مستعدين للخضوع لمبدأ الواقع الذي تفرضه المعيشة مع الجماعات البشرية والمعاملة معها.

وبهذا خالف المجتمع البشري التعليمات الإلاهية التي عهدت إلى الآباء بتربية الأبناء وغرس الأخلاق في نفوسهم والأخذ بيدهم إلى أن يلجوا معترك الحياة مسلحين بالعلوم والمعارف والتجارب، وقادرين على خوض غمار الإنتاج عن طريق المهن أو الحرف التي أتقنوها خلال مراحل التكوين والتعليم. وكان من عواقب انصراف الآباء عن تربية الأبناء انحراف في سلوك الشباب، وخروج عن الجادة التي أقر الشرع صلاحيتها، وأوضحت سنة الكون فعاليتها وأكد النبي ﷺ جدواها ومفعولها عندما قال : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه».

☆ ☆ ☆

ومما زاد الطين بلة أن تكوين الشخص انتقل، بطريقة مباشرة، تحت عبء الاحتكارات الاقتصادية والثقافية والسياسية، من المرحلة الفردية إلى المرحلة الاجتماعية، دون سابق إعداد ولا تحضير أولي؛ وهكذا أصبحت الوحدة الجنسية وحدة جماعية؛ من أهم الوسائل التي ساعدت على هذا الانتقال المفاجئ من الخلية الفردية الجامدة إلى الخلية الاجتماعية المتحركة النشيطة الحركة التربوية التي تقوم بها أجهزة الأعلام داخل البيوت والتي تستأثر باهتمام الأطفال قبل التحاقهم بالمدرسة. فقد تولت الإذاعة والتلفزة والسينما تحديد نموذج الامتثال والثورة، كما تكفل خبراء هذه الوسائل الإعلامية بنقل القيم التي يفرض على الشباب التحلي بها وتربيتهم تربية أخلاقية تغرس فيهم خصال الفعالية والشدة والثبات، وتقوى فيهم الشعور بشخصيتهم وتنمي فيهم العاطفة المتدفقة والخيال الواسع؛ ومما لا إشكال فيه أن العائلة، مهما كان مستوى أفرادها الثقافي والعلمي والتربوي، عاجزة عن مقاومة هذه التربية خصوصاً وأن معلومات الأبناء تفوق في العصر الحاضر معارف الآباء وإن ذكاء الأولين أنفذ من ذكاء الآخرين بل إن الأبناء أضحوا يمثلون مبدأ الواقع المعاصر الذي صنعوه بأخيلتهم وتوافقوا عليه فيما بينهم بينما صار الآباء يمثلون الأشكال الأخلاقية العتيقة والقيم الاجتماعية التي عفا عليها الدهر. وهل تنتظر مصيبة أكثر فداحة وخطورة مما نراه اليوم بعد تضاءل سلطة الآباء، وتقلص نفوذهم عقب تخليهم عن وظيفتهم الأولى التي كانت تتلخص في تهذيب أفراد عائلتهم، وضمان غناهم وإفادتهم بالتجارب الحية التي عاشوها، وتربيتهم على سلوك اللطف والمرونة والمطاوعة والليونة في الوقت المناسب، واتباع طريق الشدة والمعاناة والمقاومة في الإبان الموافق ؟ وهل في وسع الأب أن يمنع أعضاء أسرته من فعل شيء ما وهو القاصر الذي لا يقدر على تقديم أي شيء مقابل نواهيه وتعليماته ؟ وكيف يعبأ الأبناء بأوامر ونواهي آباء لا

يشاركون في رسم مستقبل فلذات أكبداهم لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة العاطفية أو العقلية ؟.

☆ ☆ ☆

ومن المؤسف اننا نلاحظ أن هذا الاضحلال يصيب المعلمين والرؤساء والمسؤولون بدورهم إذا ما تحولنا من العائلة إلى المجتمع. فقد كان هؤلاء الرجال يمثلون مبدأ الواقع خير تمثال في المجتمعات السابقة. كانوا أقوياء الشخصية، أشداء حين كان الواجب يدعوهم لذلك كما كانوا رحماء كرماء أسخياء كلما تعين عليهم تقديم النصح أو الهبات أو الهدايا الأمر الذي كان يمكنهم من فرض الاحترام والطاعة. ولكن المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية محت كل هذه المظاهر. وقد ساعد على تحطيم سلطة هؤلاء المسيرين والموجهين تأميم أجهزة الإنتاج، وتعدد الوظائف المهنية، وتنوع المهمات الإدارية حتى صار تجمع السلطة الاقتصادية اسما بلا مسمى، ووعاء بلا محتوى، وأمسى كل شخص، مهما علت مرتبته في السلم الاجتماعي والإداري، موظفاً عاديا لا حول له ولا قوة أمام حركات الجهاز، وقوانينه المحددة الحاسمة، وأصبحت مراقبة هذا الجهاز او ذاك تتم، بكيفية إدارية، داخل المكاتب والمجالس التي يخضع فيها العملة والمشغلون في آن واحد لمراقبة واحدة دون أن يقوم فيها أي واحد من هؤلاء ولا هؤلاء بدور فردي يعرب عن قوة عزيمة صاحبه، أو عمل شخصي يدل على علو مكانة الرجل الذي قام به. فالعملة والمديرون أعضاء أسرة مشتركة، وما جوروا جهاز واحد يستغل بعضهم في المعامل والمصانع، ويستغل الباقين في المكاتب والمجالس دون أن يحظى بالنفوذ التام أو السيطرة المطلقة أي واحد منهم. فكيف لا يتولد الألم والضجر والضعف في نفس الشباب الذي يجد نفسه أمام هذا المجتمع المغلق، وداخل هذا النظام المطبق الذي لا يهتم إلا بالإنتاج، ولا يعبأ إلا بالتسيير المحكم ؟ إن الشباب يجد مسؤولية تنظيم حياته وتوجيهاته غير خاضعة لعلاقات إنسانية، ولا لاتصالات بشرية ولكنه يلاحظ أن هذه المسؤولية موضوعة على كاهل الجميع : على النظام الذي لا يوليه أي اعتبار، وعلى مجموعة المؤسسات التي تحدد حاجيات الفرد وترضيها وتراقبها. إن عجلة فطرة الهجوم تدور في فراغ تام بل إن حقد الشباب لا يتوجه إلا إلى زملاء يبتسمون أو متنافسين يضجرون ويسأمون أو موظفين يطيعون أو مساعدين يخلصون لأنهم، في الحقيقة، ضحايا أبرياء يعيشون في إطار نظام مفروض عليهم، ومعيشة هم مجبورون على قبولها. تلك بعض سمات البيئة التي يمر منها الشباب منذ نعومة أظفارهم، وبعد الانغمار في مضمار العمل الذي يقتاتون منه. إنه مجتمع ينعم بالرخاء الشامل، مجتمع تتحكم فيه الفعالية، ويتصرف فيه العقل البشري أو الإلكتروني، وتسيطر فيه الأجهزة الصناعية، والاحتكارات الاقتصادية والسياسية، وتفتقد فيه الحرية رغم وقع إطارات ديمقراطية لها. وتلك بعض النتائج الباهرة التي أدركتها الحضارة الصناعية المتقدمة والتي تحققت بفضل التطور التقني المدهش.

فهل هذا هو مبتغى الأفراد والجماعات ؟ وهل هذا هو مبلغ الحضارات والمدنيات ؟ إن الشباب الذي ما زال مبدأ المتعة يتغلغل في أعماقه، والذي ما زال يحن إلى الفضائل بفطرته وسذاجته، إن هذا الشباب لم يكن ليقبل أوضاعاً من هذا النوع لم يسبق له أن هيىء لقبولها والرضا بها. فقد تحطمت الشخصية البشرية أمام الأجهزة الآلية التلقائية التي عهد إليها بالقيام بالأعمال الشاقة الضرورية، وتجمعت المعامل والمؤسسات في وحدات اقتصادية وصناعية كبرى تضمن الفعالية والإنتاج أكثر مما كانت توفره سابقاتها، وأطلق العنان للتنافس بين أفراد لا يتوفرون على إمكانيات متوازنة، وضيق نطاق المبادرات الشخصية مقابل الحركات الجماعية، واغتصبت، بصور شتى، السيادات الوطنية التي تكبح جماح تنظيم الثورات القومية، بطريقة دولية. وقد أفرغت؛ من محتواها التقليدي، الحقوق والحريات التي كانت تشكل العناصر الأساسية في المراحل الأولى التي مر منها المجتمع الصناعي، ونبذت، ظهرياً، حريات الضمير والفكر والتعبير التي كانت تحمي المبادرات الفردية الحرة، وتعينها على الابتكار والتطور والنمو، أو سلبت هذه الحريات، على الأقل، من وظيفتها

النقدية الأساسية في مجتمع يبدو أنه يهدف، من حيث تنظيمه، إلى إرضاء الحاجيات الفردية الشيء الذي جعله يفرض مبادئه ومؤسساته على جميع الدول والشعوب المتقدمة والنامية والمتخلفة على حد سواء.

ومن العجيب أن تحديد هذه الحاجيات لا يرجع إلى الأفراد بل يفرض عليهم فرضاً من طرف قوات خارجية ليس للأفراد من الحول والقوة ما يمكنهم من مراقبتها وتحويرها.

إنها حاجيات متجددة يعززها وجود الأفراد ولا يبرز فيها الشخص بقدر ما يبرز فيها المجتمع الذي ينتجها، وبقدر ما تتجلى فيها الحضارة الصناعية المتقدمة التي تدفعها المصالح المسيطرة إلى فرض هذه الحاجيات وإكراه الناس على الرضا والتمتع بها.

☆ ☆ ☆

ولعل هذا ما حدا ببعض الأدباء والمفكرين إلى رفض هذه الحضارة، واعتبارها مدنية مزيفة، والابتعاد عن حاجياتها المفروضة. ولعل هذا ما دفع الشاعر الفرنسي الثائر بودلير إلى التصريح بأن «الحضارة الحق لا تتجلى في الغاز، ولا في البخار، ولا في الأطباق الدائرة، ولكنها تكمن في التخفيف من آثار الخطيئة الأولى التي ارتكبها الإنسان... «كما حفز الفيلسوف الألماني الشهير هربرت ماركوزا المقيم حالياً بأمريكا إلى القول : «...إن المصطلحات السلبية هي الكفيلة وحدها بالتعبير عن الأشكال الجديدة التي يمكن أن تكتسيها مقاومة الأفراد، لأنها تشكل رفضاً باتاً للأشكال المسيطرة. وهكذا فإن التمتع بالحرية الاقتصادية يجب أن يعنى التحرر من الاقتصاد، ومن الإكراه الذي تقوم به العلاقات الاقتصادية، كما يجب أن يعنى التحرر من الكفاح اليومي في سبيل الحياة وعدم بقاء الإنسان مقهوراً على كسب قوته. أما حصول الأفراد على الحرية السياسية فيجب أن يكون معناه تحرر هؤلاء الأفراد من السياسة التي لم يبق لهم حق في مراقبتها مراقبة عملية؛ أما الإحراز على الحرية الفكرية فينبغي أن يكون معناه إقرار التفكير الفردي الذي يوجد، اليوم، غارقاً في خضم أجهزة إعلام الجماهير التي هي اليوم ضحية التوجيه كما يجب أن يكون معنى الحرية الفكرية عدم وجود «صانعي، الرأي العام» وعدم وجود هذا الرأي العام نفسه.

☆ ☆ ☆

فماذا سيكون موقف الشباب بعد هذا وهو ضمان مستقبل الأمم، ومناط رجاء الشعوب ؟ وماذا عسى الشباب يفعل في مجتمع ظاهره الرخاء، وهجيراه الاستهلاك، وباطنه التكالب على الحاجيات الصحيحة والباطلة، وهذا الشباب يعلم أنه كان عماد قوة الدول، ورمز عزتها ومجدها تلقى على أكتافه التبعات وفي ذمته تتلاقى المسؤوليات ؟ فهل يمكن للشباب أن يقبل على هذا المجتمع وهو يدرك أنه لا يستطيع التأثير عليه ولا حتى التأثير به ؟ أم يعقل أن ينغمر الشباب في خضم مجتمع بشري رمى بالفرد عرض الحائط ؟ وهل يسعى الشباب في استثمار طاقاته المتفتحة، وفطرته الطيبة، وفطنته الحادة، وبرأته الكريمة، داخل إطار لا يهمه إلا استغلال الأفراد، وكبث مشاعرهم وفرض الحاجيات والميول عليهم ؟ وهل يتصور أن يتنكر لذاته في سبيل الصالح العام وسط مجتمع لا يرضى عنه، ويبذل هذا الشاب جهده في الخدمة الاجتماعية داخل مجموعات بشرية يعرف الشباب مسبقاً أنه عاجز على تسيير دفتها، قاصر على رسم معالم تطورها ورقيها الإنساني ؟

☆ ☆ ☆

أمام مجتمع الرخاء والاستهلاك هذا لم يجد الشباب سوى حل واحد هو رفض هذا المجتمع : أصوله وفصوله، دعائمه وفروعه، والفرار الكامل من أوضاعه الاجتماعية؛ والنفور الشامل من مؤسساته الاقتصادية والسياسية. وليت المشكل انحصر في الرفض والفرار والنفور أو تعداه إلى مواقف سلبية تامة، وامتناع كلي شامل أو انزواء وانطواء. إن هذا الرفض عند الطاقات الفياضة، والقوات الحية معناه الانفجار، والهدم، والتحطيم، ومعالمه الثورة والغضب والضجر، وعواقبه الويلات الاجتماعية التي تئن البشرية كلها تحت وطأتها؛ إن الأمر لايعني فحسب قطع حبل الاتصال، ولكنه يعني الثورة من أجل الانفصال. وهكذا فإن الرجوع إلى الطبيعة يصبح انعزالاً ذاتياً خطيراً بينما تصير الرغبة في التمتع وإرضاء الشهوة بمثابة التمكن من الجنة

التي وعد بها المتقون. أما البحث عن السعادة فإنه يغدو تطلعاً إلى حياة جديدة بينما تنقلب الحاجيات الفردية إلى عامل من عوامل الفوضى كما تتطور الحاجة إلى الحياة الجماعية المفقودة إلى دعوة للشيوعية المتطرفة. وقد أكد العالم الاجتماعي الفرنسي الكبير ادغارموران في كتابه «مذكرات من كاليفورنيا» :

«إن هذه المطامح كلها تدخل، تدريجيا، في إطار عملي ثوري مهول يتجاوز نطاق الأحزاب اليسارية، والمنظمات والهيآت المغالية في التطرف، ويعلن، في عنف وإصرار، عن اللواعج التي تتأجج في حشايا الشباب، والنوازع التي تتجاذبهم، والاهتمامات التي تسيطر على أفكارهم وقلوبهم، والمشاغل التي تستحوذ على ألبابهم».

☆ ☆ ☆

وإذا كانت غالبية الشباب قد اختارت الثورة منهجا لها للإطاحة بالمجتمع المتعفن، وعمدت إلى إثارة الفتن، وإضرام نيران القلاقل للإفصاح عن سخطها، فإن فئات أخرى من الشباب قد فعل فيها اليأس فعل الرماد بالنار، وملأ نفوسها السأم والقنوط والآلم والضجر، ففكرت في وسائل أشنع من الطرق التي سلكتها الجماعة الأولى، وخاضت غمار حرب عوان للقضاء على نفسها؛ فقد وجدت هذه الفئات أن الثورة على المجتمع لاتجدى فتيلاً، وإن اذكاء الاضطرابات والفوضى لايكفي للتعبير عن ذاتيتها، فلجأت إلى جرائم أفظع مما لجأ إليه غالبية الشباب ورمت بنفسها في جحيم مستعر يحرق الأخضر واليابس ويؤذي بحياة أفرادها.

نعم ! لقد عمدت هذه الفئات اليائسة إلى ارتكاب جرائم السلب والنهب، وافتضاض الفتيات اللائي لا يتمنعن، بل يقبلن عن طواعية واختيار، والسطو على البيوتات والمتاجر والمقاهي والملاهي، كما عمدت إلى الجرح والإذاية والهجوم على الأشخاص وإلى القتل حتى إذا أعيت هذه الوسائل أفرادها قرروا، في صمت وعناء، الانتحار لأنهم وجدوا فيه وسيلة من وسائل التعبير الدالة على حريتي الوجود والتصرف.

ومهما اختلفت أسباب الانتحار عن أسباب الثورة فإن مشربها واحد، ومنبعها مشترك لأنها تتولد، جميعها، من الشعور بالفراغ الذي يعيش فيه الشباب داخل المجتمع البشري، وعدم التفهم الذي يلقونه من الأجيال التي سبقتهم في الحياة وتقدمت عليهم في السن والوجود.

☆ ☆ ☆

. حقا ! إن الرسوب في الامتحانات المدرسية والجامعية، والخيبة التي يمنى بها المراهقون في عاطفتهم، وخلافاتهم مع الآباء كل ذلك يعد دواعي خاصة تدفع ببعض اليائسين والخائبين إلى الانتحار أكثر من غيرهم.

ولكن تعددت الأسباب و«الإثم» واحد. فالحقيقة تؤكد أن مرور الشباب من مرحلة المراهقة إلى طور الكبار يجعله يشعر بحاجة ماسة إلى تجربة فكرة الموت؛ فهي التي تشعره بأنه يتذوق الحياة في الوقت الذي يبكي فيه على مفارقة عهد الطفولة. إن الشباب، في هذه المرحلة الحاسمة من أعمارهم، يحسون بانفعالات جنسية جديدة ذلك أن أجسادهم تتغير، بكيفية سريعة، تؤدي بهم إلى الشعور بالغربة داخل جلودهم. ومن أهم عواقب هذا التغيير الانهيار العصبي الذي يحطم كيانهم، والإحساس بالفراغ الذي يوجد بينهم وبين الآخرين؛ ويعقب هذا الانهيار والإحساس بالغربة قلق كبير يتبعه استعصاء في التعبير عما يعتلج في حشو حشاهم، وعجز عن الإفصاح عما يجيش في خواطرهم. ويكفي في حالة الاضطراب هذه التي يجتازها الشباب أن يحدث اصطدام بسيط بين الشباب والمحيط الذي يعيش في وسطه كخلاف مع الآباء، أو نزاع مع المجتمع الذي يعد ألد خصوم الشباب لتندلع شرارة الويل والثبور، وتنطلق سلسلة الانتحار. وتلك أمارة من أمارات تداعي المجتمعات البشرية في كل عصر لأن ارتفاع نسبة الانتحار في مجتمع ما يدل كما تنبأ بذلك إيميل دوركيم في القرن التاسع عشر، على أن هذا المجتمع مريض.

وقد تنبه إلى هذا منذ أعوام الخبيران العالميان كاهن وفيينر عندما أشارا إلى أن الشباب الذي لا يتوفر على أية مسؤولية في النظام الاجتماعي سيشعر بأن حقوقهم

مهضومة من طرف مجتمع يهمل، بصراحة وتحد، ما يعتقده هؤلاء الشباب أبسط قواعد العدل وأقل الأهداف الاجتماعية التي يعتبر المسؤولون الذين يتخذون القرارات بأنها قواعد وأهداف وهمية خيالية لا يمكن تحقيقها. وقد يتولد عن هذا حركات إديولوجية مذهبية ترمي إلى تبرير الثورة على القيم البالية ثم إلى الانفصال الذي يثيره الشباب المنتمي لمختلف الطبقات الاجتماعية بالطرق العقلية والأخلاقية. التي سيختارها لنفسه. وسينتج عن هذا أن الشباب الذي تتأجج في صدره نيران الثورة سيساير الحركة العارمة، ويجر بدوره إلى الانحراف واقتراف الآثام والجرائم كما سينتج عن هذا ظهور علل اجتماعية خطيرة كالأمراض العقلية والعصبية والطلاق والانتحار. أما الديانات التقليدية فسيواصل نفوذها مسيرته نحو التقلص والانهيار أو ستستمر في الاندماج ومحاولات التكيف حتى لا تظل عقبات كأداء في السلوك العام الذي يسم العنصر».

☆ ☆ ☆

وكيف ما كان الأمر، فإن أعمال العنف وارتكاب الجرائم تنبعث كلها من علل واحدة، وترجع في مجموعها إلى دواع اجتماعية تتلخص في التقلبات المفاجئة التي طرأت على المجتمع البشري، والتي أدت إلى تقويض صرح دور العائلة التربوي في أوان أصبحت فيه ميول الشباب ورغباتهم تتدفق في وقت مبكر، ومواهبهم تتفتح قبل الزمان المعتاد، كما تتلخص في أطراد النمو الديمغرافي، وتكاثر توافد سكان البوادي والقرى على المدن والحواضر زيادة على تطلع الشباب للتحرر من العادات والتقاليد المحيطة بهم، وعدم تكيفهم مع المجموعات السكنية الحديثة التي تعيش في هرج ومرج والتي تزعج بالهم، وتحرض مشاعرهم، وترمي بهم في متاهات اجتماعية واسعة وأمواج بشرية متلاطمة أضف إلى ذلك الروافد الفكرية والعقلية التي تحملها أجهزة الإعلام من إذاعة وتلفزة التي لاتتردد اليوم حتى في ولوج غرف النوم، ونماذج الأبطال المزيفين التي تقدمها الأشرطة السينمائية وبعض الألوان الأدبية الرخيصة.

☆ ☆ ☆

ولكن داهية الدواهي هي الحضارة الصناعية المتقدمة التي خلقت أزمة في الضمائر، وحسرة في النفوس، وزوبعة في العقول والتي لا تجد، مقابلها، ثقافة واعية حية مرنة تساعد الآباء على تفهم دورهم، والمربين على الاضطلاع بمسؤولياتهم، والرؤساء والمسؤولين على التفرغ لأعمال إنسانية تمزج بين نمو المادة والأرباح وبين تعهد الأفئدة والأرواح.

فقد تخلت المؤسسات العائلية والمدرسية والجامعية، والنوادي الثقافية، والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية، والهيآت السياسية والنقابية، في طواعية واختيار، عن الدور التربوي الذي يفرض عليها أن تلقن الأبناء والطلبة والعملة والمستخدمين مبادئ المسؤولية قبل أن تغرس فيهم حب الطموح والحرية، وأن تأخذ بأيدهم، وتسوقهم إلى دروب الامتثال والطاعة والاحترام قبل أن تنفخ فيهم روح المطالبة بالحقوق والمجادلة والمناقشات الحامية. فقد كان على رواد الفكر والثقافة والتربية والاقتصاد والسياسة أن يلقوا في روع أبناء الجيل الصاعد أن المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعاً مسؤولاً إلا إذا كان مجتمعاً سليم البنيان، موطد الأركان، متماسك الجدران، شامخ الذرى يسوده الاحترام والمساواة في آن واحد، ويعمه الرخاء الروحي، والازدهار المادي في نفس الوقت.

☆ ☆ ☆

وإن من أخطر الادواء التي تفتك بالمجتمع البشري اليوم، وتنهش عظامه، نبذ التعاليم الدينية والإعراض عن المثل التقليدية العليا. ولقد أحسن أندري مالرو، وهو الكاتب الفرنسي اليساري المعروف، صنعا عندما قال : «لقد عوضنا الإيمان والمثل العليا والأساطير الصوفية بالإحساسات والانفعالات» وهذا ما ترك أفراد طبقة كبيرة من الأجيال الصاعدة في الضلال يعمهون، وفي البهتان يتسكعون لأنهم يفتنون بنماذج خيالية واهية، ويعرضون عن قيم حقيقية باقية. «إن العنف والمخدرات والجريمة تنبت، كما قال مالرو، في الأماكن التي لا يجد فيها الشباب مدينة فاضلة».

فهل لهذه الحالة المزرية من علاج ؟ وما هي الأدوية الناجعة لمكافحة هذا البلاء الذي ينخر جسم المجتمع البشري ؟

☆ ☆ ☆

أعتقد أن أول عمل يتحتم القيام به هو ارتداء الإنسانية صفات الكمال والعدل والإحسان التي كانت تتزين بها منذ انبثاق فجر الحضارة وبزوغ عهد المدنية. إن الإنسان مدني بالطبع كما قرر ذلك علماء الاجتماع وفي طليعتهم عبد الرحمن ابن خلدون ولا يمكنه أن يتحلى بزي الحيوانية أو الآلية نظراً لما ميزه الله به من إدراك وإحساس وذكاء؛ والواقع أن هذه المهمة صعبة لأنها تتجاوز الإمكانيات والكفايات التي تتوفر عليها الشعوب الراقية والدول المتقدمة؛ فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالأمم المتخلفة والدول النامية !

ولكن إضفاء صفة الروح من جديد على الحضارة الإنسانية يتطلب استعداداً فطرياً وفكرياً قبل أن يستلزم اعتمادات مادية، وإمكانيات بشرية. يتعين، باديء ذي بدء، أن نعي عمق الهوة السحيقة والوهدة المنحطة التي ستتردى فيها البشرية ـ لا قدر الله ـ إذا لم نأخذ العدة من الآن، ونحاول استرجاع ما فات واستدراك ما ضاع. إننا في أمس الحاجة إلى تغيير في الاختيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتحوير في طرق التقدم العلمي والتقني التي سرنا فيها حتى الآن؛ ولكننا في حاجة أكثر إلى جهاد نفس متين يغير ما بأنفسنا قبل أن ينجح في تغيير ما يجرى داخل بيوتنا، ومدارسنا، وكلياتنا، ومصانعنا، ومعاملنا، ومنظماتنا السياسية والنقابية، وهيآتنا الثقافية والاجتماعية، وفي أحضان مجتمعنا الذي يعج بمغريات بعيدة عنا، وقشور حضارات غريبة عنا.

إننا ندرك المغزى العميق الذي يشير إليه قول الله تعالى : **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

☆ ☆ ☆

وهذا ما يحتم على مجتمعنا ضرورة الاستعداد لتغيير نفسه بنفسه.

فما هي الطرق الكفيلة بضمان هذا التغيير ؟ وعلى أي شيء يمكن الاعتماد لاختيار هذه الطرق، واصطفاء هذه الوسائل ؟

إنني من المؤمنين بالدور الفعال الذي يمكن أن تضطلع به الثقافة لأحداث التغيير المنشود بغية إقرار التوازن الفكري والاجتماعي المأمول، وتوعية سائر الطبقات الاجتماعية بالواجبات التي يتعين عليها القيام بها، والحقوق التي يمكن لها أن تطالب بها. إن الثقافة وسيلة مجدية لتحقيق السعادة الفردية والجماعية، ونشر ألوية التفاهم والتضامن داخل المجتمع البشري؛ وهي طريقة مضمونة لإحلال السلام والوئام محل الصراع والخصام لأنها تهذب العقل أولاً، وتربي الفكر ثانيا، وتصون المجتمع ثالثاً، وتساعد على التكيف والمسايرة والمطاوعة بين سائر العالمين في النهاية.

ومن الجدير بالذكر أن الثقافة ألوان وأشكال وأنواع وفروع؛ وهذا ما يستوجب، باديء ذي بدء، اختيار اللون الثقافي المتفق مع روح العصر، اللائق بمسايرة النهضة العلمية الحديثة، الكفيل بضمان استمرار الحضارة الصناعية المتقدمة دون تصدع اجتماعي يحرق الأخضر واليابس، ويقضى على المكتسبات التقنية التي حققها الإنسان رغبة في إسعاد البشرية، وتحقيق رفاهيتها وازدهارها، في توافق تام مع ميول هذا الإنسان، وانسجام شامل مع رغباته الفطرية، وتكامل كلي مع حاجياته ومطالبه.

☆ ☆ ☆

فهل الثقافة المطلوبة هي الثقافة الموسوعية الأكاديمية التي تتمثل في حشو الذهن بالعلوم والمعارف ؟ أم هي الثقافة الدينية التي تجعل آفاق الفكر الإنساني تجول في أبعاد ميتافيزيقية معلومة ومقاصد تعبدية مرسومة ؟ أم هي ثقافة تقنية متخصصة تجعل الكائن البشري يفكر تفكيراً ميكانيكياً ديناميكيا كما تفكر آلة أو كما يعبر الفكر الإلكتروني ؟ أم هي ثقافة تنبذ هذه

الألوان كلها، وتتمسك بمذاهب وإيديولوجيات يتحتم البقاء في إطارها، ويتعين عدم تخطي أهدافها السياسية ومراميها الاقتصادية التي تفرض على المرء التزاماً في الحياة يؤدي به في كثير من الأحيان إلى محاربة كل ما خالفه في الرأي والعقيدة والمذهب ؟

☆ ☆ ☆

أعتقد أن الثقافة التي سيعهد إليها بتحقيق التوازن الفردي والاجتماعي، واستمرار التكامل والتواصل الترابط بين الإنسان والمجتمع هي الثقافة الحية التي تجمع خلاصة التجارب التي عرفها الإنسان في حياته العائلية والمدرسية والجامعية والمهنية والاجتماعية والتي تمكن الكائن، عن طريقها، من أن يصبح إنساناً يشعر بخوالج إنسانية، ويحس بانفعالات بشرية؛ إنها الثقافة التي قادت الإنسان إلى طور النمو والتفتح؛ فهي وسيلة من وسائل التطور؛ وهذا ما يحتم على هذه الثقافة أن تكون بمثابة أداة يلجأ إليها الفرد ليجد، عن وعي، مقعده اللائق به في الإطار الاجتماعي والتاريخي الذي وصل إليه العصر، ويرجع إليها كلما اضطر إلى تغيير هذا المقعد عند احتمال وقوع هذا التغيير.

إن الثقافة التي نريد منها القيام بهذا الدور الجليل ليست هي التكوين ولا هي بالتعليم المدرسي ولا بالمعارف المتدفقة والعلوم القاحلة العقيمة.

يقول إيريك جيل : «لننبذ نبذا ظهرياً الثقافة التي لا تزيد عن كونها مرقا يضاف إلى أكل لا طعم له» حتى يصير هذا الطعام شهياً تتلمظ له الشفاه وتتحلب له الأفواه كما يقول الحريري في مقامته المضيرية الشهيرة. إن الثقافة الحق ليست مادة خارجية عن الإنسان، وليست عبارة عن باب مقفل يطرق لينفذ منه الشخص بعد أن يؤذن له بذلك، ولا بالطلاء الزاهي الذي تزين به المنازل والشوارع والمكاتب حتى تكسب رونقاً زاهراً بهيجاً، ومنظراً جميلاً براقا يخلب الأبصار، وتهواه الأفئدة والقلوب.

إن الثقافة الحق المطلوبة تنبجس من أعماق الإنسان، وتنبثق من أحشاء الأفراد؛ ولهذا فإن الأستاذ الذي يكتفي بشحذ أذهان تلاميذه وطلبته بالمعارف التي يزخر بها فكره يُعتبر معلما خطيراً على الفرد والمجتمع بينما يعد المرشد عنصراً ضرورياً لأنه يحاول فتق الأذهان، واستخراج المعلومات من الآخرين الذين يحفزهم على التعبير عما يجيش في نفوسهم، وما يعتلج في خواطرهم، وما يتردد في بطونهم، إن الثقافة المنشودة هي الشعور بالحاجة إلى التعبير، وتحديد الوسائل الكفيلة بخروج هذا التعبير.

إن هذه الثقافة تمدنا بعناصر مثقفة واعية وبرجال استخلصوا المعارف من تجاربهم واستخرجوها من ذاتيتهم. وهذه العناصر تقرب من النماذج التي أمد بها الحضارة الإنسانية الفيلسوف العربي الفارابي في قصة «حي بن يقظان» والكاتب الفرنسي موتيني في «محاولاته الأدبية» وتبتعد، جداً، عن العقول المليئة المختلطة، والأذهان المحشوة بالعلوم، العاجزة عن التفكير والتدبر كبعض الفقهاء الذين زخرت بهم الثقافة الإسلامية أو كركانتيوا الذي اقترحه الأديب الفرنسي رابلي.

سيتوصل المجتمع البشري بهذه الثقافة الحية الواعية المتجددة إلى تنظيم التربية بطريقة تمكن الفرد من المشاركة في القلبات والتغييرات والتطورات التي تطرأ في كل وقت وحين، والتكيف معها، ومسايرة التيارات الجارفة العارمة؛ وبهذه الثقافة، يواصل الكائن البشري، طوال حياته، استكمال المعلومات الضرورية، وتنسيق جميع العوامل التي تندرج في إطار التكوين والتربية؛ ومن الواضح أن هذه الثقافة لن تتمكن في الأرض وحتى في السماء - نظراً للتجارب المستمرة في الأجواء - إلا بإقرار نظام التربية الدائمة التي طالما طالب به المربون وعلماء الاجتماع والتي لاينحصر عملها في البيت أو المدرسة أو المعمل أو الحقل بل يستمر في كل مكان.

☆ ☆ ☆

إن التربية الدائمة، وتحسين التكوين سيساعدان الآباء والأبناء على تخطي الصعاب التي تعترضهم في حياتهم العائلية والمهنية، والمديرين والمستخدمين على تدارك الهفوات التي تصدر منهم خلال القيام بمهنتهم، كما سيساهمان في تخفيف حدة سوء التفاهم الذي يحدث بين التلاميذ والطلبة من جهة وبين المعلمين والمربين من جهة

أخرى داخل جدران المدارس والمختبرات ومدارج الكليات والجامعات، وعند أداء الامتحانات وتسليم الشهادات. وستدفع هذه التربية الدائمة، معززة بطرق تحسين التكوين، المسؤولين السياسيين، والإداريين، والتقنيين على ملء الثغرات، وتدارك النقص، والالتحاق بالركب السائر إلى الأمام كلما صعب أمر وادلهم، وزخر البحر وارتطم، وجاءت الرياح لواقح والغمام سوافح، واهتز المجتمع، وتداعى بنيان الهيكل الاجتماعي، وتراءت أمارات الاضطراب وأعمال الشغب لأن التربية الدائمة وتحسين التكوين سيكونان بالمرصاد للثائرين الذين سيتحكمون للعقل قبل أن يحكموا الأهواء، وللمسؤولين ورجال الأمن والسلطة الذين سيدركون أن المجادلة والثورة وأعمال العنف لا تقهر بالسيف والعصى وأعقاب البنادق والغازات المسيلة للدموع، وإنما يقضى عليها بالتعمق في الأسباب، والبحث عن الحلول النهائية للمشاكل العويصة التي تسبب الثوار في خلقها أو التي دفعتهم لإثارة أعمال الشغب.

☆ ☆ ☆

ومما لا إشكال فيه أن الثقافة الحية المتجددة ستعمل على خلق توازن عملي بين مبدأ المتعة الهائج ومبدأ الواقع المتبصر، لأن هذه الثقافة ستبعث في العالمين شعوراً بالحاجيات التي يمكن إرضاؤها، والأهواء والرغبات التي يستعصي اعتبارها وشفاء غليل أصحابها، وستؤدي إلى اتخاذ موقف حازم والتسلح بعزيمة صارمة يتجاوز فيها الشخص حدود جسده وقلبه وفكره بغية إدراك وضعيته الحقيقية في المجتمع البشري؛ إن هذه الثقافة عبارة عن الأسبقية التي يعطيها الشخص للحياة العامة قبل الحياة الخاصة، والمدلول الذي يؤدي بالفرد إلى تقدير مسؤولياته داخل المؤسسات الاجتماعية الموجودة سواء كانت عائلة أو مدرسة أو معملاً أو قرية أو بلدا أو قطراً أو النوع البشري بأكمله. إن هذه الثقافة ترفض الأبراج العاجية، وتلزم الفرد بتعزيز أواصر التفاهم مع أبناء جنسه وتقوية أسباب الحوار معهم.

☆ ☆ ☆

ان «الانسية» الجديدة هي انسية الساق بالساق، والمرفق بالمرفق، وانسية الفرد الذي تبتدئ منه السلسلة والفرد الذي تنتهي إليه السلسلة.

إنها انسية المشاركة والعمل والنشاط، وتوعية الجميع بالحقوق والواجبات والمعضلات والحاجيات.

ومن الطبيعي أن هذه الثقافة لا تتطلب جهود الفرد وحده، ولكنها تحتم جهود الدولة التي يتعين عليها مراعاة هذه الحقوق والواجبات، وأخذ الاحتياطات اللازمة لتوقع الأحداث، وحسم أسباب الخلافات، وتوفير الشروط المادية والمعنوية حتى لا يظل مبدأ المتعة ضيق النطاق، قريباً من التفكك والانشقاق، وحتى لا يظل مبدأ الواقع قابضاً بيد جديد، على زمام الأمور رغم ما يتمتع به من حرمة ومهابة، وما يحاط به من إجلال وتقديس نظراً لما يحققه من خطير الأدوار، وما يسجله من جليل الأطوار في سبيل الحفاظ على سلامة الفرد والمجتمع.

☆ ☆ ☆

وفي إطار هذه الجهود يتعين على المسؤولين الذين يتخذون القرارات السياسية والإدارية أن لا يتوقف توقع الأحداث، عندهم، على إعداد التجهيزات الأساسية الاقتصادية والصناعية والتجارية والفلاحية بل يتعين عليهم، كما ذكرنا في مطلع هذا العرض، وضع التجهيزات الأساسية الاجتماعية والثقافية في مقدمة اهتماماتهم، وطليعة مشاغلهم كإعداد المرافق الحيوية لانطلاق الشباب، وإحداث مناطق شاسعة للراحة من عناء الشغل، والإكثار من الحدائق والملاعب والنوادي حتى يحظى أكبر عدد ممكن من الشباب والأفراد، على العموم، بالوسائل العملية للممارسة التربية الدائمة، والإقبال على تحسين تكوينهم في المكتبات، والدور الثقافية، والجمعيات والمراكز العلمية، والجامعات التقنية الشعبية التي من الواجب أن لا يتطلب الانخراط في سلك طلبتها شهادات عليا ومواهب عظمى ذلك أن فتح هذه الجامعات سيسهل على الأفراد مسايرة طرق التثقيف، والتكوين والترغيب والتسلي ليتمكنوا حسب ميولهم ومؤهلاتهم من الترقي في حياتهم المهنية

والعائلية، ومن تحمل مسؤولياتهم الكاملة في الحقل الوطني والدولي حتى يتحقق تفتق شخصيتهم، وتفتح ذاتيتهم وإبراز معالم وجودهم.

☆ ☆ ☆

ومما لا مراء فيه أن واجب الأدباء والمفكرين والعلماء والمخرجين السينمائيين والإذاعيين وأرباب دور النشر ورجال الصحافة لا يقل عن واجب أصحاب السلطات والحاكمين والمسؤولين ورجال الأمن في صيانة المجتمع من التصدع والتفكك، ووقايته من الانحلال الخلقي. وهذا ما يلزم رجال الفكر والقلم من فلاسفة وعلماء الاجتماع ومربين وموجهي أجهزة الأعلام، وتقنيي الإخراج التلفزي والمسرحي بعرض نماذج إنسانية حق في مؤلفاتهم وأحاديثهم ورواياتهم وقصصهم وأشرطتهم، والإعراض عن تقديم أبطال وهميين، وحكايات دنيئة المقاصد، يتلقفها الشباب بنهم وشره، ويجعلها نماذج مثالية يقتفي أثرها ويحذو حذوها.

ولا يعزب عن البال ما تدره روايات الخلاعة والمجون، ومجلات الجنس والصبا والميع من أرباح طائلة على أصحابها الذين صاروا يتعبون مواهبهم في إصدار هذا اللون الرخيص من الثقافة رغم ما يحمله هؤلاء الكتاب والأدباء والسينمائيون من أفكار يسارية وآراء صلاحية، ورغم ما يتمتعون به في وسط الشباب من تقدير وهيبة وحرمة. وإن دل هذا على شيء، فإن يدل على أن الثقافة نفسها قد تصبح وبالا على المجتمع إذا لم توجه التوجيه السليم، وإن المثقفين يفسدون وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، ويندرجون، من حيث لا يشعرون، في سلك مجتمع الرخاء والاستهلال الذي يزعمون، واهمين، أنهم وقفوا أقلامهم ومواهبهم على الإطاحة به، والقضاء عليه.

☆ ☆ ☆

إن البشرية معرضة لخطر مدلهم لا يهدد ازدهارها الثقافي والحضاري فحسب ولكنه ينخر عظامها ووجودها المادي والمعنوي؛ وإذا كان الرجوع إلى الوراء أمراً مستحيلاً، كما لايخفى على أحد، فإن السبيل الذي اختارته الإنسانية لنفسها حتى الآن ليس بالسبيل السوي المستقيم الذي أمرها الخالق باتباعه حتى لا تتفرق بها السبل عن صراطه رغم ما حققته من خطوات في مضمار الرقي العلمي، والتقدم التقني، لأن الطريق الذي نسير فيه الآن طريق يبس تظمأ فيه النفوس والعواطف وتجف فيه العقليات والمشاعر وتحطم فيه الطاقات الخلاقة والقوات المبدعة؛ فهو يثير الأعصاب، ويحدث ضغطاً دموياً مهولا يعتبر قلق الشباب أخذ عوارضه البارزة، وملامحه الظاهرة. وسعياً في القضاء على هذه الأخطار ـ الحالية منها والمقبلة التي ستكون أشد هؤلاء من المصائب الواقعة اليوم ـ يجب أن نقتنع بأن أسباب هذه الاضطرابات تكمن في أعماقنا؛ ولن نتمكن من حصر هذا الداء إلا بتحويل مجرى التاريخ الحضاري الذي نسير فيه وهو أصعب منالاً من تغيير الأفكار، وأشد مراساً من تحوير المشاعر، وأعز حصولاً من تطهير النفوس؛ إنها مهمة ثقيلة العبء لا يجرؤ عليها إلا فكر جسور ولا يقدر على تحمل تبعاتها إلا أولوا العزم والحزم لأنها «تبتدئ ـ كما يقول هربرت ماركوز في كتابه الرجل الموحد الحجم (ص 14) ـ بتربية الضمير والشعور والمعرفة والنظر والبصيرة لتدرك خفايا ما أصبح اليوم جريمة ضد الإنسانية. إن تبرير العمل الفكري ينحصر في هذه المهمة، وإن العمل الفكري اليوم في حاجة إلى أن يبرر».

☆ ☆ ☆

واعتقد أن تكريم الإنسان، وإعادة حرمة الإنسانية إليه، وتزكية شعوره وإحساساته البشرية وإحاطة نفسيته بالكرامة والمهابة حتى يستعيد شعوره بوجوده وذاتيته التي كادت الحضارة الصناعية المتقدمة أن تدوسها وتدسيها كل ذلك يعد من الوسائل المقدسة التي تبرر هذا العمل الفكري الذي يتعين على الجنس البشري القيام به.

وصدق الله العظيم : ﴿ونفس وما سواها..

فألهمها فجورها وتقواها..

قد أفلح من زكاها..

وقد خاب من دساها..

الرباط : عبد اللطيف أحمد خالص

مراجع البحث

مستقبل القرن العشرين، ألفريد سوفي.
مستقبل الشباب العربي، محمد علي حافظ ـ دار المعارف 1963.
صعود الشباب، ألفريد سوفي ـ كلمان ليڤي 1961.
مذكرات من كاليفورنيا، ادغار موران ـ 1971.
إلاه الحب والحضارة، هربرت ماركوز ـ مينوي 1963.
الرجل الموحد الحجم، هربرت ماركوز ـ مينوي 1968.
من أجل قاعدة نقدية للمجتمع، هربرت ماركز ـ دونويل كونتي 1971.
ثقافة ومجتمع، هربرت ماركز ـ مينوي 1971.
أزمة الأجيال، جيرار مانديل ـ بايو 1971.
محاضرات في التحليل النفسي، فرويد
ما وراء مبدأ المتعة، فرويد.



صاحب الجلالة الحسن الثاني يولي اهتمامه البالغ لشؤون التعليم والثقافة بنفسه حفظه الله.



الشباب نقطة البدء في حياة الإنسان، وطريق المستقبل، فأما إلى السعادة واما إلى الشقاء. وعلى الشباب رسالة يجب أن يؤديها، فإذا هو قصر فيها كانت عقبى التقصير جنايته وإجرامه، لا جناية القضاء، وإجرام القدر ـ بذلك يتحدث المرحوم الأستاذ أحمد أمين إلى شباب اليوم. والأستاذ أحمد أمين درس لطائفة من خيرة الشبان بالجامعة المصرية، ومن الذين عرفوا كيف يستفيدون في زمن الشباب حتى وصلوا إلى مكانة محترمة في العلم والأدب. وهو بعد أستاذ لكثيرين من الشبان الذين شقوا طريقهم في الحياة، ووصلوا فيها إلى النجاح الباهر، والمستقبل الزاهر...

ونظرا لمكانة الكاتب الكبير المرحوم الدكتور أحمد أمين في الحقل الفكري والساحة الأدبية والاجتماعية... ولأهمية الموضوع الذي صاغه الأستاذ، في المستوى المطلوب، فإننا أدرجنا هذا المقال مرة، أخرى بمناسبة أعياد الشباب، حتى تعم به الفائدة، ويستفيد منه شبابنا المسلم الصاعد.

إن الحديث مع الشباب وعن الشباب وإلى الشباب، حبيب إلى النفس قريب إلى القلب. وكيف لا يكون كذلك وهم ـ كما قال أبو العتاهية ـ رائحة الجنة، وأيامهم خير أيام الحياة، وهي أكبر مظاهر القوة، وأكبر مظاهر الإنسانية، وهي في الأيام كالربيع في الزمان، تغنى بها الشعراء يوم كانوا ينعمون بها، وبكوا عليها يوم حرموا منها، فالشباب كان شغلهم الشاغل إذا وجد وإذا فقد، وما أكثروا من القول في الحزن على الشيب إلا لأنهم أعظموا الشباب. ثم أين حكمة الشيوخ من قوة الشباب، فلطالما كانت الحكمة معوقة عن العمل، بما ملئت من حذر، ومن دعوى بعد النظر، بل وما الحكمة التي زعموها إلا وليدة الشباب وبفضل الشباب، فلولا حركة الشباب الدائمة وإقدامهم في شجاعة على الخطأ والصواب ما كانت حكمة ولا تجارب، ولا مران ولا شيء مما يدعى المحنكون. والحق أن لا شيء في الشيوخ يعوض ما للشباب من لمعان في عيونهم، وقوة في عضلهم ويقظة في عقلهم ويقين في قلبهم. ليسوا بالأطفال يصعدون ولا بالشيوخ ينحدرون، وإنما هم في الذروة التي ليس بعدها غاية ـ هم حجر الزاوية وواسطة العقد في الأمة.

طريق المستقبل

في سن الشباب «ينعقد» الإنسان ويتحدد قالبه، ويكتب بنفسه قضاءه وقدره، ويرسم خطة نجاحه وفشله، وليس له بعد الشباب إلا تنفيذ ما رسم، واستقبال ما قضى

وقدر، فإن حدث شيء غير عادي فبفعل الظروف لا بفعله، وعلى الجملة فحياته بعد شبابه هي حركة «القصور الذاتي» واستمرار في دفعة الشباب. وإذا كتب لكل إنسان تاريخ فكتب الناس متشابهة في أن أهم فصولها فصول شبابه وليس بعد «فصل» الشباب إلا فصل «النتيجة» وهل بعد صب العجين في القالب إلا التصلب، أو هل بعد استكمال المقدمات إلا النتائج، أو بعد انتهاء الفصول إلا الخاتمة. أو بعد انتهاء المهندس من رسم البناء والموافقة عليه إلا التنفيذ.

ولكن - وأسفاه - يخطىء كثير من الشباب فيصب نفسه في قالب غير القالب الذي يناسبه أو يؤلف كتاب تاريخه على غير ما خلق له، أو يرسم هندسة بنائه ومساحة نفسه التي يقيم عليها البناء لا تلائم شكل البناء فيخرج معيبا مشوها، فكثير من رجال الأعمال أضاعوا شبابهم في دراسة نظرية بحتة، وكثير ممن حسن استعدادهم للفلسفة والنظريات البحتة أضاعوا شبابهم في عمل يدوى، ففقدت الأمة نبوغ هؤلاء وهؤلاء جميعا، وكنا كأننا في مصنع يكنس أرضه المهندس ويهندس آلاته الكناس، ويقوم بكل عمل فيه من لا يحسنه. وهذا أكبر سبب في ضياع الشبان وفساد الأعمال.

فنقطة البدء في حياة الشاب يجب أن تكون هي دراسة نفسه، وتعرفه مواضع نبوغه، ومواضع ضعفه، واختيار العمل الذي يعمله، ونوع الدراسة التي تناسبه، وتحديد الغاية التي ينشدها. ولعل الطبيعة لم تخل أحدا من نبوغ في ناحية من نواحي الحياة، وإنما يميت هذا النبوغ أو يضعفه أن الشاب لا يستكشفه فيختار ما ليس له بأهل فتكون النتيجة المحتومة الفشل تلو الفشل. ويلصق ذلك بالقضاء والقدر، وما القضاء والقدر في هذا إلا أن بين جنبيه كنزا لم يعرف مفتاحه، وكم بين العاطلين والبائسين، ومن لم يجدوا قوت يومهم من لو اتجه وجهة صالحة لأصبح نابغة فنه أو علمه، ولأتاه الرزق من كل مكان. ولكن كم من الناس يموتون عطشا في الصحراء والماء على مقربة منهم لم يهتدوا إليه ولم يوفقوا إلى مكانه !

وليس يستطيع أي عالم أو مرشد أو ولى أمر أن يستكشف موضع النبوغ في الشاب كما يستطيع الشاب نفسه. فنفسه بين جنبيه هو أقدر على أن يقيسها ويقيس اتجاهاتها، وهو لو دقق النظر وأخلص النية في تعرف جوانبها ولم تغره المطامع الخادعة والمظاهر الكاذبة لعرف سر نفسه وموضع عظمته.

صعوبات الشباب

وليست هذه هي الصعوبة الوحيدة للشباب، فهناك صعوبات عدة تعترضهم وتحاربهم وتدفعهم إلى الشر وتصدهم عن الخير.

من أهم هذه الصعوبات «الوراثة والبيئة» فهناك كثير من الشباب ورثوا الميل إلى الإجرام، والميل إلى الخمر، والميل إلى النساء ونحو ذلك عن آبائهم، وظلت هذه الجذور الموروثة كامنة فيهم مدة صباهم حتى إذا دخلوا في دور الشباب تحركت هذه الميول بقوة وشدة فظهرت فيهم مرعبة مزعجة.

كما أن كثيرا من الظروف السيئة تحيط بالشاب الطيب فتلتهم ميوله الطيبة، وتهدم آماله وطموحه، وتستأصل شعوره بالشرف والنبل، وتجعل على عقله غشاوة فلا يستطيع التفكير، وتجعل كل طموحه وكل أمله وكل تفكيره في شهوات وضيعة. وكل يوم تقوم لنا البراهين العدة على هذا.

فمن هذه الظروف «الصداقة السيئة» فقد يكون الشاب طاهرا نقيا، فما هو إلا أن يصاب بصديق يفتح له حديث الشر، ويحيى فيه كوامن شهواته، ويقص عليه مغامراته ومغامرات أمثاله في النساء وفي الشراب، ويستدرجه من سجارة يدخنها، إلى كأس يشربها، إلى ما هو أسوأ من ذلك، فإذا رأسه مشتعل بالشر، وإذا هو يطلق كل ما اعتنقه من مبادئ الخير، وإذا هو لا يصلح لجد ولا لدراسة وإذا هو لا يصلح إلا لضروب الشر.

ومثل هذه الصداقة، صداقة الكتب والمجلات والجرائد التي من هذا النوع، فهناك أنواع من الأدب مضلة مغوية، وكم من الشباب اتخذوا مثلهم العليا من روايات السينما الداعرة الفاتكة بالعقول الممثلة للجرائم واللصوصية، المحركة

لأسفل أنواع الشهوة، وكذلك الكتب والمجلات والصحف والصور التي من هذا القبيل.

ومما نأسف له أن هذا النظر وهذا القول يعد عند بعض الشبان من أخلاقية القرون الوسطى لا يصح أن ينطبق على عصرهم وزمنهم. والواقع أن التجارب التي أجريت والحريات التي منحت في هذا الباب دلت على صحة أخلاقية القرون الوسطى وأصبح المعاصرون من كبار أرقى الأمم الممدنة يخشون من تهور الشباب في هذا الباب، وأصبحوا في فزع مما يرونه من المآسي التي يرتكبها الشباب باسم الحرية.

كيف يبني الشاب نفسه

والآن نتساءل : ماذا يجب أن يكون الشاب وكيف الوصول إلى ما يجب ؟

أول واجب على الشاب أن يبني نفسه. فينظر في ملكاته واستعداداته ويكون منها نفسه على أحسن وضع يمكن أن تكون عليه المواد الأولية، والناس كلهم مختلفون في كمية الملكات والاستعدادات وكيفياتها، ولكن كل كمية وكيفية يمكن أن يصاغ منها إنسان جيد في ناحية من النواحي، له شخصية ممتازة نوع امتياز، وليس يفسد هذا العمل إلا عدم القدرة على البناء، أو عدم الاهتداء لخير الاشكال ـ يجب أن يبني نفسه جسميا وعقليا وخلقيا، فيرسم له مثلا أعلى محدودا في كل ناحية من هذه النواحي، ويرسم خطة السير للوصول إلى هذه الغاية ولا يترك نفسه سبهللا كالسفينة بلا قائد تتقاذفها الأمواج، وتدفعها الرياح كما تهوى ـ ولا يتسنى له ذلك إلا إذا امتلأ عقيدة بخير هذا المثل ومناسبته له. وقد دلت التجارب على أن القلب لا العقل هو الذي يبنى الإنسان ويكتب تاريخه، ويحدد مقدار نجاحه، فلا خير في عقل كبير لا قلب معه. وتاريخ الإنسانية يشهد أن خدمة القلوب الكبيرة لها أقوى من خدمة العقول الكبيرة.

وأهم ما يدعو إليه القلب ويتطلبه من الشاب أن يكون «رجلا» والرجولة وصف جامع لكثير من الصفات المحمودة : أهمها الجد في العمل، والشجاعة في مواجهة الصعاب، والحرص على المبادئ. وهذه الصفة نحن الشرقيين أحوج ما نكون إليها الآن، وأحق صفة لكثرة الكلام فيها، لأني أرى في الشباب ميلا إلى الانحدار والتحلل من الواجبات، وعدم الاكتراث بالمبادئ، والميع في السلوك، وهي كلها مظاهر لقلة «الرجولة» أو عدمها، وهي أكبر سبب فيما نرى من عدم نجاح الشبان في الأعمال الحرة وتهافتهم على وظائف الحكومة، لأن طلب العيش في الحكومة سهل يسير. أما العمل الحر فيتطلب جدا فائقا ونشاطا كبيرا وعملا شاقا في زمن طويل، وأعمال العقل في الابتكار والتفكير في وسائل النجاح، فإذا لم يكن الشاب مسلحا بكل هذه الخصال فشل فشلا تاما.

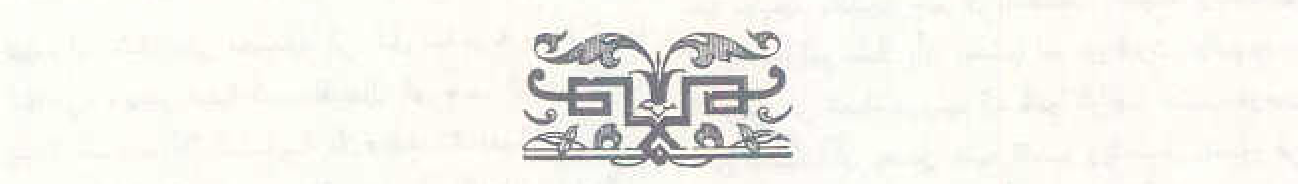
لماذا يفشل الشاب

ولعل من أكبر أسباب هذا الفشل وعدم هذا الخلق خلق الرجولة ـ أن الآباء لم يتعودوا عندنا أن يزجوا بأبنائهم الشبان في معترك الحياة ويحملوهم عبء أنفسهم، بل يفتحون لهم صدورهم وبيوتهم وجيوبهم حتى بعد أن يتخرجوا من المدارس العالية، ويتركونهم في البيت يأكلون ويشربون وينامون وينعمون، وكل عملهم السعي في دواوين الحكومةلعلهم يجدون لهم «وظيفة». ولم يعتد الآباء فينا هذه العادة الجيدة التي اعتادها الغربيون، وهي أنهم منذ تعليمهم يطلبون منهم أن يصطدموا بالحياة، ويلجئونهم أن يجدوا لهم عملا وأن يبحثوا لهم عن قوت، وأنهم وقد أعانوهم على اتمام دروسهم قد أنهوا الواجب عليهم، فوجب على الشاب أن يحمل عبء نفسه ويتعلم أن يعوم في الحياة كما يعوم في البحر، وأن يكافح الأمواج ويحارب الصعاب، ويبذل جهده حتى يجد قوته، فهذا هو ما يبني الشاب حقا ويستخرج منه الرجولة. أما طريقتنا التي نسير عليها فلا نتيجة لها إلا ما نشاهد من ميع وتسكع على أبواب المصالح الحكومية. ومبلغ قليل يكسبه الشاب من عرق جبينه وبجده وباعتماده على نفسه خير في تكوين خلقه من عشرة أمثاله يحصلها من وظيفة حكومية أو من إعانة من والديه.

إن الشاب يحب الوظيفة لأنها عمل ميكانيكي محض، عمل راتب كعمل الآلة يعقب رزقا محدودا يقبضه آخر الشهر. وأشجع منه وأكبر رجولة من يغامر ويستخرج رزقه من فم الأسد، فالأول تسلمه الوظيفة إلى الخنوع والاستسلام والتواكل وعدم الثقة بالنفس، على حين أن جد الآخر ومشقته في تحصيل العيش يكسبه شجاعة وجرأة وطموحا واحتمالا للصعاب وللوصول إلى هذا يجب أن يكون الشاب - دائما - باسما للحياة متفائلا لا متشائما آملا في النجاح. فاليأس يستلزم الفشل والخيبة، ويسم الحياة كما يسم «المكروب» الماء.

وأخيرا على الشاب أن يمتلئ شعورا بأنه مكلف أن يفعل ما يستطيع لتصحيح الخطأ الذي يقع فيه الناس من جرائم وشرور، فلا يكون في حياته أنانيا بحتا لا ينظر إلا إلى نفسه بل هو مطالب بعد أن يبني نفسه أن يشترك في بناء أمته وفي بناء الإنسانية عامة على قدر جهده وكفاياته بخلقه وبعلمه وبماله وجاهه - على الشباب أن يكونوا قوة فاعلة دائمة في حياة أمتهم، ويجب أن يتحملوا في الحياة أكبر عبء لأن حيويتهم في الأمة أقوى حيوية. وهم المقياس الصحيح لرقي الأمة أو انحطاطها. فإذا أردت أن تعرف هل ارتقت أمة أو انحطت وما مقدار هذا الرقي أوالانحطاط فاعرف الفرق بين شباب الأمة وشيوخها، فبمقدار تفوق الشبان على الشيوخ في العلم والخلق والصحة يكون الرقي. وبمقدار ضعفهم عن الشيوخ في ذلك يكون الانحطاط. أن كل طبقة من طبقات الأمة لها رسالة يجب أن تؤديها وليس في كل هذا أجدى وأنفع من أن يؤدى الشباب رسالتهم.

أحمد أمين



بمناسبة افتتاح اشغال المجلس الأعلى للماء تحت الرئاسة الفعلية لجلالة الملك الحسن الثاني:

الاهتمام بالماء في التشريع المغربي

للدكتور
عبد الهادي
التازي

وكما قلت فإن المغرب والولايات المتحدة هما البلدان الوحيدان اللذان يتوفران على المعطيات العلمية حول الماء، فإذا لم نتخذ من الآن التدابير اللازمة لاكتشاف الماء الذي لم نكتشفه بعد، ونقوم بتخزين الماء المتوفر لدينا سواء كان جوفياً أو سطحياً، ونبحث عن أحسن طريقة لاستعماله، فإن لم نفعل فسنكون مجرمين إلى أقصى ما يمكن الإجرام، لأننا ندرك أن أمامنا عشرين سنة للعثور على هذا الماء، وحتى نحافظ عليه ونخزنه ونستعمله أحسن استعمال، علما منا أن أمامنا عشرين سنة سجب أن نبدأ اليوم، إن لم نكن قد بدأنا أمس، مع العلم أننا سنصبح أربعين أو أزيد من أربعين مليون نسمة.

الحسن الثاني

ظل الاهتمام بالماء هدفا استراتيجيا لسائر الولاة الذين تعاقبوا على الحكم بالديار المغربية... ومن ثمت وجدناهم يعطون الأولوية ـ عند اختيارهم لعاصمتهم ـ لهذا العنصر الحيوي. فهم على هذا الأساس يخططون لبناء حكمهم واستقراره واستمراره.

ولابد أن نعيد إلى الذاكرة، في هذا الصدد، أن اختيار موقع العاصمة الإسلامية الأولى للمغرب في أول ربيع الأول 192 = 4 يناير 808 من لدن إدريس الثاني كان على أساس الماء... وأن الأمر كان كذلك بالنسبة للمدن في العهود السالفة...

وقد تبعت هذا الاختيار، بطبيعة الحال، خطوة التفكير في توزيع الماء بالقسطاس والعدل على سائر المواطنين...

ومن هنا سمعنا الحديث عن شبكات الماء التي عرفتها مدينة فاس منذ عام 388 = 998... وعرفتها مدينة مراكش (500 = 1106)... والرباط (545 = 1159) وجبل طارق (555 = 1160) وسبتة (580 = 1184)...

وقد ضربت الطبول وعزفت الموسيقى في أرجاء اشبيلية عام 580 = 1184 تكريما للمهندس المغربي الحاج يعيش الذي نجح في جلب الماء للمدينة من الخارج...

وقام لأول مرة في تاريخ الأندلس ببناء خزان للماء تبعه إنشاء قنوات توزع الماء على مختلف أطراف المدينة[1]...

وإلى جانب هذه المنشئات الحضارية في المدن وجدنا أن الدولة تعمل على استغلال الأودية والأنهار لصالح المزارع والمباقل والحقول المنتشرة التي تغذي المدن، ومن ثمت توجه الاهتمام لاختراع العجلات والدواليب التي نصبها المهندسون المتخصصون على شواطئ الأودية لرفع الماء بالغرافات إلى مستويات أعلى قصد تبليغه إلى الأماكن المحتاجة...

وإذا كانت آثار هذه «النواعير» قد اختفت في بعض الجهات فإنه ما يزال في استطاعتنا، إلى الآن، أن نرى بقاياها في بعض المدن المغربية العتيقة...

وبالرغم من أن مثل هذه الاحتياطات كان يؤمن وصول الماء إلى كل جهة إلا أن رغبة الإنسان الطبيعية في التوفر على نصيب أكثر من هذه المادة الحيوية جعل الحكام يفكرون في وضع أسس وسن قوانين يرجع إليها عند الفصل في القضايا التي تتصل بالماء...

وقد وجد الحكام المغاربة هنا في تعاليم الإسلام الأولى ما يشجعهم فعلا على المضي في هذه المبادرة، لقد كان أول حكم صدرت فيما يتعلق بتوزيع الماء هو الذي روى عن نبي الإسلام ﷺ بعد هجرته المعروفة من مكة إلى المدينة...

ولابد، ونحن نقرأ عن وجود وظيفة أمير الماء «في المشرق، ونحن نقرأ عن السجلات التي تضبط حقوق هذا الحقل وذلك البستان في الماء، لابد أن نلتفت أيضا إلى ما كان يجري في الغرب الإسلامي.

وهكذا سمعنا بمدينة فاس عن «**أمين الماء وشيخ الماء ومولى الواد» كما قرأنا عن أهل فاس أنهم ظلوا** يعتقدون طوال التاريخ أن لهم حق ملكية جميع مياه وادي فاس ابتداء من منبعه، منذ أن اشترى المولى ادريس أرض المدينة مع مائها من بني يرغش وزواغة...

وهكذا أيضا وجدنا الخلافة في المغرب ممثلة في شخص عبد الرحمن الناصر من بني أمية الأندلس الذي كان عندئذ يشمل بحكمه ديار المغرب الأقصى، وجدناه - علاوة على ما قام به من مشاريع عمرانية في مدينة فاس - يقوم سنة 318 - 930 بإنشاء محكمة خاصة بأراضي الري التي تتصل بنهر توريا (TURIA) : الذي يصب في المتوسط في إقليم بلنسية المعروف في المصادر العربية بفواكهه ومزروعاته، ووجدناه يحدث وظيفة أسماها حيان بن خلف (وكالة الساقية)...

☆ ☆ ☆

وعلى ذكر محكمة المياه في بلنسية، لابد أن لا ننسى أن نذكر أن أهل بلنسية هم الذين انتقلوا إلى المغرب في عهد الموحدين أيام السلطان عبد الواحد الرشيد، وهو الذي ملكهم مدينة الرباط بمقتضى ظهير بتاريخ 21 شعبان 637 أولئك البلنسيون الذين أصبحوا رباطيين ظهرت هوايتهم الفلاحية في الحقول والسواني التي تملكوها فضبطوا سقيها بوسائلهم الموروثة وما تزال إلى الآن آثار قنوات السقي ظاهرة للعيان في بعض جهات الرباط إلى الآن...

إن محكمة عبد الرحمن الناصر في بلنسية كما تصورها المصادر الإسبانية إنما تعطي فكرة عن جلسة من جلسات القاضي التي نعرف عنها في مختلف جهات العالم الإسلامي، أي أن يستمع القاضي إلى أطراف النزاع في القضية... ثم يصدر حكمه بعد أن يستوعب الحجج ويستزج الآراء...

وهكذا نلاحظ أن تقاليد محكمة بلنسية تكتفي بالاحتفاظ بالمظهر والشكل الذي كانت تقوم عليه محكمة المياه في تلك العصور وفي بعض النوازل المحدودة فقط...

وكما نلاحظ أيضا أن محكمة بلنسية على شكلها الذي وصلنا الحديث عنه كانت تهتم بالتسويات الظرفية في رقعة معروفة المعالم، وفي فصول معينة محدودة الزمن.

---

1) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة، تحقيق. ع. التازي - الطبعة الثالثة دار الغرب الإسلامي ببيروت. ص. 378.

وكما نلاحظ كذلك أن **محكمة بلنسية** لا تصحبها وثائق أصيلة تتحدث عن المسطرة الجارية... كما ولا تقدم لنا أسماء للقضاة الذين كانوا يفصلون في النوازل العارضة... فهل أن محكمة بلنسية هي كل ما في المنطقة من نماذج ؟

إن الوثائق المغربية تتحدث عن نماذج رائعة من تلك المحاكم المائية، فيها ما قرأنا عنه في مدينة اشبيلية وبياسة وغرناطة وجيان، وفي مدينة مراكش وتازة وقرطاج وفاس والقيروان وتلمسان... وفي صقلية كذلك.

وهذه المحاكم التي تقدمها اليوم تتوفر على تقارير ووثائق مضبوطة تحدد النازلة بما يكتنفها من ظروف مكانية وزمانية كما أنها تدلنا على مصادر أصيلة لعلاج مشاكل السقي والسدود والقناطر..

إن المحاكم التي نتعرف عليها اليوم تقدم لنا لائحة طويلة بأسماء بعض القضاة والفقهاء والأمناء والمحتسبين وشيوخ النظر الذين كانوا يفصلون في قضايا المياه، وهي بالإضافة إلى كل ذلك تقدم لنا صورا متعددة عن مختلف الوسائل التي كانت المحكمة تلجأ إليها والتي لا تقتصر على الاستماع إلى أقوال الشهود داخل القاعة، ولكنها تتعداها إلى وسائل عملية أكثر ديناميكية وفعالة...

وقد تعددت مواضيع اهتمامات هذه المحاكم بحيث إننا نلاحظ أنها لا تقتصر على التسديد بين المتنازعين في قضايا السقي ولكنها تتدخل للحسم في القضايا ووضع قواعد صالحة للسير عليها...

وقد كان في أول ما أثار الانتباه في هذه المحاكم أنها محاكم مفتوحة دائما ومتحركة باستمرار ومتجددة ترصد النازلة وظروفها ومضاعفاتها أينما كانت في الأندلس أو بلاد المغرب، في المدينة أو القرية في السهل أو في الجبل...

ومن مزايا هذه المحاكم أن القاضي في مدينة سبتة قد يفصل في قضية تعرض في فاس، والعكس صحيح... كما أن القاضي في القيروان قد يكون له رأي في نازلة تحل في غرناطة، فإنه يكفي الاطلاع على المحاضر التي تكون موثقة مضبوطة...

وينبغي أن نذكر في صدر الذين أسهموا في إثراء الملف القضائي لمحكمة المياه، القاضي أبا الفضل عياض السبتي الذي وضعت بين يديه عشرة أسئلة كلها تتصل بشؤون سقي الجنات وإنشاء الأرحية...

ويعتبر كذلك أبو عبد الله ابن الحاج من الفقهاء الأوائل الذين راج اسمهم بكثرة في كتب النوازل الخاصة بالفصل في قضايا الماء...

كما أن الإمام البرجيني كان من القضاة الذين تولوا الحكم على الذين بنوا الساقية دون أن يعيروا انتباها لمصالح المارة..!

وفي حديثنا عن محاكم المياه وتوزيعها نرى من المناسب أن نشير إلى وثيقة في منتهى الأهمية، ويتعلق الأمر بشهادة عدلية صادرة عن : عبد الرحمن اللواتي وحسين بن علي الكندي وهي بتاريخ العشر الأواخر من جمادى الأولى عام 526 الموافق للعشر الأوائل من عام 1132 وهي تتعلق بحصة الماء في صقلية، وبالذات في الفحص الغربي من مدينة «بَالِيرْم» وهي العين المعروفة آنذاك بالمناقي.[2]

☆☆☆

ونرى من الفائدة أن نبدأ بالإشارة إلى نوع من المحاكم المائية التي لا تقتصر ـ كما قلنا ـ على سماع المتداعين تحت سقف المحكمة، ولكنها تتجاوزها إلى تكوين لجان متخصصة وإرسال الخبراء والشهود إلى عين المكان تتبع منابع الماء... وضبط مسالكه ومعارجه مستعينة في ذلك بإعطاء أعلام جغرافية للأمكنة والبقاع التي يمر منها الماء... حتى يمكن للقاضي أن يصدر حكمه في اطمئنان ضمير وراحة بال...

لقد كانت تلك اللجان التحكيمية إلى العهد القريب تتكون من ستة عشر شخصا إلى ثمانية وعشرين عضوا برئاسة قاضي المسلمين.

---

2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد 5 ص 213.

أمامنا محاكمة جرت أيام السلطان أبي سعيد الملك الخامس من دولة بني مرين (710 ـ 731 = 1311 ـ 1330) وهي تتناول النزاع بين أهل أرجان وأهل مزدغة من نظر مدينة صفرو وأحواز فاس حيث عمد الأعلون إلى قطع الماء على الأسفلين...

وبصدد هذه القضية نتوفر على **رسوم عدلية عديدة** تصف النازلة كتابيا... ثم تأتي بعدها بآراء الفقهاء حول الموضوع :

ويتضمن الرسم الأول : أن قاضي الجماعة بمدينة فاس أذن للجنة بالوقوف على عين الوادي المتنازع على السقي منه بين أهل أرجان وأهل مزدغة باعا باعا، وسدا سدا، ورحى رحى، وحقلا حقلا...[3].

وقد أرخ هذا المحضر في العشر الوسطى لشهر ربيع الأول المبارك عام أحد وعشرين وسبعمائة = أواسط أبريل 1321.

ويتضمن العقد الذي يليه : المصادقة على تقرير اللجنة من لدن القاضي عبد الله بن أحمد بن محمد الأزدي ثم القاضي محمد بن محمد الصنهاجي.

أما الرسم الثاني : وهو يحمل تاريخ العشر الأواخر لشهر جمادى الأولى عام ثمانية وأربعين وسبعمائة = أوائل شتنبر 1347... فيتضمن إذن قاضي الجماعة بفاس محمد بن عبد الرزاق الجزولي حول هذه المحاكمة التي يظهر أنها كانت من أهم وأدق المحاكمات لما أنها كانت تشمل مساحة شاسعة وتعني جمهورا كبيرا من الناس ورثوا ـ منذ عهد الدولة الموحدية (524 ـ 663 = 1129 ـ 1269) أعرافا وتقاليد لم تعد صالحة في عهد دولة بني مرين...

وقد تضمن العقد الذي يلي هذا الرسم شهادة عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد الصنهاجي مصحوبة بمصادقة قاضي الجماعة بفاس : محمد بن محمد بن محمد الصنهاجي.

إن هذه القضية بما صاحبها من تعقيدات ضاعف تقادم الزمن وعدم انحصار عدد المتداعين من كبير وصغير وحاضر وغائب ونساء متزوجات وأرامل ومتوزع بين ولاية وأخرى، أقول ضاعف كل ذلك من مشاكلها وكانت تتطلب المزيد من الاستشارات.

وهنا سجلنا ثروة جليلة من الفتاوي التي تظل دليلا قويا على الزاد العلمي الذي كان ينعم به الفقهاء فيما يتصل خاصة بالفصل في قضايا المياه...

هنا جواب الفقيه أبي ابراهيم اسحاق بن يحيى الورياغلي، وجواب الفقيه أبي الفضل راشد الوليدي، وهنا جواب الفقيه أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق اليالصوتي، وهناك كذلك جواب أبي الضياء مصباح الذي ورد توقيعه هكذا : محمد بن مصباح بن محمد بن عبد الله اليالصوتي[4]، وهناك جواب الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي، وهناك جواب الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبدون السويفي، وهناك جواب الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد العزيز التازغدري...

أقول هناك آراء هؤلاء العلماء السبعة حول : «مسألة قوم لهم ماء عليه أرحية وجنات ومنازل على قديم الزمان لا يعلم كيف كان أوله لطول الزمان وانقراض الأجيال فأراد الأعلون قطعه على الأسفل».

لقد كان على الفقهاء هناك أن يبحثوا عن الوثائق القديمة التي ترجع لعهد الموحدين حتى ينطقوا بحكمهم الصحيح على ما يقتضيه المذهب المالكي المتبع في المغرب.

☆☆☆

وللزيادة في التوثيق والاحتياط وجدنا أن العدلين : يوسف الصنهاجي وعبد السميع الوليدي يشهد أن على صحة خط بعض الفتاوي التي كانت تعتمد في الأساس على القضية التي أصبحت معروفة تحت اسم «سيل مهروز

---

3) الباع : مقياس ما بين امتداد اليدين...

4) توفي مصباح عام 750 بمدينة فاس، وإليه تنسب المدرسة المصباحية.

د. التازي القرويين ج 2 ص 359.

ومذينب» وهي التي وقعت في عهد الرسول ﷺ على ما قلنا في بداية هذا البحث.

وقد أصبحت تلك القضية مرجعا أساسيا لقضاة محاكم المياه في العالم الإسلامي بل في بعض جهات أروبا التي تأثرت بالوجود الإسلامي على أراضيها على ما يفهم من المؤلف المعروف باسم «كتاب السداد والأنهار...»[5].

إن الحق في استغلال الماء ليس دائما إلى جانب الأعلين كما يراه بعض القضاة، فإذا كان الأسفلون غرسوا قبل الأولين فليس من المقبول أن يحرموا من السقي ويقدم الأولون لمجرد أنهم أصبحوا أعلين !

وهكذا نقف على صورة حية من صور الفقه الصحيح الذي لا يقتصر رجاله على تطبيق النصوص بالحرف ولكنهم يحاولون أن يسترشدوا بروح النصوص وأهدافها البعيدة...

إن النبي ﷺ حكم للزبير لأنه كان أعلى... ولكن لهذا الحكم ظروفه الخاصة التي تقتضي أن لا يطبق على سائر الحالات على ما سنرى في وادي فاس[6].

☆ ☆ ☆

وقد شهد على فتوى عبد الله العبدوسي السالف الذكر بتاريخ 24 ربيع الأول 824 = 21 مارس 1421 محمد المليلي ومحمد بن عبد الله.

كما شهد على فتوى التازغدري بتاريخ 29 جمادى الأولى 824 = 1 يوليه 1421 جماعة من الموثقين : محمد المصباح ومحمد الكتاني وأحمد الصباغ.

☆ ☆ ☆

وقد كان من القضايا المائية الهامة التي أثيرت في مدينة تازة الشهيرة بمركزها الهام قسمة الماء المجلوب إلى المدينة حسب وثائق ومستندات ترجع إلى العهد القديم...

وقد كان الشيخ الذي تولى الفصل في الموضوع هو أبو عمران موسى بن المعطي العبدوسي (ت 776 = 1374 - 75)[7].

لقد توجه إليه سؤال من مدينة تازة عن أهل زقاقين من أزقتها رفعوا إلى القاضي بالمدينة المذكورة قضية تتصل بشبكة الماء التي كانوا يستعملونها جميعا في مصالحهم...

لقد ظهر من خلال البحث أن هناك عقودا قديمة تثبت اشتراء منبع الماء الآتي من مكان بعيد وأنه ليس لأحد فيه الحق سوى أهل موضع واحد لأهله الثلثان من الماء في كل يوم خميس من صلاة الصبح إلى صلاة العصر، وقادوس آخر لمسجد هناك في ذلك الموضع، خمسة أصابع منضمة، وسائر الماء مجلوب لبلدة تازة : لمساجدها وحماماتها وسقاياتها وأجبابها... وسيق الماء المذكور في ساقية إلى قرب سور البلد المذكور، وقسم من هناك على ثلاث سواقي : ساقية تسمى بجهة الرياض الكبير وما والاه، وساقية بجهة القصبة وما والاها، وساقية عظمى هي التي تشق البلد... إلى آخر السؤال الذي يشكو من إحداث مالم يكن معروفا في قديم الزمان...

وهناك نجد جملة من الآراء التي تجتهد في التصرف حسب ما تقتضيه المصلحة الآتية... وهكذا يتجلى أن الفصل في قضايا النزاع حول الماء ليس بالأمر الهين... وأنه يحتاج إلى إطلاع واسع ومشاركة شاملة في كل فروع المعرفة وخاصة منهافحص الوثائق وتمحيص تواريخها والعلم بالمواقع الجغرافية المتنازع بشأن الماء فيها علاوة على التمكن من النصوص الفقهية...

وقد كان من القضايا التي اهتمت بها محاكم المياه في الغرب الإسلامي، علاوة على مسألة التوزيع العادل للماء، قضية لم نسمع بها في محكمة بلنسية، ويتعلق الأمر بعملية تنظيف الوادي مما يترسب فيه من تراب وما يعلق به من غثاء يعطل وظيفته وذلك حتى يزداد ماؤه لسقي الجهات التي تستفيد منه... ويتعلق الأمر بوادي مصمودة...

لقد كادت مدينة فاس أن تكون أغنى مدينة في العالم كله من حيث توفرها على الماء على ما يؤكده

---

5) المعيار 8 ص 11.

6) على نحو هذا قام احتجاج أهل فاس ـ على ما سنرى ـ ضد الذين كانوا يحاولون أن يأخذوا من وادي فاس : أولا من الأعراب الذين كانوا يخيمون في أعالي الواد... ثانيا من المستعمرين الأجانب الذين أنشأوا لهم ضيعات عند منابع الواد، كان أهل فاس يحتجون بأن الإمام إدريس اشترى الوادي من بدايته إلى نهايته لحساب فاس !!

7) د. التازي : جامع القرويين ج 2 ص 496 طبع دار الكتاب اللبناني بيروت 1973.

المراقب المدني كوسطو : coustau لأن كل واحد من السكان يصل إلى أن يكون له 3000 ليتر في الثانية، بينما القدر الممنوح لكل واحد، من سكان المدن المحظوظة مثل روما ومرسيليا 1000 ليتر في الثانية، وهو يتراوح بين 150 إلى 250 ليتر في الثانية في المدن الكبرى مثل لندن أو باريس أو فيلا ديلفيا.

ومع ذلك فقد كان النزاع على الماء في أبرز ما عرض حومات المدينة للصراع والنزاع لقد كان لكل ناحية من نواحي فاس الثلاث فرع من الوادي يسقيها : فحومة اللمطيين تابعة لوادي الفجالين وناحية الأندلسيين تابعة لوادي الحامية وناحية العدوة تابعة لوادي مصمودة...

إن هذه الفتاوي بما تشتمل عليه من تفصيلات واستطرادات، تكون مرجعا قضائيا هاما لكل الذين يهمهم أن يعرفوا عن محاكم المياه الخاصة، وهي - إذا طبقت - من شأنها أن تجعل حدا لكل الخصومات والنزاعات التي تشب حول العمل الجماعي الذي يتعين على الشركاء القيام به سواء عند الحاجة لتنظيف الأنهار أو الحاجة لترميم السدود والجسور المشتركة...

ولقد وضعت القضية بين يدي القاضي أبي إسحاق ابراهيم اليزناسني الذي وجدناه يستأنس بمسألة وادي مهروز ومذينب التي أشرنا إليها... ولا يتردد اليزناسني في إثارة موضوع تدخل الدولة في أمر الانتفاع بماء العيون والأنهار التي ليست مملوكة لأحد...

كما أنه لم يغفل الحديث عن أن الذي يحيى أرضا ما من الأرضين بسقيها وزراعتها ثم إنه يعجز عن متابعة عمله فإن ذلك مما يوجب إخراجها من يده حتى لا تبقى عاطلة...

وقد كان من اهتمامات محكمة المياه مراجعة الأحكام المتعارف عليها متى ظهر فيها حيف على حقوق المستضعفين من النساء والصغار وهكذا وجدنا أهل حصن شنتقروس يتوجهون إلى القاضي أبي عبد الله محمد بن علي ابن علاق الأندلسي الغرناطي (ت 806 = 1403 - 04) حول رأيه فيما اتفق عليه رأيهم من الالتزام بأن يتم السقي على نوب معلومة بأخذه الأعلى فالأعلى من كل ساقية، فإذا أخذ الأعلى النوبة المتفق عليها بالساعات... وإذا تم عدد تلك الساعات بالسقي أرسل الماء إلى جاره الأسفل فيمسكه أيضا على قدر ما صار له من الساعات، فإذا تمت أرسله، هكذا واحدا بعد واحد إلى آخر السؤال.

لقد تناولت أجوبة ابن علاق عددا من القضايا التي كانت من اختصاص محكمة المياه...

وقد كان مما عالجته محكمة المياه ما يترتب مثلا على وفاة أحد الملاك مما يحدث تغييرا في خريطة التوزيع عندما لا يتصل الورثة إلى اتفاق فيما بينهم... كما أن من اختصاص هذه المحكمة ما يتصل بسرقة المياه التي كانت تعتبر من الجرائم الكبرى...

وقد كان الهدف الأساسي للذين يعهد إليهم بالفصل في قضايا المياه هو الوصول إلى إرضاء الكل واقتناع الكل بضرورة تحمل الغرم بنفس المرونة التي يتقبلون بها الغنم... وهكذا فصلوا في أحداث الأرحية ورفع السدود، وتحويل مجاري المياه حسبما تقتضيه مصلحة الناس.

☆ ☆ ☆

وقد كان من مهام المحكمة أن تقارن وتفارق بين الحجج والمستندات... كما أنه كان عليها أن تعتمد على المبدأ الأصولي القائل بالالتجاء إلى ارتكاب أخف الضررين عند معارضة ضمان السقي لضمان مصلحة أخرى... ونذكر على سبيل المثال الاجتهادات التي كانت تعطي الأولوية لسقي الثمار قبل أن تعطيها لاستعمال الأرحية لأن النبات لا يتحمل الصبر بينما طحن الحبوب يمكن أن يؤجل لما بعد...

وكثيرا ما كان الحكام في قضايا الماء يلجأون إلى القرعة للفصل بين المتنازعين حول أوقات السقي : الليل والنهار... ان فائدة السقي عند العصر غيرها عند الزوال مثلا..!

وقد كان من المواضيع التي سمعنا عنها في محكمة المياه، موقف الشرع من تسليف أهل القرية لبعضهم من بعض حظه ليتمكن من اعداد أرضه على أن يسترجع حظه عندما تحتاج أرضه للسقي.

ومن الطريف أن يحرص الفقهاء هنا أيضا على منع السلف الذي يجر المنفعة، وهو في هذه الحالة أن يسلف المرء نوبته لزميله في فصل الشتاء على أن يردها إليه في فصل الصيف...!

ولقد أسهم فقهاء اشبيلية وجيان بدورهم في اثراء الفقه فيما يتصل بالنزاعات التي تتصل بالماء حيث سلجنا ظهور اسم أبي الوليد الباجي وأبي بكر بن الجد وابن رشد...

ومن القضايا التي اهتمت بها محكمة المياه في غرب الحوض المتوسط ما ينبت على شاطئ للساقية مملوكة للغير من شجر... وهل أنه أي الحق يكون لصاحب الساقية باعتبار أن الشجر ناشئ عن الماء أم أنه لصاحب الأرض التي أنبتت الشجر..!

ومن القضايا التي عرضت على محكمة الماء ما يتصل بحفر الجار بئرا على مقربة من بئر جاره فأثر ذلك على عطاء بئر الجار وسبب له نقصا في الرزق...

وقد كان من القضايا التي عرضت على أنظار رجال القضاء استغلال الساقية للملاحة من لدن بعض الملاك الذي يتوفرون على مركز خاص... وهل من حق الوالي أن يتدخل في ضبط المسالك المائية على نحو ما يضبط المسالك البرية ؟!

وان الظاهرة البارزة في هذه المحاكم أن في استطاعتها أن تصدر الحكم على خلاف ما ينتظره رجال الحكم، الأمر الذي يدل على استقلال القضاء...

وقد ضمنت (محكمة المياه) حقوق أصحاب الساقية حتى في حال مغادرتهم الاضطرارية للمكان وهكذا وجدناها تطلب من والي الأمر أن يعوض أولئك المبعدين عن أوطانهم لسبب من الأسباب.

وقد كان من ذيول نوازل الساقية ما يتصل بالأضرار الناشئة عن الحمامات ودور الدبغ إلى آخر اللائحة الطويلة التي استخرجناها من كتب النوازل...

ونرى - بهذه المناسبة - أن نشير للنوازل التي تحمل اسم المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، وهي من تأليف أبي العباس أحمد الونشريسي (تـ 914 = 1518) الذي نراه بفاس يجيب زميله أبا عبد الله محمد بن عبد الله المغيلي الذي كتب إليه من تلمسان حول ساقية أثارت جدلا بين الناس هناك...

☆ ☆ ☆

من الوثائق التي تتعلق بتوزيع الماء :

ومن أقدم الوثائق التي تتصل بتوزيع الماء في فاس، نجد هذه الوثيقة التي تعود لتاريخ سادس صفر 845 = 26 يونيه 1441 عهد آخر ملك من ملوك بني مرين...

ويتعلق الأمر بوثيقة كانت عبارة عن قرار صدر عن المحكمة في شأن خصام بين أرباب الجنات وأرباب الأرحي حول توزيع ماء وادي مصمودة السالف الذكر... وهل تعطى الأسبقية للمنتجين للمادة الأولية أو للصناع الذين يستعملون هذه المادة ؟ وتتضمن هذه الوثيقة كما كان الأمر بالنسبة للوثائق التي أشرنا إليها من قبل عددا من الأسماء التي كانت تسهم في محكمة المياه على هذا العهد... أمثال الصنهاجي والورياغلي واليزناسني والمغراوي، والموسوي والشافي، والزهروني والعمراني وابن رحمون وابن ابراهيم[8].

ونحن نعلم فعلا عما أثارته قضية هذا الوادي من نزاع أيام العهد السعدي، هذا النزاع الذي حكم فيه الشيخ عبد القادر الفاسي القادم على المدينة عام 1025 = 1616 من مدينة القصر الكبير، والذي وجدناه يؤلف كتابا يحمل عنوان : «النتيجة المحمودة، في الرد على زاعم ملكية وادي مصمودة...

وقد كان من الوثائق الحضارية التي تعالج الحكم في قضايا الماء تلك التي كتبت في عهد السلطان مولاي

---

8) محمد مزين : وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس : مجلة كلية الآداب بفاس، العدد الثاني والثالث 1379 = 1980 ص 388 - 402.

اسماعيل[9] وقد ابتدئت هكذا بعد الحمدلة : «سئل كاتبه محمد العربي بن عبد السلام ابن ابراهيم، وختمت بهذه الكلمات : «وفي شهر رجب الفرد الحرام سنة سبع وعشرين ومائة وألف (3 يوليه ـ 1 غشت 1715).

ولابد لنا ـ ونحن نتحدث عن محاكم المياه أن نعيد إلى الذاكرة خبر لجنتين تحكيميتين اجتمعتا في دولة السلطان مولاي عبد الرحمن (1240 ـ 1825) ودولة السلطان مولاي الحسن عام 1301 = 1883[10].

كانت الأولى مؤلفة من ستة عشر عضوا برئاسة القاضي مولاي عبد الهادي العلوي، فقيهان وممثلان لعدوة القرويين وممثلان لعدوة الأندلس وتسعة تقنيين من بينهم خبير بدون تخصص معين، وفلاحان وثلاثة نجارين، وطحانان، ومستخدم في القنوات : قوادسي...

أما اللجنة التحكيمية الثانية في قضايا المياه فقد كانت ذات مهمة أوسع... لأنها كانت مكلفة بشبكة توزيع ماء المدينة كلها تقريبا، ولهذا تألفت من ثمانية وعشرين شخصا برئاسة شيخ الماء عبد الله بن أحمد بن الرئيس أحمد السوسي، ثلاثة من الأعيان وعدلان، وأمين الحاج عبد السلام المقري، ومفتشان للأحباس وفلاحان، ومستخدمان في القنوات وثلاثة طحانين وخبيران في الماء وخمسة تجار وخمسة أشخاص، ينتمون لمهن مختلفة، وفيما يخص بعض المسائل فقد أضيف إلى اللجنة أربعة ممثلين عن حومة اللمطيين وأربعة ممثلين عن حومة الأندلس...

☆ ☆ ☆

ولابد ونحن مع هذه المحاكم التي انعقدت خصيصا للفصل في قضايا الماء أن نتعرض هنا لقضية شغلت الرأي العام في المغرب عموما وفي فاس على الخصوص، ويتعلق الأمر بالمحاولات التي كانت تجري بين وقت وآخر للانتفاع بوادي فاس من لدن بعض الذين يسكنون في أعالي المدينة على مقربة من المنبع.

لقد ظل أهل فاس يعتبرون تلك المحاولات سطوا على واديهم باعتبار أن الإمام ادريس باني المدينة اشتراها ضمن واديها على ما أسلفنا، ومن ثم فإنه لا يحق لأحد أن ينتفع بذلك الوادي غيرهم ولو سكن في «الأعالي» !! وهم مقتنعون بأن حديث سيل مهروز ومذينب لا ينطبق عليهم لأن الماء ملك خاص لهم وليس ملكا عموميا... فكانوا يقاومون بإصرار كل من أخذ الماء في عالية المدينة،ولا يترددون في رفع الشكايات لتكوين لجان بحث حقيقية للتأكد من أن أهل الحقول في الأعالي يحترمون فعلا حقوق الحضرة الفاسية... وكانت هذه اللجان تتألف في الماضي من عامل المدينة مع بعض الجنود وقائد المائة، وأمين الطحانين وقائد الحمارة[11] وشيوخ الفلاحين.

وكان ملك البلاد أيضا يعترف من حين لآخر، وبصفة رسمية بحقوق أهل فاس في واديهم ويأمر بتحطيم ما شيد من سدود لأخذ المياه في عالية المدينة[12].

الرسالة التاريخية لجلالة الملك الحسن الأول بتاريخ 27 ربيع الثاني 1301 = 25 يناير 1883 إلى عامل مدينة فاس حول توزيع مجاري ماء وادي فاس بالعدل وعلى ما يراه أرباب البصر، ويستدل العاهل بالآية الكريمة : «أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر» طالبا إلى عامل المدينة أن لا يتساهل في عقاب المعتدين وإيقافهم عند حدهم...

ولابد أن نذكر هنا أن المعمريين الفرنسيين قاموا بمحاولة السطو على وادي فاس لصالح ضيعهم التي أخذت تنتشر بين منبع الوادي ومدخله إلى المدينة، وقد مهدوا لهذا باستصدار مرسوم ملكي (ظهير) يحمل تاريخ 11 محرم

---

9) I.S. Ablouch : un plan de canalisation de Fez, Hes 1934
ع. زمامة : وثيقة حضارية عن شبكة توزيع المياه في فاس القديمة مجلة البحث العلمي عدد 31 أكتوبر 1980.

10) تقرير بتاريخ 5 رجب 1301 = فاتح مايه 1884 ذكره ماسينيون في بحث بعنوان :
Enpuete sur les connortion p 231

11) هو الذي يشرف على سفر القوافل من مدينة إلى أخرى.

12) يذكر كوسطو قرارا اتخذ هكذا ضد الوزير با حماد الذي بنى فأخذ ماء على النهر (ظهير 18 شعبان 1300 = 24 يونيه 1883)، وقرارا آخر اتخذ في دولة السلطان مولاي عبد العزيز يقضيان بتحطيم السدود المشيدة في عالية فاس «لأن المياه المذكورة أعلاه ملك خاص للمدينة فيجب أن لا يمسها أحد».
تعريب محمد الأخضر ومحمد حجي : 341.



الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

وثيقة حسنية تبين مدى اهتمام المولى الحسن الأول بشأن مجاري مياه مدينة فاس

1344 = الموافق أول غشت 1925 يقضي بأن منابع المياه تكون جزءا من الممتلكات العمومية.

ومن هنا قام الوطنيون قومة رجل ضد هذا العدوان، الأمر الذي أرغم السلطات الفرنسية على احترام التقاليد العتيقة للمدينة[13]...

ونرى من البرور بالتاريخ أن نشير هنا للقطة هامة في النضال الوطني المغربي، ففي أعقاب صدور هذا المرسوم سجلت أول مواجهة مع المستعمرين حيث رأينا أن الأستاذ الهاشمي الفيلالي يقوم خطيبا في مسجد سيدي أحمد الشاوي في جمع حضره الأستاذان علال الفاسي والحاج الحسن بوعياد وعدد من أعضاء المجلس البلدي الذي كان مقره لا يبعد عن المسجد المذكور. لقد كان الجميع مقتنعا بأن تحويل مجرى الوادي فيه مساس **بالحق الخاص لأهل** فاس وكذلك **بالحق العام** الذي يتمثل في اعتماد المساجد على الماء... ومن المعروف لدى موثقي فاس أنهم يحررون صكوكا بملكية الماء علاوة على تحريرهم الصكوك بملكية العقار، وأن عليهم أن ينصوا في الرسوم الأولى على نوعية ملك الماء، هل هو ملك تام أو إنما هو ملك الغرف فقط عندما يمر الماء بييت الإنسان...

وإلى جانب ما سمعناه عن أطراف النزاع في فاس نأخذ مثلا آخر من جنوب المغرب.

ونشير إلى ما عرفته مدينة مراكش منذ أن مدت إليها السواقي من الأنهار المحيطة بها في العهد الأول من إنشائها (462 = 1069)، وهكذا فعلاوة على الخطارات التي عرفتها عاصمة الجنوب، ذكر الشريف الإدريسي إحدى هذه السواقي التي جلبت من وادي أوريكا على عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين وبمساعدة أحد المهندسين البارعين عرف باسم عبيد الله بن يونس، والراجح، يقول أحد الباحثين، أن تكون الساقية المشار إليها هي ساقية «تسلطانت» التي عرفت أطوارا من الحياة والاندثار في تاريخها تبعا للظروف السياسية التي عاشتها...

وقد احتاط رجال الحكم لما يمكن أن ينشأ من خصومات ومنازعات بسبب الماء فوزعوه على المرافق العمومية والمنازه بصفة عادلة ودقيقة، وقد كانت تتخلل مسيرة الماء نقط للمراقبة تسمى (المعدة) لتتبع مواقع الخلل... وغالبا ما تكون هذه المعدة مغلقة لا تفتح إلا عند الحاجة ومن لدن جهات يهمها أمر المعدة...[14]

وأن من أطرف ما عثر عليه مما يتصل بالتشريعات العرفية الخاصة بالمحاكمات المتعلقة بالماء بعض النصوص التى تحدد بدقة بعض المخالفات وأنواع العقوبات فتجعل بذلك حدا لكل التجاوزات التي يمكن أن تحدث :[15] ابن الشرقي أحمد : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش 1986 ج/1/ص : 16.

وإذا كانت المياه في فاس ملكا لأهل المدينة، فإنها في مدينة مراكش ملك للأوقاف ويتولى الإشراف عليها ناظر الأوقاف، وفي استطاعته أن يبيع الفائض منها لأرباب المنازل.[16]

وقد كان المقياس التي تقاس به كمية الماء المبيع هو الأصبع أي مقدار أنبوب سعة قطره أصبع يصب في أحواض صغيرة في الدور يتجمع فيها لسقي الأشجار أو الاستعمال المنزلي، والماء يشترى بصك يضاف إلى العقود العقارية كما أسلفنا عند الحديث عن وادي فاس.

أما أصحاب الرياض الفسيحة فإنهم يشترون نصيبا من ماء العيون الجاري فوق الأرض، يأتيهم دوريا في كل أسبوع أو على رأس خمسة عشر يوما بكمية أوفر، مثلهم في ذلك مثل الحقول الكبرى المعدة للزراعة داخل المدينة وخارجها، وهي ملك خاص يتقاسمه ملاك العيون، كل حسب ما يملك من «فردية» (أي فترة يوم وليلة).

---

13) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، 1948 ـ نشر عبد السلام جسوس، طنجة ص : 140.

14) عبارة عن آبار جوفية تتسرب مياهها من واحد لآخر.

15) LARBI mezzine : Ta QQITT de Aït OTMAN Hesp 1980-81 Vol XIV P. 89

16) بن الشرقي حصري أحمد : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش 1986 ج 1 ص 16.

وعلى نحو ما سلكناه عندما تحدثنا عن أحواز فاس نرجع هنا للنظام الفريد الذي اشتهرت به قبيلة مزوضة في معالجتها لمشاكل السقي في أعقاب النزاعات التي رفعت إلى رجال السلطة.

ويتعلق الأمر بنظام توزيع الماء بين قبائل مزوضة وكدميوه ومجاط، لقد ضبط هذا التوزيع بعد رفع النزاع إلى المحكمة ضبط بوحدات زمنية (فردية) حسب نظام منسوب بيل القبائل وعريق في القدم لا يعلم أحد متى أخذ العمل به...

وكان أهل مزوضة يعتمدون على مجموعة من العقود المتعلقة بشراء حقوق الماء علاوة على نصيبهم «التقليدي»، ومن جهتها فإن قبيلة كدميوه لا تنكر وجود ذلك النصيب ولكنها كانت تستند إلى أولوية حقوق الأعلى (Les droits de l'amont)، وقد ظهر جليا أن النزاع بين القبيلتين لم يكن تاريخيا ولكنه كان سلاليا...

وقبل نحو من قرن وجدنا أن الوالي بمراكش من قبل السلطان سيدي محمد بن السلطان مولاي عبد الرحمن يقوم عام 1285 = 1868 بتسوية النزاع حول الماء في المنطقة.

تفاديا لكل نزاع يعكر صفو العلاقات بين القبائل أصبح التوزيع تابعا لجدول زمني مضبوط ولكأنما يسير بسير عقارب الساعة...[17]

إن هذه الأمثلة التي ضربناها لبعض الجهات في المغرب يوجد لها نظائر مماثلة في كل موقع يتوفر على ساقية ماء يحتاجها الفلاحون أو غيرهم وهكذا ففي كل مكان محكمة، وفي كل عهد تسن تشريعات وتوضع قوانين، وهكذا أيضا في كل جهة قضاة يفصلون في النازلة معتمدين على تلك التشريعات وتلك القوانين ومستفيدين من خبرة المترسين وشيوخ النظر...

لقد تجلى من خلال البحوث التي قمت بها في هذا الموضوع على الأقل فيما يتصل بالمغرب أن ما يوجد بهذه الديار من النوازل والأحكام يفوق الحصر والعد، لقد تبين لي أن بالمغرب مئات النماذج من محاكم المياه، هناك نوازل عديد بل ومتجددة.

وأرى بهذه المناسبة أن أشير إلى المرسوم الملكي السالف الذكر المؤرخ في أول **غشت 1925 والمتعلق بنظام الماء** والذي أصبح يطبق في مجموع التراب المغربي بمقتضى القرار الوزيري المؤرخ يوم 19 محرم 1381 = 3 يوليه 1961، وهو ينص في فقرته الأولى على **أن منابع المياه تكون** جزءا من الممتلكات العمومية... وهذا ما يعني ما قلته من أن محاكم الماء بالمغرب **محاكم متطورة ومتجددة...** وليست محكمة رتيبة لها فقط صبغة فولكلورية !

وإلى الآن فإن الكلمة الأخيرة في قضايا توزيع الماء **ترجع لهذه المحاكم** التي تظل **مفتوحة، متحفزة** لتطويق كل خلاف ينشب حول السقي، **بل ولحسمه بسرعة** متى كان ذلك **ممكنا، وتستمد هذه المحاكم مصداقيتها** من أنها تعتمد **على التجربة الحية** والرافق المعاش والتأقلم مع التطورات والإدراك الذي يتميز به المستهلكون للماء وهم يعيشون أخبار أحوال الطقس في الصباح والمساء...

الرباط : **د. عبد الهادي التازي**

(17 Vacques Berque : de l'Euphrate à l'Atlas, Puis 1976 Vol 1 Pag 250

ألا حيوه معي في ذكرى ميلاده حيّاه الله

للدكتور جعفر الكتاني

الذين يصنفون الشباب من خلال السن، قريبون جدا من بطاقة الحالة المدنية، أو لعلهم «روبو» الرواتب الإدارية، وإلا متى كان لعمر الروح، شبابٌ وشيخوخة، وطفولة ؟!

ـ الحساب بالسنة تنبؤٌ بأفولٍ يصيب البدن، لأن البدن مادة، ولأن المادة تنتهي إلى زوال، تبدأ مما يلي الصفر، وتنتهي بنهاية العدد الذي يحادب الصفر، لكن الروح، لا نعرف لها بداية ولا نهاية. ومن ثمة فإن الشباب روح ليس كالشيخوخة تأذن بالزوال، الشباب طَلْعَةٌ، شعلة، وقد يكون لكل طلعةٍ بداية ونهاية، كما هو لكل شعلة، لكنها الماديات المتطورة، أما الروحيات، فإنها لا تعرف بدايتها ولا نهايتها في واقع الحال، إلا إذا حجمنا منذ البداية بشكل المادة...

والشباب لايحجم بالسن، ولا يتوقف ببطاقة الحالة المدنية، إنه هدير وطالما هو الهدير، فلا حدود له، وتلكم حال أبناء السنين من الشباب، ما يزالون شباناً متوقدين، طافحين معطائين، بلا قدرة لنا على معرفة متى يتوقف شبابهم، ولن يتوقف إلا إذا قدر الله له ذلك يوم يشاء..

ومن بين هؤلاء شباب مفلحون، في طليعتهم الرجل المواطن المغربي جلالة الملك الحسن الثاني.

ومتى ما أفلحنا في تقويم الحقائق من خلال المعطيات، فإن الجيل المفلح ممن خصهم الله بروح الشباب الدائم، جيل يستقطب الرجل، المواطن، جلالة الملك الحسن الثاني، مداراً ومركزاً وإشعاعاً.

☆ ☆ ☆

عرفه الشباب وثاباً غير هياب في سني نظام الكشفية، وقد راد شبان جيله حتى سمي نظامها باسمه، ولست أدري كيف ينسى الجيل، بله الأجيال، الشاب الحسن عاري الصدر، وهو يضرب الفأس مع أتراب الشباب لشق طريق الوحدة ؟ وهل ثمة من بين المهتمين بالسياسة من لايدرك عمق البعد الوطني في سياسة العرش قُبيل، وأثناء، وبعد المنفى الذي يفوح بصبيب عرق الحسن ولي العهد ؟

ومن ذا الذي يعيش بيننا ولا يتذكر ذلك الشاب المغوار يوم أخمد فتنة الصخيرات صيف 1971، بسورة من آي الذكر الحكيم، وهو لا يبالي أن يصيبه مكروه طائش، والضحايا رقود بين آفاق بصره ؟ من ذا الذي له ذاكرة، ولا يذكر يوم مطار سلا الرباط صيف 1972 والرجل الحسن ابن محمد بن يوسف يقف رابط الجأش، يصافح مستقبليه وهم لايعلمون أن الطائرة التي أقلته إلى الأرض قد خرمت بمآت الطلقات وهي في الجو قاصدة به إليهم ؟ ومن ذا



محمد الخامس الذي «تحمل مسؤليته كسيد للبلاد في الوضعية الجديدة والمفاجئة بالنسبة لبلد خاضع لنظام الحماية».
يمتطي سيارة حربية أمريكية رفقة صاحب السمو الملكي مولاي الحسن والجنرال باتون والمقيم العام نوكيس.



لقاء أنفا ـ الدار البيضاء.

يجرؤ على تحضير ذلك الزحف الهادر من أربعمائة ألف إنسان بمختلف الأعمار والجنس لاسترجاع صحارينا إلا شاب رائع الرهبة ؟ ومهيب الجلال...

الله وحده ذو الرهبة والجلال والله وحده من يهب بعض عباده بعضا من صفاته السنية..!

وبين كل ومضة وأخرى من هذه الومضات شباب متواصل يحفز الهمم للبناء وما أراني بقادر على الاستقصاء أو الحصر ولكني أراهن على أن الوثبة المقبلة، يوم يبزُغ ترتيبها للناس، ولكنني سوف تمق بجيل يرفع رأساً شامخة في بحر السماوات، ولعلي أهتدي يوما إلى معرفة المدى الزمني الذي يتوفر لهذا الرجل الجليل من بين مهامه الدقيقة والحساسة فأعرف كيف يستوعب ذلك المدى استثمارَ إبداعاته المدهشة والمتلاحقة.

☆ ☆ ☆

ولست أتنبأ وأنا أراهن، اليوم، على التفجيرات المقبلة في عطايا جلالة الحسن الثاني الشابة دائماً، وإنما أجتر حديثا لجلالته شاهدنا صورته، وسمعنا صوته، يوم ثقف الخاصة والعامة، بنظام في الإدارة يمكن أن يتحقق استقبالاً في أرض الوطن، انطلاقاً من تقاليد عرفتها أقاليم البلاد في عهود ما قبل الحماية، حينما كانت المركزية السلطانية تنيب في أقاصي البلاد ومحاور حواضرها، جناب الخليفة السلطان، فيؤزر، ويولي، ويدير أمور الرعية، ولكن الشؤون المركزية تصب في النهاية بأعتاب المشور المركزي. ولكي يكون لأصالة ذلك التدبير الإداري أريج المعاصرة، فإن جلالته كان قد أوفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى الاتحاد السويسري، بعثة من الكاشفين عن أسرار أنظمة المجموعتين الاتحاديتين، عسى البعثة تغذي الأصالة بالمعاصرة.

ذلك الحديث الملكي يحملني على المراهنة بأن تفجيراً اقتصادياً سوف ينبع من جراء تحقيق ذلك التدبير الإداري في ربوع بلادنا الشاسعة الآفاق :

بضعة آلاف شرفة على البحار، يطل منها تراب بلادنا على آفاق أوروبا، وإفريقيا، والأمريكيتين. وبضعة آلاف شفق أرجواني يجلل المساحات الشاسعة من صحارينا، وجبالنا، وهضابنا. هذا المدى ذو الأبعاد المكعبة سوف يتقبل بالتحفيز عادات محلية، وتخمير طموحات إقليمية، لم يتأت لها أن تبرز بطغيان مثيلاتها المركزية. فاذا ما وسع لها أن تنهض برزت وفاقت وآزرت.

بذلك، سوف يتفق لتعليم أبنائنا كل بفضل طموح الإقليمية إلى تحقيق السبق بين أندادها، ولن تجد اليدُ التي ترغب إلى العمل بطالة بسبب من التأطير المحلي المرغوب إليه، وكذا في مجال الصناعة، والسياحة، والعمران. سوف تصبح كل قرى بلادنا مدنا بفضل ذلك السباق الذكي، الذي تفرضه اللامركزية إلى الأفضل.

ستتزين حواضرنا كل واحدة بمشفاها الجامعي، وجامعتها المركزية، ومعاهدها الموسيقية، والمسرحية، ومطابعها، وصحفها. سوف لايبقى في بلادنا مدن تحتكر الحداثة والحضارة والازدهار، كل مدن بلادنا سوف يتاح لها أن تكون في مستوى العاصمة، شيء فريد يظل بالعاصمة، أعظم، وأجل، وأقوى هيمنة، وأشد بسط سيادة، ذلكم هو عرش البلاد ووزراؤه المركزيون في الشؤون الأمنية لداخلية الدولة وخارجيتها، وتخطيط اقتصادها وترتيب ماليتها، لأن الشباب الطافح في تخطيطات جلالة الملك الحسن الثاني.. يروم رؤية بلادنا تتنافس في السبق إلى المجد بمادياته ومعنوياته، ولأن شباب الرجولة في الملك الحسن الثاني يحمله على إناطة القيادة المركزية بوظيفة المراقب والموجه والمحفز..

وسوف تحيون وترون أن عين هذا الرجل الشاب لن تطرف حتى يحقق ما يصبو إليه في رغد شعبنا..

شباب الحسن الثاني مشرفاً على العقود الستة، يبدو من ثنايا جبينه الجياشة عنفواناً إلى الخلق والابتكار، يستمد من تراث بلاده، ولكنه يعطر صنائعه بالأريج الأحدث،مما يشم عبقه، أو يتخيل له شخوصاً، ولم يدر به المتأخرون، إنما جلالته يفكر ويتخيل وينهض إلى تحقيق الآمال.

☆ ☆ ☆

الشباب في بلادنا شق في الصخر، ونطح في الحيطان، والحلب عجّل أم أبطأ، لكنه آت في كل حال.

وشبابنا هم الذين درسوا الجيش الأجنبي في أنوال كيف تبدأ معركة التحرير وهم **الذين لقنوا** الجيش الأجنبي في جبال الأطلس كيف ترفض قوانين «إزرف»، وشبابنا هم الذين دحروا المحتل باللطيف تارة وبالفداء أخرو عودوا جيش المستعمر على الفرار إلى الخلف... وشبابنا كان وراء وقدام، ووسط الهدير الذي أدى إلى منفى العرش، وإلى عودته... وشبابنا هم الذين حققوا بشباب العرش، وشباب الوطن تنحية الأجنبي، وتوطيد دعامة الدولة الحديثة..

وَمَنْظَرُ الشباب المعاصر الملك الحسن الثاني أخو الشباب، وأبو الشباب، وزعيم الشباب، قاد ويقود باضطراد إلى العلياء في توثب وروية وطفرة... والتوثب والروية والفطرة، ثُلاثيٌّ من الأحوال يستعصي الجمع بينها في آن واحد، ولكن الرجل الشاب الملك الحسن الثاني يجمع بينها في الآن الواحد، وبشكل يبهر ويثير الإشفاق، ولكن هواجس الخوافين ماتلبث أن تضمحل ليحل محلها طمأنينة مما يعرفه. وقد تذوقه باعث الإشفاق الرجل الباهر الملك الحسن الثاني..

ألا حيوه معي في ذكرى ميلاده..
حياه الله...

يعتلي صهوة الجموح، ولكنه يروضها ويركب الصعاب فيذللها، ويثأر للشرف والكرامة بحذق ولو ذعية...

هل قرأتم خلفيات مما يجري حول السوق الأوروبية المشتركة ؟ وخلفيات العلاقات المغربية الجيرانية ؟ اقرأوا... فإن لم تكتفوا فاسمعوا، وعوا... وترقبوا...

☆ ☆ ☆

شباب الحسن بن محمد بن يوسف شمخ في الأربعينات ولم يتوان بعد ذلك، بل إنه استمر يزحف ويستقطب. هل درستم الكهرباء كيف يبدأ الملس وأنه إنما يضيء حينما يزمن، ولا يعيا، أحرى أن ينحبس، فالاستمرار يزيده ضَحاً وَقَداً، ويُضفي عليه استقرار الديمومة، ووضاءة الحياة، ذلكم شباب الرجل اليقظ في بلادنا، وها هو ذا نلاحقه مشخصا في هذه الأبهة الشابة، صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني يقظاً مستمراً :

مثال عز نظيره بين الرجال

الرباط : جعفر الكتاني



كان جلالته، وهو ما يزال ولياً للعهد يدهش مخاطبيه بذاكرته القوية.

نصائح للشّباب
لطائفة من الشخصيّات البـــارزة..

الفشل طريق النجاح

يمتحن الطالب كل عام مرتين أو ثلاثا، فإذا رسب في احداها كان عرضة للسخرية والازدراء، والطامة الكبرى إذا تقرر أن يعيد السنة الدراسية بسبب رسوبه في الامتحان النهائي. وهكذا يصبح الخوف من الامتحان والذعر من الفشل عقدة نفسية كامنة فيه. فإذا ما أتم دراسته، بذل كل ما في وسعه للحصول على عمل لايكون فيه مجال لأقل احتمال للخيبة والإخفاق، وبذلك يقتل مواهبه وشخصيته.

لاتخف من الفشل، واعلم أن كل إخفاق خطوة في سبيل النجاح.

(شارل كترنج ـ عالم)

النضج الروحي

لو أنك أكلت كعكة غير كاملة النضج لتقززت منها نفسك ولجلبت لك عسر الهضم، وإن كانت لا تختلف عن الكعك الناضج في محتوياتها وتركيبها ومظهرها.

وإن جامعاتنا لتخرج اليوم كثيرين من الشباب لم يتم بعد نضجهم وفهمهم معاني الحياة، في حين أن المجتمع لايسعد بالتفوق الذهني أو المهني بين أفراده، بل من طريق البذل والخدمة والتضحية. وهذه تستلزم النضج الروحي قبل كل شيء !

(ادجارجست ـ شاعر)

إضحك دائماً

تروي الأساطير أن جماعة من الحيوانات أفزعها صياد ماهر، كان لايصوب بندقيته إلى حيوان منها إلا جند له لساعته. وذات صباح فوجيء ملك الغابة ـ وكان أسداً حكيماً ـ بهذا الصياد يصوب بندقيته نحوه، فأغرق الأسد فجأة

في الضحك، مما جعل الصياد تأخذه الدهشة ويضع بندقيته جانباً، ريثما تطلع إلى وجهه في مرآة لعل فيه ما أثار ضحك الأسد في مثل ذلك الظرف الرهيب. وهنا هجم عليه الأسد وافترسه !

ومغزى الأسطورة أن الضحك يذلل العقبات ويمكن المرء من الغلبة على الأعداء.. إضحك دائماً يضحك لك العالم وتبتسم لك الحياة.

(ابتون سنكلر ـ أديب)

عقلية الأطفال

نصيحتي لشباب اليوم أن يتحرروا من عقلية الأطفال بأسرع ما يستطيعون... فتفكير الطفل يتسم بعدم التعمق وضيق الأفق وقصر النظر. وهذه الصفات غاية في الخطورة في المرحلة الحرجة التي نجتازها الآن، إذ بلغ العلماء الذروة في صناعة الأسلحة الفتاكة والمدمرات، وغمرت العالم موجة من الخوف والآلم والجوع.

إن عصرنا يمكن تسميته بحق «عصر النهم والشره»، ولن نتفادى ذلك إلا بنظام اجتماعي يبنى على أساس التعاون والخدمة المتبادلة.

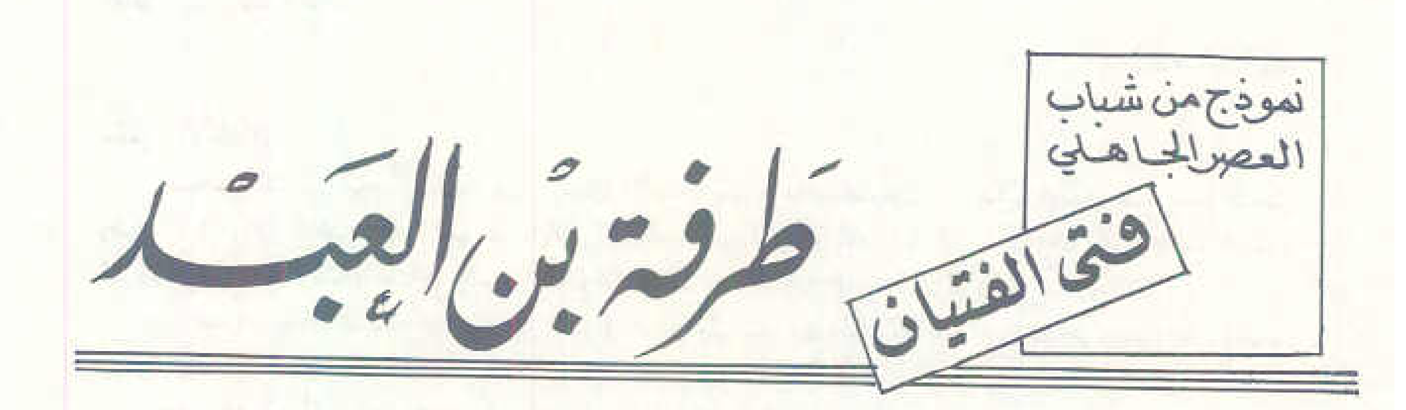
فعلى الشباب أن يروض نفسه على الخدمة والبذل والتضحية.

(ماكدونالد ليدل ـ عالم نفساني)

[عن مجلة «باجنت»]



صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني في مدينة الناضور مع أبناء شعبه يمدون له اليد... ويفدونه بالمهج والأرواح...



إلى الشباب المرجع، في تطور الفنون والأذواق، وحول مغامراتهم ومخاطراتهم تنظم القصائد، وتنشأ الأساطير والأقاصيص...

وشبابنا اليوم كان يجمع بين سذاجة الأطفال، وحصافة الكهول، ويحيا حياة متوثبة لايحدها تزمت، ولا يصدها جمود، وهو، في كل مكان، مبعث الحيوية، ومصدر الشعر، والخيال، تلك الحياة التي ليس قبلها غير الغفلة، ولا بعدها غير العبوس.

هذا الشاب النابغة الذي يمرح في عالم الصبا. وقد انحدر إلينا مجده التليد في ظلمات الجاهلية الأولى، بما فيها من بداوة العيش، وضيق الأفق والأمية السائدة، والجهالة المقيتة، والذي لقي حتفه لفرط نبوغه من جراء لسانه المر، وذهنه الحديد...

لقد أسلم شابُنا روحه بيد القتل أو الغدر، وهو في العشرين من عمره، فقيل له : «ابن العشرين»، وهكذا قتل شابنا في حداثته..

وذهب بعض الرواة الذين جعلوا مقتله في السادسة والعشرين من عمره استشهاداً بقول أخته في رثائه :

عددنا له ستا وعشرين حجةً
فلما توفَّاها استوَى سَيِّداً ضخماً

فُجعنا به، لما رجونا إيابهُ
على خير حالٍ، لا وليداً، ولا قَحْماً[1]

إنه طرفة ابن العبد الذي يقدم نفسه إلى قرائه، ورواة شعره أبدع تقديم فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنني
عنيت. فلم أكسل ولم أتبلد

ولست بحلال التلاع مخافة؛
ولكن متى يسترفدِ القوم أرفد؛[2]

فإن تبغني في حلقة. القوم، تلقني؛
وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد؛[3]

1) القَحْمْ : المتناهي في السن.
2) حلاّل : مبالغة من الحلول... النزول بالمكان.. وفي رواية بمحلال. التلاع : ج : تلعة : مجرى الماء في الوادي أو قرار الأرض. يسترفد : يطلب الرفد : الإعانة؛ أي لا أنزل في الأماكن المنخفضة خوفاً من أن يرى ناري الأضياف، ولكنني أعين كل من يطلب معونتي.
3) الحوانيت : بيوت الخمارين.

متى تـأتني أصبحـك كـأسـاً رويـةً

وإن كنت عنهـا ذا غنى، فـاغن وازدد؛[4]

وإن يلتـق الحي الجميـع، تـلاقني

إلى ذروة البيت الشريف المصمّـد[5]

ولسنا نجد في التعليق على هذه الأبيات السلسلة الرائعة خيراً من قول الأستاذ العميد الدكتور طه حسين :

«فانظر إليه وهو يتقدم إليك ظريفاً رشيقاً، خفيف الروح، حازماً مع ذلك كل الحزم، واثقاً بنفسه أشد الثقة، راضيا عنها كل الرضى، شاعراً بواجبه الاجتماعي أوضح الشعور وأقواه. يؤمن بأنه قد خلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه، فهو يجيبهم إذا دعوه، بل هو يجيبهم إذا دعوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليه ! كأنهم لا يستطيعون أو لاينبغي لهم أن يدعوا غيره، وكأنه هو الفتى كل الفتى ! هو الفتى الذي يختصر شباب قومه اختصاراً ويمثلهم تمثيلاً، ويحتمل عنهم أثقال القبيلة كلها ! وهو يستجيب لدعوة الداعي سواء أوجهت إليه أم إلى غيره مسرعاً لا كسلاً ولا متبلداً. وكيف يكسل أو يتبلد وهو الفتى الذي ملأ نفسه إعجاباً بنفسه، وملأ نفوس قومه إعجاباً به واعتماداً عليه.

فأول صفاته إذن هذا الشباب الذي يدفعه إلى أن يتمثل الواجب الوطني أقوى التمثل ويسرع إلى الإجابة إليه. ثم هو بعد ذلك لا يكتفي بالمخاطرة والمغامرة في سبيل هذا الواجب، ولكنه كريم أيام السلم لايستتر، ولا يتوارى، ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين، ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجيرين. هو لاينزل الأماكن الخفية التي لا ترى فيها المنازل ولا يقصد إليها المحتاجون، وإنما ينزل الأماكن الظاهرة فيعطي إذا سئل، كما يجيب إذا دعي. وإذا اطمأن الرجل إلى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور، ويؤديه أحسن الأداء، ويعطي قومه وغير قومه من نفسه وماله في غير تحفظ، ولا بخل، ولا إشفاق، فمن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ولا يحول بينها وبين نعيم الحياة. وصاحبنا لايحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس. هو لا يستتر منك ولا من غيرك، وهو يدلك على الأماكن التي تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه، فأما في ساعة الجد فتستطيع أن تلتمسه في حلقة قومه، هناك حيث يجتمعون في ناديهم يتحدثون ويتشاورون إن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور، فهو يشارك قومه في جدهم كله وإن كان شابا لأن له من الرشد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك، ويفرضه على قومه فرضاً. وأما في غير ساعات الجد فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك، حيث يلتمس أترابه من الشبان المترفين الذين لايضنون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج إليهم، ولا يقعدون عن اللذات حين تتاح لهم أوقات الفراغ. تستطيع أن تتلمسه في الحانات عند هؤلاء الخمارين الذين يحملون خمرهم المعتقة من الحضر فيمتعون بها شباب البادية ويحببون بها إليهم لهو الحياة. ولن يضيع سعيك إذا سعيت إليه تتلمسه في حانة من هذه الحانات، فهو لن يلقاك بخيلاً، ولا شحيحاً، ولا كَزّاً ولكنه سيشركك في لهوه، وسيسقيك حتى تروى، وهو لن يكرهك على ذلك، فأنت وما شئت. إن كان بك ظمأ نقعت غلتك، وإن كنت غنياً فليزدك الله غنى. ولا بأس عليك. فإذا أردت أن تسأل عنه دون أن تلقاه فأنت تستطيع أن تسأل من شئت ! فستعلم أنه ليس من أوساط قومه ولا من أقلهم خطراً. وإنما هو الشريف الكريم من أشرف البيوتات وأكرمها، وهو منها في أرفع مكانة وأرقاها !».

4) أصبحك : أسقيك صبوحاً.

5) المُصَمَّد : الذي يصمد إليه الناس لشرفه، أي يقصدونه في حوائجهم.



من مزايا الحسن الثاني - ومزاياه كثيرة - أنه لا يعتمد على غيره في اختياراته، بل إنه يعتمد على نفسه وعلى معلوماته المباشرة - غالبا - في اختيار الناس، للقيام بعمل من الأعمال، يكونون على كفاءة منهم في ذلك، أو على استعداد يؤهلهم هو لذلك. بمعنى أن الرجل لا يبدو، لأول وهلة، مستحقا للقيام بهذا العمل، ولكن إسناد العمل إليه، يحفزه على القيام به، موجها فيه بواسطة أو بدونها، من لدنه.

وهذه الميزة، ميزة الاختيار، تحلى بها حتى قبل أن يلي الملك، فقد تربى عليها منذ النعومة، فكان، وهو شبل من أشبال الكشافة، يلبس (الشورطْ) الذي كانت فرقته تلبسه، يوجهه والده طيب الله ثراه، ليفسح له المجال للاتصال بمختلف الناس، وعلى اختلاف الأعمار والصفات، فيخاطبهم ويفاتحهم ويتلقى عنهم ما يتلقاه الكبار عن العلماء الكبار، وفيهم شيخنا الفقيه «أقصبي» رحمه الله رحمة واسعة.

ولا غرابة أن نجده في سنه المبكرة، يخطب في الجماهير المغربية في تلك الزيارة التي قام بها والده المنعم بالله إلى طنجة في الأربعينات.

ثم لا غرابة أن نجده يعالج المشاكل الحادة عند بزوغ فجر الاستقلال، فيتصل بأقوام ذوي شكيمة عنيدة عتيدة ويفاتحهم في أمور، مفاتحة البصراء الحصفاء الذين يضبطون النفس في تؤدة واتزان، ويحملون جمَلهم وحُنكتهم ما لا يتحمل غيرهم.

كان اختبار مستمر للناس بمختلف جهات المغرب، وعلى مزيد من تلقى المعلومات في حقهم، وحتى من كان منهم بالمنطقة الخليفية بالشمال.

أذكر أنه حضر في أحد الاحتفالات التي كان الخليفة الراحل رحمه الله ورضي عنه، يقيمها بمناسبة عيد الجلوس، فكان بعد انتهاء الحفل إلى جوار الخليفة، وهو يتلقى التهاني، يقدم إليه الأعيان من الحضور، فكان الحسن الثاني لا يبدو عليه حين التقديم أنه تعرف عليهم لأول هذه المناسبة، بل كان يواجه ذلك التقدم لأناس كأنه كان يعرفهم معرفة ما، أو كانت فراسته بهم تكفيه في هذا التعرف.

وعلى ذلك كان دوما يختار رجاله، وهو ولي العهد، ليعتمد عليهم فيما بعد. وكان هؤلاء عديدين عرفهم تلقائيا، أو عُرّفوا له، فاختبرهم شخصيا بادئ ذي بدء، واعتمدهم حالا، أو هيأهم للاعتماد عليهم مستقبلا.

وأسس مجلس الدستور، مكونا من رجال كان غالبهم غير معروف له، فلم تظهر عليه ملامح الرضى والارتياح، حين حضر مع والده رحمه الله، ليدشن هذا التأسيس فكان الامتعاض باديا عليه، وهو في بذلته العسكرية.

وزيادة على اختياراته للناس له اختيارات للأعمال والقيام بها، شاملة لدقائقها وصغائرها، كما هي في عظامها وكبارها، مما ينبهر له حتى الصناع والعاملون، الذين نبهوا إلى ما لم يكونوا متنبهين له من ذي قبل، وهي مزية لها مقوماتها من الشخصية المكتملة التي انبثقت عنها فكرة المسيرة المظفرة والتحدي الذي عصت على صخرة أطماع الفاتنين المفتونين، فاستحقوا أن ينشد فيهم :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

نعم، تحطمت الأطماع التي حطم أصحابها ذرة الوحدة والوئام، التي كانت تتمتع بها القارة السمراء، فتمزقت كل ممزق وانقسمت فيما بينها وعلى نفسها، فكانت المجابهات الدامية والانقلابات الجنونية، وفقدت الثقة في النفس وحل محلها الاعتماد على الغير والاحتماء به، خشية الغير وخشية النفس كذلك.

وظل المغرب قلعة صامدة ومنارة يهدى بها في الظلمات الحالكة التي يتخبط القوم فيها واليوم يطل علينا عيد ناصع البياض لا يزداد مع الأيام إن شاء الله، إلا نصاعة على نصاعة، ولن يزداد المخالفون إلا فظاعة ووضاعة، وتلك عاقبة الذين تنكروا للمثل التي كانوا يدعون إليها، تنكروا للمبادئ التي تسنموا أدراجها.

تطوان : محمد ابن تاويت



عناية فائقة بأبناء الشعب، ورعاية كاملة بالوطن العزيز.

الرمز الخالد لسيادة المغرب ووحدته

للأستاذ محمد العثماني

إن المغرب، لم يسبق له أن فقد سيادته، وإن فقد استقلاله في ظروف خاصة، وإنه، بفضل العرش بقي بمنأى عن أيدي العابثين بسيادة الشعوب ووحدتها...

لقد عجز الاحتلال الأجنبي سابقا ولاحقا أن يحول تاريخ المغرب عن مساره الذي خططه الإسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، وأن يغير وجهه الحضاري المشرق، وقد تعاقبت عليه أحداث وأهوال، ومرت به قرون وهو ـ على طولها ـ تزداد حضارته تألقا وروعة، ويزداد تاريخه شموخا ورسوخا لا تقوى قوة على تهميشه وتقزيمه.

دار الزمان دورة بعد دورة، فسقطت ممالك وثلت عروش، واختفت أمجاد وآثار، ونجمت بدائل تمحو وتدمر لتجد مواقع لها في التاريخ، إلا هذا الوطن الذي كان وما زال جسرا يربط بين قارتين، ومعبرا للحضارة أخذا وعطاء، وليس معبرا لها فقط، بل هو مركز اشعاعها الثابت، صدر إلى مختلف الأقطار عبر القرون علماء وفنانين وجغرافيين وفلاسفة في مختلف مجالات العقل.

الواقع أن المغرب ـ بفضل العرش ـ لم يستطع أي غاز أو مؤثر خارجي أن يغير موقعه في التاريخ، ولا أن يسلبه سيادته وكيانه الدولي، وأن فقد استقلاله حينا من الدهر، وهو ـ حتى في هذه الحالة الاستثنائية ـ محافظ على هويته الدولية ونظامه الإداري، وليس من الشعوب التي وجدها الاحتلال بلا هوية ولا نظام، أو بدون (البوصلة) التاريخية كما عبر جلالة الحسن الثاني منذ سنوات في ندوة صحافية وهو يحلل الفوارق بين شعب جاءه الاحتلال وله ماض وحضور دولي، وبين شعب وجده الاحتلال بلا نظام ولا حكم ذاتي استقلالي.

لذلك عجز الغزاة عن تركيع المغرب وجره إلى التنكر لتراثه وحضارته بفضل التفافه حول الرمز الخالد لسيادته ووحدته، وهو العرش الذي حمى للإسلام حضارته بهذه الديار، وأبقى على وحدة المغرب أرضا وإنسانا، وجهة ووجدانا، فلم يستطع أي غاز للحضارات أن يؤثر في عقيدته ولو حمل إليه من المذاهب المموهة بالتهاويل العلمية والصناعية ما يغرى ويفتن الشعوب عن تراثها وأصالتها.

لقد حاول الاستعمار في أوائل هذا القرن أن يعامل المغرب بما عامل به الشعوب الأخرى، وبالأخص الشعوب القائمة على القومية والنعرات الطائفية، ولكنه بهت أمام

عظمة عرش وحضارة لم يقدر على صراعهما والتطاول عليهما، فسمى تدخله في المغرب بتاريخ 1912 حماية، أي حماية وحدة الشعب وسيادته التي تتمثل في مؤسسة العرش العليا.

لم يستطع أن يفعل غير ذلك، ولا أن يبرر تداخله إلا بحماية العرش الذي هو نفسه حام لسيادة المغرب ورمز لكيانه الدولي، وما حدث بعد ذلك من المخالفات إنما هو نقض للعهود والمواثيق، وذلك ما فجر المواقف بين الشعب العريق والدولة التي كانت تسمى نفسها حامية متعاونة تؤطر المغرب وتؤهله للحياة المعاصرة.

لقد شرح مفهوم الحماية أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب الماريشال «ليوطي» الذي كانوا يسمونه آنذاك (خالق المغرب) فقال :

«إنها بلد يحتفظ بمؤسساته وحكومته وإدارته لنفسه، بأجهزته الخاصة، ولكن تحت إشراف بسيط لدولة أوربية تحل محله في التمثيل الخارجي، وتتولى بصورة عامة إدارة جيشه وماليته، وتقوده في طريق التطور.

كان العرش المغربي حاجزا لا يقهر أمام الغزاة والمستعمرين، فوقفوا دون أن يجعلوا المغرب إقليما ملحقا بأوطانهم، أو مستعمرة منفصلة عن جذورها التاريخية والحضارية، أو ممزقا إلى طوائف على كل طائفة عميل، رئيس أو أمير، كما فعلوا في بلدان أخرى مزقوها شر ممزق، فزرعوا فيها وباء التفرقة وألغام الصراع، ثم يتحول الاستعمار إلى موقع جديد، وهو يتشفى ويضحك ساخرا من المجانين وهم يتصارعون ويتناحرون، فكانوا أشد عنفا وشراسة على أنفسهم وأبناء جنسهم من الاحتلال القديم والجديد.

لما فرضت الحماية على المغرب بتلك الصورة التي شرحها (ليوطي) ألغيت جميع المعاهدات التي كانت بين المغرب والدول الأجنبية، بحكم أن فرنسا هي المسؤولة عن السياسة الخارجية للمغرب، ولكن أمريكا وحدها قد امتنعت من إلغاء المعاهدة المبرمة بينها وبين الدولة المغربية بتاريخ 1836 م لأن المغرب في نظرها وفي الواقع لم يفقد سيادته، وبالتالي فلا يحق لفرنسا ولا غيرها أن تلغي الصفة الدولية عن بلد ذي سيادة كالمغرب، وبالأخص، فإن عقد الحماية ينص على سيادة السلطان واستمرار التنظيمات الإدارية للمملكة، فلا مشروعية قانونية لأي مرسوم لم يؤشر بتوقيع السلطان، وأن مهمة الدولة الحامية تنحصر في التمثيل الخارجي وتطوير الحياة الإدارية والاقتصادية وتنظيم الجيش والشرطة وما إلى ذلك...

موقف أمريكا هذا ناشيء عن واقع ومفهوم من صميم القانون الدولي، فقد استمرت أمريكا تعتبر نفسها مرتبطة بآخر معاهدة بينها وبين السلطان المولى عبد الرحمن، وقد كان السلطان محمد الثالث أول من اعترف باستقلال الولايات المتحدة.

من أجل ذلك كان جلالة محمد الخامس رضوان الله عليه طلب الاجتماع مع روزفيلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق سنة 1943 أثناء المؤتمر الشهير الذي عقده الحلفاء بأنفا، والحرب العالمية تقترب من نهايتها، وقد احتجت فرنسا بواسطة مقيمها العام بالمغرب على هذا الاستقبال الرسمي، ولكن الرئيس الأمريكي تجاهل احتجاج ممثل فرنسا التي لم تستكمل حريتها بعد من الاحتلال النازي، فكان وعد روزفيلت المعروف بأن أمريكا سوف تعمل على إعادة الحرية إلى المغرب بعد انتصار الحلفاء، واندحار دول المحور.

لم آت بهذا الحدث التاريخي المعروف إلا لتأييد ما قلت آنفا بأن المغرب لم يسبق له أن فقد سيادته وان فقد استقلاله في ظروف خاصة، وأنه بفضل العرش بقي بمنأى عن أيدي العابثين بسيادة الشعوب ووحدتها.

إن الاحتلال الأجنبي في كل زمان ومكان لا يفي بالوعود، ولا يحترم المواثيق والعهود، لذلك مارس الحكم المباشر لأول يوم من عهد الحماية، فخالف بذلك صك الحماية الذي أملى بنوده نصا وروحا، فقاوم الشعب هذا الواقع من أول يوم، فقامت المعارك بينه وبين جيش الاحتلال في كل مكان، فلو كان هناك تنظيم موحد لما استطاع جيش الاحتلال أن يستمر في اخضاع القبائل طيلة 23 عاما، لقد استمرت الثورات المسلحة في الأطلس

المتوسط وفي الريف وقبائل تسول، وفي الأطلس الصغير حيث قبائل جزولة التي كانت آخر من قاوم الاحتلال، فلم تلق سلاح الدفاع والمقاومة إلا في سنة 1934 أي بعد توقيع عقد الحماية ب 22 سنة، وقبل الانتفاضة الشعبية الكبرى ب 18 سنة فقط.

في التاريخ شواهد على أن المقاومة المسلحة كانت من أول يوم لعهد الحماية، وأصدق شاهد ما سجله (ليوطي) نفسه في برقية رفعها إلى حكومته وهو كما وصل مدينة فاس لأول تعيينه مقيما عاما لفرنسا، وقائدا أعلى لجيوشها بالمغرب، تقول البرقية : «إنني أعسكر في مدينة محاصرة».

واللهجة التي كتبت بها هذه البرقية تدل على الاستغاثة وطلب المدد إلى جانب منطوقها الذي لا يحتاج إلى توضيح.

اختصار معروف في برقيات الاستعجال، وكلمات ذات مدلول يترك أثرا عميقا في نفس المخاطب : «إنني أعسكر في مدينة محاصرة».

كأنه يقول :

- أغيثوني بمدد وقوة إضافية على استعجال.
- ان الشعب الذي غزوناه لم يقبل حمايتنا.
- انه يقاوم ويقام، ولن يزال يقاوم.

أكدير : محمد العثماني



صورة أخذت قبل أن يعرف الوطنيون مرارة النفي بمراكش نفي المختار السوسي يوم : 11 مارس 1937، ونفي محمد الملاخ وعبد القادر حسن وعبد الله إبراهيم، وعبد القادر المسفيوي يوم 25 شتنبر من نفس السنة.

من اليسار إلى اليمين في الصف الأول : الأستاذ عبد القادر حسن، الأستاذ عبد الله ابراهيم، الشاعر المبدع المرحوم مولاي أحمد النور، السيد عبد السلام الورزازي، الأستاذ المهدي الدكالي، العلامة الجليل المرحوم عبد القادر المسفيوي، السيد عبد الهادي مكوار.

وفي الصف الثاني من اليسار إلى اليمين : الأخ المجاهد مولاي أحمد المنجرة، المناضل المرحوم الحاج محمد بن داود، الأستاذ الجليل إبراهيم الإلغي، المجاهد المرحوم محمد الملاخ، السيد عمي الورزازي، المرحوم العلامة المختار السوسي.

ترتيب سن الشباب

كما جاء في كتاب: "فقه اللغة"

للإمام أبي منصور عبد الملك الثعالبي

الجنين : مادام الحمل في رحم أمه فهو جنين

الوليد : فإذا ولد فهو وليد

الصديغ : وما دام لم يستتم سبعة فهو صديغ. لأنه لا يشتد صدغه إلى تمام السبعة

الرضاع : مادام يرضع فهو رضاع

الفطيم : ثم إذا قطع عنه اللبن فهو فطيم

الدارج : ثم إذا دب ونما فهو دارج

الخماسي : فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي

المثغور : فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور

الناشيء : فإذا كاد يجاوز العشر السنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشيء

المراهق : فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع أو مراهق

الحزور : فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حزور واسمه في جميع هذه الأحوال التي ذكرناها : غلام

الشارخ : فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ

المجتمع : فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع

الشاب : ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب

الكهل : ثم هو كهل إلى أن يستوفي الستين

الطفلة : أما المرأة فهي طفلة مادامت صغيرة

الوليدة : ثم وليدة إذا تحركت

الكاعب : ثم كاعب إذا كعب ثديها

الناهد : ثم ناهد إذا زاد

المعصر : ثم معصر إذا أدركت

العانس : ثم عانس إذا ارتفعت عن حد الإعصار

الخود : ثم خود إذا توسطت الشباب

النصف : ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز

الشهلة : ثم شهلة كهلة إذا وجدت مس الكبر وفيها بقية وجلد

الشهيرة : ثم شهيرة إذا عجزت وفيها تماسك

الحيزبون : ثم حيزبون إذا صارت عالية السن ناقصة القوة

أيه يا شباب الحسن الثاني .. والله معكم

للأستاذ قدور الورطاسي

الشباب : طاقة خلاقة في كل مجتمعات الشعوب والأمم. فهي التي تتفاعل تفاعلا كاملا مع تطورات الأزمنة، والأمكنة والأحداث من قريب أو بعيد.

وهي التي في إمكانها أن تقيم أود الأحداث، وتوجه عجلات الظروف الزمانية والمكانية إلى الأهداف السامية المنسجمة مع أماني وآمال الشعوب والأمم.

وهي الذخيرة القوية الفعالة التي تلبي نداءات الشعوب والأمم كلما حاقت لتمسها في قيمها الدينية لتجرها إلى الذوبان والاضمحلال.

حسب الإنسان أن يلقي نظرة عابرة على حياة الإنسانية في مختلف العصور والعهود، ليجد طاقة الشباب، القوة الرادعة للأخطار، الفاكة لكل حصار، الظافرة بالغنائم والأنفال في كل مضمار، البانية للحضارة العلمية الرائعة في مختلف المجالات، الذائدة عن المجتمعات كل ما يحيق بها من الأضرار والآفات، الرافعة لراية الحق وإن كانت قليلة العدة والعدد والعداة في مالا يحصى من العدد والمدد، شريطة واحدة : أن يكون الحق إلى جانبها في كل خطوة تخطوها، والإيمان الصادق بالله ملء قلبها ووجدانها وإحساسها ومشاعرها.

فالمسلم الذي يرجع بعقله العالم العارف بالعهود الأولى للإسلام يجد في شباب محمد ﷺ القدوة الحسنة، والأسوة الطيبة، فيما بينه وبين نفسه وبينه وبين أسرته وبينه وبين مجتمعه سواء.

ورحم الله من وصف شباب محمد ﷺ بقوله :

(شباب - والله - مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء، عبادة (مهزولون) وأطلاح سهر : (أعياء وأتعاب سهر).

إلى أن قال :

(ومضى الشباب منهم قدما حتى تخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت إليه طير السماء، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله).

قلت : بمثل هذه الأخلاق التي رباهم عليها القرآن، وأدبهم بأدبها رسول الله ﷺ، فعاشوا محروسين بالفضيلة من الرذيلة، فسعدوا في الدار الفانية، واستعدوا للدار الباقية، وتركوا لنا - نحن الخلف - طريقا سعيدة معبدة، وظلالا من الأخلاق الفاضلة ممتدة، وإذا كان لزاما علينا أن نرجع باستمرار إلى هذه المدرسة المحمدية لأنها منبع الأنوار ومشرق المعارف في جميع الأمصار، فإن ذلك لا يمنعنا من إشارة عابرة إلى المثل الأعلى للشباب في هذه الديار ألا

وهو المنعم بالله محمد الخامس في عهد الاستعمار، فلقد كانت مدينة أخلاقه السامية كعبة القصاد، ومورد الوارد، فتزود منها شباب عهده بأفضل زاد، حتى ضرب المثل في كل ناد، فإذا بقيم الإسلام تشع أنوارها ويختفي جحادها وكفارها. والراية المظلومة ترفرف في أوج عزتها، والبلاد تتهادى في أجمل حليها وحليها، وكأن السيادة ما كانت أسيرة، والنفوس ما كانت حسيرة.

وبفضل مدرسة المنعم محمد الخامس طيب الله ثراه، تشرف العرش المغربي من جديد بأعظم ملك من ملوك البيت العلوي النبيل : أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله.

وسرعان ما ارتدى لقب سيد شباب أهل عصره ولقب أعظم ملك في عقد السادة الملوك العلويين منذ ثلاثة قرون ونصف قرن.

فلقد تبوأ هذا العرش المجيد في ريعان شبابه وهو يتوفر على مواهب خصه الله بها وهي في منتهى أوج المواهب وأشرفها وأجلها، إلى تكوين علمي واسع الآفاق، وفكر نير قوي الإشراق، وإلى تربية إسلامية إنسانية انطلقت من مدرسة والده مباشرة ومن مدرسة خاتم المرسلين بسنده المتصل في أجلى صفات العدالة الحق والملوكية الحق. والتفتح الكامل على معطيات العصر الحديث بين ربوع العالم كله.

وبذلك استطاع أن يذلل الصعاب، ويزيل الحواجز والعقاب، ويمارس مسؤوليته العظمى بطاقة خارقة للعادة دون تهيب ولا تردد، ولا تخوف ولا شعور بأي مركب ينتقص من إرادته الفولاذية، وعزيمته القوية، فجمع الله بين فكر ثاقب، وعلم واسع، وتصور صادق، وإحساس رهيف، ووجدان لطيف. وشعور فياض، وثبات عجيب، ونظر بعيد، جعله كل ذلك وأكثر يسبق الأحداث والأخطار، والله من ورائه يحوطه باللطائف الخفية، ويغمره بالإلهامات السخية، فما من مؤقف إلا وسدد الله فيه خطاه، وبارك له فيما فيه استرعاه، فإذا بقافلة الحضارة والعمران تسير بحفظ الله إلى الأمام بكل طمأنينة واتزان.

فأينما توجهت الأبصار، وتطلعت الأفكار، إلا شاهدت ولمست وأحسست وأدركت ما حققه لهذا الشعب البطل من آمال وأمان : معارف تنشر في كل مكان. وازدهار اقتصاد في غير حاجة إلى دليل وبرهان، فخيرات مهدلة الأفنان، ونفوس في خير هناء واطمئنان، إلى وحدة مغربية عميقة الأسس صلبة الجدران، وإلى ما لا يصل إليه الوصف من إيضاح وبيان.

وانطلاقا من عناصر هذه العظمة الملوكية الفريدة انقسم شباب عصره إلى صفوتين : صفوة تشيد معالم العمران، وتشيع ضروب العرفان، وصفوة ثانية تدافع عن الحدود كل عدوان، فإذا صفوة البناء والتعمير تقيم أود كل مرفق من مرافق الحياة في حين تدأب الصفوة الثانية على تحويل صحرائنا إلى جناب وجنات... وتصونها من كل الأخطار والآفات، كل ذلك في نشاط وروعة وثبات. وإذا العالم كله ينظر إلى هذا الشعب ملكا وحكومة وشعبا نموذجا يقظا حذرا متزن الخطوات سائرا دون ريب إلى أشرف الغايات.

وما على العقلاء إلا أن يقوموا بدراسة مقارنة بين العالم الثالث حتى يدركوا في أقل من لمحة البصر أن المغرب الجديد قد وصل به الملك الصالح والشباب الوفي إلى مستوى ليس له نظير بين الشعوب المستقلة منذ العصر الحديث.

وبمثل هذه النظرات المنصفة المتواضعة يجب أن نحيي عيد الشباب لمضاعفة الجهود في كل مرفق من مرافق الدين والدنيا حتى نواكب قوافل المعاصرة ونحن متوفرون على الكفاية اللازمة والوحدة المتراصة، والكلمة الموحدة والقلوب المنسجمة وراء مليكنا المحبوب مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني نصره الله.

وفق الله مولانا أمير المؤمنين إلى ما فيه رضا الله ورضا رسوله والمومنين، وحفظ لنا ولي عهده صاحب السمو الملكي سيدي محمدا وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي المولى الرشيد وسائر أصحاب وصاحبات السمو الملكي الأمراء والأميرات الكرام، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الشباب دعامة الإسلام

للدكتور يوسف الكتاني

إنه من فضل الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل كامل قويم لتربية النفوس، وتنشئة الأجيال، وتكوين الأمة، وبناء الحضارة، وإرساء قواعد المجد والمدنية. مما كان من شأنه إنقاذ الإنسانية التائهة، وتصحيح مسارها، وإرجاعها إلى الطريق المستقيم.

وإذا كان لكل أمة ثروة تعتز بها، ورصيد تدخره لمستقبلها، وقوة تبنى عليها مجدها ونهضتها، فإن في مقدمة هذه الثروة في دولة الإسلام شبابها الذي يعتبر الدعامة الأساسية في المجتمع، والثروة الحية فيه، والأمل المرتجى على الدوام.

ولا أعتقد أنه يوجد دين سابق على الإسلام أو نظام لاحق عليه، اعتنى بالشباب ورعاه وكرمه، مثل دين الإسلام ورسول الإسلام، الذي جعل منه دعامة المجتمع وقوام الأمة، وعنصر القيادة والدعوة والحكم، وهيأه للميادين كلها، ودفعه إلى المجالات كلها، واعترف بقوته، وباهى بأعماله، واعتبره محط العناية الكبرى، ومركز الرعاية العظمى. حتى جعل فئة الشباب أعظم فئات الأمة جميعا، يؤكد ذلك ويثبته ما وضعه الرسول الكريم للشباب من مناهج وقيم أخلاقية، وما سنه من مبادئ سامية تكون عقيدة الشباب، وتضمن له التربية الصالحة، وتحفظ عليه نضارة الحياة، وصحة البدن، وقوة العزيمة، وتمنحه سلامة التفكير وصلابة الإرادة، وقوة الشخصية، مما يجعله فردا قويا صالحا لنفسه ولمجتمعه ولسائر المؤمنين.

ولا نعلم أمة من الأمم قديمها وحديثها، اعتنت بشبابها ورعتهم، وهيأت لهم ما يجعلهم رجالا أكفاء أقوياء مثل دولة الإسلام ورسول الإسلام، حتى أننا نجد أركان دولته قامت على أكتافهم وجهودهم، دعاة وعلماء، حكاما وأمراء وقواد جيوش، ويمتلئ تاريخ السيرة بصفحاتهم المشرقة وأعمالهم الخالدة.

وتتوزع مسؤولية رعاية الشباب في الإسلام جهتان : الأسرة باعتبارها نواة المجتمع وأساسه، ومنبع الأولاد ومدرستهم الأولى، وهي التي توجهه الوجهة التي تصنعه وتكونه، لأن المولود على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما أكد الرسول عليه السلام وفي ظلها يرتبط برباط مقدس، كي تستقر نفسه وعواطفه، ويرتبط بعلاقة وثيقة مع أفراد أسرته وأعضاء مجتمعه. والجهة الثانية التي ترعى الشباب هي الدولة، ترعاه بالتعليم والتقويم والتوجيه، في المدرسة

والشارع والنادي ومختلف مجالات الحياة، وقد رعى الإسلام هذه المؤولية حق رعايتها، وخص الرسول الكريم الشباب بما لم يخص به فئة أخرى، خاصة وأنهم كانوا الفئة المؤمنة بدينه، والمبادئ لنصرته.

لقد كان عبد الله بن عباس ردف رسول الله على ناقته ذات يوم، وكان شابا حدثا، وأراد أن يفتح له طريق التقدم والتفوق، فرسم له ولشباب المسلمين الخطوط الأساسية التي تعتبر المثل الأعلى له، حتى يكون قويا مجدا، مؤمنا مفيدا، ولا يكون إمعة متواكلا متخاذلا، وقد خاطبه رسول الله قائلا :

«إسمع يا غلام أعلمك كلمات، إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشئ كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ كتبه الله عليك».

لقد كان الرسول وخلفاؤه من بعده، يخص الشباب بالتوجيه الدائم والعناية المستمرة، ويفقهه في دينه، ويعلمه أدب الإسلام، ويوجهه إلى التقوى والعمل الصالح الذي يفيده ويفيد أمته ومجتمعه، يقول الرسول مخاطبا الشباب :

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - القدرة - فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» - وقاية - كما كان الرسول عليه السلام يتعهدهم بالتعليم والتربية، والتهذيب والتوجيه، فقد روى الإمام البخاري عن عمر بن أبي سلمة قال :

كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصفحة - الاناء - فقال : يا غلام «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك».

كما روى أنس بن مالك عن الرسول الأكرم كيف كان يعلم الشباب آداب الدخول على أسرته وأهله، كما علمهم آداب الطعام والجلوس على المائدة، قال أنس قال لي رسول الله ﷺ : «يابني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك وذلك تأكيد للتوجيه الإلهي في القرآن الكريم ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلك خير لكم لعلكم تذكرون**﴾. كما كان الرسول يحبب للشباب أنواع الرياضات لتصح أجسامهم، ويستقيم عودهم، ويصبحوا قادرين على الجهاد في سبيل الله، وتحمل أعباء الحياة، ولذلك كان يحثهم على الجري، وركوب الخيل، والسباحة، والرمي، وكان الرسول نفسه يتسابق مع أم المومنين عائشة رضي الله عنها، ولقد مر على جماعة من الشباب وهم يتدربون على الرماية فقال لهم :

(أرموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا وارموا وأنا مع بني فلان) فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال الرسول ﷺ لهم :

مالكم لا ترمون ؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم ؟ قال : إرموا وأنا معكم).

بمثل هذا التوجيه الحكيم، والقدوة الحسنة، والمثل الصالح، استطاع الرسول في فترة وجيزة أن يجعل من شباب المسلمين شيعته وأنصاره، وعدته في الجهاد، ودعاته إلى الدول والأمم، وفقهاء الأمة وقراءها، ويجعل منهم المشاعل التي أنارت الطريق وفتحت الفتوح، نذكر منهم على سبيل المثال : على بن أبي طالب الذي شارك في معركة بدر وهو دون العشرين، وخالد بن الوليد الذي أمر على الجيش وهو في عنفوان شبابه.

كما رأينا الرسول يختار مصعب بن عمر وهو الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره فيبعثه سفيرا له

ويولي أسامة بن زيد وهو لم يبلغ العشرين من عمره قيادة جيش المسلمين وتحت إمرته الصحابة والقراء والفقهاء.

ويكلف عبد الرحمان بن أبي بكر وهو في الغار، أن يجمع له أخبار قريش، ويستطيع خططها وأحوالها وينقلها إليه.

لقد أصبح شبابنا اليوم في حاجة إلى أن يتعلموا ويعرفوا حقائق دينهم، وسيرة رسولهم، وتاريخهم، حتى يكون لهم القدوة والإسوة، ويعرفوا أن دينهم دين التجديد والتطور، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

ولذلك فشبابنا محتاج إلى استمالة واعية، تبصره بما ينبغي أن يكون عليه، من دون تنقص لمواهبه وقدراته وهو في مرحلة تكوينه، وذلك بتوجيهه إلى التعلق بكتاب الله، وسنة رسوله، وقيم الإسلام التي تجعله يقيم حياته على الفضيلة والحق والخير.

ومحتاج أن يعرف أن الشباب الحي، هو الذي يحجز نفسه عن فعل ما يذم أو يخل بالمروءة، فيتقي الزلات، ويبتعد عن السلبيات، وذلك يدعونا إلى تقويمه بالقدوة قبل القولة، وبالتعهد الدائم، والتوجيه الرشيد أما اليوم فقد أصبح شباب المسلمين في حاجة إلى أن يدرسوا سيرة الرسول، ويطلعوا على أسرار قيادته للشباب، وعنايته بهم، وطريقة تربيتهم وتهذيبهم، حتى تتحقق لهم الأسوة الحسنة، وينهضوا بالقدوة المثلى للرسول وصحابته الكرام.

وسبيلنا إلى ذلك هو نشر المفاهيم الإسلامية الأصيلة، وتحريرها من آثار التشوية والخلافات اللاحقة بها، وتنقية وسائل الإعلام مما لحق بها مما لا يتفق مع مبادئ الإسلام وروحه، بالإضافة إلى بث وعي إسلامي ذاتي قائم على الكتاب والسنة، يكون عاملا فعالا في إعادة شباب المسلمين إلى جادة الحق وطريق الصواب، فيبتعد عن السلبيات، ويترفع عن النقائص ويدفعه إلى القيام بدوره الأساسي في المجتمع الإسلامي الذي يعيش صحوته الكبرى في طريقه إلى التغيير والتجديد.

ولقد وصف هؤلاء الشباب وافتخر بصحبتهم وصفاتهم أبو حمزة الخارجي فقال :

تعيرونني بأصحابي، وتقولون أنهم شباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا ؟ شباب والله مكتهلون في شبابهم عمية عن الشر أعينهم، بعيدة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في جوف الليل منثنية أصلابهم بمعاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم من كثرة السجود، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون ذلك في جنب الله، موفون بعهد الله حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ورماحة قد شرعت وسيوفه قد انتضيت، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، فمضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، قد زملت الدماء محاسن وجهه، وعفر الثرى جبينه، وأسرعت إليه سباع الأرض فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خشية الله ؟

☆ ☆ ☆

وفي بلادنا كرم جلالة الملك الشباب أكبر تكريما ورعاهم أحسن رعاية حتى جعل يوم ميلاده عيداً للشباب يخصهم فيه بالتوجيه والتقويم، وتحتفل فيه الحكومة والهيآت بإقامة المشروعات التي تنهض بهم، وترعاهم وتعنى بتربيتهم، بما يحقق لهم وفيهم الآمال المعقودة عليهم، باعتبارهم عدة المستقبل ومناط الأمة ومعقد رجائها.

وإذا كانت الدولة أقامت وتقيم لهم الملاعب الرياضية والنوادي الاجتماعية، والدور الثقافية، وتنظم لهم الرحلات والندوات واللقاءات الوطنية والدولية، فعلينا أن نحبب إليهم هذه الأماكن نكثر عددها وننشرها في مختلف المدن والقرى، ونضاعف الجهود حتى نجعلها كخلية النحل نشاطا وثقافة وتوجيها

وأخلاقا كي يملأ شبابنا فيها وبواسطتها أوقاتهم وعقولهم بما ينفع ويجدي، فيتغلب الأمل والطموح في أنفسهم وتمتلئ بالإيمان والعزم قلوبهم، ويسعد بأعمالهم وجدهم ونشاطهم مجتمعهم ووطنهم، فيزداد إبداعهم ويتضاعف ابتكارهم، وتحديهم للعراقيل والمصاعب كما كان أجدادهم يفعلون.

☆ ☆ ☆

ولنجعل من عيد الشباب مناسبة لتقوية العزائم، واستنهاض الهمم، ومضاعفة الجهود، وحث الخطى، وطي المراحل، وتجديد الأمل، والتسابق إلى التقدم والتطور والتجديد، لما فيه خير الأمة وصلاح الشباب، في إطار ديننا وعقيدتنا وأصالتنا وبالله التوفيق.

الرباط : الدكتور يوسف الكتاني

.. انكم تعلمون حق العلم من هو أخوكم في الإسلام، الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن، تعلمون أنه مسلم مطمئن الإسلام مؤمن قوي الإيمان، وبهذه الصفة لا يمكنه إلا أن يكون مقداما مستمر الإقدام، ومخلصا وصريحا دائما وأبدا مدى العصر والزمن.

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

كلمات ذهبية وتوجيهات سامية وأقباس مضيئة متألقة لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني في أعياد الشباب

لا تنساها ذاكرة التاريخ

إنك تعلم - شعبي العزيز - أن عجلة التاريخ إذا كانت لا ترحم الأفراد فإنها كذلك ليس فيها أية سماحة بالنسبة للشعوب، وقد رأينا منذ أمد قديم شعوباً أينعت وأعطت وبذلت، وبعد ذلك أصبحت على منحدر طريق التاريخ أو طريق الاستسلام.

فالتاريخ وإن كان لا يرحم يعرف من يحالف ويعرف كيف يختار صديقه في الطريق الطويل. كما أن التاريخ له خبرة بالذين يتقهقرون ويتخاذلون ويتركون أنفسهم في مهب الريح ومهب الأحداث ومهب المسيرة الطويلة لايعطون لأنفسهم قيمة حتى أصبحوا لايعطيهم أحد أي قيمة.

من خطاب صاحب الجلالة
في الذكرى الثامنة والخمسين
لعيد الشباب 8 يوليوز 1987 :

☆ ☆ ☆

المقبلة ؟ ولماذا سنجندك يا شبابنا للاحقاب الآتية ؟ ولماذا سندعوك أيها الشباب للاحقاب المنتظرة ؟

أولا علينا أن نقول لك : إياك أن تحيد عن طريق المجد ذلك السبيل الذي كنت من يحمل في طياته الأخطار والأخطار فهو دائما يصل بصاحبه إلى ما يريد أن يصل إليه.

الذكرى الثامنة والخمسين - يوم 8 يوليوز 1987

☆☆☆

● يجب علينا أن نكون الإنسان المغربي المعتز بمغربيته، والمعتز بتاريخه، لأن الإنسان الذي لا يعرف تاريخ بلاده، لا يستطيع أن يعتز بها، ولا أعتقد أنه توجد في قارتنا دولة يباهي تاريخها تاريخ المغرب.

فعلينا إذن أن نجعل الإنسان المغربي فخورا بمغربيته، متشبثا بوطنيته، عارفا لما يروج في العالم، لأن وطننا يقع في ملتقى الطرق بين افريقيا وأوروبا من جهة وبين بحرين مهمين، ولهذا يتعين علينا أن نعلم أبناءنا لغتين أو ثلاثة، لأن لغة واحدة لا تكفي.

عن خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني امام اللجنة البرلمانية للتربية الوطنية وتكوين الأطر بإفران في 27 يبراير 1978

علينا أن نيهئك للقرن المقبل :

نحتفل اليوم كما هي العادة بعيد الشباب. وقد سمي عيد الشباب حتى يمكن أن يبقى للمغرب بلدنا العزيز فرصة يتاح له فيها أن يشيد بالشباب وينصحهم ويخطط لهم.

فعلينا إذن أن نيهئك للقرن المقبل. وأن لا نجعل منك متفرجا ومنتهزا فقط، بل علينا أن نجعل منك مخترعا ومبتكرا ومشاركا في بناء عالم ومجتمع القرن المقبل، ولا يتأتي هذا إلا إذا يجب تسليحك به من المعرفة النافعة والعلم المجدي.

ذكرنا التربية في الأول علما منا أن الأخلاق هي مفتاح كل خير. وأن التحلي بما يجب أن يتحلى به المرء ليخوض جميع ميادين الحياة هو أن يكون مهدبا ومؤدبا، قال النبي ﷺ : «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وقال الشاعر :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقول المثل العامي عندنا : «الترابي سبقت الجامع».

فلنفرض شعبي العزيز أننا هذبنا أولادنا وأبناءنا وجعلنا منهم المواطن الصالح والمؤمن الرابح والمسلم الناجح.

فعلينا أن نفكر في أن نسلحهم بالعلم والمعرفة ذلك السلاح الذي بدونه لا يمكن لأي شعب من الشعوب أن يقف الوقفة اللازمة في الصراع المستمر مع التاريخ، ومع ما يجاوره من البلدان.

فلهذا شعبي العزيز قررنا أن نجعل من هذه السنة المنطلق الحقيقي والموضوعي والمطابق لشخصيتنا وعبقريتنا، وأن نجعل منها سنة البحث عن كيفية تلقين أبنائنا ما يجب أن يعلموه وما عليهم أن يتقنوه.

الذكرى الثامنة والخمسين لعيد الشباب 8 - يوليوز 1987

● وإننا لنحمل رسالة منذ القدم، وهي الدفاع عن العروبة والإسلام، كما أنه لابد للمواطن المغربي في هذا الجناح من العالم أن يظل ذلك الجندي المغربي الأصيل الذي يدافع عن حضارة وإطار عيش وعلى فضيلة هي دينه ومواطنته كمسلم وكعربي وكإفريقي.

وإذا وصلنا إلى هذا المستوى لن نكون قد ساهمنا فقط في تكوين المغاربة، بل سنساعد على تكوين مواطنين صالحين للعالم لأنه مادام العالم موجودا إلا وهو في حاجة إلى مواطنين مثاليين، كيفما كانت ديانتهم أو لغتهم أو لونهم أو مستواهم الاقتصادي.

عن خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
أمام اللجنة البرلمانية للتربية الوطنية وتكوين الأطر
بإفران في 27 يبراير 1978

● واليوم يحق لكل مغربي من البوغاز إلى الصحراء، أن يعتبر بالشيء الذي سنشيده جميعا كرمز للاستمرار والتعقل، كرمز أن الله سبحانه وتعالى يحب هذا الشعب، ويحب هذا البلد.

والسر كل السر في محبته للمغاربة، ووقوفه بجانبهم، هو أن الله سبحانه وتعالى أخذ على نفسه، ﴿وكان حقا علينا نصر المومنين﴾.

فما دمنا مؤمنين بأنفسنا وبتراثنا وبرصيدنا وغنانا الحقيقي، ألا وهو القناعة، والجدية، والاستماتة في محبة الغير والمواطن، تمكنا من أن نرسخ فينا، وفي الأجيال المقبلة، لا ذلك الإيمان الروحاني والعقلاني فحسب، بل ذلك الإيمان الذي يجب أن يتجلى في الحقل، وفي المعمل، وفي المكتب، وفي كل ميدان من ميادين الحياة العصرية.

عن خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
بمناسبة وضع الحجر الأساسي لبناية البرلمان
بتاريخ 28 يونيو 1979

☆ ☆ ☆

نحتفل بمسرات الشباب وبماته وتطلعاته :

ها نحن نحتفل مرة أخرى بعيد الشباب، وبم يمكننا أن نحتفل في عيد الشباب يا ترى ؟ علينا أن نحتفل بمسرات الشباب وبماته وتطلعاته، وعلينا كذلك أن نحتفل بتفاؤل الشباب، والتفاؤل ليس - بالنسبة لنا كدولة أو كجيل - عاطفة من العواطف أو مدرسة من مدارس العقلانية والفلسفة، التفاؤل هو قبل كل شيء مدرسة للعمل، فتفاؤل مثل تهذب وتدخل وتصاعد، معنى هذا أن هذا الوزن من الفعل يقتضي من كل واحد يريد أن يتصف بهذه الصفات عملا وجهدا وجدا، فالتفاؤل - مرة أخرى - صدفة نلتقي بها في طريقنا، وليس حدثا من أحداث الزمان، بل هو مدرسة تعرف ما تريد وتقصد الهدف الذي تريد، فتفعل ما يجب عليها أن تفعل، وتخلق ما يجب أن يخلق حتى يمكن للمتفائل أن يكون متفائلا حقا، ويتسنى لكل من أراد أن يتخذ هذا المنهج في عقله وسلوكه وتفكيره طريقة تؤدي به إلى ما يريد، ألا وهو إسعاد نفسه وإسعاد ذويه وإسعاد وطنه.

إذا كنا نريد أن نحتفل بعيد الشباب في جو من المرح والفرح والسعادة والابتسام فعلينا أن ننظر إلى التفاؤل بعين الواقع، فالتفاؤل يقتضي منا جميعا أن نرى الأهداف التي نريد أن نصل إليها، ونحلل الوسائل المالية والمعنوية التي توصلنا إلى الأهداف، وأخيرا بعدما نأخذ نكون قد أخذنا بعين الاعتبار هذا وذاك ووضعنا الكل في مقاييس إما مقاييس الخيال، وإما مقاييس المعقول الذي يمكن تطبيقه.

بمناسبة عيد الشباب الذي خلد
الذكر الخامسة والخمسين لميلاد جلالة الملك...

☆ ☆ ☆

فخور بأن ولدت في المغرب :

● حقا شعبي العزيز، إنني سعيد وفخور بعيد ميلادي، لأنه كان في الإمكان أن أزداد في حقبة أخرى من الزمن، سعيد، لأنه كان في الإمكان ألا أعيش هذه الظروف، أو هذه الحقب من الملاحم، سعيد، لأنه لو تقدمت أو تأخرت لما شاهدت ما شاهدته، ولما شاركت فيما شاركت فيه، ولما أعطيت من نفسي وجهدي وشبابي وقوتي ما أعطيت وما بذلت، فخور بأن ولدت في المغرب، وأن أكون فردا منــا من الأسرة الكبرى، الأسرة

المغربية، لأن شعبي، الشعب المغربي، جدير بأن يطمح بأن ينسب إليه كل عظيم عظيم، ويعد في سجل مواليده كل حكيم حكيم.

عن خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
بتاريخ 8 يوليوز 1977

أن يظهر شبابنا قوة وطمأنينة :

وكيفما كان الحال، أملي في الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العيد الذي هو عيد الشباب أن يظهر شبابنا، شباب الأمة وشباب الشرايين الإدارية، والسياسية، والنقابية لهذه الأمة أن تظهر في شبابها وعنفوانها، وذلك بالأقدام والطمأنينة على سنة البادية، تلك السنة التي ستكون بالنسبة لنا رهانا سنربحه إن شاء الله، لأن الله سبحانه وتعالى لم يرنا إلا الخير، ولم يعودنا إلا الخير.

﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا، يوتكم خيرا﴾ صدق الله العظيم.

من خطاب الذكرى الثانية والخمسين
لميلاد جلالة الملك...

☆ ☆ ☆

الاختيار السياسي : النظام الملكي الدستوري :

كلكم يعرف النظام الذي اخترناه جميعا، ومن نعم الله سبحانه وتعالى على هذا البلد أننا حينما طبقنا الملكية الدستورية لم نعطها هكذا، ولا طالبت أنت بها مطالبة خاصة، بل كانت قبل ذلك منذ سنين وسنين: أيام الكفاح: اتفق عليها بين والدنا محمد الخامس رحمة الله عليه وبين الطائفة الخالصة المخلصة التي كانت تعمل بجانبه في الخفاء على أن نهاية المطاف ستؤدي بنا جميعا عن طواعية واختيار - وحين أقول الاختيار أقصد الاختيار السياسي - إلى نظام ملكية دستورية.

من خطاب جلالته في الذكرى
الثانية والخمسين

شعوب تجمع بين الشباب والكهولة :

اعلم وفقك الله أن حياة الشعوب كحياة الأفراد تبدأ بالشباب ويتلو الشباب الكهولة ويتلو الكهولة الشيخوخة، ولكن هذا في أطوار يتلاحق بعضها ببعض، أما بعض الشعوب وخاصة منها التي انعم الله عليها بالخيرات المادية والمعنوية فانها تجمع في آن واحد بين الشباب وقوته وعزيمته والكهولة واستمراريتها وتحليلها وتقويمها للأمور، والشيخوخة بما تعرفه من تجربة في الماضي والتاريخ وما عمله الأقدمون.

فلنأخذ إذا شعبنا وتاريخ شعبنا طورا فطورا، فإننا نحمد الله أننا شعب شيخ، شيخ لأن تاريخنا مليء بالأمجاد. ومليء بالمكارم، ومليء بالنكسات، ومليء بملاحم الآباء والأجداد، فإذن لسنا في حاجة - كلما ألمت ملمة أو كلما وجدنا أنفسنا أمام حدث من الأحداث - إلى الرجوع إلى ما فعله فلان أو تركه هذا الشعب أو قام به ذلك الوطن، لنا من المراجع ولنا في مرآة تاريخنا من قدم وشيخوخة وأصالة وحقيقة تاريخية ما يجعلنا شيخا غنيا لا يفتقر إلى تجربة أحد ولا إلى استيراد أي شيء من أي أحد، وفي آن واحد نحن شعب كهل، لأننا نقوم الأوضاع حق تقويمها ونحللها التحليل اللازم لهام وحينما نتخذ قرارنا نتخذه عن روية وحكمة ونبقى مستمرين فيه تلك الاستمرارية التي هي الخصلة الأولى نطور الكهولة وهو طور المسؤولية والتمادي في الخطة بعد تحليلها وتقويمها، ونحن في آن واحد شعب شاب لنا من الاقدام ومن العزيمة ومن قوة الابتكار ما تجعلنا هذه الخصال مستعدين للقيام بكل عمل جليل، ومستعدين لتلقي أي تحد من التحديات، ومستعدين أن نقوم بمسيرات على رأس كل عشر سنوات، مسيرات نحو الخير ومسيرات نحو

الأخوة البشرية، ومسيرات نحو النمو الاقتصادي والبشري.

من خطاب الذكرى الثالثة والخمسين
يوم 8 يوليوز 1982

يجب أن تحتفل في نفسك وكل يوم من أيامك بعيد الشباب :

ولذا - شعبي العزيز - كما قلت لك خطب عيد الشباب من أصعب الخطب، لأنه لا يمكن أن يكون الموضوع في الموضوع، ولكن الذي أريد اليوم وللمدة كلها التي يريد الله أن أخاطبك في كل يوم من كل سنة جديدة أن أقول لك دائما : عليك شعبي العزيز أن تحتفل في نفسك وكل يوم من أيامك بعيد شبابك، فالدولة التي تشيب محكوم عليها بالانقراض.

أطال الله شبابك - شعبي العزيز - وآتاك من قوة شبابك ومن منهل شيخوختك ومن عزيمة كهولتك ما يجعلك ذلك الشعب الصامد الواقف وقفة رجل واحد حينما يحصحص الحق، ولنأخذ مثلا على ما أقول إننا منذ 1975 ونحن واقفون كرجل واحد في ثخوم صحرائنا، نتحمل ما نتحمل من التضحيات البشرية والمادية، يستشهد من يستشهد منا من عسكرين ومن مدنيين.

من خطاب جلالته في الذكرى
الثالثة والخمسين لميلاده
حفظه الله يوم 8 يوليوز 1982

لا يمكن للمغرب أن يضع أصابعه بإذنه أمام المآسي التي تتخبط فيها الأمة العربية :

والمغرب كعادته كما ترى وتقرأ في الصحف، وما يتوارد عليك من أخبار من الخارج لا يمكنه أبدا وفي أي حال من الأحوال أن يتقاعس أمام ما يرى وما يشاهد وما يقرأ وما يسمع، لا يمكن للمغرب وحينما أقول المغرب أقول جميع المغاربة أن يضعوا أصابعهم في آذانهم، وأن يصبح كل مغربي أصم أمام المآسي التي تتخبط فيها الأمة العربية ككل.

علما منا بأن هذه الدولة العربية والأمة العربية هي كل لا يتجزأ وحينما يقول الحديث الشريف «المومن للمومن كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى»، وأن قول النبي ﷺ ينطبق حقيقة على مشاكل العالم العربي والدول العربية، وحينما ننادي باجتماع طارئ للقمة لدرس قضية الفلسطينيين في لبنان، فأنا لا أعني قضية الفلسطينيين في لبنان بالذات، الحمى التي استشرت وسرت من هذه المأساة إلى جميع أعضاء الجسد العربي، ولهذه الحمى مظهر خاص بها في كل عضو من أعضاء العالم العربي، وحتى الذي لا يشعر بها بكيفية واضحة يشعر بها في قرارة نفسه، لماذا ؟ لأن أولا لا يمكننا أن نبقى مكتوفي الأيدي أمام ما نرى، ولكن ستكون لها انعكاسات أحببنا أم كرهنا، فالنظام أو الدولة التي تقول لك أنا قريب من لبنان أو بعيد عنها لن تمسني أحداث المنطقة يكذب أو على خطأ، أو الدولة التي تقول هذه المسألة لا قدر الله تحدث في المغرب وأنا دولة عربية في المشرق لن أتأثر بها مخطئة، والإنسان الذي يقول : إن العراق يستنزف ولا شأن لنا به مخطيء، فحينما دعونا لعقد قمة استثنائية للنظر فيما يحدث في لبنان للفلسطينيين لا يهمنا ذلك في شيء، وليس تدخلا منا في الشؤون اللبنانية، إننا نحترم السيادة اللبنانية، ونحترمها، واحترمناها، وكنا دائما معها، ولكن يجب أن يعرف الجميع واخواننا اللبنانيون هم الأولون - أن تلك الأمة التي عندهم تمس قضية ليست لبنانية، القضية الفلسطينية هي القضية العربية الأولى، والقضية الفلسطينية الآن هي كلها طارئة ليست داخل لبنان فحسب، القضية الفلسطينية في حد ذاتها قضية طارئة، لهذا فإن المغرب لا يزال يدعو إلى مؤتمر طارئ للنظر في

كان دائماً حفظه الله يشجع الفن والفنانين، وها هو واقف مع الفرقة المصرية برأسة عميدها الأستاذ يوسف وهبي.



قراءة الرواية بالطريقة الإيطالية في بيت مدير الفرقة عبد الواحد الشاوي الذي كان يمثل شباب جيله في الأربعينيات

القضية الفلسطينية، وفي الأجواء العربية، لأن سنة 1985 ستكون سنة تحرك دولي مهم.

من خطاب جلالة الملك في الذكرى
السادسة والخمسين لعيد الشباب
يوم 8 يوليوز 1985

الحرية سبب الإنسان في العيش :

فإذن مستوى المغرب هو في مستوى الحرية، وكل رجل يفكر جيدا وبكيفية عميقة لا يمكنه أن يلم إلماما تاما وحقيقيا بمعنى الحرية.

الحرية هي سبب الإنسان في العيش وهي ما ينشده كل غاد ورائح، فإذن الحرية ليست فوضى وليست هي أن أخرج من بيتي حين أريد أو أدخل إليه حين أريد، بل الحرية هي أن أشعر أنا ومن معي ومن بجانبي في معمل وفي شارع وفي حقل وفي مكتب، أننا نعمل منسجمين منسقين لأعمالنا وخطواتنا، وحينما نريد أن نحلل ماذا يجمعنا والحالة هذه أن شؤوننا مختلفة ومذاهبنا ربما في عدة مسائل متباينة ومدارسنا التكوينية ليست موحدة، نجد أن ما يجمعنا هي الحرية، الحرية هي التي تكون بين أشخاص بشخصياتهم يحترمون ويحترمون فيعملون بحرية.

ما معنى الحرية ؟ أي أن يعملوا في نطاق الأسرة والمجتمع الإسلامي، لأن المجتمع الإسلامي جاء بالحرية حينما بدأ القرءان بـ «إقرأ باسم ربك الذي خلق». فالقراءة والكتابة هما سلاح الحرية ولباسها وبيتها.

8 يوليوز 1977، خطاب يوم الذكرى الثامنة والأربعين
لميلاد صاحب الجلالة حفظه الله

خمسون سنة من المواطنة :

إنني شعبي العزيز، أفتخر بمغربيتي وأعتز بها، ولا أعتقد يوما من الأيام، ولا ليلة من الليالي أنني أصبحت أو أمسيت دون أن أفكر فيك، لجلب الخير إليك، ودفع كل خطر يمكنه أن يهددك، أو حتى أن يكون من شأنه أن يهددك.

خمسون سنة من المواطنة، إلا أن التفكير في المسؤولية وتقويم هذه المسؤولية وهذه المواطنة، كل هذه الإحساسات بدأت سنة ألف وتسعمئة وأربع وأربعين، لما كنت إذ ذاك شابا في سن الخامسة عشرة، وكان أبي رحمة الله عليه، وهو يرى تقلب وجهي ونظري في الأرض وفي السماء، وفي خضم الأحداث التي عشناها تلك السنة، كأنه رحمة الله عليه، وهو يحس بهذه الاحساسات يوصيني دائما : تريد تحرير بلدك ؟ تريد رقي بلدك ؟ إذن، إقرأ ثم اقرأ ثم اقرأ.

من خطاب جلالة الملك في الذكرى الخمسين
يوم 9 يوليوز 1979

السودان فضل أن يكون مالكيا عن طريق المغاربة :

فهذا وايم الله ظلم وتعسف بالنسبة للمغرب كمغرب، وأيضا بالنسبة للمغرب الذي لم تكن بينه وبين الدول الافريقية كلها إلا علاقة الخير منذ قرون، فإذا نحن وجدنا في السودان، وجدنا لتلقين مذهب الإمام مالك لأن السودانيين فضلوا أن يكونوا مالكيين عن طريق المغاربة عوضا عن أن يكونوا مالكيين عن طريق المصريين، إذا كان جدنا المولى اسماعيل رحمة الله عليه أعطى إحدى بناته للسيد أحمادو اوبلو، رحمة الله عليه، في نيجيريا هل أعطاها له للحرب أم للتآخي ؟ إذا كنا شاركنا بعلمائنا وأقلامنا في ادخال الإسلام والثقافة الإسلامية في الخلايا الحقيقية لافريقيا عن طريق تمبكتو أو السينغال، وما إليها، فهل كان ذلك غلطا ؟ لا، وإذا قام المغرب في الأيام الأخيرة مرتين ليقف مع دولة من أعظم الدول الافريقية للحفاظ على وحدة ترابها وسيادتها، هل يعامل بلد مثل المغرب الذي تساكن مع الأفارقة في الماضي، وفي الحاضر كما يتساكن، هل يمكن أن يعامل مثل هذه المعاملة ـ الضيزى حسب تعبير القرآن ؟

من خطاب جلالة الحسن الثاني
في الذكرى الخمسين يوم 9 يوليوز 1979

أن نشرب - دائما - من كوثر الشباب :

أرادت محبة والدي في - طيب الله ثراه - وتقديره لابنه وخديمه الضعيف، خادمكم هذا أن يطلق على عيد ميلادي عيد الشباب، ومع مرور الأيام والسنين نرى أننا لسنا شبابا ولكن صرنا كهولا.

ولكن أبيت إلا أن يبقى هذا العيد، عيد تاسع يوليوز يسمى بعيد الشباب حتى يمكننا كل سنة كيفما كان سننا أن نشرب من كوثر الشباب إرادة وعزما وحماسا وإيمانا، علما منا أن الأمة وأجيالها مثل السلسلة المرتبط أولها بآخرها.

من خطاب جلالته حفظه الله
يوم الثلاثاء 8 يوليوز 1975

الاستعمار يطبق دائما - مذهبه : فرق تسد :

وهكذا اتحدت الصفوف بيننا وبين موريطانيا وهكذا سوف تصبح بيننا وبينها حدود، وهكذا فإن القفل الذي كانوا سيضعونه في جنوب المغرب لكي يبقى معزولا عن افريقيا سيزول وسيزول معه ذلك السد ويرجع إلى حقيقته الطبيعية التاريخية، وهو مطل ومشرف ومتطلع لافريقيا واخوانه الأفارقة، وحاول الخصوم أن يعملوا أكثر ما يمكن من الضباب لهذا المشكل فكانوا في كل وقت وحين يقولون الأطراف المعنية وحينما يذكرون الأطراف المعنية يعنون بالخصوص أن يكفهر الجو ويتعكر الماء، ولكن هيهات هيهات، الأطراف المعنية كانوا يقصدون بها المغرب وموريطانيا والجزائر، لكن هذه الأطراف المعنية ، مر عليها الاستعمار وتعرف ما هي شباكه وما هو الفخ الذي يريد، وعرفت أن الاستعمار أينما كان وحل وارتحل يطبق سياسات فرق تسد، ولهذا رزقنا الله جميعا الفطنة بالشيء الذي كانوا يكيدون، وأن كل واحد منا لم ينس مشاركة الآخر في التحرير معه في المنطقة، وكنا واعين أيضا نحن الأقطار الثلاثة، على أنه وراءنا تاريخ مجيد وأمامنا مستقبل زاهر.

من خطاب جلالته يوم الثلاثاء
8 يوليوز 1975

هل منعهم نظامهم الملكي من خوض معركة البناء :

فلهذا أقول : يجب أن يعود المغاربة إلى ما كانوا عليه، إلى الديموقراطية الحقيقية، الديموقراطية الحقيقية، حينما نرى أعلام تاريخ المغرب منذ الأدارسة إلى العلويين كان جلهم من الطبقة الشعبية المتواضعة جدا، فهل يا ترى منعهم نظامهم الملكي من خوض معركة البناء ؟ هل وضعهم هامشيا لأنهم لم يكونوا ينتمون إلى أسرة دون أسرة ؟ هل نسوهم لأنهم كانوا دون مال أو كانوا دون جاه ؟ لا، كان الحق في العمل، كان ميدان العمل مفتوحا أمام الجميع أمام جميع الناس الأكفاء، وبالطبع الظروف الراهنة تقتضي أن تكتسي المشاركة في حياة البلاد وفي المسؤولية شكلا آخر ونظاما آخر.

من خطاب الملك يوم
8 يوليوز 1976

لم يعد الاحتفال بعيد رجل واحد، بل أصبح عيد تجديد الشباب :

وهنا نحن منذ سنة ألف وتسعمئة وسبع وخمسين نحتفل بعيد تاسع يوليوز، وهكذا أصبح هذا الاحتفال ليس احتفالا بعيد ميلاد رجل واحد ولا بعيد ميلاد ملك، بل أصبح عيد تجديد وتجدد الشباب كل سنة في هذه المناسبة، مناسبة تاسع يوليوز، وتجدد الشباب له معان كثيرة، وله فلسفة عميقة، ذلك أن الشباب ينطوي أولا على سريرة نظيفة طاهرة، وكلما طهرت النيات تجلت الغايات والمقاصد، وسهل إذ ذاك الوصول إليها وبلوغها.

ثانيا : الشباب يعني أن لا مستحيل مع الشباب، وهكذا شعبي العزيز، منذ أن قلدني الله

أمر شؤونك، خضنا ميدان المستحيلات، وانتصرنا ولله الحمد في ميادين المستحيلات، الشباب يعني يقظة مستمرة، حرصا لا ينقطع على كرامة الدولة وحوزة الوطن والحفاظ على الأصالة، وهكذا شعبي العزيز منذ ثماني عشرة سنة ونحن ندافع عن كرامة الدولة، ونذود عن سيادتها ونحافظ أكثر ما يمكن عن أصالتها.

من خطاب جلالته يوم الجمعة 7
يوليوز عام 1978

إن لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم :

فلنحمد الله سبحانه وتعالى على منته وتوفيقه، إنه قال : «لئن شكرتم لأزيدنكم»، وكأنني بنا شعبي العزيز، ونحن في هذه الغمرة، فكأني بالرجل، أو الشعب، الذي قال فيه النبي ﷺ أو كما قال : «إن لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم»، ويمكننا أن نقول : إن جميع الرجال يعني الشعوب، فهنيئا لك شعبي العزيز أن تكون من الشعوب التي إذا أقسمت على الله أبرها، ذلك لأن قسمهم كان دائما يرمي إلى الخير، ومسيرتهم تسير إلى الخير، وعملهم متسم بروح الإسلام، غير متسم بالأنانية، بل متسم بالعمل والخير لا للشعب المغربي فقط، بل للشعوب المجاورة له عربية أو مسلمة أو عادية كانت.

من خطاب جلالته حفظه الله
في عيد الشباب يوم الخميس
8 يوليوز 1976

نكرم الشباب، ونشرف فيهم البطولات
هنيئا لك العيد الذي أنت عيده

وحتى نجسم هذا العيد في شبابنا الذين يتبارون ليرفعوا رأس المغرب ومن شأن المغرب، قررنا أن نحتفل غدا بثلة من الشباب سنستقبلهم كلنا، أنت شعبي العزيز وأنا، لنكرم فيهم الشباب ونشرف فيهم البطولات، وندعو لهم ولنا جميعا الشيوخ والكهول والشباب والأطفال، أن يطيل الله سبحانه وتعالى شبابنا، وأن يحفظنا في شبابنا، وأن يديم علينا نعمة الاطمئنان وراحة الإيمان.

من خطاب جلالته
يوم 8 يوليوز عام 1986

ذكرى ستبقى قائمة معانيها ورموزها لاصقة بعبقريتك :

مرة أخرى نحتفل بذكرى عيد الشباب، هذه الذكرى التي ستبقى دائمة معانيها ورموزها، لاصقة بك وبعبقريتك، ذلك أنه من مميزات الشباب التجدد المستمر، وفعلا أظهرت لي ولنفسك ولأصدقائك وأحبابك وللعالم بأسره أنك شعب قادر على أن تجدد نفسك كلما طلب منك التجدد، وأنك قادر على أن تجند نفسك كلما دعيت إلى التجنيد، وأنك قادر على أن تصمد كلما دعيت إلى الصمود، وأنك وقبل كل شيء قادر على أن تختزن الآمال والأماني كلما طلبت الضرورة ذلك.

وما هذه الخصال التي عددتها أمامك اليوم، والتي حلاك الله سبحانه وتعالى بها إلا الخصال المعرفة للشباب، وكما قلت لك هي ونوعية الشباب خصال لا تفترق.

من خطاب جلالة الملك
يوم 8 يوليوز عام 1986

جذور الشعب المغربي هي جذور وحدها تاريخ مجيد :

إيمانا منا ويقيننا أن جذور الشعب المغربي هي جذور وحدها تاريخ مجيد حافل لا نعرف من أين ابتدأ ولا أين ينتهي، هل ابتدأ من شماله حينما ركن المولى ادريس الأول رضي الله عنه إلى جبال الأطلس الشمالية في زرهون أو ابتدأ من صحرائه حينما أتى المرابطون، أو ابتدأ من وسطه حينما جاء الموحدون، أو استعاد شبابه حينما انطلق مرة أخرى من سجلماسة الصحراء الثانية ؟ فلا يمكن إذن لأي مؤرخ نزيه أراد أن يكتب تاريخ المغرب وتاريخ شعوبه وقبائله أن يقول إن المغرب ابتدأ



ركوب الخيل رياضة محببة إلى صاحب الجلالة منذ نعومة أظفاره...

من الشمال أو ابتدأ من الجنوب، فالمغاربة كلهم صهروا في الديانة الإسلامية والسنة النبوية، وكلهم صهروا منذ أن خلق المغرب في ملحمة واحدة، ملحمة المقاومة، وملحمة المحافظة على الأصالة والتاريخ والإسلام والعروبة.

من خطاب جلالته يوم الجمعة
8 يوليوز عام 1983

كل واحدة من هذه الإشارات لها نوعيتها ومدلولها :

هذه شعبي العزيز مما لا شك فيه ظاهرة أخرى جديدة من عبقرية الشعب المغربي، والأسرة المغربية، ظاهرة حتى في أفراحها ومسراتها لا ترقص لترقص، ولا تهتف لتهتف، ولا تزغرد لتزغرد، ولا تحيي لتحيي، بل لكل واحدة من هذه الإشارات نوعيتها ومدلولها، فمن الواجب على من قلده الله أمر هذه الأمة من الملك والمسؤولية أن يقرأ بين السطور اللقاءات والترحيب، فالشعب المغربي من جملة ما أعطاه الله، أعطاه غنى وخيرا كثيرين في كيفية التعبير عن أفكاره.

طيب شعبي العزيز، لقد فكرت جديا بعد ما أحست هذا الاحساس، فشعرت أننا نتكلم كلنا بهمسات وبغمزات وبالغاز لا يمكن لأي أجنبي أن يفهمها أو أن يترجمها بل لا يفهمها إلا أنا وأنت، فبقي لي بعد ذلك أن أحاول ترجمة هذه العواطف - بل هذه العزائم، بل هذا التخطيط - إلى حقيقة من شأنها أن تضمن لهذا الشعب ولهذه الأمة ولهذا الوطن سلامة أفراحهم، وطمأنينة مستقبلهم في أفراحهم، لأن الشعوب الحزينة ليست هي الشعوب السعيدة.

بمناسبة الذكرى الواحدة
والخمسين لجلالته

نعيش أزمة عالمية أمام ما يسمى بالمخدرات :

شعبي العزيز :

هذا عيد الشباب وأنت كلك شباب من شيوخك إلى أطفالك، فعلي أن أتوجه بنصيحتي إلى كل طبقاتك، والنصيحة هي الآتية :

الخطر الثاني شعبي العزيز، وهو أن تفقد كرامتك وذلك بتعاطيك لما يجعلك فاقد الشعور وفاقد المسؤولية، نعيش شعبي العزيز، وشبابي العزيز أزمة عالمية أمام ما يسمى بالمخدرات، تلك المخدرات التي تغزو الآن أوربا وأمريكا وعدة قارات، ذلك العدو الذي يظن كل واحد منا أنه في مأمن منه والحالة أنه يهدد كل من أراد الله أن يمتحنه هذا الامتحان القاسي، فإننا كل يوم نقرأ ونرى أنه حتى في المدارس الابتدائية عند الأطفال اللذين لهم عشر سنوات دخل هذا العدو الفتاك، لأنه عدو لا يرحم، عدو لا يفهم عدو يحب الاستعباد، عدو يفقد الشخص كرامته وبالتالي حريته، ويفقد أخيرا شعبا كله مقوماته الخلقية ومقوماته البدنية.

من خطاب جلالة الملك
يوم 8 يوليوز 1986

شعبي يستحق كل الثقة وهو واثق مني :

«ولكن أنا شخصيا واثق من نضجه، واثق، لأن الشعب المغربي يستحق كل ثقة، والشعب المغربي واثق مني لأنه جربني منذ خمسة عشرة سنة، فلم أكذب عليه قط، ولم أخنه قط، ولم أتملق إليه قط، بل قمت بواجبي بكيفية تفرح ضميري وتفرح شعبي.

فإذن لا مجال هناك لأن يظن أو يقال - في الداخل أو في الخارج - أن العمليات التي سنقدم عليها هي العمليات المعروفة، هذه موسيقى نريد أن نطوي الصفحة عليها. وهذه موسيقى تضر ببلدنا وتضر بالمغاربة أنفسهم.

وكما قلت لكم، انطلاقا من أن المغاربة يستحقون كل ثقة، وهم أهل لكل تقدير، لأن شعبا نظم مسيرة، كمسيرة الشعب المغربي، شيء في حد ذاته مدهش باهر. ولكن كونه يقف عندما طلب

منه الوقوف، فتلك هي معجزة الزمان، ومعجزة القرن».

من خطاب جلالة الملك يوم
8 يوليوز عام 1976

لا يمكن أن تعيش في جو الأمل إلا إذا كنت عالما حق العلم بتاريخ بلادك وبأصالتك :

● لي نصيحة، ونصيحتي هي الآتية :

لا يمكنك أن تتصور بكيفية واضحة واجبك ومسؤولياتك، ولا يمكنك أن تبقى مستمرا في مستواك العالي، ولا يمكنك أن تتحمل من التضحيات العالي، ولا يمكنك أن تبقى تعيش في جو الأمل ولو ضاقت بك رحاب الدنيا موقتا، إلا إذا كنت عالما حق العلم بتاريخك وبأصالتك وبواقع أجدادك، فاقرأ شعبي العزيز، تاريخ بلادك وتعمق فيه، وسوف تصبح إذ ذاك فخورا بمغربيتك، مستعدا لكل التضحيات، قابلا لتحمل كل المسؤوليات.

عن خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
يوم 8 يوليوز 1978

إن الوطن غفور رحيم :

وبهذه المناسبة لا يمكنني أن أتكلم عن أخلاق المغربي، وعن تربية الشباب دون أن أفكر فيمن يلقنه العلم ويربيه على الأخلاق الطيبة، ففي هذه المناسبة قررنا أن نعطي أمرنا إلى وزيرنا في التعليم حتى يمكن للذين اضربوا من الأساتذة وابعدوا عن عملهم أن يلتحقوا بشغلهم وعملهم علما منا كما قال زغلول : «إن الوطن غفور رحيم»، ولا أريد هنا أن أحلل أو استخلص في النهاية الأسباب الحقيقية التي دفعتهم للقيام بذلك حتى اتخذت تلك الاجراءات، فنحن في أيام مسرة، في أيام عيد، وأيام المغرب كلها والحمد لله أعياد.

خطاب بمناسبة الذكرى الواحدة والخمسين
لميلاد جلالة الملك

أما هديتي إليك يا ولدي، فهي رضاي الدائم :

يا بني :

قل للشباب إن الجيل الحاضر كافح في سبيل الاستقلال، وعليهم أن يتابعوا الكفاح بتثبيت هذا الاستقلال ولازدهار البلاد ورفاهيتها وتقدمها في عهد الاستقلال.

يا بني :

إن مهمتك خطيرة فيجب عليك أن تزداد من العلم والمعرفة يجب أن تدرس الأفراد أن تعرف الشخصيات، وقل يا بني دائما «رب زدني علما» فكلما تعلمت، وكلما اتسعت معرفتك ظهرت، أمامك أرجاء محيط العلم الفسيحة فالعلم له بداية، وليست له نهاية (فاطلب العلم من المهد إلى اللحد).

يا بني :

أقم الصلاة، وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور.

يا بني :

في هذا اليوم التاريخي الخالد يوم ذكرى ميلادك أيها الحسن لا شك أنك ستتلقى من إخوانك وأخواتك وأسرتك وأصدقائك هدايا.

أما هديتي إليك يا ولدي في هذا اليوم، فهي رضاي الدائم، ولك من والدك أبرك الدعوات، وأقدس التهنيئات.

من توجيهات المغفور له مولانا محمد الخامس
في الذكرى السابعة والعشرين لميلاد
صاحب الجلالة الحسن الثاني
يوم 9 يوليوز 1956

الأمل صنو الشباب

للمرحوم الأستاذ الإمام محمد عبده

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في بهماء الكروب، وعلم هادٍ في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم إذا اعترتها فترة، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الملك، وكذا من الفضل، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق إليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة. إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويتبعه حمل للنفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغتذ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد، فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون. وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة. غير أن ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات، فإن كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة، والتمكن من قلب الآخر، فكل طالب مطلوب. ولم تبلغ سعة العقل الإنساني إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم. ولكنهم تزاحموا في الأعمال كما تزاحموا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

الشباب

للمرحوم أحمد شوقي

الشَّبابُ أيَّامُ آذار، ودَوْلَةُ العِذار، وأعِنَّةُ الأوطار، ولَيْلَةُ العُرْسِ في هذه الدَّار سِنَةٌ كالطَّيْفِ سُراها، وكقُبْلَةِ الخِلْسِ كَراها، ونَشْوَةٌ يَتَلَفَّتُ المُسْتَفيقُ لا يَراها، وجَنَّةٌ لَوْ خُيِّرَ بالعَقْلِ اشْتَراها، العِشْقُ في غَيْرِ جَناحِهِ طائِرٌ لا يَنْهَضُ بِهِ جَناح، والكأْسُ من غَيْرِ راحِهِ غَبِيَّةُ السّاقي بَليدَةُ الرّاح، والمالُ في غَيْرِ خِزانَتِه غَريب، يتحوّل عن قريب، رُؤْيا الوارِثِ في نَوْمِه، وشُغْلُهُ في يَوْمِه، ومِلْكُ يَدِهِ في غَدِه؛ السُّلْطانُ والدَّولة، والإمكانُ والصَّولة، والمُلْكُ وكُلُّ ما حَوْلَه، نِعَمٌ إذا لَمْ تُحْرَزْ في الشَّباب، فما هِيَ في الحِرْزِ الحَريز، ودُوَلٌ إذا لَمْ تَعْتَزَّ بِه فَلَيْسَتْ في الذُّرا العَزيز. ولَذّاتٌ إذا لَمْ يَشْهَدْها غادَتْها حَسْرَةُ الفَوْتِ وراوَحَتْها فِكْرَةُ المَوْت.

أروعُ الشُّهْرَةِ ما طارَ في سَمائِه، وأمتَعُ الصِّيتِ ما سارَ تحتَ لِوائِه وأحسَنُ الثَّناءِ ما أتى في أثنائِه، ورَقَّ عَلى كَثيبِ رِدائِه في مَطالِعِه يَروعُ النُّبوغ، كَما تَروعُ الشَّمْسُ في البُزوغ.

شوقي



- إحصر أية أمة في أي دور من أدوار حياتها يتوقف على أفكار شبابها الذين تقل أعمارهم عن خمس وعشرين عاما.

«جيته» الشاعر الألماني

- ما أظلم هذه الدنيا وأشد كآبتها إذا خلت من الشبان، وما آلمها وأشد عقوقها إذا خلت من الشيب.

«كولريدج»

- شباب الروح خالد لا يفنى، والأبدية هي الشباب.

«ريختر»

- رأي الشيخ خير من جلد الشباب.

«علي بن أبي طالب»

- الأغلبية الساحقة من بني الإنسان تنفق أيام الشباب فيما يجعل الشيخوخة بائسة تعسة.

«لابروبير» الشاعر الفرنسي

- حاشى لي أن أضيع ربيع شبابي في الكسل والفراغ، ففي هذه السن يجب أن أزرع بذور المستقبل وأتعهدها بكل عناية لكي تزهر في الكهولة، وتحمل ثمرها في الشيخوخة.

«هلهاوس»

- أنفق شبابك فيما ينشيء لك الذكريات الطيبة، فيستريح ضميرك عندما ينطوي عهد ذلك الشباب، ولا تتناوبك الآهات والأحزان. إن ما دمت في طور الشباب، تظن أن الشباب باق إلى الأبد، ولكن لابد لكل نهار من مساء، واليوم الذي يعبر، لا سبيل إلى عودته. فانتهز الفرصة قبل فواتها، وخذ الأهبة لتضمن لك حياة طويلة سعيدة.

«رالي»

- إن الشباب الطائش يقفز كالأرنب فوق أشواك النصيحة الخالصة.

«شكسبير»

- من أنفق أيام شبابه في الفساد والخلاعة، كان كأنه يرهن نفسه للمرض والشقاء، وكلاهما دائن قاس يتقاضى دينه بأقصى الشدة، والشباب أجمل أطوار الحياة. والصداقة التي تنسج خيوطها فيه هي أمتن أنواع الصداقة، وأحبها إلى القلب.

«ويليس»

- في مقتبل [illegible] ويكون الشاب سريع التأثر والانفعال، لأن النشاط يدب في كل عضو من أعضاء الجسم، ولأن العواطف تملأ نفوسنا وتشملها. على أن الأحكام التي نصدرها على الأشياء في تلك السن كثيرا ما تكون بعيدة عن الصواب.

«برك»

- اعمل ما دمت في الشباب، فليس للحياة إلا ربيع واحد..

«بوتان»

- الشباب هو ربيع الحياة البهيج حين يسري الطرب في مجاري الدم وينشد كل ما في الطبيعة أناشيد الفرح والسرور داعياً ايانا إلى الاشتراك في عيد الحياة.

«ريجواى»

- الشباب هو الفرصة السانحة لكل فتى ليقوم بعمل من الأعمال التي ترفعه إلى مصاف الأبطال.

«مونجر»

- الشباب هو الزمن الذي يشيد فيه المرح صرح أخلاقه وعاداته وآماله. فما من ساعة من ساعاته ألا وهي ملأى بالاحتمالات الكثيرة. وما من دقيقة من دقائقه إلا وتمر إلى غير عودة.

«رسكن»

- الشباب هو عهد الآمال والزمن الذي يجب فيه على المرء أن يبذل كل ما عنده من جهة ونشاط، لا لخير نفسه فقط بل لخير شعبه أجمع.

«ويلميز»

☆ ☆ ☆

يعيب الغانيات علي شيبي
ومن لي أن أمتع بالشباب

[illegible]
حميدا دون وجدي بالمشيب

«البحتري»

رأيت خضاب المرء عن مشيبه
حدادا على شرخ الشبيبة يلبس
وإلا فما يغزو امرؤ بخضابه
أيطمع أن يخفى شباب مدلس ؟
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب
وكل ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يواري شيبه أين ماؤه
وأين أديم للشبيبة أملس ؟

«ابن الرومي»

وما الحداثة، من حلم بمانعة
قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

«المتنبي»

ولى الشباب فخلى الدمع ينهمل
فقد الشباب بفقد الروح متصل
لاتكذبن فما الدنيا بأجمعها
من الشباب بيوم واحد بدل

«ابن أبي حازم»

من عاش أخلقت الأيام جدته
وخانه ثقتان : السمع، والبصر..
قالت : «عهدتك مجنوناً» فقلت لها :
إن الشباب جنون، برؤه الكبر..

«ابراهيم الموصلي»

وإن من أدبته في الصبا
كالعود يسقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا
بعد الذي أبصرت من يبسه

والشيـــخ لا يترك أخـــلاقـــه
حتى يـــواري في ثرى رمـــه
«صالح بن عبد القدوس»

ألا ليت الشبـــاب يعـــود يـــومـــاً
فـــأخبره بمـــا فعـــل المشيب
☆ ☆ ☆
على الشبـــاب كـــل صعب هين
في يـــوسف ذاك دليـــل بين
☆ ☆ ☆
ألا لامرحبـــا بفراق ليلى
ولا بـــالشيب إذا طرد الشبـــاب
☆ ☆ ☆
وهـدى التجـارب في الشيـوخ، وإنمـا
أمـل البـلاد يكـون في شبـانهـا
الرصافي

أترجـــو أن تكـــون وأنت شيـــخ
كمـــا قـــد كنت أيـــام الشبـــاب
«الصلتان العبدي»

ذهب الشبـــاب فمـــا لـــه من عـــودة
وأتى المشيب، فـــأين منـــه المهرب ؟
«علي بن أبي طالب»

إن المرء أعيـــا رهطـــه في شبـــابـــه
فـــلا ترج منـــه الخير عنـــد مشيب
«أبو الأسود»

إن المشيب رداء الحلم والأدب
كمـــا الشبـــاب رداء اللهـــو واللعب
«دعبل»
إن الشبـــاب والفراغ والجـــدة
مفســـدة للمرء أي مفســـدة..
☆ ☆ ☆

لا تحسبي أن الشبـــاب وشرخـــه
يبقى ولا ان الجمـــال يخلـــد
«علي بن مقرب»

متع شبـــابـــك إن العمر أطـــوار
وكـــل طـــول في العيش أوطـــار
«القروي»

وحبب أوطـــان الرجـــال إليهم
مـآرب قضـاهـا الشبـاب هنـا لكـا
☆ ☆ ☆
أواه لـــو علم الشبـــا
ب، وآه لـــو قـــدر الشيـــوخ
☆ ☆ ☆
شبـــاب قنـــع لا خير فيهم
وبـورك في الشبـاب الطـامحينـا
«شوقي»

إذا اعتـــاد الفتى خـوض المنـايـا
أهـــون مـــا يمر بـــه الـــوحُـــول
«المتنبي»

هـذه بعض أشعـار لشعراء مغـاربـة قيلت في العشرينات :

سقى عهـــد الصبى صـوب المهـــادي
فمـــا زال ادكـــاره في فـــؤادي
وإن كنت مـــا أصبت بـــه رشـــادا
ولا أوريت في علم زنـــادي
فيـــاليت الشبيبـــة زودتني
بكف تستخف عصير عـــاد
لم ألف مثـــل الشيب أعظم قســـوة
أبكي الصبـا، وأراه طلقـاً ضـاحكـاً

واللـــــه لــــولا أنني لا أرتضي
إذ لا لـه لتركت وجهـه كـالحـا
«محمد غريط»

أرى الشبـــاب أخي ضيعت بهجتـــه
وفـاجـأ الشيب بـالتـأنيب وابتـدرا
سكر الشبـــاب، وحب اللهـو مفسـده
بـالعلم قـاومـه الحـذاق فـانكسرا
«عبد الله الفاسي»

العلم أجمـل حيلـــة الإنســـان
فـاسعـوا إليـه معـاشر الشبـــان
واسعـوا بـــإسراع لقطف ثمـــاره
من قبـل فـوت الـوقت والابـــان
وتنـافسـوا في نيـل كـل فضيلـــة
وتشبثـــوا بـــــأوامر القرآن
«أحمد النميشي»

يـانخبـة من شبـاب القـوم عـارفـة
معنى الـديـانـة كـوني أشرف النخب
☆ ☆ ☆
كــل صعب على الشبـــاب يهـون
هكـــذا همـــة الرجـــال تكـون
قــدم في الثرى، وفـوق الثريـــا
همـة قـدرهـــا، هنـــاك مكين
قـد حسبتـــاهم رجـالاً فكـانـوا
ولهم في الحيـــاة مغـــزى ثمين
☆ ☆ ☆
ولنـــا في الشبــاب خير ظنــون
حققت في الشبـــاب تلـك الظنـون
☆ ☆ ☆
يـــاشبـــاب البـلاد فيكم أحيي
كـل شهم بمـــا يفيـد يـدين

يــــاشبــــاب البـلاد فيكم أحيي
هممـــا علقت عليهـــا الظنـــون
«علال الفاسي»

جـددوا المجـد فمـا هـذا الخمول
يـابني المغرب أبنـــاء الفحــول
جـددوا عهـد جـدود كرمـوا
جـددوا بهجـة هـاتيـك الطلـول
☆ ☆ ☆
أرجـــال الغـد هبـوا دفعـــة
واستعـــدوا للقـــا الخطب الجليـل
أرجـــال الغـد هبـوا دفعـــة
وانهضـوا بـــالأمر، والعبء الثقيـل
أرجـــال الغـــد هبـوا إنــــه
طـال هـذا الصمت والنوم الطـويـل
«محمد المهدي الحجوي»

أمـــا وشبـــابي في العـلا قسمـــا برّا
لأني امرؤ آبى المهـــانـــة والضيرا
أحيــد بنفسي أن تهـــان كرامتي
وأربـــأ أن أسعى لمـــا يـوجب العـذرا
«عبد الله كَنون»

شبـــاب المغرب الأقصى يفيـــق
ليحيي المجـــد والحسب العريـــق
أراهم يطمحـــون إلى المعـــالي
ومـــا يرقي البـلاد ومـــا يروق
ويجري في دمـــائهم شعـــور
تثـــور بـــه الشرايين والعروق
فيشتـــاقـــون للشرف المـولي
ويــذكرون والـــذكرى تشـوق
«محمد المختار السوسي»

أحيــــوا البــــلاد وعلمــــوا
شبـــانهـــا، كيف الحيـــاه ؟
هـــــذا الشبـــــاب ذخيرة
بـــل ليس من ذخر ســـواه،
كم كـــــان يمشي مـرعـــــا
لــو لم يحــل سيــل الطغـــاه..
مـــدوا الشبـــاب ثقــوا بــــه
لاخـــــوف أن سرتم وراه
يـــاأيهـــا الشبـــان سيـ
ـروا إنكم جنـــد النجـــاه
سيروا أمـــــام الشعب حـ
ـتـى تبلغـــوه ذرى عـــلاه
ضحـــوا بكـــل جهـــودكم
حتى يرى فيكم منـــــاه

لاتحسبـــوا شعبـــا يمـــو
ت إذا غفـــا فيـــه انتبـــاه
إن النفـــوس كمينـــة
فيهـــا جراثيم. الحيـــاه

«المكي الناصري»

أبشر، لقـــد نلت الأمـــاني في شبـــا
بـــك ، والشبـــاب مضيـــة الأوطـــار
تهتم بـــالـــوطن العـــزيـــز، وترتجي
إنقـــاذه من وهـــده الأخطـــار
وتـــود للـــوطني شـــأنـــاً في التقـ
ـــدم، والتقـــدم منيـــة الأحرار

«محمد بوجندار»

افتخر بمغربيتي وأعتز
وأشكر فضل الله علي
لكونه جعلني مغربيا أبا وأما
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني



للأستاذ : م . ب

نحن الدين أدركنا حقيقة قيمة التربية الكشفية وعرفنا مصالحها وما في طياتها من نعم، نأسف عميق الأسف لكون أبنائنا وحفدتنا لا يعرفونها وربما لن يعرفوها.

الحسن الثاني

في الجلسة الافتتاحية لأشغال المجلس الأعلى للماء الذي انعقد يوم الخميس 10 شوال 1308 ـ 26 ماي 1988 توجه صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني في خطابه القيم إلى قضايا مهمة اجتماعية واقتصادية تتعلق بالماء، وكان خطابا رائعا موفقا تناول فيه حفظه الله قضايا الشباب الذين يريد منهم أن يكونوا طموحين حساسين مقاديم، ينعمون بفيض الحياة وغنى الروح، وثقة الخلود، بالإضافة إلى أن يكونوا أقوياء مجدولي العضلات مفتولي السواعد في إطار النشاط الكشفي الذي كان فيه حفظه الله المثل الأعلى للشباب المغربي:

قال حفظه الله في هذا الخطاب :

«ثانيا : لا تكلف هذه البحيرات الدولة أو القائم بها تقنية واسعة بل تكلفه فقط الطموح لجهته والأمل في تحسين ناحيته. وكأنني أرى في الشهور المقبلة حينما ننكب على عملية مهمة من هذا القبيل في إطار مخطط وكأنني أرى كل يوم جمعة وكل يوم أحد شبابنا من جميع القرى التي تجاور البحيرات يذهب هو نفسه ويعمل ذلك اليوم ويرجع إلى الروح والفلسفة والمتعة للتربية الكشفية. فنحن الذين أدركنا حقيقة قيمة التربية الكشفية وعرفنا مصالحها وما في طياتها من نعم نأسف عميق الأسف لكون أبنائنا وحفدتنا لا يعرفونها وربما لن يعرفوها.

فهذه مناسبة أخرى لتجمع شبابنا ولنجعله يساهم في بناء شيء من الأشياء لأنه في مجموع الشباب الذي يشارك في هذه البحيرات التلية سيكون من الوزراء النابغين ومنهم من سيكون من العمال الأكفاء ومنهم من سيكون من المهندسين ومنهم من سيكون من المنتخبين.

فبهذه الطريقة سيمكننا أن نأخذ الشاب منذ بلوغه سن الرشد ونحن نجنده لأن يعمل لبلده ويبني بلده. لن نجنده على طريق الحزب الوحيد أو الدكتاتورية.. لا : فهذا تجنيد غير مفروض بل تجنيد يخلق النشاط ويقوي الرابطة الحيوانية التي تربط المرء بالأرض».

وعملا بهذه التوجيهات السامية الواردة في خطاب جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بمناسبة انعقاد المجلس الأعلى للماء ومن أجل وضع هذه التوجيهات موضع التنفيذ انعقد بمقر وزارة الشبيبة والرياضة يوم الثلاثاء 31 من نفس الشهر اجتماع وزير الشبيبة



أول اتصال بين صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير مولاي الحسن وبين الكشفية الحسنية.



صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير مولاي الحسن يلقي خطابه في طنجة، ويحيط بسموه كشافة طنجة.

والرياضة حضره أعضاء مكتب الجامعة الوطنية للكشفية المغربية ورؤساء الجمعيات الكشفية العضوة في الجامعة ونواب الوزراة بعمالات وأقاليم المملكة.

وفي البداية عبر المجتمعون عن اعتزازهم للالتفاتة الملكية الكريمة التي خص بها جلالة الملك الحركة الكشفية ثم اجتمعوا على اعتبار يوم 26 ماي اليوم الوطني اللحركة الكشفية بالمغرب.

وإثر ذلك عبر المجتمعون عن كامل أهبتهم واستعدادهم لبلورة وتجسيد الفكر الحسني المبدع ووضع نداء صاحب الجلالة موضع التطبيق من أجل تحقيق الأهداف والمرامي المتمثلة في :

تربية المواطن على المبادئ الكشفية المثلى وذلك بالعودة إلى الروح الكشفية واستلهام فلسفتها طبقا للتوجيهات الملكية السامية.

المساهمة الفعالة في بناء الوطن و ذلك بالاستفادة مما تمنحه الحياة الكشفية من وسائل وتيسره من طرق ترمي إلى تغطية مختلف مجالات الخدمة الاجتماعية والعمل التنموي.

خلق وتوفير الأرضية الصالحة لممارسة العمل الكشفي وذلك بالسعي إلى الحصول على صفة النفع العام لفائدة الجامعة الوطنية للكشفية المغربية.

البحث عن وسائل النهوض بالحركة الكشفية ودعمها ماديا ومعنويا.

البحث عن وسائل التنشيط الكشفي بتنظيم مبادرات اجتماعية وثقافية والمساهمة في مختلف المشاريع التنموية وفي مقدمتها مشاريع التشجير وبناء البحيرات والسدود التلية.

دعم خطة الجامعة في مجال تكوين الأطر.

ومن أجل أن تأخذ هذه الغايات طريقها نحو الإنجاز تم تكوين لجنة دائمة مشتركة بين وزارة الشبيبة والرياضة والجامعة الوطنية للكشفية المغربية يمكن تطعيمها بقطاعات حكومية وشبابية أخرى كلما دعت المصلحة إلى ذلك.

كما تقرر أن تعقد اللجنة اجتماعها الأول يوم الجمعة 3 يونيو.

☆ ☆ ☆

لقد قيض الله للحركة الكشفية في بلادنا من وسائل النجاح والتوفيق، والفلج والظهور، والازدهار والاستمرار عندما ألهم مؤسسيها أن يقرنوها باسم «الحسن»، وهو طفل لايتجاوز الرابعة عشرة من عمره لتسير مع حياته السعيدة جنبا إلى جنب في نموها وقوتها ومراحل كفاحها صلبة العود، قوية الشكيمة تصارع وتناضل، وتكسب المعركة من الكفاح وتصبح ذات كيان تحتل مركزها بين أعضاء المنظمات العالمية، وتتحمل قسطاً بينها من الحقوق والواجبات.

وقد صرح جلالة المغفور له مولانا محمد الخامس في هذا الصدد بقوله :

«إننا ما فتئنا نهتم بالكشفية، وقد أمرنا ابننا، ولي عهدنا الحسن أصلحه الله، وهو لا يزال في السن الرابعة عشرة أن يلبس بذلتها بمجرد ظهورها في المغرب، كما أذنا له بأن يقبل رئاستها الشرفية».

«وكانت الكشفية من عوامل تأجيج الحماس في نفوس الشبيبة وتربيتها على الأخوة والتعاون، والاعتماد على النفس، ونكران الذات، مظهراً من مظاهر كفاحنا الوطني».

كانت بداية هذه الانطلاقة المباركة يوم 9 يناير 1934، وهو تاريخ الظهير الشريف الذي أصدره جلالة محمد الخامس بتنصيب سمو ولي عهده مولانا الحسن رئيساً شرفياً للكشفية الحسنية التي حملت اسمه، وحظيت برعايته... وهو الحدث الذي أكسبها المناعة والحصانة، وضمن لها البقاء والخروج منتصرة من كل معركة خاضتها ضد ماكان يدبر لها من مكائد، وما يوضع في طريقها من عراقل تستهدف محوها بأساليب تعددت ألوانها حسب اختلاف الظروف السياسة التي كان يعيشها المغرب في فترة مقاومة الوجود الأجنبي وسيطرته.

صاحب السمو الملكي، ولي العهد سيدي محمد والأميرة للا مريم، يحيطان بالبطلين الفائزين بالميدالية الذهبية بالالعاب الاولمبية (لوس آنجلس 1984) نوال المتوكل وسعيد عويطة.



كانت الكشفية أول مدرسة لمن سيصبحون أبطال المقاومة المسلحة

وقد طبعت الرعاية الملكية للكشفية الحسنية بطابع التأييد الفعلي حيث انه لم يمر شهر على صدور الظهير الشريف المشار إليه حتى أقامت الجمعية مهرجاناً حضره سمو ولي العهد، آنذاك، الأمير مولانا الحسن، حيث تسلم البذلة الكشفية الرسمية ولقب بأمير الأطلس.

ولم يفتأ جلالة الحسن الثاني يولي هذه الحركة التي تتشرف بحمل اسمه الشريف من عطفه، وتشجيعه وتوجيهاته النيرة في كل مناسبة، وهي عديدة ومتوالية...

فلا تمر مناسبة دون أن يقع اتصال قادة الحركة الكشفية برئيسهم الشرفي «أمير الأطلس» ولي العهد آنذاك الحسن الثاني الذي كان يحضهم على المثابرة والجد ومواصلة العمل، وتطبيق مبدأ الكشاف : «الكشاف مستعد» «الكشاف يبسم في وجه الصعاب، وينشد في محنته».

لقد كان جيل الحسن الثاني الذي تربى في أحضان الكشفية الحسنية قد تشبع بروح جلالته الوثاب، ووطنيته الصادقة، وارتوى من ينابيع حب العرش المقدس، فقرر أن الوقت قد حان للفداء والجهاد، حينما نادى منادي الجهاد بروراً بقسم اليمين على الوفاء، وبذل الروح..

وقد تقدم إلى ميدان الوغى وحومة الفداء، في أربعة أقاليم مغربية من فروع الكشفية الحسنية أربعة أبطال من جوالتها وقادتها المعروفين ليعطوا البرهان العملي القاطع على إخلاصهم لعقيدتهم، واهبين أرواحهم فداء للعرش...

فكان المرحوم علال بن عبد الله عضو عشيرة يوسف ابن تاشفين بالرباط.

والمرحوم الزرقطوني عضو قيادة فرع الدار البيضاء.. والمرحوم حمان الفطواكي أحد جوالة مدينة مراكش.

والمرحوم الشفشاوني قائد عشيرة مدينة فاس.

وتلك أسماء لامعة في تاريخ حركة المقاومة والفداء، خلدوا أرواحهم في الملأ الأعلى، وحظيرة القدس، وسجلوا أسماءهم على صفحات الخلود وكانوا خير قدة للشباب المغربي، ولمن تلاهم من المجاهدين الصابرين... إنهم أعضاء الكشفية الحسنية.

☆ ☆ ☆

لقد أسدى الحسن الثاني للكشفية الحسنية أجل الخدمات، وقدم لها ما يساعدها على القيام برسالتها، من أجل ذلك قرر المكتب الكشفي العالمي بعد استئذان جلالته عام 1963 أن يمنحه لقب الرئيس الشرفي للمجلس الأعلى للحركة الكشفية العالمية الذي يضم ملوك ورؤساء الدول المنخرطة، وتم ذلك بواسطة مبعوث خاص حظي بمقابلة جلالته بالرباط لهذه الغاية.

بل إن جلالته أبى حفظه الله إلا أن يزيد من تدعيم هذه الحركة التربوية ويعيد نفس التاريخ، فمنح إذنه الشريف بتنصيب سمو ولي عهده سيدي محمد يوم : 7 أبريل 1968 شبلاً أعظم، وهو في سن جلالته عندما تم تنصيبه أميراً للأطلس.

من أجل ذلك وجه صاحب الجلالة حفظه الله يوم 26 ماي عام 1988، وهو يفتتح أشغال المجلس الأعلى للماء نداءه التاريخي إلى شباب هذه الأمة، ويلفت انتباهها إلى أهمية الحركة الكشفية فقال :

وكأنني أرى في الشهور المقبلة حينما تنكب على عملية مهمة من هذا القبيل في إطار مخطط، وكأنني أرى كل يوم جمعة، وكل يوم أحد شبابنا من جميع القرى التي تجاور البحيرات يذهب هو بنفسه، ويعمل ذلك اليوم، ويرجع إلى الروح والفلسفة والمتعة للتربية الكشفية، فنحن الذين أدركنا حقيقة قيمة التربية الكشفية، وعرفنا مصالحها وما في طياتها من نعم، نتأسف عميق الأسف لكون أبنائنا وحفدتنا لايعرفونها وربما لن يعرفوها.



البشرى...

للشاعر محمد الحلوي

دقت طبول الفرحة الكبرى … وسعت إليك مواكب البشرى
وتنفس الصعداء شعبان اهتدى … بطلاهما، واستقبلا الفجرا
من بعد أعوام القطيعة يلتقي … شعبان ذاق بنوهما المرا !
وتساقيا كأس المنايا مرة … وهما اللذان تحديا القهرا
فتحت جروحا غائرات لم يكن … لولا التعقل شرخها يبرا
في كل بيت فرحة ومسرة … أنست بنيه العيد والفطرا !
هذي الحمائم أقبلت من بعدما … هجرت، فروع هجرها الوكرا !
قد أوحشت من كل حب أرضنا … وتحولت مذ فارقت قفرا
وبدت طلائعها تزف سلامها … وتغذ نحو ربوعنا السيرا
ليعود حب كاد ينضب نبعه … ومعينه متدفقا ثرا
ليعاود الأمل القلوب فتنتشي … من بعد يأس زلزل الصبرا
ضاعت سنون ! ونحن في دوامة … كدنا بها أن نبلغ القعرا !
ونكاد نصبح بالخلاف طوائفا … نبني لأنفسنا بها قبرا !
قدر ترصدنا ولم يك دفعه … سهلا، ولا أخطاره تدرى !

***

كم أعين سالت مدامعها دما ... عاشت على من ودعت سهرى
ومواكب للموت سرنا خلفها ... لم يجن صانعها بها نصرا
وأرامل ربطت على أكبادها ... حزنا على من شيعت جمرا !
فبمن أصول إذا قطعت يدي أخي ... أو شدت فوق دمائه قصرا ؟!
ولمن أنادي ؟ إن دهى خطب، ومن ... أدنى إلي ليحمي الظهرا ؟
لا شيء أروع من عدو عاقل ... يأسو الجراح ويكره الثأرا !
ويدير دولاب الخطوب بحكمة ... حتى تزاح ويعمل الفكرا
ما كان أجدر أن نضم جهودنا ... لبناء شعبينا، وما أحرى !
ونمد أيدينا إلى إخواننا ... في القدس أرض الوحي والمسرى
ما ضر من غرست يداه بأرضنا ... أشواكه، أن يغرس الزهرا !
ويفيض حبا في القلوب وبهجة ... ويفوح في جناتها عطرا

***

اليوم مولد أمة لم تنتكس ... إلا استقامت مرة أخرى...
ومشت على درب الحياة وليدة ... تفشي السلام وتنشر الخيرا
وكأنني أصغي إلى أصدائنا ... في القدس في بغداد في مصرا !
فمتى تحقق أمتي احلامها ... وطموحها للوحدة الكبرى ؟
ومتى ستتخذ القرار كأمة ... لا تستقي من غيرها الأمرا ؟!
من لي بأن أحيا إلى أن تستعيـ ... ـد عروبتي أيامها الغرا ؟
سأبيت ليلتها لربي ساجدا ... وأصوغ فرحتنا بها شعرا

تطوان : محمد الحلوي

عيد الشباب وعرس اللقاء

للأستاذ المدني الحمراوي

عيد الشباب طلاوة الأعياد ... مغزاه في الأرواح والأكباد
إنا نحيي يومه، ونجله ... ونعيد ذكرى جمة الأمجاد
عيد ميلاد الهمام مشرف ... أعظم به في السعد من ميلاد
ناهيك بالحسن الحبيب فإنما ... هو نعمة ميمونة الامداد
حمدا لمن أصفى به أوطاننا ... كالغيث أحيا يابس الأعواد
هو في عقول الشعب أنفس فكرة ... بل سره كالروح للأجساد

***

سبط الرسول لك الولاء مجددا ... يا بهجة الأفراح والأعياد
يا باعثا مجد الجدود من الثرى ... ومعبئا لعزائم الأحفاد
يا بانيا صرح المعالي شامخا ... رغم الصعاب وكثرة الأضداد
أرسيت وحدتنا، فقر قرارها ... كالصخر رص على ربى الأطواد
جددت مغربنا العظيم، فأصبحت ... ءاثاره ممتدة الأبعاد
ونفخت في روح العروبة قوة ... فتحفزت لتقدم وجهاد
تبدي نصائحك الغوالي مخلصا ... لله في التوجيه والإرشاد
واصلت ليلك بالنهار مجاهدا ... وبلغت بالتصميم كل مراد
ودعوت للحسنى معاشر لم تزل ... خطواتهم في عثرة وشراد
شغفوا بتمزيق الصفوف وصدها ... وتولعوا بتصلف وعناد
سروا عدوا للعروبة عندما ... أمسى يحاكي سطوة الأساد
ويبيد بالاحراق شعبا ماله ... من عدة يلقى بها أو زاد
غير العزائم لا تلين قناتها ... وحجارة تلقى على الأوغاد
أفدي طفولة أمة قد أعجزت ... جيشا، وأخزت قادة الأجناد

قد روعت صهيون حتى عمه ... كرب، وطال مساءه بسهاد
وتبددت أحلامه، وتقطعت ... أنفاسه من وطأة الإجهاد
لو أن في تلك الكفوف بنادقا ... لقضت على صهيون بالإخماد
لكنهم عزل، ولا من قومهم ... من يسعف الأطفال بالإنجاد
قتل التردد عزمهم؛ فتربصوا ... وعدوهم متوقد الأزناد
والقدس تندب حظها في حرقة ... وتقول هل من منقذ أو فادي
ورئيس لجنتها ينادي : وحدوا ... صفا يحقق واجب الاسناد
لكن صف القوم ظل مبعثرا ... والسعي بين تباطئ ورقاد

* * *

ياأيها الحسن العظيم المرتضى ... لبيك ياسبط النبي الهادي
حييت من شهم أبي راشد ... تفديه بالأرواح والأولاد
يا منقذ الصحراء من إغلالها ... ومداويا جرح العدى في الوادي
ومفجرا في الغرب أروع نهضة ... هذي نتائجها من الأشهاد
أصلحت بل أحسنت مباد برته ... ونجحت في التقويم والإعداد
وفيت للقدس الشريف، ولم تزل ... حتى سبقت طلائع الرواد
وهفت مساجده إليك، كأنما ... أضحى لقاءكما على ميعاد
قد قلت للدنيا ـ وقولك صادق ... قولا تردد في ربى ووهاد :
إنا نصلي فيه دون مناوئ ... ونعيد فيه مسيرة الأجداد
تلك البشارة منك لا يخفى لها ... سر عن المتبصر النقاد
هي من أمير المومنين كرامة ... وهو الحفيد لسيد الأسياد
وهو المبارك، والمؤيد سعيه ... بالله في الاصدار والإيراد

* * *

فاسلم أمير المومنين لأمة ... ضمتك بين جوانح الأكباد
وليحرس الرحمن عرشك شامخا ... وبنيك في فرح، وفي إسعاد
إنا نراك لنا اماما بل أبا ... بل سيدا من سادة أجواد
هم أورثوك خلافة نبوية ... أضفت عليك مطارف الأمجاد
فعليهم الرضوان جما خالدا ... ولك الولاء يعم كل فؤاد
وأهنأ برحلة ظافر قد حققت ... فتحا، سيبقى غرة الآباد
حظيت بها «مراكش» لما مشت ... في اليم تمخر مائج الإزباد
وافتر من ثغر «الجزائر» مبسم ... لما حللت بها حلول رشاد
وتعانق الاخوان بعد قطيعة ... وأعيد جسر تواصل ووداد
فرج بطالعك السعيد تحققت ... ءالاءه فشفى من الأكماد
بالحلم والصبر الجميل جلبته ... وثبات جأشك في سنين شداد
ما تلك إلا حكمة أوتيتها ... وبها درأت غوائل الأحقاد

حتى جلا ليل الجفاء واشرقت ... شمس الوئام، فرن لحن الشادي

فالمغرب العربي أصبح واقعا ... يحياه حاضر حيه والبادي

وتجمعت أقطابه في ندوة ... اخوية لتناصر وسناد

عادت رياح الفتح تنعش أمة ... فتوحدت بتعقل وسداد

صلح بشائره أنارت أفقنا ... بعد انزياح عوائق الأسداد

وتبسم التاريخ بعد عبوسه ... وتهانأ الأجداد في الألحاد

والملة البيضاء قرت عينها ... وتألقت في ساطع الأبراد

أمل تحقق بعد ليل حالك ... ولى، وكان مركز الأوتاد

بشرى لمغربنا الكبير بخطوة ... بدأت مسيرتها على مرصاد

قد مهدت أقطابنا منهاجها ... والله يكلأها من الحصاد

***

مولاي فضلك في التصالح واضح ... وجهود سعيك جمة التعداد

بوركت يا فخر الملوك وقطبهم ... فاهنأ بنصر باهر وقاد

دامت لك الأيام سلما صافيا ... في عزة ممتدة الآماد

وحباك ربك في بنيك سعادة ... وحماك بالألطاف والأرصاد

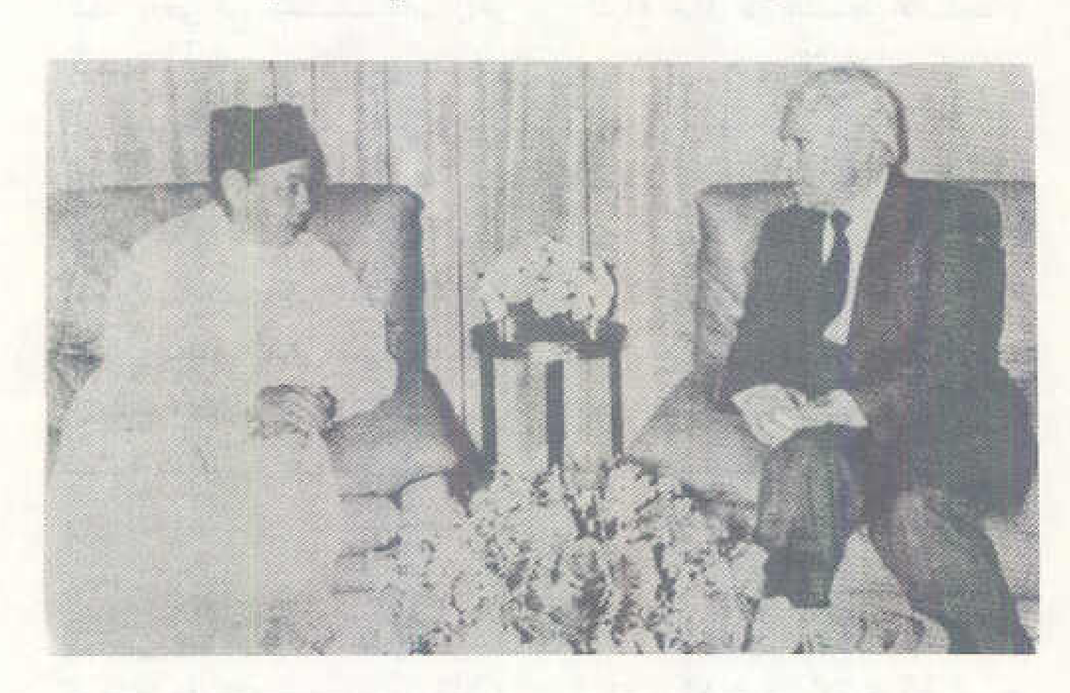
وأطال عمرك قائما بأمامة ... قد صنتها بتيقظ وجهاد

واقبل مديحا أنت ملهمه: فما ... لي فيه غير الصوغ والإنشاد

صان الإله محمدا وشقيقه ... وحباهما ما شئت من إسعاد



المدني الحمراوي



إلى شباب العالم

للشاعر: الدكتور علال الخياري

يا شباب العصر... في كل مكان — عصركم... عصر سباق ورهان
غدنا في يدكم، أنتم لنا — أمل نزجى به ركب الزمان
غدنا في يدكم، إن تحنوا — يسعد الكون بأيام حسان
كيف يحيا الكون في سلم... إذا — ما تمادى من قوى الشر يعاني ؟
كيف يمضي في عباب زاخر — كشراع ضل عن شط الأمان
كلما أومض في الأفق سنا — تاه في بحرين لا يلتقيان !!!
أين يسري... بعدما الليل دجا — كيف يرسي بين نار ودخان...؟
كان يوما في يدنا... ثم انتهى — يومنا الضائع من قبل الأوان
كيف أغفت أمة قد أنجبت — قادة الفكر، وفرسان البيان
إنها قادت... فلا النور خبا — لا ولا الدهر جرى دون عنان
وصحونا... نجتلي فجر الهدى — ساطع الأضواء في كل مكان
إنه مستقبل الحب الذي — يلهم الفكر، ويوحي بالأماني
إنه مستقبل العدل الذي — ينقذ الإنسان من قيد الهوان
بين كل الناس، مهما اختلفوا، — صلة القربى، وفيض من حنان

☆ ○ ☆

إن تكن يا عصرنا عصر فضاء — لم تزل تزرع في الأرض الشقاء
لم تزل تشعل نيران اللظى — لم تزل تكبت في الأفق الضياء

وإذا مـــا اشتـــاقت الروح إلى   عـــالم حر، ودنيـــا من إخـــاء
وإذا مـــا اخترق الفكر الـــدجى   وتحـــدى الحر ظلم الأقـــويـــاء
وإذا مـــا ملت النفس الهـــوى   لترى العـــدل أســـاسًـــا للبنـــاء
كنت يـــا عصر مـــع الشر يـــدا   لم تلن للحـــق أو هـــدي السمـــاء

☆ ☆ ☆

يـــا رجـــال الغـــد... يـــا كُـلّ المنى   أنـــا من يشـــدو لكم أحلى غنـــاء
إنمـــا أحـــداث عصري، لم تـــدع   لجنـــاح الشـــاعر الشـــادي فضـــاء
هـــدجت في وتري اللحن، وكم   صـــدم الـــواقـــع حلم الشعراء
إن تشـــاؤوا أن تروا حـــاضركم   فـــانظروه في جراح الأبريـــاء
بشروا العـــالم يـــا أبنـــاءنـــا   بغـــد... ينتظم النـــاس ســـواء
بغـــد من صنعكم... ليس بـــه   أي قيـــد، أو عـــذاب، أو دمـــاء
بغـــد... أضـــواؤه من فكركم   فيـــه حب، وســـلام، وصفـــاء

فاس : علال الخياري



شباب المغرب المكافح حول صاحب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن ولي العهد.
- من اليمين إلى اليسار : عبد الهادي بوطالب، مولاي عبد الله، عبد القادر بنجلون، الحاج عمر بن عبد الجليل، عبد الرحيم بوعبيد.



أنشر على نغم القصيد ... لحن الوفي إلى المجيد
وأشدو فؤادي كالطيور ... يهزها عطر الورود
حي مليكا عزمه ... ملأ الفيافي بالجهود
فاخضرت الكثبان نشوى ... بالثمار وبالحصيد
والخير أشرق زاهيا ... فوق الروابي والنجود
كل الأماني أزهرت ... بالفكر والرأي السديد
والفضل عم فزغردت ... أرواحنا بين السدود
سنصب كل جهودنا ... لنظل أسياد الوجود
بالعلم بالعمل الشريف ... بوفرة الرزق المديد
«بالزرع» في ظل المياه ... الجاريات بلا حدود
نسقى نروي ما نشاء ... ونجتني ثمر الجهود
فتسر أرواح البنين ... بطلعة الطلح النضيد
بالتين والزيتون بالليمو ... ن مع حب الحصيد
دار الكرامة دارنا ... أنعم بها دار السعود
أنعم بعاهلها الذي ... امتشق الحسام على الجمود
فأعادها جنات عدن ... في السهول وفي النجود
تروي عن الحسن العظيم ... عراقة الرأي السديد

☆ ☆ ☆

أبنـــــاؤنـــــا والعلم في ســـاح التســـابــق للبعيـــد
والجيـــل في روض المعـــارف حـــاصـــد حصص الأســـود
قـــد عب من صفـــو المنـــا هـل مـــا يطيب لمستـزيـــد
انهمرت تروي ظـــامئـــاً للعلم في حضرٍ وبيـــــد
لب الثقـــافـــة ينهلـــون من القـــديم أو الجـــديـــد
يرنـــون للملـــك المفـــدى سعـــد مغربنـــا السعيـــد
من صـــان كـــل تراثنـــا ورعى حضـــارات الجـــدود
فبـــدت مـــآثرنـــا تـــزين هـــامـــة المجـــد التليـــد
ومـــواكب العمران مـــا فتئت تطـــول إلى المـــزيـــد
ليظـــل عهـــد حبيبنـــا ألـــق الضحى بين العهـــود
هـــذي الشـــواهـــق في العلى قـــد عـــانقت حمر البنـــود
لتعيش في ظـــل الامـــام من الصعـــود إلى الصعـــود
ويظـــل مجـــد بـــلادنـــا يختـــال في الأفـــق البعيـــد
مـــادام عـــاهلنـــا الهمـــام يرود أشبـــال الأســـود
وجمـــوعنـــا تطـــوي المسيرة فـــالمسيرة في صمـــود
نبني وننشيء مـــا يخطـــط رائـــد الحـــزم الفريـــد
ونقـــول للـــدنيـــا قفي وتـــأملي جهـــد الجهـــود

☆ ☆ ☆

دار الحـــديث تـــألقت وسمت بمنشئهـــا الـــودود
صقلت مـــواهب ثلـــة بفضـــائـــل العلم المفيـــد
وتـــزينت بـــاسم المليـــك فـــأشرقت بيض الـــوعـــود
وتســـابقت أفـــواجهـــا بين المبرز والمجيـــد
يجنـــون في رد هـــاتهـــا زاد المعـــاد إلى الخلـــود

☆ ☆ ☆

هـــذي شبيبتنـــا تنـــازل كـــل فـــوازٍ عنيـــد
عنـــد السبـــاق تراهم كالـــذاريـــات بـــلا قيـــود
أكرم بهم يـــوم القـــوى أبنـــاء فرســـان وصيـــد
رفعـــوا بيـــارقنـــا ترفرف في الأعـــالي للـــوجـــود

علمتهم فـــوز الرجـــــال	وعــزة البطـــل الشـــديـــد
فتسربلــوا بسنـــاه هـــداك	إلى التفـــوق والصعـــود

☆ ☆ ☆

بـــالحلم عـــاد السلم مـــع	فرح الـــزنـــابـــق والـــورود
مـــع شـــوق أبنـــاء العمـــومـــة	والقرابـــــة والجـــــدود
والسيف أُغمـــد طـــائعـــاً	والحب أشرق من جـــديـــد
ودلائـــــل الإخـــلاص لاحت	في العيـــون وفي الخـــدود
فشـــدت لمغربنـــا الكبير	جمـــوعنــــا أغلى نشيـــد
وشعـــوبنـــا هـــامت على	درب المـــودة بـــالـــودود
فسمت على أفـــاقنـــا	بشرى تلـــوحُ بـــالـــوعـــود
الحلم حلمـــك سيـــدي	يـــامـــدرك الأمـــل البعيـــد
فـــاسلم ومن أسـدى معـــاك	إلى التصـــافي روح جـــود
ليهب مغربنـــــا الكبير	من التملمـــل والرقـــود
ونعيش في أقطـــارنـــا	عيـــداً يعـــادل ألف عيـــد
ونكـــون درعـــاً للعروبـــة	في الجهـــاد وفي الصمـــود
بين الأشـــاوس من بنينـــا	طـــارق وابن الـــوليـــد
فـــاسلم أيـــا حسن الإمـــام	رائـــد الفتـــح الجـــديـــد
ليعـــود لـــلأقصى سنـــاه	برغم أحبـــار اليهـــود

☆ ☆ ☆

يـــاسيـــدي أنت الحبيبُ	فـــدم سنـــا الشعب الـــودود
وليبـــق عيـــدك مشرقـــاً	بـــولي عهـــدك والرشيـــد

الرباط : وجيه فهمي صلاح

احتفاء بعيد الشباب المجيد

العرس الكبير

للشاعر محمد بن محمد العلمي

عيد الشباب مزية وحبور، ... والعرس في ظل الإمام كبير :
وبكل جزء من بلادي متعة، ... ونداء حب زانه التعبير
فشعورنا فوق التصور روعة، ... والعرش منه قد استنار ضمير
عمر الزمان لقد تكرس هاهنا، ... فرنت إليه من الخلود عصور
وحياة من شادوا المكارم تزدهي ... أبدا، وعمر الخاملين قصير
وشبابنا في عرشنا لا ينقضي، ... وربيعنا ما مسه تغيير
إن يفخر (الحسن) العظيم بشعبه، ... فالشعب بـ(الحسن) المجيد فخور !
فاسأل شعوب الكون عن فذ غدا ... تفكيره ما مثله تفكير !
فالنضج والإخلاص ملء سلوكه، ... وشعاره الإكبار والتقدير !
بشرى لأطلسنا المنيع بعيده ! ... فبعرشنا قد غرد الشحرور
وبه الربيع الغض زاد نضارة، ... ولنحن في الروض البهيج زهور
تختال بـ(الحسن) المفدى أرضنا ... ألقا، فلا يبقى بها ديجور :
عزم، وحزم، في تكامل وحدة، ... والخير في هذي الربوع كثير
وتنوع من كل فن بارع، ... فيه المواهب حظها موفور.
ونماؤنا بمليكنا متزايد، ... فهو الإمام الظافر المنصور !
يمضي بنهضتنا لأرفع قمة، ... في همة عنوانها التيسير
قد عادت الصحراء نحو أصولها ... بمسيرة نحو السلام تشير
حضراء بـ(الحسن) المجاهد أينعت، ... والنصر فيها بالخلاص بشير
في التاج وحدتنا الكبيرة تزدهي، ... إذ همه التوحيد والتحرير

وطريقنا في نوره عذب الرؤى،   من جده فيه تجدد نور !
وخطابه الشهد الرحيق، فكله   حكم، فنعم اللؤلؤ المنثور !
يجلو الحقائق في سياق كلامه،   فحديثه يحلو به التذكير
قد أصلح التعليم إصلاحا به   يتيسر التصنيع والتنوير
يهفو إلى مردوديات جمة،   فالفقر في عهد الثراء خطير !
يسعى إلى الإتقان في التكوين إذ   منه الجهاد موفق مشكور.
يبني من الأمجاد كل عظيمة،   بقريحة ما مسها تقصير
أكرم به من رائد ومنسق !   إن المليك على البلاد غيور :
وطنية من أعمق الأعماق قد   أدت أمانتها، فليس تجور
إن (التحدي) جوهر (الحسن) الذي   بكفاحه وجداننا مسرور !
يعلي بهمته الصروح لجيلنا،   حذرا، وبالأفق البعيد بصير
ويريد في التاريخ منزلة لنا   فوق الثريا، والمليك خبير
في كل يوم نحن نبني مجدنا،   ما فاز إلا صابر وقدير.
جهوية التدبير نحمد سرها،   فبفضلها كم تستقيم أمور !
كل الثناء لعرشنا العلوي من   هو بالثناء من الجميع جدير
تهفو إلى (الحسن) العظيم قلوبنا،   وهتافنا التهليل والتكبير
فـ(الخامس) المبرور مفتخر به،   إذ راق من روح الحبيب حضور !

* * *

في عمقنا، بتمازج، وتساكن،   وتشارك، يتمكن الدستور.
ولنحن كل، لا انقسام يروقنا،   كيف الهناء، وجزؤنا مبتور ؟!
في (سبتة) القلب الأصيل معلق،   و(مليلية) الشماء ليس تخور
و(المغرب العربي) يفرض نفسه   بمصيره... قد عز منه مصير !
فـ(لقاء وجدة) عبرة ومبرة،   والحر صدق، بالعهود برور
في الضاد والقرآن وحدتنا التي   يسمو بها الإجلال والتوقير
فلتبتدر طاقاتنا استعدادها   لمسيرة عنوانها التشمير
ومن المحيط إلى الخليج مراحم   وملاحم : هذه لذاك ظهير !
والصفو فيه من الأمان كواثر   تروي الظماء، فما بها تكدير
والفضل للمسعى المصمم دائما،   نحو السلام، فما له تأخير !

* * *

حدث بلندن عن أجل زيارة، فيها تألق زائر ومزور !
(إليزابيث) وضيفها في نشوة عظمى، وحولهما البدور تنير
إذ نحن أحرار، وذلك رمزنا، عرش مجيد، بالنبوغ شهير
(أسماء) و(المولى الرشيد) كلاهما قد أشرقا، فاستبشر الجمهور
وحضورنا فيه العراقة والغنى : تاريخنا في ذاتنا مسطور !
نحن امتداد للعروبة هاهنا، وثقافة القرآن فيها النور !
إذ عرشنا العلوي عز جهاده، ورصيدنا في ظله موفور
قد أحرز (الحسن العظيم) زعامة، وشجاعة منها يعز نظير
في ربع قرن من قويم سلوكه، الكون مأسور الحجى، مبهور
كم من قضايا، إذ يباشر حلها، يسمو به في الجوهر التفكير !
ونظامنا الملكي فيه أصالة تزهو بها في الخالدين دهور
نحن احترمنا، واحترمنا دائما، كالشمس من بين النجوم تدور !
وبلادنا، استقرارها في وحدة، رمز البقاء، فما لها تحوير
روح التفتح حكمة كم حققت من مكسب ! يا حبذا التدبير !
فالمغرب الأقصى، كما تهوى العلا وطن بحب العالمين جدير !

* * *

تلك المكاسب بالكفاح تضاعفت، إذ ليس في السعي النبيل فتور
وإرادة الرحمان تعضد سعينا، نحو العلا، وجهادنا ميسور
إنا مع المجد اتحدنا فطرة، فلنحن في وجه الدخيل نشور
لم نرض ضيما، فالثبات سبيلنا، ومنالنا في العالمين عسير
المجد رمز بلادنا وشعارها، والفكر في آياتها مسحور
ولكم يعود لحضنها من زارها، فالقلب عبد جمالها، مأسور !
تعتز بالماضي، وتبذل جهدها لغد به قد أفلح التدبير :
نبع العلا، وملاذ كل قريحة خلاقة، منها تطيب بذور
هي جنة الأحرار، والروض الذي قد فاح منه على الوجود عبير
و(القدس) لا ننسى مرابعها التي يمضي بها نحو السلام مصير
مسرى الرسول، لقد أتاها هاتف من قلب يعرب، بالخلاص بشير !
هي همة (الحسن) الإمام المرتضى، مدت بها نحو الأمان جسور
هزت أمير المؤمنين فراسة، في (المسجد الأقصى)، لها تأثير :
والله إن صلاتنا برحابه، ستكون حتما، والضمير قرير !

* * *

إن يســأل التــاريخ عن أمجــادنــا، فهنــا بــدا الإيضــاح والتفسير
فـ(ــالمغرب الأقصى) سما لمـا نمـا، والعرش فيــه ضمانــه المــأثـور
يهوى اللبـاب من المـزايـا كلهـا، إذ همــه التحسين والتطــوير :
عـــدل، وحلم، في مسيرات العـلا، إذ عـز منـه لــدى الـوجـود نظير
من جــوهر القرآن يقبس نــوره، يـــا حبــذا للمخلصين جــذور !
ومليكنـا سبـط الجهـابـدة الألى منهم تـوطـــد بيتنـــا المعمــور
يعلي على أمجـادهم أمجــادنـــا، فلنحن من بين الأنـــام صـــدور !
وسـدودنـا في كـل عـام عـانقت شتى المعـاهـد، فـالعطـاء غـزير
والمـاء (للعــاطي) بكـوثره الــذي يــزهــو بـ(ـعين اللـه)، فهـو نمير !

* * *

يـــا أيهـــا الفجر المضيء تحيـــة من شـاعر، قــد راقـه التصـوير :
في رسمـه قــد رصـع الآيــات من وجــدانــه، مــذرق منــه شعـور
إذ صـــاغ عهــدا زاهرا في نشوة منهـا تفـوح على البـلاد عطـور !
عـاش المليـك، مـؤيـدا من ربـه، و(ولي عهـــد) في الصــلاح أثير
وليحفـظ اللــه (الرشيـد) فمنـه قـد خجلت من الحسن الفريــد بــدور
وليبــق بيت الأكرمين منـــارة، من حــولهـــا قلب النجـوم ينير !

الرباط : محمد بن محمد العلمي

إنّ الطريقَ إلى مركزِ الصّدارة بين الأممِ مفتوحٌ في وجه الأمةِ الإسلاميةِ لايحُولُ بينَها وبيْنَه حائل، لكن يلزم لِضمانِ ذلك أنْ لاتقتصِرَ عنايتُها على الجانبِ المادّي وحده وعليها أنْ تُوجّهَ حظّاً كافياً من اهتمامِها إلى الحفاظِ على تلاحُمِ الأسرةِ المُسلمةِ وحمايتِها من عواملِ التفكّكِ والإنحلال.

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

جددت عهد الراشدين تقى وإحسانا وزهدا

للشاعر محمد بين بين

أرأيت رب التّاج في عيد الشباب وقد تبدّى
وشهدت جبريلاً يمد عليه ظل الله مدا
ونظرت تطواف القلوب بساحة العرش المفدى
وسمعت تسبيح الوفود بحمده وفْداً فوفدا
وحفيد اسماعيل ربّ الملك من أغنى وأسدى
يهب النضار كأنه من فيض جدواه استمدّى
وكأنما هو عالم بالكيمياء أصاب جدا
يدعُ الترب تبرا فهل شهد الورى للثاني ندا
أني ساكت سمعت أدعية له وسمعت حمدا
عش يا أبا العزمات والبس من نسيج الملك بردا
ها صولجان الملك من شجر الجنان إليك يهدى
حُدت علا صيد الملوك ولا أرى لعلاك حدا
فابن الرجال بناية يشقى العدو بها ويردى
أي الملوك أجل منك مكانة وأعز جندا ؟
من منهم كفاه يوم البذل من كفيك أندى ؟
من منهم نامت رعيته وقام الليل سهدا ؟
من منهم ساماك أو سامى جلالك أو تحدى ؟
من منهم أوفى حجا وحصافة وابر وعدا ؟
في الشرق فانظر هل ترى حسبا كسيدنا المفدى
وإليك مكة هلا ترى أحدا بها وإليك نجدا
لم يرتفع في الشرق تاج فوق تاج الثاني مجدا
جددت عهد الراشدين تقى وإحسانا وزهدا
ونرى عليك مخايل الخلفاء إنصافا ورشدا
جلت صفاتك كم محوت أسى وكم أوريت زندا
رويت أفئدة الرعية من هواك.. فكيف تصدى ؟
فإذا نهيت فطاعة وإذا أمرت فلا مَرَدّا
أعطوك طاعة مخلص ومنحتهم عطفاً وودا
فتحت أعيننا فأبصرن الضياء وكن رمدا
وأقمت دارا للحديث تشد أزر العلم شدا
من ذا يطيق لبعض ما أصلحت أو أسديت عدا
دم يامليك مؤيدا بالمال والأرواح تفدى
ويدم ولي العهد في حفظ وفي سنن المفدى
ويريد ربي في الرشيد وما تؤهله وسعدا

اليوم الأغر..

للشاعر مالك محمد بنونة

رفرفت راية الفلاح   في البطاح   وفي النجود
وسمت تعلو في اتضاح   بانشراح   وفي صعود
باكر الروض في الصباح   فالأقاح   اليوم تجود

* * *

يا حبيبي يومنا يوم أغر   ماله اليوم مثيل

* * *

قم بنا نشد بالهناء   في الفضاء   ملء الفؤاد
تتغنى بما نشاء   من غناء   حسب المراد
ونزف الحب ولاء   في العلاء   وفي المهاد

* * *

لا ندع ذكرى مع الدهر تمر   دون تمجيد أصيل

* * *

فانظر الطير في الربى   لاعبا   بين الغصون
فارحا طاف الشعبا   مغربا   بذي اللحون
بترانيم أطربا   مع صبا   مبدع فنون

* * *

فأنا طير بإنشادي حر   أتغنى بالأثيل

* * *

حسن المجد والعلا   في الملا   بين الأنام
صاحب الرأي إن تلا   أو جلا   نصح الكلام
فاق بالفكر الأولى   معتلا   فيما يرام

* * *

وهمى من غمره الفـــــائض تبر   من عـــــذيب سلبيـــــل

☆☆☆

فلـــه اليوم بـــالـــدعـــاء   عن رضـــــاء   نـــدعـــو الكريم
أن يعم الفضـــل سخـــاء   من سمـــــاء   رب   رحيم
ومـــديمـــا لـــه الرخـــاء   والـــوفـــاء   حـب   مقيم

☆☆☆

في قلـوب هـزهـا بـالفخر ذكر   في صبـــاح أو أصيـــل

☆☆☆

كلمـــا هـــامت الغصـــون   في السكـــــون   مـــع الـــورود
في حـــوار عـــذب مصـــون   في فتـــــون   دون قيـــود
تحتسي من مـــزن هتـــون   أو عيـــــون   صرف الخلـــود

☆☆☆

أرسلت في مرج ذيـــلا تجر   داعبتـــه بـــالشمـــول

تطوان : مالك محمد بنونة



بين المغرب والجزائر

من وحي إعادة العلاقات الدبلوماسية على مستوى السفراء

للشاعر محمد بن محمد العلمي

النضـــال النبيــل ليس يضيــع، ألف مرحى ! إذ شملنــا مجمـوع !
مهجـة (المغرب) العـزيـز ابتهـاج، حينمـا عـاد ذلــك التطبيـع.
وفـؤاد (الجـزائر) اليـوم أنس، حيث يحلو إلى الأهـالي الرجوع.
رمضـــان الكريم نقى قلـوبـا هـزهـا للقـاء شـوق سريـع
يـوم عيـد الفطر المبـارك عيـد فيــه تـزكـو أصولنــا والفروع
والسـلام المنشـود يبـدو جليـا، وصـداه في عمقنـا مسمـوع
واتصـال الإخـوان بعضـا ببعض، ذو معـان لهـا المقـام الرفيـع !
خطـوة تلـو خطـوة، تلـو أخرى : واضـح النـور ذلـك التجميـع !
هـذه الـدرة الجـديـدة في التـا ج تسـامت، وزانهـا التلميـع،
هـا هـو الفتـح بـاهر علـوي ! نعم من عرشـه الحشـا والضلـوع !
إنـــه الخير في إرادة قـــوم ليس فيهم لمجـدهم تضييـع :
فهمـو رصعـوا من المجـد عهـدا حسنيـا، وحبـذا الترصيـع !
في حمـانـا يـزكـو النمـاء، ويربـو بـالجهـود التكـوين والتصنيـع.
وجميـع الآفـاق تشرق طبعـا، بـازدهـار، فحبـذا التـوسيـع !
وحـدة في تنـوع تلـك جـاءت، فلنعم التـوحيـد والتنـويـع !
كلمـا نحن من جهـاد فرغنـا، فلنـا في سـواه منـا شروع.
مـا قنعنـا بـالنزر من كـل مجـد، ليس منـا في المكرمـات قنـوع !

☆ ☆ ☆

تلــك بشرى إلى العروبـــة والاســـ   ـــلام حقـــا، بهـــا يسر الجميـــع
إنمـــا هـــذا (الجـزائر) منهـــا،   وإليهـــا كفـــاحنـــا المشروع
مـوعـد القمـة القريبـة (يـونيـو)   في حماها، والهول هول مريع ![1]
وضمان النجـــاح وحـــدة صف،   منـــه صـح الميثـــاق والتـوقيـع
والحـوار المفيـد كـان مـع الأقــ   ـــوى، فمـا أفلح الضعيف التبيع !
ليس يـــدري عمـق الحقيقيـــة إلا   مـؤمن في أعمـــاقـــه ملسـوع !
(وفلسطين)، قـدسها، المسجـد الأقــ   ـصى بـه للفؤاد يحلـو الركـوع !
قسمـــا إننـــا بـــه سنصلي،   والإمـــام الحـق النبي الشفيـع !
في المـآسي، وفي المجـازر طـالت   أزمـــات لهـــا يشيب الرضيـع :
عنـد (صابر) و(شاتيلا) جرح قـومي   غـائر، منـه صـار يشكـو النجيع !
مـا نسينـا (أبـا جهـاد) فقـد سـا   لت عليـــه من القلـوب دمـوع !
ليس يفنى الشهيـد، بـل هـو حي !   فـالظلـوم الغشـوم هـو الصريـع !
قـد طغـا في المخيمـات عـدو،   مبتغـــاه التنكيـل والتجـويـع !
فعلينـــا بـــالاتحـــاد، ففيـــه   عـــاد للجسم جـزؤه المقطـــوع
و(صـلاح الـدين) انبعـاث وروح !   وحضـور، فهـو الهـدى المتبـوع !
وجنـود الإلـــه هبـوا جميعـــا،   فـــانهـزام الأعـداء منهم ذريـع !
إننـــا أمـــة السيـــادة، مـــا فيــ   ـــنا خضوع لغـاصب أو خنـوع :
جيشنـا كـان عنـد (سينـاء) و(الجو   لان) يفنى بـه الـدخيل الـوضيـع
وحصـون الإسـلام كـــانت وتبقى   وهي طـول المـدى العرين المنيع
ذاك نـــور الإلـــه في كـل حين   زاد منـــه تـــألـق وسطـــوع
ومن (المغرب) الكريم المفـــدى،   راق من ذلـــك الصبـــاح طلـوع
تتجلى سيـــاســة الرشـــد ممن   هـو في المنهـج، الحكيم الضليـع :
قـــد أعـــاد الصحراء، وانحسم الأمــ   ــر، وفاز الشعب الوفي المطيع !
لاح فجر الحيـــاة فيهـــا جميـلا،   وكستهـــا حـــدائـق وزروع !
إنـــه النصر من إلـــه كريم،   مستجيب، فهـــو القريب السميـــع

١) إشارة إلى انعقاد القمة العربية الطارئة المخصصة لدعم انتفاضة الأراضي المحتلة، يوم 7 يونيو 1988، بالعاصمة الجزائرية.



صاحب الجلالة الحسن الثاني يستقبل وفداً عن الحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة السيد فرحات عباس.

سل شعوب الدنيا، ففيها اغتباط ... بحلول البشرى، ومسك يضوع
ساندت الاتحاد شرقا وغربا : ... حبذا للتوحيد منا نزوع !
وجميع الأحزاب في الوطن الغا ... لي نشيد فحواه : «ذاب الصقيع !»

☆ ☆ ☆

أي عيد كعيدنا، في انسجام ... ووئام، تهفو إليه الجموع ؟!
هذه (تونس)، وهذه (ليبيا)، ... (موريتانيا) يهمها الموضوع !
إنما نحن و(الجزائر) شعب ... واحد، لاح في رباه الربيع !
وعناق المؤيد (الحسن الثا ... ني) مع (الشاذلي) نعم الصنيع !
إن هذا لذاك في الحس والمعـ ... ـنى شقيق، لصنوه مدفوع !
والإخاء الأصيل أهدى سبيل ! ... به زالت من الكيان صدوع !
وهنا أو هنالك الذات تبقى ... جوهرا ينبغي به التمتيع !
وهنا أو هناك مجد وعز، ... وكفاح به تصول الربوع !
فالصدى في (الأوراس) و(الأطلس) الحر عريق، يحلو له الترجيع !
وجهود الوفاء للوطن الأكـ ... ـبر فيها استبان كسب بديع !
عرب نحن في الوسائل والغا ... يات، منا لقد أضاءت شموع !
تلك فينا انتفاضة هزت الدنـ ... ـيا ! فهذا اتحادنا المطبوع !
إنها حكمة، ونضج، وحزم، ... به قد صح حقنا المشروع !
إن (صهيون) قد تفاقم حقنا ... منه خزي مر شنيع فظيع !
إذ تعاني أرض الرسالات مما ... ليس يرضى (محمد) و(يسوع) !
فلنقم قومة تصد البلايا، ... بثبات ما ناله ترويع !

☆ ☆ ☆

ورباط الجهاد أدرى وأحرى ... بانتصار يروق منه الوقوع !
حبذا الكوثر الزلال فمن عتـ ... ـرة طه تفجر الينبوع !
نحن في موقف الجلال اتحدنا، ... وأمام الجلال يحلو الخشوع !
فأدم يا إله وحدتنا الكبـ ... ـرى ففيها لنا هوى وولوع !
وأتم النعمى علينا، فإنا ... لانتصار الإسلام نعم الدروع !
واحفظ (المغرب) العزيز منارا ... للمعالي، فحقنا لا يضيع !

الرباط : محمد بن محمد العلمي

من نوابغ الشيوخ

وقد يكون شباب غير فتيان

لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة من أجل ذلك فالنبوغ شعاع ينبثق من النفس، في أي وقت أراد، غير مقيد بزمان ولا مكان... فقد نرى شيوخا محتفظين بنضارة الشباب، ورغادة العيش اللباب، كما نجد شبابا في ربيع أيامهم، وكأنهم طاعنون في السن... فالنبوغ يظهر في ابن ست سنين، كما يظهر في ابن تسعين أو مائة.

إن وفرة الإنتاج هي الهدف الأول، اليوم، للشعوب والأفراد، وليس من مصلحة الشعوب أن تقاطع شيوخا، اكتسبوا خبرة طويلة، ونضجت آراؤهم بحكم سنهم، فذلك يعني حرماننا من جانب كبير من الثروة الفنية والفكرية...

إن هناك شيوخا تموج قلوبهم بالإيمان... فالإيمان هنا، هو المولد الكهربائي الهائل الذي يحرك الهمة، ويثير الخيال، ويدفع إلى المجازفة، ويخلق الآراء الجديدة، ويغري بالقتال والنضال، والجهاد والجلاد، والثبات والصمود...

والإيمان يجدد شباب الإنسان ماديا وروحيا...

فكم من شيخ أبلت الأيام بدنه، ومع ذلك بقي متماسكا، يعلو صوته، وتلمع عينه، ويشتعل في عروقه دمه، لأنه يومن بشيء عظيم أو بشيء يراه عظيما... وكم من شيخ بقي على رأس جماعة من المومنين يجالد ويصارع، ويكر ويفر، ويقبل ويدبر، ويخيف الخصوم ويخاف منه الخصوم...

إن هناك شيوخا جمعوا بين ركانة الشيوخ ووقارهم، وبين عبقرية الشباب، وظرف الفتيان، وخفة روحهم، وذكاء قلبهم، وحدس المعيتهم وهم، كما أشار إلى ذلك، كثير عبد الرحمن الخزاعي في حبيبته عزة بنت جميل بن وقاص الذي يقول فيها :

يا عز، هل لك في شيخ فتى أبدا
وقد يكون شباب غير فتيان

أو كما قال الشاعر المتنبي في مدح المغيث بن العجلي :

يروع ركانة، ويذوب ظرفا
فما تدري : أشيخ ؟ أم غلام

ودونك، رهطا من الذين نقشوا أسماءهم المجيدة على صفحات التاريخ بعدما جنحت شمسهم في العمر نحو المغيب، فتركوا بصماتهم في ذاكرة التاريخ :

☆ في الثانية والخمسين اكتشف كلومبوس العالم الجديد الذي دعى أمريكا فيما بعد. ونظم بسمارك الحكومات الألمانية في دولة واحدة. وقاوم صلاح الدين

الأيوبي هجمات الأفرنج المتحالفين لانقاذ «أورشليم» من يده في الحرب الصليبية الثالثة.

☆ في الثانية والخمسين انتخب «ريمون بوانكاري» رئيسا لجمهورية فرنسا فأدار شؤونها في أخطر الأعوام على كيانها وهي أعوام الحرب العالمية.

وكان «بلايك» في هذه السن لما دعاه مجلس النواب البريطاني لقيادة أسطول انكلترا، فأنزل «مكنسة» البحار عن رأس أسطول هولندا التي كانت رمز السيادة البحرية وجعل انكلترا سيدة البحار.

☆ في الرابعة والخمسين كان كرومويل «حامي انكلترا». ودخل «يهوذا بنيامين» الأمريكي مدرسة الحقوق وعكف على درس الشريعة وفاز بالشهادة ثم صار نقيب المحامين الانكليز.

☆ في السابعة والخمسين كتب «سرفنتس» الاسباني رواية «دونكيشوت». ونظم «ملتون» الشاعر الانكليزي الأعمى «الفردوس المفقود» ووضع «هندل» الموسيقى لحن «المسيح».

☆ في الثامنة والخمسين كتب «دفوي» الانكليزي رواية «روبنصون كروزي». وباشر «ميكال أنجلو» رسم «الدينونة الأخيرة» وأكمله بعد عشر سنوات.

☆ في سن الستين باشر الفيلسوف الألماني «كانت» تأليفه العظيم «الانتقاد على العقل». وكتب الشاعر الانكليزي شومر «قصص كنتر بري». وباشر أندرو كرنجي الأمريكي توزيع ثروته الطائلة على إنشاء معاهد العلم قائلا : إنه يتعب في توزيعها المفيد أكثر من تعبه في جمعها.

☆ وفي الحادية والستين أغرق «جورج ديوي» أمير البحر الأمريكي أسطول أسبانيا في الفيلبين ورفع الولايات المتحدة إلى مستوى الدول العظمى. ورسم «دافنشي» لإيطاليا صورة «لاجوكوندا» وقضى أربع سنوات حتى وضع على شفتيها الابتسامة الغريبة المجهولة، أهي للفرح أم للحزن ؟ وهي اليوم في متحف اللوفر الباريسي.

☆ في الثالثة والستين نظم «لافونتين» الشاعر الفرنسي قصصه الخالدة. وكان المارشال «فوش» الفرنسي في السابعة والستين لما ألقت دول الحلفاء حظها بين يديه في الحرب العالمية فقاد جيوشها إلى النصر النهائي. وقتل «اريتو» السياسي الياباني الذي صير اليابان دولة حديثة في التاسعة والستين.

☆ في سن السبعين يذكر جميع الناس قصة الشيخ الهرم السبعيني الذي شكا إلى الطبيب الما في رأسه، فأجابه : هذا من السبعين. وفي ظهره : وهذا من السبعين. وفي صدره : وهذا من السبعين. وفي رجليه : وهذا من السبعين. فحنق الشيخ المريض وشتمه قائلا : إنك دجال جاهل. فأجاب الطبيب : وهذا أيضا من السبعين !

مع أن دانتي الإيطالي نظم قصيدته «الجحيم» وهو في السبعين. «ولونفلو» الأمريكي نظم «دي سنكتوت» وهو في السبعين. «وبوسان» الفرنسي أكمل صورة «الطوفان» وهو في السبعين. وفي هذه السن كانت الفلكية الشهيرة «ماريا متشل» تعلم الدروس العالية في «كلية فاسار» الأمريكية. وانتصر القائد الألماني «فون مولتكي» في معركة «سيدان» التي أسقطت بوليون الثالث عن عرش فرنسا. وانتصر الأمير «محمد علي باشا» المصري على الأتراك. وظلت «ساره برنار» الفرنسية تمثل دور ابن نابوليون وهو في سن 17 حتى ماتت في التاسعة والستين.

☆ وفي الثانية والسبعين كتب غليليو الإيطالي أحاديثه الصحيحة والمدهشة عن دوران الأرض. وأدار «كليمنصو» شؤون فرنسا رئيسا لو زارتها أثناء الحرب العالمية ودعى «أبا الانتصار».

☆ في الثامنة والسبعين أكمل «ميكال انجلو» القبة العليا في كاتدرائية مار بطرس رومية، وهي عنوان مجده الهندسي جعلته يهتف عند تمامها مخوراً بصنع يده البديع : «لقد رفعت البانثيون في الجو» لأن قبة الكنيسة العظمى تشبه ذلك الهيكل الوثني الذي كرسه الأقدمون لمجموع آلهتهم. وعن هذا نشأت في باريس تسمية البناية التي جعلها الفرنسيون مدفنا لعظمائهم.

☆ لم تكن سن الثمانين مستحبة عند العرب بدليل قول زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات في معلقته الشهيرة :

سئمت تكـــاليف الحيـــاة ومن يعش
ثمـــانين حــولا، لا أبــالــك يـــأم !!

وقول لبيد :

ولقـــد سئمت من الحيـــاة وطــولهـــا
وســؤال هـــذا النـــاس كيف لبيـــد ؟

مع أن «صوفوكليس» اليوناني نظم في الثمانين أعظم رواياته الخالدة. وهي «أوديب الملك». وباشر كاتو الروماني درس اللغة اليونانية ليستطيع مجاوبة «حماته» أثناء الجدال. ونشر «فبولتير» الفرنسي أهم ردوده على ناقديه. وأكمل جوت الألماني رواية «فوست» ونظم هولمز الأمريكي الأبيات التالي تعريبها : «لا تحسبوا شيخا هرما ذلك الذي يبقى دماغه متسلطا على الماضي محدقا في الآتي، فإن من يحمل في نفسه علامات الصيف الأبدي عبثا تتقلب الفصول السنوية عليه.

وفي الثمانين كان بالسترينا الإيطالي يطرب بأنغامه نفوس السامعين كما في الأربعين. ووليم هرشل يرصد النجوم بنظر أحد من نظر ابن عشرين. وكان تيارس رئيس على جمهورية فرنسا. وسقط أدوارد كوك المحامي الانكليزي عن حصانه فانقلب الجواد عليه وعاش برغم ذلك سنة كاملة هيأ بها كل مؤلفاته للطبع.

☆ وفي الحادية والثمانين كان «دزرائيلي» رئيسا لوزارة انكلترا.

☆ وفي الثالثة والثمانين كتب «اسحق نيوتن» مكتشف ناموس الجاذبية المقدمة البديعة لكتابه الفلكي (برنسيبا). واستقال «بولوك» القانوني الانكليزي من رياسة نقابة المحامين، وفاز القائد النموي «رادتزكي فوزه» الأكبر في معركة نوفارا. واحتل البندقية بعد قتال عنيف مدة 3 أشهر. وعين حاكما على الولايات المقتطعة من إيطاليا ولم يستقل من هذه الأعمال الشاقة حتى بلغ السابعة والتسعين. واستقال مازاريك من رياسة جمهورية بولندا في الخامسة والثمانين.

☆ في سن التسعين كتب تيوفراستوس الفيلسوف اليوناني كتاب «أخلاق الناس» وفي الحادية والتسعين كان البارون لفراي رئيس قضاة إرلندا حاد الذهن واللسان كالشبان.

☆ وفي الرابعة والتسعين كان رونـدولو حاكم البندقية قائدا أعمى للجيوش التي حاصرت القسطنطينية فاستولى عليها عنوة، وانتخب امبراطورا لعرشها فأبى مكتفيا بالعودة إلى حكم البندقية حتى مات في السابعة والتسعين.

أعتبر أن كل مغربي مغربي حينما يولد يكون مكتوبا على جبينه

هذا رجل يحب التحديات ولا تخيفه المعارك ولا الملاحم

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

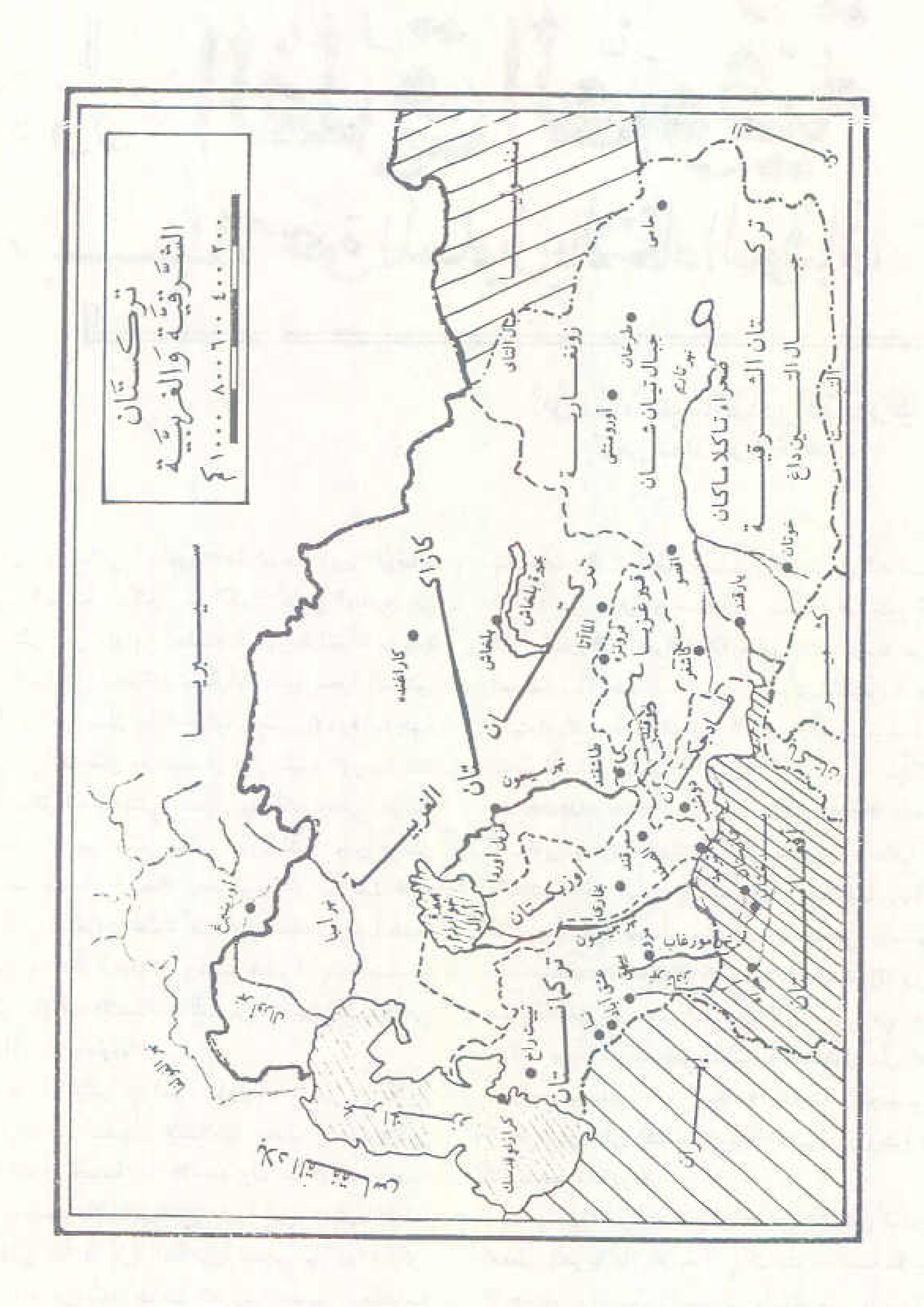
دور الطرق الصوفية في صحوة المسلمين بالاتحاد السوفياتي

للأستاذ عبد القادر القادري
قاض سابق بوزارة العدل

في شهر مارس الماضي 1988 توجه وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري إلى موسكو على رأس وفد من العلماء المغاربة للقيام بزيارة للاتحاد السوفياتي استغرقت بضعة أيام تلبية لدعوة الدكتور شمس الدين ابن إيشان بابا خانوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقزاخستان فزار السيد الوزير رفقة الوفد المرافق له مدينتي بخارى وسمرقند وخلال جولتهم أجروا محادثات مع ممثلي سكان عز بكستان وأدوا فرائض الصلاة بمساجد هذه المنطقة وعقد السيد الوزير خلال هذه الزيارة التي استغرقت عشرة أيام عدة لقاءات مع العلماء المسلمين بالاتحاد السوفياتي وكانت هذه الزيارة مناسبة للتذكير بالأخوة الإسلامية التي تربط بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وبما أن كثيرا من أبناء إفريقيا المسلمين لا يكاد يعرف شيئا عن الشعوب الإسلامية بالاتحاد السوفياتي فأحرى الطرق الصوفية بهذا الاتحاد إرتأينا ان نعرف بهذه الطرق وبالصحوة الإسلامية التي تقوم على اكتافها، ومما شجعنا على ذلك الزيارة المذكورة للسيد الوزير المذكور وحضور وفد من علماء طشقند الدروس الحسنية الرمضانية التي تلقى في حضرة جلالة الملك بالقصر الملكي العامر بالرباط وإلقاء الوفد المذكور ممثلا في العالمين عبد الرشيد بهرا موفى ورحمة الله عبيدون في يوم الخميس 25 رمضان 1408 موافق 12 ماي 1988 عرضا عن حياة المسلمين بالاتحاد السوفياتي بالمركز الثقافي السوفياتي تحت إشراف «جمعية الصداقة المغربية السوفياتية» وصدور كتاب لأليكس بنغيسين(*) وشانطال لومرسييه كيلكوجاي Alexendre Bennigsen et chantal Le mercier – Quelquejay الأستاذين بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريز والمختصين في تاريخ الشعوب الإسلامية بالاتحاد السوفياتي يحمل عنوان: «الصوفي والكوميسر» « Le Soufiet Le Commissaaire » (انظر الصورة) ووصول هذا الكتاب من حسن الصدف إلى المغرب في رمضان الفائت وتأكيد صاحبي الكتاب المذكور بأن الصحوة الإسلامية بالجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي إنما تقوم اليوم على أكتاف الطرق الصوفية وعلى رأسها النقشبندية والقادرية.

يخطىء من يتصور ان الصحوة تقتصر اليوم على الأقطار العربية والإسلامية التي كانت خاضعة للاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإسباني والبرتغالي والهولاندي والبلجيكي والتي لم تخضع لهذا الاستعمار كأفغانستان


تركستان
الشرقية والغربية
كم ١٠٠٠ ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠
كاراغندة
بحيرة بلخاش
أوزبكستان
أورومتشي
ياركند
خوتان

وإيران والعربية السعودية واليمن... ولا تتعداها إلى غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى.

والحقيقة أن تيار هذه الصحوة قد امتد أخيرا من أفغانستان إلى الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي عقب غزو الروس لأفغانستان في دجنبر 1978 (انظر خريطة تركستان وخريطة توزيع المسلمين بالاتحاد السوفياتي بالعربية وخريطة آسيا الوسطى بالفرنسية). ويتابع الخبراء الأمريكيون بكثير من الانتباه الصحوة الإسلامية داخل الاتحاد السوفياتي نفسه حيث يقطن في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز نحو سبعين مليون مسلم وحيث وقعت أحداث إسلامية متفرقة لا تخفى دلالتها في حسابات واشنطن مما دفع أحد الأساتذة الأمريكيين إلى التأكيد على أن النظام الاشتراكي هو أيضا لا يملك مناعة ضد تحدي «الإسلام الشعبي».

1 - فما هو سر هذه الصحوة بالجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي ؟

2 - كيف بدأت ؟

3 - ما هي الطرق الصوفية القائمة بها هناك ؟

4 - ما هي التنظيمات السرية لهذه الطرق ؟

5 - ما هو مستقبلها ؟

6 - هل أضرحة الأولياء والصالحين مازالت قائمة وتزار هناك ؟

عن كل هذه الأسئلة يمكن الجواب عنها فيما يلي :

1 - سر هذه الصحوة أنها بدأت في الخمسينات حينما شرعت الشعوب الإفريقية والأسيوية تحصل على استقلالها وخصوصا بعد وفاة ستالين عام 1953 وتنديد خلفه نيكيتاخروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي بموسكو بالأعمال الشنيعة التي ارتكبها ستالين في حق شعب التتار بجزيرة القرم وشعب الشاشان والانغوش بالقوقاز بنفيهم إلى سبيريا عقب الحرب العالمية الثانية باتهامه إياهم بالتعاون مع الجيوش الألمانية أثناء غزوها الاتحاد السوفياتي ووعد خروتشوف المنفيين بالعودة إلى أوطانهم. فكان ذلك الوعد سببا في دب النشاط والأمل في نفوس المسلمين في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز بالاتحاد السوفياتي وبدأوا يبحثون عن ذاتهم، (انظر خريطة شمال القوقاز موطن شعب شاشان انغوشيا).

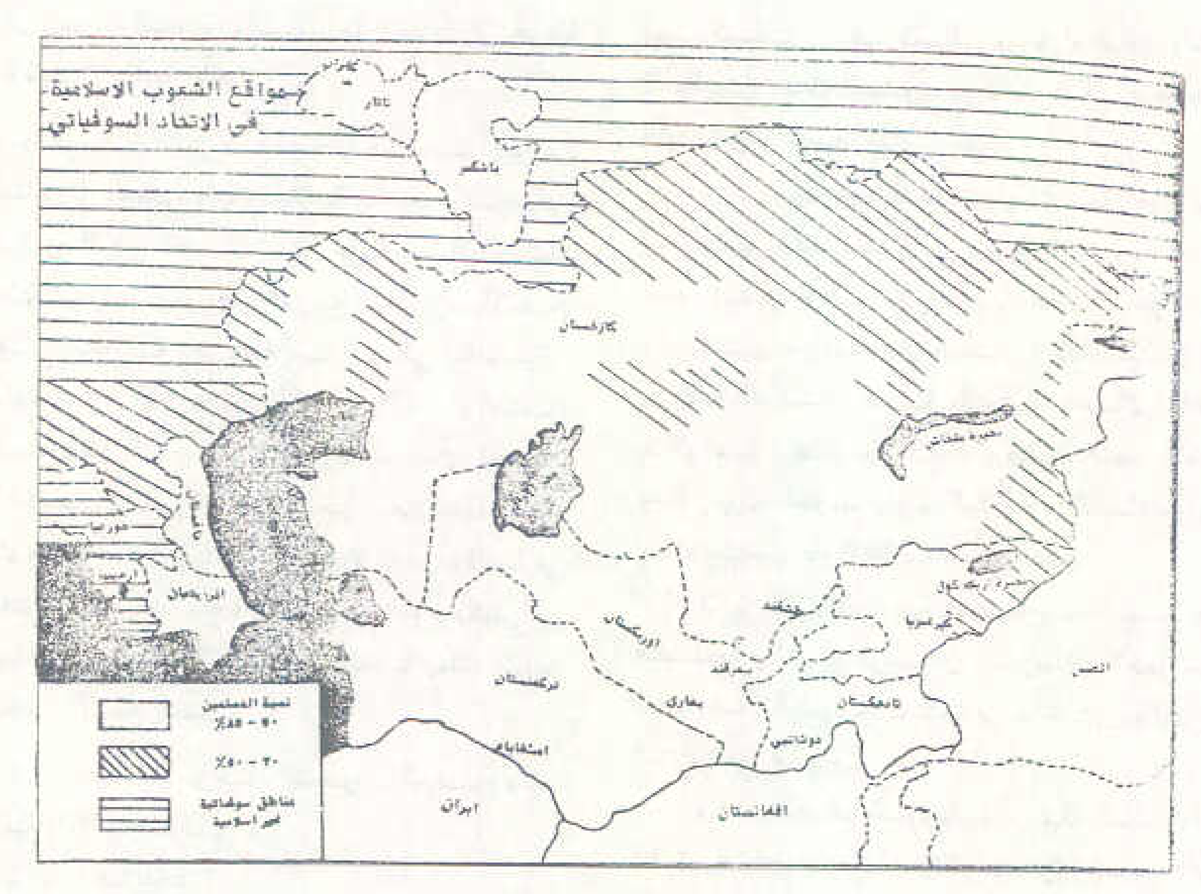
2 - بدأت هذه الصحوة وبالذات منذ الغزو الروسي السوفياتي لأفغانستان في دجنبر 1979 وبدء دخول المجاهدين الأفغان إلى جمهوريات تاجيكستان وعزبكستان وتركمنستان المجاورة لأفغانستان (انظر خريطة التركستان الغربية والشرقية) واتصالهم بإخوانهم هناك الذين تربطهم بهم علاقات عرقية مع الشعب الأفغاني وبدأ إدراكهم لحجمهم وقوتهم البشرية والاقتصادية يزداد حيث سيبلغون عام 2000 مائة مليون نسمة.

3 - الطرق الصوفية القائمة بهذه الصحوة هي : النقشبندية والقادرية الرئيسيتان والطريقتان الأصغر حجما منهما وهما : الياسوية المنتشرة في قزاخستان والكبروية المنتشرة في خوارزم.

وتقدر المصادر السوفياتية أن عدد المنتمين لهذه الطرق زاد منذ السبعينات وتكونت طرق جديدة مثل الأشندرية المتفرعة عن الياسوية والتشينشينة المنبثقة عن القادرية.

أ - الطريقة النقشبندية وأبطالها في الجهاد والسياسة في آسيا الوسطى والقوقاز :

● الطريقة النقشبندية غير معروفة عندنا في المغرب قديما وحديثا... بيد أننا لا نعرف عنها الا ما كتبه بعض المستشرقين والفرس والترك بالعربية بل إن العلماء والمؤرخين المغاربة لم يكتبوا عنها لأنهم اكتفوا بالطرق الصوفية المعروفة التي تستمد أصولها من أبي الحسن الشاذلي، ويكفي للدليل على ذلك ما كتبه أبو سالم العياشي في رحلته المسماة : «ماء الموائد» حيث قال : «ولما كانت طريق ساداتنا النقشبندية مع نفاستها وظهور محاسنها ولطيف أسلوبها وجيرانها مع الكتاب والسنة قلما توجد في أرض المغرب بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد بلاد مشايخها فلم تصل تآلفهم إليه ولا دخل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم مع اكتفاء أهل المغرب عنها وعن



خريطة لتوزيع المسلمين في جمهوريات ومناطق الاتّحاد السوفيتي (الخريطة منقولة عن مجلة النهار العربي والدولي).



جماعة من النقشبنديين الداغستانيين عام 1919 - أركان حرب الإمام نجم الدين غوطسانسكي.

غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأمنت غائلتها واستقامت أصولها وجرت مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع الإمام أبي الحسن الشاذلي وأتباعه أئمة الهدى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق رضي الله تعالى عن فريقهم وجعلنا من سالكي طريقهم. ولعمري وما عمري علي بهين، ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد وما أصولها الا كأصولها عند كل موفق سعيد.

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه

أخوها غذته أمه بلبانها

ومن تأمل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية لم يجد بينهما اختلافا إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة. وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلا»...

ولقد تأسست هذه الطريقة على يد الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند في بخارى المزداد عام 718 هـ 1318 م بقرية عريفان قرب بخارى والمتوفى بها عام 792 هـ 1389 م بعد أن ترك اتباعه ينشرون طريقته في آسيا الوسطى والقوقاز والفولغا La valga والأورال Loural والداغستان وواذربيجان ووصلت طريقته إلى الهند والصين ثم امتدت إلى الشرق الأوسط ذاته. ولقد شكلت الطريقة النقشبندية المحرك الرئيسي لقوى الجهاد الإسلامي في وجه الغزو الروسي في عهد قياصرة روسيا وامتد جهاد شيوخها ومريدها عبر مئات السنين وعلى امتداد الأراضي الواسعة من القوقاز في جبال الداغستان والشاشان غربا إلى بخارى وقرغيزيا على حدود الصين شرقا.

ولقد أدخل الشيخ منصور أشرمة الطريقة النقشبندية إلى القوقاز في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وكان هذا الشيخ هو أول من قاوم الغزو الروسي على القوقاز وقام مع مريديه بإفناء فرقة روسية كاملة على نهر سويخا عام 1206 هـ 1785 م ثم أودع السجن في قلعة «شلوسلبرغ» وهناك وافته المنية عام 1308 هـ 1793 م... ثم ظهر بعد ذلك الشيخ النقشبندي خاص محمد البرغلاي فتولى الجهاد ضد الروس حتى استشهد ثم تولى بعده الجهاد تلميذه الشيخ جمال الدين الكزكومخي وكان جمال الدين هذا أستاذا ومرشدا للإمامين العظيمين الملا الغازي محمد الكمراوي والإمام شامل القوقازي اللذين قاما بثورة الداغستان الشهيرة مع تلميذهما الأمير حمزة الخنزاجي والتي استقرت من سنة 1246 هـ 1830 م إلى عام 1276 هـ 1859 م فاستشهد الملا الغازي محمد والأمير حمزة في ميدان الشرف وأسر الإمام شامل القوقازي عام 1859 م ثم أودع في السجن في كالوجا فمكث فيها خمس سنين سمح له بعدها قيصر روسيا إسكندر الثاني عام 1863 م بالذهاب إلى مكة المكرمة ولقي هذا البطل في عبوره قنال السويس الأمير عبد القادر الجزائري وهذا الأخير من أتباع الطريقة القادرية وهو في طريقه إلى فرنسا معتقلا. (انظر ما كتبناه عن هذين البطلين في مجلة دعوة الحق العدد 5 السنة 8 مارس 1965). ومع إطلالة القرن الرابع عشر الهجري قامت مرة أخرى ثورة المريدين من الطريقة النقشبندية ومع معارك طاحنة مع القوات الروسية تم إخضاعها عام 1305 هـ 1887 م. أما في بلاد الشاشان والإينغوش فقد دخلت الطريقة النقشبندية أثناء امامة الشيخ محمد شامل في الداغستان على يد أحد نوابه وهو الشيخ تاشوحاجي وذلك سنة 1246 هـ 1830 م واشتهر هذا الأخير بأعماله البطولية الباهرة في مقاومة الغزو الروسي القيصري.

وفي بطولة وشبابية البطل الإمام الشيخ شامل القوقازي بطل الثورة القوقازية، نظم الشاعر المغربي المبدع الأستاذ السيد المدني الحمراوي قصيدة تمجد فيها بطولاته الخالدة، ولا بأس من إيراد بعض أبياتها التي تحي أولئك الأبطال الشباب الذين خاضوا معارك ضارية، وقادوا معركة جهادية مومنة ضد الاستعمار الروسي، مغتنمين فرصة إصدار وزارة الأوقاف المغربية لعدد خاص من مجلتها الراقية : «دعوة الحق» بمناسبة ذكرى ميلاد سيد البلاد مولانا الحسن الثاني، حفظه الله، قال السيد المدني الحمراوي :

ذكروا الجيل أنه كاد ينسى

كل ذكرى لزمرة الأبطال

ذكروا هــــــذه الشبيبــــــة حتى
تبصر النــور في سلــوك الرجـــال
وتحيي ذكراهمـــــــــــو ثم تحيي
منهمــو كــل همــة وفعـــال
انهم قـــدوة الشبـــاب ومرمى
كــل فكر لنـــا وكــل خيـــال
اذكروا «شـامـلا» فقـد كـاد يردي
دولـــة «الروس» في حروب الجبـــال
بطـل «القـوقـز» الـذي قـاتـل القيـ
ـصر كي تستقـــل أرض «الهـــلال»
فقضى خمســـة وعشرين عـــامـــاً
حـامـلاً في الـوغى لـواء النضـال
إنـــه الشهم قـــد سعى لعظيم
يتخطى بـــالحـــق كــل ضـلال
قـــام يحيي للمسلمين بعـــزم
دولـــة ذات صـولـــة ومعـــال
ترك «الشيخ شـامـل» حلقـة الـذكـ
ـر إلى حـومـــة الـوغى والنـزال
ترك الــــدرس والمحــــابر دهرا
وارتمى في معـــامــــع الأهـــوال
إنهـــا همـــة الرجـــال إذا مــا
صممــــوا لا يردهم أي حـــال

☆ ☆ ☆

وفي آسيا الوسطى كان النقشبنديون يقول صاحبا كتاب : «الصوفي والكوميسير» الطرق الصوفية بالاتحاد السوفياتي : هم المسؤولون عن ثورة المسلمين ضد الروس في وادي فرغانة سنة 1316 هـ 1898 م وكان زعيم هذه الثورة الشيخ النقشبندي الإيشان (وهو لقب بمعنى الشيخ) مدالي Jshan madali، وفي قرغيزيا قاد رجال النقشبندية الجهاد ضد الغزاة البوذيين «الأويروتي» Les oirotes وذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كما كان لهم دور بارز في الجهاد ضد الروس أثناء الحكم القيصري. ويقول الأستاذان إيليكس بنغيسن وشانطال لومرسييه كيلكوجاي في كتابهما : «المسلمون المنسيون بالاتحاد السوفياتي» Les musulmans oubliés en URSS المطبوع سنة 1981 في مطابع ماسبرو maspero بفرنسا «إن معظم قادة الثورة البصمتشية Les Basmackis كانوا من المريدين الصوفيين واشتهر من هؤلاء القادة إسلام قرباشي والملا دهقان وكرشرمات ومادامين ودجانيك. وعندما احتلت جيوش قيصر روسيا القوقاز عام 1859 م بعد أسرها الإمام شامل القوقازي قام الشيخ تاجو حاجي بالجهاد إلى أن استشهد في ميدان الوغى ثم قام بعده بالجهاد الشيخ بشير إلى أن أسر ونفي إلى سيبيريا حيث وافته المنية هناك. ولكن سلالته المعروفة باسم سلالة إِكْشَايْ تولت بعده الطريقة النقشبندية في القوقاز وواصلت الجهاد ضد جيوش قيصر روسيا.

ولقد اكتسبت هذه الطريقة سمعة كبيرة بجهادها ضد الكالموك البوذيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين من سنة 1783 م إلى سنة 1917 وضد جيوش قياصرة روسيا بقيادة شيوخ طريقتها. وفي سنة 1917 وروسيا القيصرية على عتبة ثورة أكتوبر أعلى الشيخ نجم الدين غوطنسكي نفسه إماما على داغستان والشاشان فانضم إليه الشيخ أورون حاجي الذي كان على رأس جيش من المجاهدين بلغ عشرة الآخر مجاهد فاستطاع بهذا الجيش أن يصد هجمات الوحدات البيضاء التي كان يقودها الجنرال القيصري دانكين Denkine وكان من بين قادة المجاهدين سعيد بك (انظر الصورة) حفيد الإمام شامل القوقازي والكولونيل على خان وضباط الجيش القيصري وسراج الدين حاجي. وفي أعوام 1879 م و 1880 و1881 م قام شيخ النقشبندية قربان مراد بثورة ضد قيصر روسيا في التركستان وما زال ضريح هذا الشيخ يعد من المزارات الكبرى في دنلي قلعة، وظهر في اتباع النقشبندية عظماء في السياسة أمثال الشيخ عبد الرحمان رسولوفي ورضاء الدين أوغلو وكان هذا الأخير رئيسا للإدارة الروحية لمسلمي أورنبورغ Grembong وبهاء الدين فاسيلوف مؤسس «حزب الله» بقازان Kazan سنة 1862 م. ويشير صاحبا كتاب : «الصوفي والكومسير» المذكوران إنه في

Alexandre Bennigsen
Chantal Lemercier-Quelquejay

Le soufi et le commissaire

Les confréries musulmanes en URSS



Seuil

سنة 1877 م قامت ثورة بالداغستان كان على رأسها الشيخ أوزون حاجي ولما انتهت هذه الثورة قام قيصر روسيا بنفي هذا الشيخ النقشبندي هو واتباعه إلى مجاهل سبيريا وبقي الشيخ المذكور في السجن زهاء خمسة عشر عاما إلى أن أفرج عنه عند نشوب ثورة اكتوبر عام 1917م. أما الشيخ النقشبندي مدالي إيشان madali Jshan الذي قاد ثورة أندجان andijan عام 1896 م فقد قبضت عليه سلطات روسيا القيصرية وشنقته.

وليس من شك في أن الرئيس الحالي للإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقزخستان الدكتور شمس الدين ابن إيشان بابا خان الذي استدعى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية لزيارة الاتحاد السوفياتي هو من أحفاد الشيخ مد الى إيشان المذكور ومن الطريقة النقشبندية.

ومما جاء في كتاب «الرحلة العياشية» الآنفة الذكر قول صاحبها أبو سالم العياشي : «فلما كان يوم الأربعاء اجتمعت بالشيخ جمال الدين الهندي بالمدرسة الداوودية جمعني بها شيخنا وصاحبنا الشيخ على باحاج اليمني بعدما سألته عمن هو اليوم في الحرمين أفضل هذه الطائفة النقشبندية فدلني على الشيخ جمال الدين وعلى رجل آخر من أصحاب الشيخ تاج الدين إلا أن الشيخ جمال الدين أكثر منه عبادة وزهادة وإقبالا على الطريق وكنت كثير التشوف إلى لقيا أحد من هذه الطائفة لما كنت أرى من محاسن أصحابها وجدهم واجتهادهم في الكتب المؤلفة في طريقهم فلما اجتمعت بالشيخ جمال الدين أخذت عنه طريق السادات النقشبندية ببيته وذلك ظهر يوم الأربعاء المذكور وشيخنا هو من أعبد أهل زمانه مقبل على شأنه مراقب للحق في سره وإعلانه منقطع بالحرمين الشريفين لعبادة ربه لامال ولا أهل إلا أصحابه المشتغلون بالطريق على يديه ولهم سيما وبهجة لا تخفى على ذي بصيرة وطريقهم طريق جد واجتهاد قريب فتحها كثير خيرها بعيدة عن الرياء والسمعة إلا أنها تحتاج كغيرها من الطرق إلى مرشد عارف ناصح وسنذكر بعد هذا نبذة من اصطلاح أهلها لغرابتها بمغربنا... إلى أن قال ولما كان يوم السبت لقيت شيخنا زين العابدين الطبري بالمسجد الحرام بإزاء باب السلام ولقنني الذكر وأجازني الخرق الثلاث : القادرية والسهر وردية والكبروية وفي يوم الجمعة لقيت شيخنا الشيخ عيسى الثعالبي بمنزله بباب مزورة وتلقيت منه الذكر على طريق السادات النقشبندية رضي الله عنهم والبسني الخرق الثمانية التي ضمنها الشيخ أحمد بن أبي الفتوح رضي الله عنه كتابه المسمى «جمع الفرق لرفع الخرق» وهي ثمانية وهو لبسها من شيخنا صفي الدين القشاشي المدني رضي الله عنه... وها هي إجازة في النقشبندية : «أما طريق ساداتنا النقشبندية فقد رواها شيخنا الثعالبي عن الشيخ محمد المعصوم العمري الهندي وقد كتب للشيخ عيسى إجازة مشتملة على إسنادها فلنكتبها بجملتها ونصها : بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله الذي خلق آدم على صورته وكرمه بخلافته وأجرى تلك السنة بين أنبيائه وأوليائه وقدم إحسانه على منبته وأخر شكره على نعمته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن لا مؤخر لما قدم ولا مقدم لما أخر ولا معلن لما أبطن ولا مخفي لما أظهر وبت همم أوليائه عن الركون إلى الأكوان عارا وتعلقت جنابهم بالله تعالى بارا فدارت عليهم بكرة وعشية كؤوس المحبة من كوثر محبوبهم دارا كلما جن عليهم الليل جعل قلوبهم من شوق ولقاء الخليل ثارا أو تفيض أعينهم من الدمع مدرارا ليلا ونهاراً ويشتغلون بذكره سرا وجهارا ويتمتعون بمناجات المحجوب إعلانا وأسرارا ويطوفون حول سرادقات الوحدة أفكارا لا يزال منهم في كل زمان من يعرف في وجهه نضارة العرفان وهو عطشان وحيران له في فضاء العشق والوله طيران غاية مطلوبه لقاء الرحمان ونهاية مقصوده رضاء المنان فيظهر في أقطار الأرض آثاره ويظهر في الافاق أنواره لسانه ناطق بالحق وهو داع إلى رب الخلق ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويقربهم ويحببهم إلى الله الغفور والصلاة والسلام على من هو خير خلقه وأحبابه وخاتم انبيائه وأصفيائه وهو رسول الرحمة وصاحب الشريعة الغراء والطريقة الزهراء والحنفية البيضاء وعلى خلفائه الأربعة وأصحابه الكرام البررة. أما بعد فإن الدعوة إلى الله العلام من أوثق عالم الإسلام وأكرم مناهج العمل والإحسان على ما ورد في الخبر عنه عليه

ثلاثة من الأئمة المجاهدين من شيوخ الطريقة النقشبندية الصوفية الذين دوخوا الاستعمار الروسي القيصري.



الصورة السفلى للشيخ ناظم شيخ الطريقة النقشبندية الحالي في القوقاس وإلى هذه الطريقة يرجع المجاهدون الذين وقفوا ضد الغزو الروسي القيصري.



مؤمنو طشقند يستقبلون الحجاج العائدين من مكة.

الصلاة والسلام. والذي نفس محمد بيده إن أحب عباد الله إلى الذين يحببون الله إلى عباده ويحببون عباد الله إلى الله ويمشون في الأرض بالموعظة والنصيحة كما قال تعالى : ﴿**قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ واتباعه إنما يكون برعاية أقواله وأفعاله وأحواله ثم ان أخانا العالم الشيخ عيسى بن محمد المالكي دخل يتوسط العبد المفتقر إلى رحمة الله الملك القيوم محمد المعصوم العمري غفر الله تعالى ذنوبه وستر عيوبه في سلك إرادة الشيوخ النقشبندية الذين هم أحقاء للاقتداء وأخذ الوسيلة لما أنهم أدرجوا النهاية في البداية والتزموا متابعة السنة وجنبوا عن ارتكاب البدعة كثر الله تعالى سوادهم ودمر سبحانه وتعالى حسادهم وكان شيخه والده القطب الرباني والمجدد للألف الثاني قدوة الأولياء والمحقيقين ووارث علوم الأنبياء والمرسلين الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الأحد قدس الله تعالى سرهما وشيخه ومعلم طريقه مريد الدين الرضي الشيخ محمد الباقي وشيخه مولانا خواجكي الامكنكي وشيخه مولانا محمد درويش وشيخه مولانا محمد الزاهد وشيخه قدوة الأحرار عبيد الله وشيخه مولانا يعقوب الجرجي وشيخه قبلة هذه الطريقة وامامها بهاء الحق والدين المشتهر بنقشبند وشيخه ومعلم طريقته الأمير كلال وشيخه مولانا محمد باباد الساسلي وشيخه علي الواحيثني المشتهر بعزيزار وشيخه محمود اقحيرا الفقنوي وشيخه مولانا عارف الربوكي وشيخه رئيس هذه الطريقة عبد الخالق العجدواني. وقد ربي بالروحانية هذا الرئيس الشيخ النقشبندي وشيخه الإمام الرباني الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمداني وشيخه شيخ الطريقة أبو علي الفارسي الطوسي وشيخه قطب الزمان الشيخ أبو الحسين الخرقاني وشيخه ومربيه روحانية الإمام الأجل جعفر الصادق وشيخه وجده من قبل الإمام قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وهو من كبار التابعين ومن فقهائهم السبعة المشتهر فيما بين التابعين وشيخه سلمان الفارسي الذي شرفه الرسول عليه الصلاة والسلام بتشريف : «سلمان منا أهل البيت» وشيخه مع درك فضيلة صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أمير المؤمنين أبو بكر الصديق وشيخه وإمامه أفضل الأنبياء وقدوة الرسل محمد رسول الله ﷺ وبارك أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله هـ. انتهى نص الإجازة في النقشبندية كما جاء في الرحلة العياشي لصاحبها أبي سالم العياشي المتوفى عام 1679 م.

ب - الطريقة القادرية وأبطالها في الجهاد بآسيا الوسطى والقوقاز : مؤسس هذه الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني نسبة إلى جيلان المزداد سنة 470 هـ 1077 م بمدينة رشت Rasht بإقليم جيلان أحد أقاليم إيران الواقع على ساحل بحر قزوين (بحر الخزر). وجيلان إقليم من الشمال الغربي من بلاد إيران يحده شمالا ناحية تاليس الروسية وجنوبا سلسلة البرز الفاصلة بينهما. ولقد ألفت في مؤسس هذه الطريقة عدة مؤلفات بالعربية والفارسية والتركية والأردية والفرنسية والإنجليزية سبق أن ذكرناها هي ومؤلفات مؤسس الطريقة المذكورة وفروعها في العالم الإسلامي في العدد السابق من مجلة دعوة الحق رقم 269 الصادر في رمضان الفائت 1408 أبريل ماي 1988 والخاص بإفريقيا.

- **دخول الطريقة القادرية إلى آسيا الوسطى وما وراء القوقاز :**

دخلت هذه الطريقة إلى آسيا الوسطى وما وراء القوقاز في مرحلتين :

- المرحلة الأولى : على يد تجار بغداد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي إلى مملكة البلغار في الفولغا Volgo وفي مدن التركستان.
- المرحلة الثانية : على يد حاجي كيشيف كونتا في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. وعلى يد القادرية أسلم شعب الإينغوش من سنة 1850 م إلى سنة 1865 م الذي بقي وثنيا إلى هذا العهد في شمال القوقاز (انظر موطن هذا الشعب في خريطة شمال القوقاز) وسرعان ما انضم مريدو القادرية إلى مريدي النقشبندية في مواجهة جيوش قيصر روسيا واشتركوا معهم في معاركهم الجهادية فقامت السلطات الروسية باعتقال كونتا حاجي من شد



الزعيم القوقازي الشيخ شامل زعيم القوقاز المسلمين وقد توفي بالمدينة المنورة عام ١٨٧١.
وتراه في الصورة يتوسط نجليه غازي محمد وشافع.

القادرية عام 1864 م وأدخلته السجن إلى أن توفي فيه عام 1867 م. ويقول صاحبا كتاب : «الصوفي والكومسير» اشتركت الطريقتان الكبريان النقشبندية والقادرية في الثورة الكبرى في الداغستان والشاشان خلال عامي 1877 و1878 وواجه أتباع هاتين الطريقتين أشد أنواع البطش القيصري وسبي آلاف المريدين... والغريب في الأمر أن محنة 1878 م بدلا من أن تشكل بداية انحطاط الطرق الصوفية في القوقاز شكلت نقطة انطلاق لبعثها ومد نفوذها».

وتشعبت الطريقة القادرية بعد موت «كونتا حاجي» إلى أربعة فروع (ورد) وهي :

1) الورد النظامي الذي يحمل اسم «كونتا حاجي» وانتشر هؤلاء في الشاشان وإينغوشا والداغستان.

2) طريقة «بطل حاجي بلهوريف» ومركزها في بلاد الإينغوش ثم انتشرت في الشاشان والداغستان، وهي تطبق حرفيا أحكام الجهاد ومثله العليا ولذا قتل معظم قادتها في المعارك أو نفذت فيهم السلطات القيصرية أحكام الاعدام... وهم شديد والتمسك بالشريعة وآدابها وبروح الجهاد، ويتحاشون الاختلاط بغير المسلمين...

3) طريقة «بامات حاجي ميتانيف» ومركزها أيضا بلاد الإينغوش.

4) طريقة «شيم ميرزا» وترتكز في مقاطعة شالي Shali في بلاد الشاشان وفي سنة 1955 تكونت طريقة عويسر حاجي القادرية أثناء العيش في مجاهل سيبريا وكانت عاملا مهما في إذكاء الروح الدينية والمحافظة على العقيدة الإسلامية وروح الإخاء بين الشعوب المسبية في فيافي سيبريا Sibérie. وقد عرفت هذه الطريقة في الأدب السوفياتي باسم «أخوية القلنسوات البيض».

(Beloshaposhniki) « La Tariqa des Bonnets Blancs » لأن رجال هذه الطريقة يلبسون قلنسوات بيضاء من الفراء أثناء الذكر الجماعي ولم يكن تأثير هذه الطريقة مقصورا على شعوب الشاشان وإينغوش ولكن أثرها امتد إلى شعوب قازخستان وقير غيزيا الشمالية.

وترتكز الطريقة القادرية في عدة مناطق في القوقاس وآسيا الوسطى... وتختلف الطريقة القادرية عن الطريقة النقشبندية بأن القادرية يعتمدون الذكر العلني بينما يعتمد النقشبنديون الذكر القلبي الخفي مما جعل الروس يطلقون عليهم اسم «شيبتوني» أي المنتمين بينما يطلق الروس على القادرية اسم ذكر يستى «أي أصحاب الذكر العلني».

وفي سنة 1877 قامت ثورة بداغستان كان على رأسها شيخ نقشبندي وشيخ قادري ولما انتهت هذه الثورة قام قيصر روسيا بنفي مريدي النقشبندية والقادرية إلى مجاهل سبيريا وهاجر نحو خمسة آلاف من مريدي القادرية إلى تركيا. ثم قامت ثورة أخرى في بلاد إينغوش قامت بها الطريقة القادرية المعروفة باسم طريقة بطل حاجي وقد قتل تسعة من أبناء مؤسس هذه الطريقة وتسعة من أحفاده وهم يحملون السلاح وبقيت حرب العصابات مستمرة من سنة 1940 إلى سنة 1947 حيث قبض على الشيخ قريش بلهوريف آخر فرع من سلالة بطل حاجي بلهوريف ونفي إلى سبيريا. وفي سنة 1957 أفرجت السلطات الروسية عن شيخ القادرية السيد «متريش بلهوريف» فعاد هذا الشيخ إلى بلاد «الشاشان» لرئاسة مشيخة الطريقة القادرية على حد قول «إليكس بنغيسين» ولو مر سيرية «صاحبا كتاب» : «الصوفي والكوميسير».

ويقول الخبراء السوفياتيون إن خبرة الطريقة القادرية في العمل السري تفوق خبرة الطريقة النقشبندية وإليها يعزى استمرار معارضة شعب الشاشان ومقاومته الإجراءات التعسفية بين أعوام 1920 و1943. وجاء في «مجلة العالم» التي تصدر في لندن في عددها رقم 57 الصادر في مارس 1985 تحت عنوان : «ثورة المسلمين الصامتة» بالاتحاد السوفياتي» : «إنه على الرغم من أن القانون الروسي يمنع أداء الزكاة إلا أن أعدادا من المسلمين يقدمون الزكاة ويسهمون في إعمار المساجد ويشير تقرير سوفياتي إلى أن الطريقة القادرية في شمال القوقاز مستمرة في استيفاء الزكاة من أعضائها». وصرح سيد أحمد الكيلاني شيخ الطريقة القادرية بأفغانستان، وصهر محمد ظاهر خان

ملك أفغانستان السابق وهو في الوقت نفسه زعيم «مجاز ميللى إسلامي» أي الجبهة الوطنية الإسلامية التي تعد من الحركات السبع للمجاهدين الأفغان أن أتباع طريقته القادرية يدخلون إلى جمهوريات تاجكستا، وعز بكستان وتركمنستان بالاتحاد السوفياتي ويتصلون باتباع القادرية في هذه الجمهوريات.

وجاء في كتاب : «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» : إنه بالرغم من سنوات السبي والعيش في المنفى السبيري المتجمد حافظ الشاشان والاينغوش على البنية التقليدية لمجتمعهم وترك عمل القادرية وشما عميقا في طابع الإسلام عندهم. ويقر كل المراقبين السوفييت أن جمهورية الشاشان إينغوش هي الحصى الأكثر صلابة للإسلام في الاتحاد السوفياتي».

د - الطريقة الكبروية.

مؤسسها هو الشيخ نجم الدين أحمد الكبرى الخيوي نسبة إلى مدينة «خيوه» عاصمة خوارزم في العصور المتأخرة المزداد سنة 540 هـ (1145 م) بهذه المدينة والمتوفى سنة 616 هـ (1220 م) بكوهل أورجنس عند استيلاء المغول على قلعة كوهل وقد كان لهذه الطريقة دور بارز في تعميق الإسلام في المناطق الواقعة شمال خوارزم. كما كان لهم دور بارز في نشر الإسلام بين القبائل التركمانية. وتنتشر هذه الطريقة في منطقة خوارزم الواقعة حاليا في جمهورية عز بكستان وفي غرب جمهورية تركمنستان.

وهناك طريقة صغيرة تسمى القلندرية وهي طريقة جوالة انتشرت منذ القرن الخامس الهجري في الهند والتركستان وتضم أتباعا في كل أرجاء عزبكستان.

4 - التنظيمات السرية للطرق الصوفية تقوم على التعتيم وعلى السرية التامة بين أتباعها وتنشر أماكن العبادة السرية. وهناك عدد من الشباب المنخرط في الحزب الشيوعي اكتشف وهو يؤدي الصلاة ويتعلم القرآن ولهم محاكم سرية يحاكمون بها أتباعهم عندما يفشون سر تعاليم الطريقة بالجلد والمشي أياما فوق الجبال. وقد سجل أحد أتباع طريقة صوفية وردها في الإذاعة الرسمية على كاسيطات خفية عن أعين الرقباء ولا تخلو كتب السيد قطب من بيت صوفي. وقد ضبطت السلطات السوفياتية أحد الأساتذة وهو يعطي في النهار دروسا ضد الدين وفي الليل يجتمع مع اتباع الطرق الصوفية ويتلو ذكرهم ووردهم. ويقول الاستاذان اليكس بنغيس ولومرسيه في كتابهما : «الصوفي والكوميسير» إن الطريقة القادرية بالقوقاز ما هي إلا منظمة سياسية سرية ويمكن أن تصير جمعية سرية مغلقة ويعتقد كثير من الملاحظين السوفياتيين أن الطرق الصوفية لها محاكمها الخاصة السرية ونظامها الجبائي ومدارسها السرية. وتشير المصادر السوفياتية أن هذه الطرق معروفة رغم طابعها شبه السري.

وتوجد في أرمينيا وأذربيجان فرقة غلاة الشيعة الذين يؤلهون سيدنا علي كرم الله وجهه بقولهم : «علي إلاهي» والعياذ بالله. وهي فرقة صغيرة لا يتعدى أفرادها عشرين ألف نسمة.

ج - الطريقة الياسوية.

مؤسسها هو أحمد اليسوي أحد كبار العلماء ورجال الطرق الصوفية وأحد فحول الشعراء وهو مغولي الأصل وقد أسلم على يديه مئات الآلاف من المغول واستطاع بفضل الله وجهوده المباركة أن ينشر الإسلام في مناطق واسعة في التركستان كما استطاع أن يجذر الإسلام ويعمقه لدى القبائل الهمجية التي دخلت في الإسلام. وقد توفى أحمد اليسوي في منطقة تشيمنقد بمدينة ياسي yasy بالتركستان وأمر السلطان تيمور ببناء ضريح له. وفي منطقة قيرغيزيا قاوم أصحاب هذه الطريقة الروس القياصرة. ويتهم مريدوها بالتعصب الديني. ويعتبر مركز الطريقة الياسوية الأساسي في جنوب كازخستان ومنها انطلقت إلى مختلف مناطق التركستان، وفي عام 1963 اكتشفت السلطات السوفياتية تنظيما سريا لهذه الطريقة.

وكان لتلاميذ واتباع أحمد الياسوي تأثير قوي على الأتراك والمغول لدى القرون. وكان لهم دور كبير في انتشار الإسلام بين المغول والقبائل التركية والقازاخية كما كان لهم دور كبير في تجذير الإسلام وتعميقه في نفوسهم. وفي العصور الحديثة قام شيوخ هذه الطريقة ومريدوها بمقاومة قياصرة روسيا بعنف في منطقة قرغيزيا

أسماء الأماكن المقدسة بآسيا الوسطى السوفياتية.

Legende des pages 218-219 :

RSS Turkmene

1. Baba Gambar ; 2. Idem ; 3. Sultan Sanjar ; 4. Gozli Ata ; 5. Göch-Murad Akhun ; 6. Mulla Qaqa ; 7. Atuali Baba ; 8. Pakyr Sheikh ; 9. Seyyid Nejepi (Najaf) ; 10. Salyr Gazan ; 11. Sheik Sherep ; 12. Khojagan Baba ; 13. Chopan Ata ; 14. Qara Baba ; 15. Ismamat Ata ; 16. Göjuk Baba ; 17. Astana Baba ; 18. Mahtum Azam Jurjani ; 19. Sheikh Kemaleddin Husein Khorezmi ; 20. Sheikh Shibli Khorassani ; 21. Khoja Yusuf Hamadani ; 22. Sheikh Najmuddin Kubra ; 23. Aq Ishan (Zengi Baba) ; 24. Bilal Baba ; 25. Sheikh Kurban Murat ; 26. Seragt Baba ; 27. Sheikh Fahreddin Razi ; 28. Sheikh Abu 'Ali Dakkak (sheikh Alov).

RSSA karakalpake :

29. Qaraqum Ishan ; 30. Daud Ata ; 31. Mazlumkhan sulu ; 32. Sultan Vais Baba ; 33. Narimjan Baba ; 34. Shamun Nabi.

RSS kirghize :

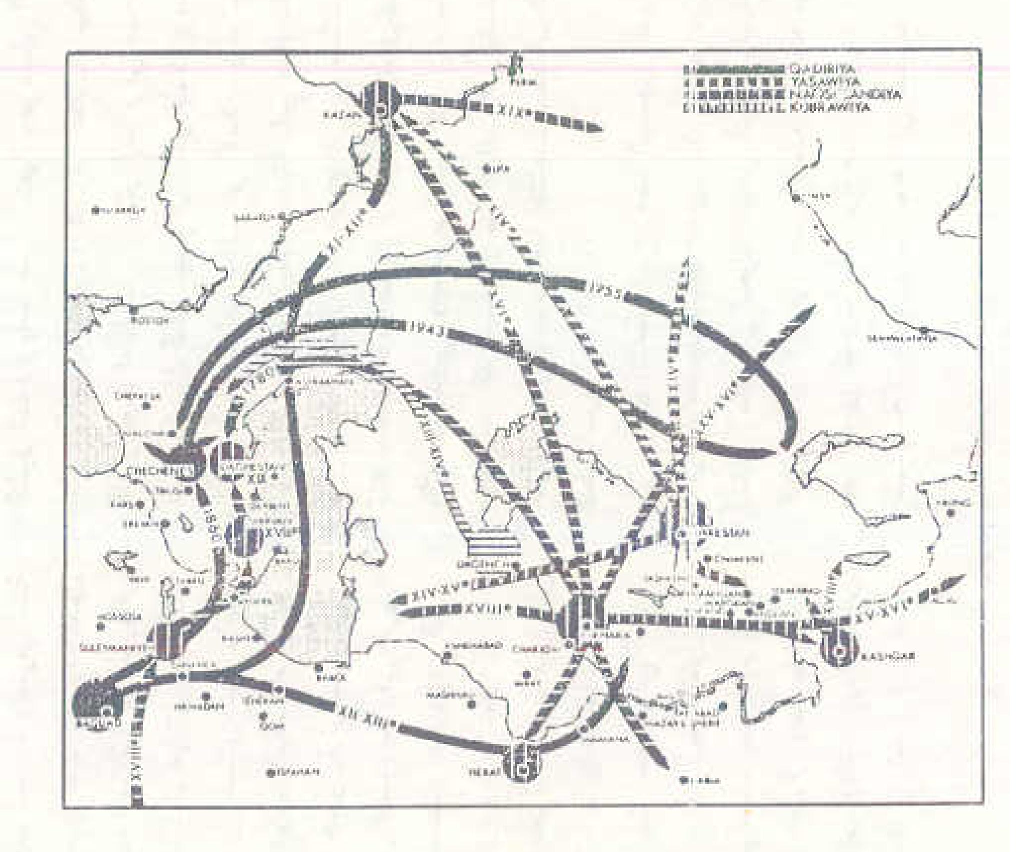
35. Takht-i Süleyman ; 36. Kirghiz Ata ; 37. Arslan Ata ; 38. Idris Peyghamber ; 39. Hazrat Ayub ; 40. Aq Taylaq Ata ; 41. Fazil Shah ; 42. Ismanali Ishan.

RSS tajike :

43. Sheikh Yaqub Charkhi ; 44. Balagardan ; 45. Khoja Ab-i Garm ; 46. Imam Zein ul-Abidin ; 47. Khoja Sabzpush ; 48. Mulla Junayd ; 49. Khoja Hamadani ; 50. Khoja Tajeddin ; 51. Sheik Mohammed Bashara ; 52. Khoja Aref Revgari ; 53. Khoja Takaburt

RSS uzbeke et kazakhe :

54. Shahmardan ; 55. Sheikh Bahauddin Naqshband ; 56. Shah-i Zenda ; 57. Palvan Pir ; 58. Khojami Kabri ; 59. Sheikh Ahmed Yasawi.



رسم بياني لشعاع الطرق الصوفية بالقوقاز وآسيا الوسطى السوفياتية وتواريخ دخولها. ويرى في المقدمة : القادرية ثم الياسوية ثم النقشبندية ثم الكبراوية.

وقازاخستان مقاومة شديدة ولا يزال أتباع هذه الطريقة ينتشرون سرا في جنوب قازخستان وقرغيزيا وبعض مناطق عزبكستان وانقسمت هذه الطريقة إلى فرقتين فرقة تعرف باسم لاثي وفرقة تعرف باسم الإيشان أصحاب الشعور Jshans chevelus وهم يعتمدون على الذكر القلبي الخفي. وقد أسس فرقة لاثي L'ordre des laachis في عام 1870 الشيخ سَنِيوَار الياسوي Sanivar ثم خلفه في الطريقة الشيخ بابا جان خلفة رحما تكلوف القيرغيزي. وتاريخ هذه الفرقة يحيط به الظلام حيث إن أتباعها يعيشون بعيدين عن إخوانهم المسلمين حيث اعتبر مؤسسها من الخوارج وشارك أتباعها في ثورة البصماتشيين La Révolte des basmachis عام 1920 تحت قيادة أبو المطلب ساتيبالديف أحد شيوخ الطريقة الياسوية ثم اختفت الطريقة بعد ذلك ثم ظهرت سنة 1936 ثم اختفت ثم ظهرت سنة 1959.

(انظر خريطة المد الجغرافي لهذه الطرق الصوفية الأربع).

وتشير الأستاذة هيلين كارير دانكوس Héléne Carrere d'Encausse في كتابها : «الامبراطورية المتفجرة» الذي ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية الأستاذن مارتن سوكولنسكي وهزي لافارج سنة 1982 بنيويورك بعنوان Translaled by martin Sokolinsky 8 Henri A. Lafesge (Déclinofan Empire) (New sweck Book, New York, Sixth .printig, 1982)

إن الاحتفال بالمولد النبوي في آسيا الوسطى والقوقاز يجري في المنازل ويستعاض عن الحج إلى الحجاز إلى الأماكن المحلية المقدسة. ويحتفل الشيعة بعاشوراء وتمارس الطرق الصوفية ـ وأهمها النقشبندية والقادرية ـ طقوسها واحتفالاتها خاصة وأن التصوف يستمد ساعده لدى مسلمي الاتحاد السوفياتي».

ولقد كتب الأستاذ محمد بنعبد الله مدير مجلة دعوة الحق الذي كان ضمن الوفد المغربي الذي وجهه ـ جلالة الملك سنة 1968 لزيارة الاتحاد السوفياتي إرتساماته في حلقات عن تلك الزيارة. ومن المؤسف إنه لم يتممها في هذه المجلة.

5 ـ جغرافية مزارات الأماكن المقدسة في آسيا الوسطى والقوقاز : توجد في آسيا الوسطى والقوقاز عدة مزارات للأولياء والصالحين يفوق عددها ألف مزار يؤمها مسلمو الاتحاد السوفياتي في المناسبات الدينية وأهمها هي :

أ ـ □ في جمهوريات الشاشان والانغوش :

□ ضريح الشيخ النقشبندي أورون حاجي.

□ ضريح كونتا حاجي مؤسس الطريقة التي تحمل اسمه وهي فرع من القادرية.

□ ضريح طاشو النقشبندي.

□ ضريح الشيخ أومال حاجي أخاد ويجتمع فيه عادة أتباع القادرية والنقشبندية.

ب ـ في جمهورية داغستان :

□ ضريح الشيخ عبد الرحمان سقراط المتوفى مسجوناً بسبيريا عام 1890.

□ ضريح الشيخ بشير وولديه عبده وعرب.

ج ـ في جمهورية اذربيجان :

□ ضريح محمد أفندي.

□ ضريح إمام زاد.

د ـ في آسيا الوسطى.

□ ضريح يوسف الحمداني.

□ ضريح يوسف خوجه بابا.

□ ضريح نجم الدين كبرى مؤسس الطريقة الكبروية.

□ ضريح قربان مراد.

□ ضريح زنجي بابا.

□ ضريح فجر الدين الرازي.

□ ضريح فاضل شاه.

□ ضريح إيشان قالة.

□ ضريح خوجه أبي كرم.

□ ضريح خوجه تاج الدين.

□ ضريح الشيخ بهاء الدين النقشبندي مؤسس الطريقة النقشبندية.

□ ضريح الشيخ أحمد الياسوي مؤسس الطريقة الياسوية.

ضريح الشيخ علي أبو الدقاق (توجد عندنا بالرباط عائلة قديمة تحمل لقب الدقاق).

□ ضريح الشيخ ياقوت الشرخي الخ...

انظر خريطة المزارات في القوقاز وخريطة المزارات في آسيا الوسطى.

6 ـ مستقبل الطرق الصوفية بالجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي رهين يقول صاحبا كتاب : «الصوفي والكوميسيري» الآنف الذكر ـ بتطور الأحداث في أفغانستان وإيران وباكستان المتاخمة لهذه الجمهوريات. ففي بعض الأحيان تتصل جماعة من القادرية والنقشبندية الأفغانيين بأتباع هاتين الطريقتين بالاتحاد السوفياتي كما تتصل بهم جماعة من العلماء الباكستانيين وتروج بينهم كتب سيد قطب والمودودي والندوي.

ونخلص مما سبق بيانه وإيضاحه أن صحوة المسلمين بالاتحاد السوفياتي ليست حركة جيوش تسعى إلى القتال وإنما هي وعي شعوب إسلامية تبحث عن ذاتها بواسطة الطرق الصوفية. والمؤمل أن عصر «العلاسنوت» glasnot والبوريسترويكا Perestroika عنصر التحديث والتغيير الذي ادخله الرئيس غورباتشوف إلى الاتحاد السوفياتي سيعطي نفسا جديدا للمؤمنين في هذا الاتحاد لفتح مساجد وزوايا وكنائس وبيع للقيام بعباداتهم.

وقد ظهر هذا الانفتاح الغورباتشوفي جليا بانشاء شباب روسيا حزب ديمقراطي أثناء انعقاد مؤتمر قمة موسكو بين غورباتشوف وريغان فاتح يونيو 1988 وطواف الحزب المذكور في أهم شوارع موسكو حيث رأى سكان الرباط ذلك رأي العين في القناة الخامسة للتلفزة الفرنسية فالشباب رجال الغد كما يقال.

الرباط : عبد القادر القادري

*) توفي في باريس ليلة الثالث من يونيو 1988 الكسندر بينغسن المتخصص في شؤون الإسلام في الاتحاد السوفياتي.

وقد ولد بينيغسن عام 1913 في بيترسبورغ وهو من أحفاد الجنرال الروسي بينيغسن والتجأ إلى فرنسا مع عائلته عام 1924 وكان أحد كبار المتخصصين في تاريخ الشعوب الإسلامية السوفياتية وتدريس هذا التاريخ في معهد الدراسات العليا والعلوم الاجتماعية في باريس وابتداء من عام 1955 بدأ تأثير دروسه كبيراً في فرنسا وفي الولايات المتحدة وأنجلترا.

ومارس بينيغسن التدريس ابتداء من نهاية الستينات في عدة جامعات أمريكية وكان «أستاذاً زائراً» في جامعة شيكاغو وتتلمذ على يده عدد كبير من المتخصصين ونشر مؤلفات عدة تعتبر مرجعاً في تاريخ العالم الإسلامي والحركة الوطنية الإسلامية في الاتحاد السوفياتي.

وخلال السنوات الأخيرة ساند بقوة قضية المقاومة الأفغانية.

المراجع

أولا : المراجع العربية للكتب

1) فتحي يكن : العالم الإسلامي والمكائد الدولية 1981.
2) محمود شاكر : قفقاسيا 1972.
3) محمد سامي عاشور :المسلمون 1959.
4) الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام في آسيا الوسطى 1972.
5) عبد الله القادري : الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفياتي 1963.
6) الدكتور جمال حمدان : العالم الإسلامي المعاصر 1971.
7) أحمد عطية : القاموس الإسلامي 1970.
8) شكيب أرسلان : تعليقات على كتاب حاضر العالم الإسلامي 1968.
9) عمر رضا كحاله : العالم الإسلامي 1985.
10) الموسوعة العربية الميسرة 1969.
11) المفتي ضياء الدين بابا خان : الإسلام في البلاد السوفياتية. طبع طشقند 1980.
12) عبد الكريم غلاب : من موسكو إلى مكة 1970.
13) عباس محمود العقاد : الشيوعية والإنسانية 1964.
14) فرج جبران : ستالين 1958.

ثانيا : المجلات العربية :

- الهلال (القاهرة) مايو 1948.
- المصور (القاهرة).
- الكاتب المصري (القاهرة).
- العالم (لندن) العدد 85/3/16/57.
- منار الإسلام :
- التضامن (الرباط) دجنبر 1973.

- كل العرب (باريز).
- المجلة (لندن) 1987.
- الحوادث (لندن).
- الوعي الإسلامي (الكويت).
- الإيمان (الرباط) مايو 1967.
- العربي ع 347 (الكويت) 1987.
- الدستور (لندن).
- الدوحة (الدوحة).
- الأمة (أبوظبي) يونيه 81.
- اللطائف المصورة (القاهرة) 1939.
- دعوة الحق (الرباط) ع 6 س 12 مايو 1959.
- الجيل (نيقوسيا).
- الفيصل (الرياض).
- الوطن العربي (باريز).
- المسلمون سعيد رمضان) جنيف.
- العصر الحديث (موسكو).
- الشؤون السوفياتية (ميونيخ) 1970.

ثالثا : الجرائد العربية :

- العلم. (الرباط) 24 غشت 1987.
- الشرق الأوسط. (الدار البيضاء).
- المسلمون. (لندن).
- أخبار اليوم. (القاهرة) 11 أبريل 1959.
- الأهرام. (القاهرة).
- المدينة. (المدينة).
- القبس. (الكويت).
- السياسة (الكويت).
- الرائد (الهند).
- أنباء موسكو (موسكو).
- البيان (الرباط) 14 ماي 1988.

رابعا : المراجع الفرنسية للكتب :

1971 – Vincent Monteil, Les musulmans Soviétiques.

1978 – Hélène Carrère d'Encause, L'empire éclatée.

1981 – Amexandre Bennigsen et Chantal Lemercier, Les musulmans oubliés.

1963 – Gustave Welter, Histoire de Russie.

1987 – Alexandre Bennigsen et Chantal Lemercier, Le Soufi et le Commisaire.

1977 – Bernard Lewis, Le monde de l'Islam.

خامسا : الجرائد الفرنسية :

- Le Monde – année 1987
- Le Figaro – année 1987

سادسا : الجرائد والمجلات الروسية :

- 1987 Pravda (journal)
- 1987 Temps nouveaux (revue)
- Asie et Afrique aujourd'hui (revue) 2/88

سابعا : المجلات الفرنسية :

- Atlas n° 39 octobre 1969
- Paris Match.
- Le point n° 776/3 août 1987
- L'Express 14 août 1987
- Jeune Afrique

ثامنا : المجلات الأمريكية :

- Newsweek 21 janvier 1980
- Time august 10 – 1987



ذخيرة المسلمين المقدسة، مصحف عثماني (المخطوطة الأصلية).

مسيرة شباب التحدي في ظل لواء :
قائد التحدّي

للأستاذ عبد الله اكديرة

الإنسان لا يتوقف عن النمو في جميع أطوار حياته، ينمو جسمه، ينمو علمه ينمو عقله، تنمو نفسه.. ولا يتوقف عن النمو والزيادة في كل هذه المجالات مادام حيا واعيا قادرا.. يطلب العلم من المهد إلى اللحد.. العلم النافع الذي يرقى به ويسمو ويسعد في معاشه ومعاده..

والحياة والوعي والقدرة هي عناصر الشباب عند الإنسان، وما يزال المرء شابا بتوفرها فيه.. فحياته غذاء منظم ورياضة وذوق وجمال.. ووعيه اتزان وترو، وحب للحق، وارتباط بالكون والطبيعة، وإلمام واسع بالضروري والأساس من العلم النافع.. وقدرته يقين راسخ بوحدة بني آدم، وحب للعمل وقدرة مكتسبة على أدائه، وإخلاص فيه وإتقان.

وهذا النوع من الشباب هو الغاية.. وتبدأ الوسيلة إلى تربيته وتكوينه في البيت والمدرسة منذ المراحل الأولى لطفولته..

وشبابنا اليوم في مجتمعنا النامي وفي عصر متفجر كتب عليه أن ينشأ ويحيا فيه، ينبغي أن يوضع في الموضع الذي يحتمه التطور المتسارع الذي عرفته مختلف ميادين الحياة.. وفي ذلك الموضع ينبغي له أن يضع هو نفسه حين يعي ويقدر ليحيا حقا.. وليكون واعيا حقا، وقادرا حقا..

شبابنا اليوم يواجه الثورة التكنولوجية.. وتغير أنماط الحياة.. ويواجه حضارة مسيطرة إما أن يتمثلها ويستوعبها، وإما أن تستحوذ عليه وتبتلعه..

إنه تحد رهيب.. ولكن شباب المغرب وشعب المغرب عرفا ويعرفان بأنهما شباب التحدي وشعب التحدي.. تحت قيادة وريادة قائد التحدي. إن هذا التحدي الذي يواجهه شبابنا ـ ولا أريد أن يواجه هو شبابنا، لأنه شباب حي واع قادر يبدأ ويبادر هو بالمواجهة ـ ليس عارضا خفيفا، وليس ساحقا فوق الطاقة وينوء به الكاهل.. إنه كما حلا لأحد المفكرين أن يسميه من (النوع الأمثل) الذي تمكن مواجهته.. ولكن بقوة وعزم على أربعة أصعدة، وهذا التقسيم توضيحي ومنهجي فقط، وإلا فإن المواجهة شاملة كاملة، لأن التحدي شامل كامل :

م ـ **الصعيد التربوي :** شبابنا في مواجهته لهذا التحدي ينبغي أن تنطلق تربيته من أساس مكين متين هو التركيز على تعويده اكتشاف حقائق عالمه الذي يعيش فيه بنفسه، مع إتاحة الفرصة لكل شاب على حدة ليعرف نفسه ومهاراته وقدراته وإمكانياته، يعرف كيف يحلل ويركب ويلاحظ ويستنتج.. كيف يسأل ثم يجيب.. يحرص على تراثه وأصالته ويعض عليهما بالنواجذ، وفي نفس الوقت لا ينسى ولا يتناسى أنه مكلف بالإبداع وأهل له، ما دامت وسائل كل ذلك بين يديه، تستثير فيه كوامن الوجدان، وتهيب بإمكانيات العقل، وتخرج به من الاعتماد على الغير إلى الاعتماد على النفس.. وتعده ليحيا حياة فاعلة كاملة، تقوم على العمل واكتساب الخبرة من الأنشطة المتنوعة المختلفة القائمة على :

1 ـ موافقة نموه الطبيعي جسميا وعقليا ونفسيا.

2 ـ ألا تكون مجرد أنشطة ترفيهية سارة فقط، لأن شبابنا لا ينبغي أن يحيا حياة لغو ولهو.. فما هكذا تكون حياة شباب التحدي.. وما لهذا خلق..

3 ـ أن تكون أنشطة منبثقة من ذاتية هذا الشباب، وفي حدود مواهبه تتحدى قدراته من غير تعجيز.

إن شباب التحدي يتكون من أفراد يتمتعون بفطر سوية، يحيون في مجتمع يقوم أمره على الشرعية.. وهو بينهما يتمتع بكل حرية.. يعرف غايته ووسيلته واضح المعرفة.. ويقوم نتائج سلوكه أحسن التقويم.. وبذلك يحقق حريته، وبتحقيق حريته يحقق ذاته.. إن شباب التحدي يسير تحت قيادة قائد التحدي وفي ظل لوائه نحو النمو الكامل ويتوجه التوجه الأقوم الشامل الذي يرضي حاجات جسمه، ويوقظ تطلعات ذكائه وعقله، ويسدد عواطف وجدانه، ويقوم أشواق روحه.. والمنهج في هذه المسيرة المباركة قائم على النشاط الذاتي للشباب والحرية الموجهة.. منهج يرتبط بالخبرة الموحدة المتكاملة، خبرة قائمة على النظر والتطبيق، والأخذ والعطاء، والحب الإيجابي بين شباب التحدي وقائد التحدي.. والنتيجة :.

1 ـ أن يحب الشباب بيئته وأمته وما فيهما من ناس وأشياء.

2 ـ يفهم نفسه ويتعرف على عالمه.

3 ـ يحقق ذاته.

4 ـ يتوصل إلى الكشف والإبداع.

- وإذا أحب الشباب فإنه يعمل انطلاقا من شعور المحبة لا رغبة في كسب ثواب، ولا خشية من سطوة عقاب.

- وإذا فهم الشباب نفسه وتعرف على عالمه سعى إلى المزيد من المعرفة متعطشا متلهفا ليزداد علما وفهما، ولم تعد المعرفة عنده مجرد مضامين ومعلومات عليه أن يجمعها ليجتاز الامتحان مهما كانت الوسيلة.

- وإذا حقق الشباب ذاته أصبحت له صلة مودة ورحمة بكل الأشياء والموضوعات والناس من حوله.. صلة مباشرة تربطه بهم برباط قوي متين.. فلا يبقى له هدف ولا غاية ولا دوافع إلا النظام والجمال والإبداع في الأشياء والموضوعات، والاستقامة والتكافل بين الناس.. كل الناس.. والوسيلة :

1 ـ الشباب فرد في مجموع.. وصحة هذا الفرد وقدراته الخاصة هو أول ما ينبغي أن يراعى في كل عملية تربوية.. ولكن الضروري والأهم هو ألا ينسى هذا الشباب أنه فرد في مجموع، حتى لا تتضخم في أنانيته..

2 ـ المجتمع الحالي الذي يعيش فيه الشاب مجتمع له ماض عريق وتراث لا يزال حيا.. تراث خالد.. وهو أيضا مجتمع طموح يتطلع إلى مستقبل زاهر سعيد مجيد.. والمستقبل الذي يتطلع إليه لا بد أن يكون له ماض يستمد عليه.. والحاضر عمل وجد وكد يأخذ من الماضي عبره وأجمل ما فيه وأعظم ما فيه، ولكن وجهته دائما نحو المستقبل.

3 ـ الإنسان سمع وبصر وفؤاد.. تلك أدوات مسؤوليته ووعيه وإدراكه والفؤاد ذكاء ووجدان، عقل وعاطفة.. ذانك ركنا الوعي.. بهما يتحرك وعلى هدى منهما يعمل.. وبدونهما هو عدم، وبدون أحدهما هو أشل، ولا يغلب أحدهما على الآخر لأن ذلك مستحيل.. في أي مجال.

4 ـ الإنسان خطاء.. ويكمن فضله في أنه يخطىء ويثوب.. يكبو ثم يقوم.. وأجمل ما في الشباب قدرته على الاستقالة من العثرات وإقالتها.. وحسن الاعتذار عنها بالقول والفعل حين تتاح له الفرص لذلك.. وأسوأ ما في الشباب هو التمادي في الغي، واتباع الهوى، والاستهانة بالأخطاء، إذا لم يجد صدورا رحبة

تتسع لهفواته، وأيد رحيمة تقيل عثراته، وتنتشله من وهداته، وأفئدة واعية تفهم وتقدر ظروفه ودواعيه.. والذنب ليس ذنبه وحده في ذلك.. بل يتحمله معه وقبله وبعد الأولياء الذين لم يقدروا فيعذروا..

5 - كل إنسان يمكن أن يتعلم وفي أي سن.. والشباب أقدر على التعلم.. والشباب ليس سنا غضة وفترة من العمر الإنساني فقط.. الشباب إحساس وشعور وحياة وقوة ووعي وإرادة وفرصة متاحة تغتنم.. وهذه الأخيرة إن لم تتح كل حين ضاع الشباب هدرا.. أو ضاعت منه فترة نفيسة لا يمكن تعويضها.. ولكن الفرصة يمكن أن تعوض، فالعمر لن يضيع كله بضياع فترة منه.

6 - إذا كنا مأمورين بالتعلم من المهد إلى اللحد، فمعنى هذا أن العلم مفيد وضروري ولازم لنا في كل مراحل أعمارنا، وهذا ما يغفل عنه الشباب في زهرات أعمارهم باندفاعهم وراء أهوائهم وشهواتهم... تشغلهم عنه فورة الشباب وكثرة ملاهي العصر وشواغله المترفة.. وهم معذورون في ذلك.. فالعلم النافع قد يثقل طلبه والاشتغال به عن غيره عند الكثير من شباب هذا العصر الذين يجدون عوضا عنه في برامج التلفزيون أفلام السينما والفديو ونوادي الرياضة والمقاهي... إلخ وكل هذه ليست إلا وسائل إن أحسن استخدامها واستبدلت سلبياتها بما يجب من إيجابيات كانت من أهم مرغبات الشباب في العلم النافع، وكانت أيضا من أنفع الوسائل وأنجحها في إيصاله إليه وتبليغه له، وأهم إمكانية تتيحها هذه الوسائل هي أنها عوامل توضيح وإثارة وتشويق تساعد على إدراك الشباب أن ما يراد تبليغه له من علم نافع هو وثيق الصلة بأغراضه وحاجاته وبيئته ومجتمعه...

7 - إن أي علم نافع ينبغي أن يحس الشباب بحاجته إليه.. ويصبح طلبه عادة راسخة في نفسه.. يحبه ويحب أهله ووسائله.. ولن يكون ذلك إلا حين يكون هذا العلم وسيلة من وسائل إدراكه لذاته.. وواسطة لمعرفة نفسه.. ليرضى عنها ويسمو بها ويعلي من شأنها...

8 - الشباب لا ينجرف، ولا يهجر العلم، إلا حين يشعر بأنه مهدد في أمنه حالا أو مستقبلا وأمنه مركز في رضاه عن نفسه.. وهذا الرضا ينبغي أن يحقق له بنفع الآخرين، وذلك بأن يكون لما يتعلمه أثر في البيئة والناس.. أثر معنوي أو مادي.. ينبغي أن يتعلم ليطبق ما يتعلم في علاقته بالناس من حوله ليحس بنفع ما يتعلم له هو من خلال ما ينفع هو الناس به ما وسعه ذلك.. ولو كلفه ذلك بعض التضحية...

9 - العلم النافع وسيلته العمل وغايته العلم.. وليس هناك علم إلا بنفس الغاية والوسيلة.. فيها يشعر الشباب بمسؤوليته في طلب العلم، وفي حمله بين الناس ليطبقه أو يعلمه هو بدوره فيزداد علما، وينفع الناس بعلمه، وينتفع هو بعلمه.. بل إن ذلك يكون أنجح وسائل العلاج النفسي والاجتماعي لمن ابتلي من الشباب بنوع من الانحراف...

10 - العلم النافع لا بد أن يشمل تأثير نفعه كل جوانب شخصية الشباب.. ويكون تأثيره دائما متصلا.. ويبلغ شأنه في الكمال والشمول حين يتحدى نفعه الشاب الفرد إلى غيره ممن يحيطون به، وحين يظهر أثره في جمال الأشياء وإبداع الموضوعات من حوله، وليمكنه عبر نفسه والناس والبيئة أن يمارس حقه في النقد الموضوعي وواجبه في النقد الذاتي.. ليكون له دوره في عملية التجديد

والتطـوير والتغيير نحـو الأحسن والأنفـع،
وليـزداد علمـا نـافعـا بـالخبرة والتجربـة
والتطبيق...

وأكيد أن هذا هو ما يسعى إليه قائد التحدي لصالح شباب التحدي في المغرب السعيد بالدعوة إلى العمل على جعل العلم النافع في المدارس والجامعات والمعاهد ومراكز البحوث علما متفتحا على الحياة في أرحب مجالاتهـا، والمجتمع في أوسع وأعرض نطاقاتـه، علما يقدم الخبرات الواسعة والنفع الأوسع الأشمل الأكمل، علما يهدف إلى :

ـ تنمية البلاد وعمرانها وتجميلها.
ـ إثارة الاهتمام بالعباد ونفعهم.
ـ التعلق بالعلم وطلبه من المهد إلى اللحد.
ـ العلم بالعمل وللعمل.

ب ـ الصعيـد النفسي : لم تكن جميـع تجـارب الإنسان الحضارية عبر تاريخه الطويل على هـذه البسيطة إلا محاولات ناجحة أحيانا.

وغير نـاجحـة أحـايين لتحقيق التـوافـق بين الإنسـان والطبيعة من حوله.. فمنذ أن وجد الإنسـان وهو يسعى إلى التكيف مع الحياة.. فاخترع الآلات والأدوات واستخدم كل الإمكـانـات المسخرة لـه في كل المجلات التي أتيحت لـه كي يجول فيها.. ومن قبل استعمل مجرد قواه العضلية.. فلم تجده ولم تكفه.. فكان لما اخترع تحت ضغط الضرورة من تلك الآلات والأدوات أثر نـاجـح فعـال في سيطرتـه على الطبيعة وتسخيرها والتكيف معها بـأقل جهـد وأسرع وقت.. وتنمية قدراتـه واستعـداداتـه ليزداد تكيفـه وتوافقـه وتلاؤمـه اجتماعيا وثقافيا ونفسيا ليس مع الطبيعة المسخرة لـه أصلا فقـط، بل مع مجتمعـه الـذي يفرض عليـه أن يغير سلـوكـه وكثيرا من عاداتـه لتتفق مع مـا تواضع عليـه المجمـوع من أنساق ونظم ثقافية واجتمـاعيـة ونفسيـة أصعب في السيطرة عليهـا والتـوافـق معهـا من الطبيعـة رغم عظمتهـا وتنـوع عناصرها.. بل إن السيطرة عليهـا بمعنى إخضاعهـا مستحيل قطعا.

وهـذا التكيف بشقيـه : الطبيعي والاجتمـاعي، يتم بقوتين : القوة بـالحركـة، والقوة بـالفكر.. والشبـاب ـ بغض النظر عن العمر طبعـا ـ هـو الـذي يستفيـد من كـل الفرص المتاحة له ليبحث عن الحلول النـاجعـة الممكنـة لمشـاكلـه النفسية والاجتمـاعيـة.. وهـذا النوع من النشـاط الفـاعل هو الذي يتيح له أحسن الفرص ليتصل بأجزاء من العالم مادية ومعنوية لم يكن له أن يتعرف عليهـا لولاه، ويمكنـه أيضا أن ينمي مواهبه الفطرية الكامنة في نفسـه من قـدرة على القيـاس وإغنـاء أسـاليبـه، وقـوة في المـلاحظـة والبحث والتجريب والتطبيق وتدرب عليهـا لاعتيـادهـا بكل سهـولـة ويسر، وإثراء لرصيد الأسماء والمصطلحات وربطها بمعانيها وأعيانها بكل دقـة وضبـط، ليسهل عليـه استعمـالهـا في كل أنشطته المقبلة...

وهذا النوع ـ أو الأنواع من الاتصـال ـ هي التي تتيح له الفرصة وتقوي من عزمـه على التعلم، إذا كـانت دوافعهـا نـابعـة من رغبتـه الحرة وليست مفروضـة عليـه من الخـارج فرضـا.. وإن فرضت فـلا ينبغي أن يكـون فرضهـا بـالقهر والعسف بل بالتعويد والألفة مع الإقناع...

والإنسـان كمـا سبـق أن قـدمنـا، سمـع وبصر وفـؤاد.. وفـؤاده أهم مـا في شخصيتـه والفـؤاد : قلب وعقـل.. وكـل شاب سوي لا يتعامل بقلبه فقـط ولا بعقلـه فقـط، بل بهمـا معا.. وكل غفلة ممن يعامل الشباب أو يتعـامل معـه يغفل جانبا من جوانب شخصيته يخفق في التعـامل معـه.. إن لم يسىء إليـه وإلى نفسـه.. لأنـه يطرق حـديـدا بـاردا يتعبـه ويضيع وقتـه.. ويبقى الحـديـد خـامـة غير مفيـدة تتعرض للصدأ والضياع...

والشباب الحي الواعي القادر متفرد في استجابته لكل المنبهـات حـولـه.. جميـع الشبـاب كـذلـك.. مهمـا بلغت أعمـارهم، ومن الشبـاب من تعـدى السبعين أو أكثر، ومن الشيوخ من لم تتجاوز أعمارهم العشرين، وهذه الاستجابات المبدعة قد تتلاشى عند عدد لا يستهان بـه منهم في زهرات أعمـارهم، نتيجـة للتصرفـات الخـاطئـة المخطئـة في حقهم خلال التعـامـل معهم من طرف أوليـائهم.. وأسوأ تصرف من هذا النوع هو عدم إتاحة الفرصة للشباب للتفاعل التلقائي،

الموجه بطريقة غير فجة ولا مباشرة، مع البيئة والناس من حوله...

فالشباب في حاجة اليوم إلى معلومات سرعان ما ينساها أو يتناساها، بل في حاجة إلى حقائق عن الحياة والطبيعة والناس بينه وبينها صلة أكيدة، تغرس في فؤاده كمبادىء توجه نشاطه، ويشارك بها عن فخر واعتزاز مشاركة إيجابية عن فهم ومرونة وإبداع...

شباب التحدي يسأل ويجيب ويعمل ويقارن ويتوصل إلى أحكام خاصة بوسائل خاصة مستقلة، وينتج أعمالا إن لم تكن قد بلغت الدرجة القصوى من التوفيق ففي أقرب إليه.. شباب التحدي في ظل لواء قائد التحدي يريد أن يكتسب مصطلحات جديدة وحقائق وعلما نافعا بمجهوده الخاص.. وبتوجيه غير متعسف ولا مباشر.. توجيه يدعم اكتشافاته ويصححها ويقومها ويسددها ويغنيها.

الشباب كل الشباب يعيش في عالمين : علم شخصي ذاتي هو حياته الداخلية، هو أفكاره ومشاعره ودوافعه. وعالم آخر خارجي هو الناس والأشياء والأحداث والمجتمع بكل مؤساته وهيأته... ولكي يكون الشباب في مستوى التحدي وفي مستوى ما يريده له ويرضاه منه قائد التحدي أعزه الله ينبغي أن يكون علمه وعمله عن فاعلية وقدرة على مواجهة ما يعترضه من مشكلات.. ينبغي له أن يستقبل معلوماته من العالمين بوعي وقدرة ويستخدم في كل ما يعترضه من مشاكل مشاعره وأفكاره وقدراته الخاصة بنفس الوعي والقدرة.. وكذلك يستخدمها في الاستفادة من حقائق العالم الخارجي حين يشاء لمواجهة ما يستجد من الظروف والأحداث...

التكييف والتوافق مع النفس والطبيعة والمجتمع وسائلة تتلخص في :

1 ـ أن يشعر الشباب بمزايا العمل.

2 ـ الدقة في الفكر.

3 ـ الضبط في الانجاز.

4 ـ الجمع بين النظر والتطبيق.

5 ـ ارتباط العالم الخارجي بعالم الشاب الداخلي الذاتي.

6 ـ تمازج وتكامل القدرة على الاستيعاب مع القدرة على الإبداع.

7 ـ النظر إلى الحقائق بعين المسؤولية القائمة على ترابط السمع بالبصر بالفؤاد.

8 ـ مواجهة المشاكل وجميع أمور الحياة وحلها باستخدام المشاعر والأفكار وما اختزنه فؤاده من معلومات مستقاة من الخارج.. وتلك سمات الشخصية السوية.

ج ـ الصعيد الديني : شباب التحدي في ظل لواء قائد التحدي أعز الله أمره وخلد في الصالحات ذكره يجب عليه أن :

1 ـ يتحرر من النظرة التي سادت في عهد الحماية البغيض، وهي النظرة إلى العمل اليدوي والتقني بغير تقدير ولا احترام.

2 ـ يربط التجربة المباشرة بما يتلقاه من حقائق ومعلومات نظرية.

2 ـ يربط التجربة المباشرة بما يتلقاه من حقائق ومعلومات نظرية.

3 ـ الانطلاق في هذا من المنطق الإسلامي الذي يعتبر العمل بأنواعه تحرر الإنسان من ذل الركون إلى الغير والاحتياج إليه، وتحقق له عزته.

4 ـ اعتبار العمل عبادة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا يوما مع بعض أصحابه فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، فقالوا : ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تقولو هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة، ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان...»

5 ـ عدم التفرقة بين عمل ديني وآخر دنيوي، وحتى في الأعمال الدنيوية لا ينبغي التفريق بين عمل فكري وآخر يدوي، فالإسلام دين شامل جاء ليغطي كافة ضروب الأنشطة الإنسانية.. وما يقدره ويعتبره هو العمل الصالح الناتج عن العمل النافع، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «**خيركم أنفعكم للناس**». وقد بلغ من تقديره صلى الله وسلم عليه وعلى آله للعمل أنه روي عنه أنه أمسك بيد رجل عامل خشن جلدها وتشقق من كثرة العمل فقبلها وقال لأصحابه : «هذه يد يحبها الله ورسوله». وأغلب آيات القرآن تذكر العمل بدون تقييد ولا تحديد حتى لا يفهم منها أنها تعني مجرد عمل العبادة أو عمل الفكر أو عمل اليد، بل العمل على إطلاقه.. كله عبادة وطاعة.. يقول الله تعالى : «**وما تجزون إلا ما كنتم تعملون**». ويقول سبحانه : «**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**»... فالتاجر إن صدق عابد مطيع لله... والصانع الماهر المتقن عابد لله.. والفلاح المجد عابد مطيع لله.. وطالب العلم المجتهد عابد مطيع لله.. والموظف النزيه عابد مطيع لله.. طالما توخى كل من هؤلاء وغيرهم نفع نفسه وصالح الجميع...

وقد نص فقهاء الإسلام على أن جميع الصناعات والحرف والأعمال فروض كفاية.. وقال الإمام الغزالي في هذا الشأن : «إن الصناعات كالفلاحة والحدادة والنجارة وما إليها مما يلزم للجميع.. ويجب على أولى الأمر أن يديروا أمور هذه الصناعات حتى لا يقع المسلمون في الحرج...».

وإذا تحقق ذلك ففيه مرمى حضاري بعيد.. فالحضارة فعل ونقل.. لا نقل فقط.. والبداية ينبغي أن تكون دائما من حيث يجب البدء.. من أول الطريق في السعي إلى الحضارة.. حضارة العصر التي ترفض الإنسان ذي البعد الواحد في ثقافته وفي عمله.. تريد الإنسان الحق المكون تكوينا حقا.. شاب القلب والروح والجسم، متميزا بنور الإدراك، واقعي النظرة لحقائق الأمور، ذا نزوع وجداني طاهر صاف سوي خال من العقد والنقائص، وإلى جانب هذا كله قادر على مواجهة مشاكل الحياة وحلها حلولا عملية تجمع بين الفكر الناصع والعمل الناجح.. يقرن إلى الأصالة في ذاته والرغبة في إقرارها في مجتمعه قوة الشخصية القائمة على العقيدة القويمة.. عقيدة الإسلام الذي ينفخ في المسلمين روح العمل الوثاب.. والفعل الناجح.. والإنجاز الناجع...

وبداية الطريق لهذه الغاية هي أن يحب شباب التحدي قيم الإسلام وقواعده وعقائده منذ مراحل عمره المبكرة، ومن بينها قيم العمل الصالح بكل أنواعه ومستوياته...

د الصعيد التنموي : تؤكد منظمة التنمية الصناعية التابعة للأمم المتحدة في إحدى دراساتها أن البلدان النامية تعاني عموما من (التبعية المزدوجة) في الصناعة، أي أن هذه البلدان عاجزة عن استخدام المعارف الصناعية الحديثة، وكذلك عن تجميع عناصر تلك المعارف من آلات وتجهيز، ولهذا فهي تستورد حاجاتها منها لغرض التطوير الصناعي الذي تنشده.. وهذا الاستيراد يشمل في العديد من الدول النامية إلى استقدام الأطر الأجنبية لإنشاء المشاريع وتركيب الآلات والتجهيزات وتهيئة الخدمات الأساسية من طرق ومياه وطاقة.. وحتى إلى تشييد الأبنية في بعض الأحيان.. ثم التكوين المهني للأطر والصيانة والإدارة...

وشباب التحدي في المغرب في ظل قائد التحدي تكونت منه ومازالت تتكون وستبقى تتكون طاقات بشرية مبدعة مكونة تكوينا متينا.. ليحقق المغرب اكتفاءه الذاتي من مهندسيه واقتصادييه وصناعييه ومحاسبيه وجميع أطره المختصة في مختلف المجالات.. ليستفيد من طاقاته وخيراته أبناؤه...

وإعداد هذا الشباب متدرج وفعال من المدرسة إلى المصنع.. فالتكوين متجدد ومستمر.. يبدأ من الفرد ليشتمل كل المجتمع.. المجتمع الذي يحرك أفراده حركة إيجابية

بناءة ليرفعوا شأنهم كأفراد ويغيروا سلوكهم تغييرا ناميا مضبوطا إراديا مقصودا نحو الأعلى والأسمى والأصلح والأنفع.. بماذا ؟

1 - بإدخال التصنيع الحديث - أو ما يسمونه بالتكنولوجيا - إلى المجتمع - علما وعملا كأحد أهم ركائز التنمية فيه.

2 - فهم التكنولوجيا على حقيقتها، بأنها عبارة عن التطبيقات العامة للمعرفة البشرية بقصد تحقيق تنمية شاملة للمجتمع وحل مشاكله المحددة المعروفة المدروسة بكيفية محددة معروفة مدروسة وبوسائل المعرفة البشرية العامة التي لا تغفل جانبا من جوانب الموارد البشرية والمادية.

3 - اعتبار أن هذه المعرفة البشرية العامة بفطرياتها وقيمها وتطبيقاتها ليست حكرا على أمة بعينها أو عرق بنفسه، بل إرث مشاع بين كل بني البشر يعملون على اكتسابه بسعي حثيث وعمل دؤوب لا يحول دون وصولهم إليه كسل ولا ركود ولا جمود ولا عقدة تخلف ولا استعمار جديد ولا قديم.

4 - اعتبار أن هذه المعرفة البشرية العامة ترتكز على قواعد علمية، تخضع للتجربة والقياس والتحليل يصل إلى الشباب القادر على تحدي الصعاب والعقاب، الذي يملك ناصية التجريب والقياس والتحليل بغرض الوصول إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بل التنمية الشاملة.

5 - رفع حجم التشغيل ومستواه في الحضر والمدر، مع رفع مستوى الدخل الوطني.

6 - إكساب عادات الإدخار والتوفير، واستثمار المدخرات في مشاريع التنمية مع الحث على عدم حصر الإتفاق العام في استهلاك غير رشيد محصور في الإنفاق المبذر على المأكل والملبس والمسكن.

7 - تقليل نسبة الهدر بين المتمدرسين بالرفع من عدد ومستوى الفنيين المتخصصين في مختلف المجالات...

8 - إن شباب التحدي تحد ظل لواء قائد التحدي قوى بشرية تحقق التنمية الشاملة لتستفيد منها بالعمل على محو الفصام المفتعل بين العلم والدين.. بين التعليم وحاجات سوق العمل.. بين التنمية ومتطلباتها.

9 - إن شباب التحدي في ظل لواء التحدي قوى بشرية تحقق التوازن بين النقص من الأيدي العاملة في بعض المهن والمهارات، وبين الاختناق في بعضها الآخر.

10 - إن شباب التحدي في ظل لواء قائد التحدي قوى بشرية تحل مشكل البطالة السافرة والمقنعة.. الهجرة من البادية إلى المدينة.. الهجرة إلى الخارج للأطر ذات الكفاية ولغيرها...

11 - وكل هذا يحققه شباب التحدي في ظل لواء قائد التحدي بعقده علاقة وطيدة بين العلم والعمل.. فالشباب بفطرته يعمل ليتعلم، ويتعلم ليعمل.. وغايته التي يسعى نحوها حثيثا دؤوبا هو تنمية البلاد بعلم نافع لحمته العلم النظري وسداه العلم التطبيقي، الموظفات لخدمة المجتمع والنهوض، مع تأصيل القيم الإسلامية الروحية الخلقية الاجتماعية فيه لتوجيه ذلك التقدم في جميع الميادين والمجالات...

وليست هذه القيم نظرة إلى الخلف ولا رجوعا إلى الوراء.. وإنما هي نور نستضيء به ونهتدي في متاهات عصر تعقدت أموره وتعددت اتجاهاته لنعرف سبيلنا بين السبل، لنحتفظ لأنفسنا بهويتنا.. وحتى لا ندخل مع الداخلين جحور الضباب.

الرباط : عبد الله كديرة

مع القصيدة الحرة في طور شبابها

للأستاذ عبد الجواد السقاط

عرف الشعر العربي منذ نشأته إلى اليوم مراحل عديدة من التلون والتطور، وأشكالا شتى من التقلبات والاتجاهات ؛ إذ في كل مرحلة يسفر الإبداع العربي عن نموذج يبدأ وليدا في أول الأمر، فيتعهده المبدعون بالعناية والاهتمام، ويدافعون عنه إلى أن يستوي قائما على قدميه، ويفرض نفسه في الساحة الإبداعية، سواء تعلق الأمر بالبعد المكاني أو بالبعد الزماني، ثم يرى النور بعد ذلك وليد جديد يخضع للتعهد والاهتمام ذاتهما، ويحقق من الذيوع والانتشار ما يجعله فنا جديرا بالتأريخ والدراسة، وهكذا دواليك.

وفي هذا الإطار مثلا، نشأت القصيدة الخليلية، واستمر المبدعون يرعونها بالحب والرعاية إلى أن اشتد عودها وقوي ساعدها في العصر الجاهلي، وأخذت من التلونات والاتجاهات ما صبغها بالتميز والتفرد في العصور الموالية، ثم نشأت الموشحات كوليد آخر وجد من المبدعين من تولاه بالاحتضان والعطف، سواء في الأندلس أو في المغرب أو في المشرق، إلى فرض وجوده كنمط من التعبير له أعلامه ومريدوه واتجاهاته وخصائصه، وتسلل إلى كتب المؤرخين والدارسين، بعدما كان منهم من يتحرجون من إدراجه ضمن مصنفاتهم.

وهكذا كان الأمر بالنسبة لألوان أخرى من الأنماط التعبيرية الشعرية، وفنون شتى من الإبداع الأدبي بوجه عام، بدأت شابة غضة العود، ثم قويت وتمكنت من نفسها، إلى أن ظهرت على بعضها ملامح الشيخوخة والهرم، بينما بقي بعضها الآخر مغالبا عجلة الزمن، صامدا رغم ما يختزنه من رصيد الأجيال والحقب.

ولعل الوليد الجديد الذي أود أن أقف عنده قليلا في هذه السطور، وخاصة في الإبداع المغربي، والذي لا زال في طور شبابه وفتوته، هو القصيدة الحديثة، أو القصيدة الحرة، باعتبارها لم تر فجر الحياة إلا في أوائل الأربعينات من القرن العشرين.

وإذا كانت الدراسات الأدبية المعاصرة متفقة، أو تكاد، على أن المهد الذي احتضن ميلاد أول قصيدة من هذا النمط الحر هو العراق، وذلك عام 1947 م عندما نشرت الشاعرة نازك الملائكة قصيدتها بعنوان «الكوليرا» مصورة مشاعرها نحو مصر عندما حل بها الوباء على غرار قولها :

طلع الفجر
اصغ إلى وقع خطى الماشين
في صمت الفجر، أصغ، أنظر ركب الباكين
عشرة أموات، عشرونا

لا تحص، أصخ للباكينا
إسمع صوت الطفل المسكين
موتى، موتى، ضاع العددُ
موتى، موتى، لم يبق غدُ
في كل مكان جسد يندبه محزون
لا لحظة إخلاد لا صمت
هذا ما فعلت كف الموت
الموت الموت الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت[1].

أقول : إذا كان الاتفاق شبه قائم على أن العراق هو الرحم الذي أنجب هذا المولود الجديد، وأن نازك الملائكة هي الوالد الشرعي له، فإنني أعتقد أن هذه الأبوة مغربية وليست مشرقية، وأن الانطلاقة الأولى جاءت من الشاعر المرحوم علال الفاسي الذي سبق نازك الملائكة إلى الكتابة الشعرية على نمط الشعر الحر، ودليلي على ذلك قصيدة «النجوم» التي كتبها عام 1942 م، والتي جاء في أولها :

النجوم
فيها فؤادي يهيم
والكواكب
تبدو بشكل المواكب
تسير سير المراكب
في بحرها المتذاهب
في القبة العلياء
في لازوردي السماء
ذات السنا والسناء
تبدو كمثل المرائي
في عالم الأحلام
ودهشة الإبهام[2]

بل إن الإرهاصات الأولى لهذا الوليد ظهرت عند الشاعر علال الفاسي كذلك منذ عام 1933 م، وهو إذ ذاك لا يزال في ريعان شبابه، حيث نظم قصيدة بعنوان «أغرودة مشتاق» من مجزوء الكامل أولها :

لا ترقبيني في الحديقة فوق سقف الياسمين
في مجلس كنا به نلتذ بالقرب المكين
لا ترقبيني إنني لا أستطيع زيارتك
فابقين[3] وحدك واسمحي لي أن أسبب وحدتك[4]

ولكنه في ثنايا القصيدة نظم بيتين تصرف فيهما في التفعيلة الرابعة من البيت، إذ نقلها من «مُتَفَاعِلاَنْ» إلى «فَعِلاَنْ» :

في ساعة نام الخلي وسهد المشتاقْ
والتذ ذو وصل وحق لمثلنا الإشفاقْ

ليعود بعد ذلك إلى التزام مجزو الكامل دون تصرف كأن يقول مثلا :

في ساعة عم الهدوء الكون في أنحائه
وتشابهت ألوانه فمياهه كسمائه

وقد علق محقق الديوان على هذه القصيدة بقوله : « وهي منشورة في مجلة السلام لداود، ع 3 س 1933، وقد نشرت أول مرة على طريقة الشعر الحر هذه»[5].

ويبدو أن الشعراء المغاربة، وقد طرق سمعهم صراخ الوليد الصغير، لم يتجاوبوا جميعا مع هذا الصراخ، إذ نجد بعضهم يعزف عنه عزوفا كاملا كالشاعرين محمد الحلوي في ديوانه «أنغام وأصداء»[6]، وعبد المجيد بن جلون في ديوانه «براعم»[7]، بينما نجد من الشعراء من أصاخوا السمع واستلذوا الصراخ، فراحوا يوقعون عل أنغامه توقيعا يختلف صخبا وهمسا بين شاعر وآخر، كأن نقف مثلا في ديوان الشاعر مصطفى المعداوي[8] على ست وعشرين قصيدة على

1)قضايا الشعر المعاصر لنازك الملائكة، مكتبة النهضة، بغداد 1965، ص 24.
2)المختار من شعر علال الفاسي، إعداد اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال، مطبعة الدار البيضاء، 1976، ص 105.
3)هكذا في الأصل، والأصوب نحوا أن يقول : فابقي، ولعله تَجَوُّزٌ خاضع لضرورة الوزن.
4)ديوان علال الفاسي، جمع وتحقيق عبد العلي الودغيري، مطبعة الرسالة، الجزء الأول، ص 190.
5)نفس المرجع والجزء والصفحة.
6)صدر عام 1965.
7)صدر بدون تاريخ.
8)صدر بدون تاريخ.

طريقة الشعر الحر من مجموع خمس وأربعين قصيدة، بينما لا نقف في ديوان «لوحات شعرية»[9] للشاعر عبد الله كَنون إلا على قصيدتين اثنتين من مجنوع أربعين قصيدة.

على أننا نجد من الشعراء من تأثروا بالطريقة الجديدة، ولكن ليس في اختلاف عدد التفعيلات وعدم احترام وحدة القافية، وإنما في الكتابة والرسم فقط، كما نلاحظ في ديوان «نجوم في يدي»[10] للشاعر محمد الحبيب الفرقاني، إذ نجده يرسم أبياته على الشكل الآتي :

غام الصباح البكر
وارتجف الضياء على النجود
إني زرعت
مع النسيم الحر
أكوام الوعود
رويتها ألق العيون
وصنتها عبث القرود
يا موسما
في الصيف
ينتظر المرابع أن تعود
المنجل اللهفان
يحصد في الربى كل الورود[11]

وهذه أبيات لو أننا أعدنا رسمها على الطريقة الخليلية المعهودة لوجدناها لا تختلف عن القصيدة في شيء :

غـــــام الصبـــــاح البكر وارتجف
الضيـــــــاء على النجـــــــوم
إني زرعت مـــــــــــــع النسيم
الحر أكـــــوام الـــــوعـــــود
رويتهـــــا ألـــــق العيـــــون
وصنتهـــــــــــا عبث القرود
يـــــا مـــــوسما في الصيف ينتظر
المرابـــــع أن تعـــــود

المنجـــــل اللهفـــــان يحصـــــد
في الربى كـــــل الـــــورود

ولعل الشاعر متأثر في هذا ببعض المشارقة كالشاعر نزار قباني في نماذج كثيرة منها قوله من قصيدة :

أيظن ؟
أني لعبة بيديه
أنا لا أفكر
في الرجوع إليه
اليوم عاد..
كأن شيئا لم يكن
وبراءة الأطفال
في عينيه...[12]

فقد نكتب الأبيات كالآتي :

أيظن أني لعبـــــة بيـــــديـــــه
أنـــــا لا أفكر في الرجـــــوع إليـــــه
اليـــــوم عـــــاد كـــــأن شيئـــــا لم يكن
وبراءة الأطفـــــال في عينيـــــه

ومهما يكن من أمر، فإن الصراخ يزداد اتصالا وانتشارا، والوليد يزداد ترعرعا ونموا، والمواهب الشابة تزداد احتضانا له في عطف ودفء، في مواكبة لما عرفه المشرق العربي كذلك، ولا يزال، من احتضان واسع لهذا اللون من التعبير، تجلى في دواوين وقصائد مجموعة من الشعراء أمثال نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب الباتي، ونزار قباني، ومحمود درويش، وغيرهم كثير، ككثرة شعرائنا المغاربة الشباب الذين أوسعوا لهذا النمط في إبداعاتهم، بل كادوا يقتصرون عليه أو اقتصروا فعلا، والذين لا زالوا يوالون، من مختلف مناطق المغرب، نشر قصائدهم، وإصدار دواوينهم التي تدعم هذا الاتجاه

9) صدر عام 1966.
10) صدر عام 1965.
11) نجوم في يدي دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1965 ص 69.
12) ديوان حبيبتي، منشورات نزار قباني، الطبعة الرابعة 1967، ص 76.

الجديد للقصيدة الشعرية العربية، كديوان «الحب مهزلة القرون» لمحمد عنيبة الحمري[13]، و «أصنام الشر» لمصطفى الزباخ[14]، و «أعاصير الحزن والفرح» لعبد اللطيف بنيحي[15]، و «حينما يورق الجسد» لرشيد المومني[16]، ودواوين عبد الله زريقة «رقصة الرأس والوردة»[17]، و «ضحكات شجرة الكلام»[18]، و «زهور حجرية»[19]، و «تفاحة المثلث»[20]، و «فراشات سوداء»[21]، وديوان «ويكون إحراق أسمائه الآتية» لمحمد السرغيني[22]، و «رماد هسبريس» لمحمد الخمار الكنوني[23]، واللائحة أطول مما يمكن حصره في هذا المقال المحدود، بما في ذلك الأقلام النسوية أمثال الشاعرة مليكة العاصي صاحبة «كتابات خارج أسوار العالم»[24].

وهكذا يتضح أن الجنين الذي رأى النور في المغرب مع إطلالة الأربعينات أو قبلها بقليل، قد دبت الحياة في كيانه يوما بعد يوم، وسرت في عروقه دماء الاستمرار والدعم إلى أن أصبح اليوم شابا يافعا له من المؤهلات والمقدرات ما يجعله ظاهرة لا يمكن تجاهلها أو التنكر لها، وفي الوقت ذاته، ما يسمح للدارسين والمهتمين بتتبعه دراسة وتنظيرا، وخاصة أولئك الذين يمارسونه بالفعل، كما صنع محمد بنيس في كتابه «ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب»[25]، وعبد الله راجع في كتابه : «القصيدة المغربية المعاصرة : بنية الشهادة والاستشهاد»[26].

☆ ☆ ☆

ولعله يحسن بنا، ونحن نرافق هذه القصيدة الحرة في طور شبابها، أن نقف على بعض مواصفاتها ومميزاتها، وأن نتعرف إلى أي حد يمكن اعتبارها عضوا منسجما أو غير منسجم مع باقي أعضاء الأسرة الشعرية ببلادنا.

● ولعل أول هذه المواصفات تتمثل في كون معظم شعرائنا المغاربة الشباب، وهم يتوسلون بهذه الطريقة الفنية الجديدة، كانوا ينظرون إلى أعلامها في المشرق العربي، ويسلكون بعض مسالكهم بين الحين والحين، وهي ظاهرة تنتصب أمامنا في مجالات متعددة يمكن أن نتبين أحدها في المقارنة بين قصيدة للشاعر المغربي مصطفى المعداوي بعنوان : «يا أنت يا»، وأخرى للشاعر السوري نزار قباني بعنوان «طوق الياسمين» إذ نلمس بوضوح ما يجمع بينهما من تشابه وتقارب، وخاصة على مستوى الصياغة ؛ يقول مصطفى المعداوي في قصيدته :

وبدوت لي
في ذلك الثوب الثمين
تتدللين وترغبين
تتمايلين فتؤلمين
ماذا دهاك. وما دعاك إلى الجنون
أو لم تكوني ترغبين
في ذلك الحي الجميل وقرب باب المعوزين
ولزمت جنبي تمرحين وتكثرين
من وشواشات الشوق والحب الدفين
حبي المضمخ بالحنين
وسألت يا حلمي الغزير
عن شعري المنساب في الشط الكبير
ألا قرأت قصائدا أخرى عن الحب الصغير
حبي المضمخ بالعبير[27]

ويقول نزار قباني في قصيدته :

وجلست في ركن ركين
تتسرحين

---

13) صدر عام 1968.
14) صدر عام 1972.
15) صدر عام 1972.
16) صدر عام 1973.
17) صدر عام 1977.
18) صدر عام 1981.
19) صدر عام 1983.
20) صدر عام 1985.
21) صدر عام 1987.
22) صدر عام 1986.
23) صدر عام 1987.
24) صدر عام .....
25) طبع للمرة الأولى بدار العودة، بيروت ثم طبع للمرة الثانية.
26) صدر عام 1987.
27) ديوان مصطفى المعداوي، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ص 14.

وتنقطين العطر من قارورة وتدمدمين
لحنا فرنسي الرنين
لحنا كأيامي حزين
قد ماك في الخف المقصب
جدولان من الحنين
وقصدت دولات الملابس
تقلعين وترتدين
وطلبت أن أختار ماذا تلبسين
أفلي إذن
أفلي أنا تتجملين ؟[28]

● وثانية هذه المواصفات تتجلى في استلهام التراث الشعري أحيانا، بل تضمين بعض مقاطعه أو أبياته في القصيدة الحرة، بما يقرضه هذا التضمين على الشاعر من التزام وزن المقطع المستلهم وقافيته ؛ وقد نمثل لهذا بمقطع مع قصيدة حرة للشاعر محمد بنعمارة بعنوان : «بداية الوقت الجمعة» ضمنه قول الحلاج :

أرى قدمي أراق دمي
فقال :
أرى قدمي، أراق دمي
يريد العابث العدمي
فأرسم من معانيها
حروف النار والألم[29]

وقد نمثل له كذلك بجزء من قصيدة حرة للشاعرة مليكة العاصي ضمنته بيتا من القصيدة المشهورة المعروفة بالمنفرجة وهو :

اشتـــــدي أزمـــــــة تنفرجي
قـــــد آذن صبحـــك بـــالبلـــج

فقالت :
غضب، حمم، سخط، نار
لم يثن العود عن العوج
طالت أيام القهر وقد
شد المحلاج على الحلج
وتقاذق في الشام التاريخ وهم به الطوفان يجي.
الأرض إذا أمست حملت
من بعلها بالطيب الأرج
«اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج»[30]

وثالثة هذه الواصفات ما نلاحظه أحيانا من مزج بين أسلوب الشعر الحر وأسلوب الشعر الخليلي في القصيدة الواحدة، وهي ظاهرة قد نعزوها إلى رغبة بعض شعرائنا في إضفاء مسحة من التجديد على قالب القصيدة، وقد نعزوها إلى أن بالقصيدة بهذه الصورة تعتبر انعكاسا للحياة المعاصرة التي أصبحت مزيجا من المتناقضات والمتغيرات . وفي هذا الإطار نشير إلى قصيدة للشاعر حسن الطريبق بعنوان «اثنان» جاءت بعض مقاطعها على أسلوب الشعر الحر، بينما جاءت مقاطعها الأخرى على أسلوب الشعر الخليلي :

تناجي الوالهان المغرمان بلا انتهاء تطامن حلو
فضمهما إليه المشتهى في أنه العلوي
حتى احتوى ما في لقائهما التساؤل في تمازج جد
همسهما مع اللهو
...
فمـــاذا قـــد يكـــون لـــديهمـــا أشهـــى مـــن الأنـــس
ســوى مسعـــاهمـــا المخبـــوء في مستـــــودع النفس

مصابيح من الأفراح قد عادت بها لهما من النشوات أشتاتُ

---

28) ديوان قصائد، مطابع دار الكتاب، بيروت، 1961، ص 112.
29) الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 9 ماي 1987.
30) الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 20 دجنبر 1986.

تكتم في مقيلهمـــا من الخفقـــان مختلف ومـؤتلف،
وكشف عنه عندهما شعور ليس منه الآن إفلاتُ

على مسعـــاهمـــا يـــدنـو التبتـل
هـــــــــــــــائم النبض
فخـــالطـــه حريرهمـــا المضـوع
فـــي شـــــــــــذا الـــروض[31]

● ورابعـة هـذه المـواصلات تكمن فيمـا نلحظـه في بعض القصائد الحرة من تجديد في رسم كلماتهـا يجعلهـا ذات هندسة لا تستند إلى نظام موحد، وإنما يعطي الشاعر لنفسه الحرية المطلقة لاختيار الهندسة التي يستطيبها، وهي ظاهرة كذلك قد نعزوها إلى مـا أصبح يطبع الإنسـان في عصرنـا الحالي من ميل إلى الاستقلالية والتفرد حينا، والعزوف عن التقيد والمحاكاة حينا آخر. وفي هذا المضمار نسجل قصيدة للشاعر أحمد بلحاج آية وارهام بعنوان : «مراكش... احتراق بالظلام» جاء فيها :

نجيع مشوق
وأشواق من سكرتي رؤيتي
عصور الملائك - مولاي - غاضت
وفاضت
(ولم تغتمض)

أعصر الظلة
رحيلي نزيف
أكابر فيه
فيكتبني فوق بابك
حرفا

فحرفا
فحرفا
إلى آخر اللوعة
وكفك تطبعني
نجمة نجمة نجمة[32]

31)الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 16 يناير 1988.
32)الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 18 أكتوبر 1986.

● وخامسة هذه المواصفات تظهر فيما أصبحت تنحو نحوه القصيدة الحرة أحيانا من قصر في نفسها واقتضاب في عدد أبياتها، مكتفية بتسجيل لقطة عابرة خاطفة، بعيدا عن الإطالة والإطناب. ولعل في هذا المنحى أيضا ما يربطنا بواقع العصر الحديث، ذلك الواقع الذي أصبح ميالا إلى السرعة في كل شيء، والذي ترجم بعض شعرائنا الشباب هذا الميل في قصائدهم وأعمالهم الإبداعية. فبعدما كانت القصيدة العربية ذات نفس طويل قد يتجاوز الألف بيت كما هو الشأن بالنسبة لمعلقة عمرو بن كلثوم مثلا، أصبحت القصيدة الحرة، وعند بعض الشعراء طبعا، لا تتجاوز أبياتا قليلة توفر لها مجموعة من العناصر كالإيجاز والوحدة الموضوعية وما إليهما. ولعل هذه الظاهرة لم تمس الجانب الشعري فحسب، وإنما مست كذلك الجانب النثري، وخاصة منه ميدان القصة، إذ وقع التدرج من الرواية أو القصة الطويلة إلى القصة القصيرة أو الأقصوصة، إلى القصيصة، حتى أصبحنا نجد من يكتب أقصوصة في دقيقة[33]. وقد أكتفي للتدليل على هذه الظاهرة في الشعر الحر بقصيدة للشاعر محمد الطوبي بعنوان : «اللؤلؤة» جاءت كالتالي :

امرأة في السرير
بذراعين من مرمر
وبيادر صدر يوزع نعمته
للجياع العصافير، ساق تجوع
لتغدق وهج مباهجها في فضاء عسير
في السرير امرأة...
شبق، نار عمر، خراب يسود بهاه
وعاشقها يتشرد بين أعالي النشيد
وبين سيوف هواه...
ليهوي على كفها لؤلؤة...[34]

● وحتى لا أطيل في استعراض المواصفات كلها اختمها بسادسة هي أقرب إلى احتذاء نهج تقليدي منها إلى النزوع نحو الجدة والابتكار، ويتعلق الأمر بما يمكن أن

33)القصاص المغربي إبراهيم بو علو على سبيل المثال.
34)جريدة العلم، الجمعة 11 دجنبر 1987.

يصطلح عليه بالقصيدة المشتركة، التي ينظمها أكثر من شاعر. ولعل هذا يذكرنا بالمساجلات الشعرية التي عرفها الشعر العربي سواء في المغرب أو المشرق أو الأندلس، والتي تطفح بها كتب التاريخ والطبقات وغيرها. وكشاهد على هذه القصيدة المشتركة في الشعر الحر بالمغرب، أسوق نموذجا لكل من الشاعرين عبد الرحمن بن علي ومحمد بنعمارة بعنوان «باريس.. باريس»، مما جاء فيها لأحدهما :

يا قوت موائدك جنوبي

وأنا طفل ولدته رياح شتوية...

ومما جاء فيها للآخر :

هل باريس الأنثى قمر

أم باريس هي الأضواء تعرج نحو طريق آخر...[35]

☆ ☆ ☆

وإذا كنا إلى الآن قد تبينا بعض مميزات هذه القصيدة الشابة، واتضحت لنا ملامحها ومعالمها، فإننا مضطرون في أعقاب هذا إلى الوقوف قليلا عند هذا الشعر من زاية ثانية لعلها تحمل من السلبيات أكثر مما تحمل سابقتها من الإيجابيات

ولعل أول ما ينبغي أن يشار إليه في هذه الزاوية هو تحديد مفهوم الشعر الحر، وتطويق بعض مكوناته وعناصره، وهو المفهوم الذي إن أصاب بعض شعرائنا الشباب في إدراكه وممارسته، فإن مجموعة أخرى منهم ظلت بعيدة عن هذه الإصابة.

فنحن حين نطرح قضية الشعر الحر ومفهومه، لا نطرحها لتحديد مفهوم الشعر، بل لتحديد مفهوم الشعر الحر، وأعتقد أن الفرق شاسع بين المصطلحين. فالشعر كما يعلم الجميع قسيم للنثر، والفني منه بخاصة، وهو بهذا المعنى لا يختلف عن النثر الفني في وظائفه ومضامينه، بقدر ما يختلف عنه في وسائله وأدواته، بما في ذلك عنصر الإيقاع الموسيقي الذي يعتبر من أهم مكونات الشعر.

صحيح أن الشعر قد خضع لتعريفات عديدة، منها الإغريقي والعربي، ومنها القديم والحديث، ولكنها جميعها تعطي الإيقاع مكان الصدارة في هذا الشعر، وتربطه به في جدلية وتلازم.

ومن هنا مهما تعددت طرائق التعبير الشعري، واختلفت أنماطه وأساليبه، من قصيدة خليلية وموشحة وأرجوزة ومسمط وزجل وما إليها، فإن الإيقاع يبقى ملازما لكل شكل من هذه الأشكال، لا ينبغي تجاهله أو التغاضي عنه. ولا شك أن الشعر الحر، وهو واحد من هذه الأشكال والوجوه، لا بد أن يحافظ هو بدوره على الإيقاع، وإلا لفقد بذلك عنصرا مهما من عناصره ومكوناته.

وبالتالي فالشعر الحر تصرف جديد في الأوزان العروضية وفي القوافي، استمرارا لما فعله بعض الشعراء منذ مبدعي الموشحات إلى شعراء المهجر وجماعة «أپولو» مثلا، ولكنه ليس تحللا من الوزن والقافية تماما كما يتوهم البعض. ولعلي هنا ألفت نظر هؤلاء إلى مقولة الدكتور عبد الهادي محبوبة وهو يقدم لكتاب «قضايا الشعر المعاصر» لنازك الملائكة : «الوزن والقافية ليسا قيدين في الشعر من حق الشاعر أن ينطلق ويتحرر منهما، وإنما هما خاصتان من أهم خصائص الشعر الجيد ليتميز بهما عن النثر الفني.. فهي ـ حركة الشعر الحر ـ دعوة إلى الحرية في اختيار الأوزان العروضية لا التحرر منها أو التحريف فيها اعتقادا منها بأن الوزن ظاهرة موسيقية لا يتخلى عنها الشعر إلا ويستحيل نثرا»[36] ؛ وكذلك ألفت نظرهم إلى مقولة الشاعر عبد الوهاب البياتي : «التجديد في الشعر ليس ثورة على العروض والأوزان والقوافي، كما خيل للبعض، بقدر ما هو ثورة في التعبير»[37].

الشعر الحر ثورة على القصيدة التقليدية التي ورثناها، كما يقول الشاعر نزار قباني «بأغراضها المعروفة وأبياتها الملتصقة بعضها التصاقا صنعيا كقطع

35) الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 13 فبراير 1988.

36) قضايا الشعر المعاصر، المقدمة، ص 14.

37) تجربتي الشعرية للبياتي، مطبعة دار الكتاب، بيروت، 1968، ص 38.

الفسيفساء»[38]، والتي هي في رأيه «إلى الزخرف والنقش أقرب منها إلى العمل الأدبي المتماسك الملتحم كقطعة النسيج»[39]، بينما القصيدة الحرة في اعتقاده «أشبه بديكور حجرة صغيرة وزعت مقاعدها ولوحاتها وأوانيها بشكل ربما لا يوحي بالثراء الفاحش، ولكنه يوحي بالدفء والألفة»[40].

الشعر الحر ثورة على القصيدة التقليدية التي تتعصب، حسب نزار قباني، إلى لغة الأغاني والعقد الفريد، ودعوة إلى الاعتقاد أن لغة التداول اليومي «بكل حرارتها وزخمها وتوترها هي لغة الشعر، وأن الكلمة الشعرية هي الكلمة التي تعيش بيننا... في بيوتنا... وحوانيتنا... ومفاهيمنا... لا الكلمة المدفونة في أحشاء القواميس»[41]. وبغض النظر عن مدى إصابة نزار قباني وصدقه في دعوته، أو عدم إصابته وصدقه، فإن الشعر الحر ثورة، ولكن ليس على الإيقاع.

الشعر الحر ثورة على بناء فني قديم، استمر أمدا طويلا، وحل محله «بناء فني جديد، واتجاه واقعي جديد، جاء ليسحق الميوعة الرومانتكية وأدب الأبراج العاجية، وجمود الكلاسيكية»[42]، ولعل في هذا السياق يمكن فهم قول أدونيس : «الشعر خرق مستمر للقواعد والمقاييس»[43].

الشعر الحر ثورة على التقاليد القديمة والأعراف التي مر عليها زمن طويل، وعلى الحفاظ عليها كما ظهرت في أول الأمر، بل ينبغي التصرف فيها وجعلها مسايرة للتطور المتجدد، وهنا أسوق قول نازك الملائكة في الموضوع : «نحن عموما ما زلنا أسرى، تسيرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الإسلام. ما زلنا نلهث في قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقعة الألفاظ الميتة، وسدى يحاول أفراد منا أن يخالفوا، فإذا ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة، وألف حريص على التقاليد التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه... كأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعرا إن خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل»[44]. والملاحظ أن نازك الملائكة تتمسك في موقفها هذا بالتفعيلة كوحدة ضرورية في البيت الشعري الحر، على أن تطرح هذه التفعيلة بطريقة أخرى غير التي اعتمدها الخليل من قبل.

الشعر الحر إذن ثورة على كل هذا، ولكنه ليس ثورة على الإيقاع وزنا وقافية، إنه تصرف جديد في هذا الوزن وتلك القافية ؛ إنه اعتماد نظام التفعيلة بدل نظام البحر.

ولعلنا بعد هذا التحديد المقتضب لمفهوم الشعر الحر، نعود إلى إنتاج بعض شعرائنا الشباب، فنجد أصحابه محتاجين إلى مراجعة منطلقاتهم وتصوراتهم حتى يكون إنتاجهم إضافة جيدة تخدم الإبداع في بلادنا وتنسجم مع الصيرورة الطبيعية للقصيدة الحرة التي لا تزال في طور شبابها، والتي هي بحاجة إلى من يحسن توجيهها وتعهدها حتى لا تصاب بما قد يعرضها للضعف والقصور.

فمما يجب التنبيه عليه أن العرب ـ وهذه من خصائص لغتهم ـ لا يقفون على متحرك ولا يبدأون بساكن، وحبذا لو عمل الشعر الحر على تكريس هذه الخاصية التي بتجاوزها يفقد التعبير إيقاعه وتناغمه. فقد جاء في قصيدة بعنوان : «امرأة من أقصى الريح» :

أيقظت شجر الأرض ثم
استحمت بماء الغدير[45]

ولعل الانتقال من «ثم» في نهاية البيت الأول إلى «استحمت» في بداية البيت الموالي مما يحدث ثقلا في النطق وبعدا عن التناغم والإيقاع، ولعل لقائل أن يقول : لا داعي للتوقف عند «ثم» فالاستهلال بـ «استحمت» بل

---

38) الشعر قنديل أخضر لنزار قباني، مطبعة دار الكتاب، بيروت، 1964، ص 30.
39) الكتاب نفسه، ص 30.
40) الكتاب نفسه، ص 31.
41) بدر شاكر السياب لإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1972، ص 136.
42) زمن الشعر لأدونيس، دار العودة، بيروت، 1978، ص 312.
43) ديوان شظايا ورماد لنازك الملائكة مطابع دار الكتاب، بيروت، 1959، المقدمة، ص 7.
44) عيسى إدريس، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، الأحد 21 شتنبر 1986.
45) محمد علي الرباوي، الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 1986/12/13.

يحسن أن يقرأ البيان متصلين ؛ ولعلي في هذا الاعتراض أقول : ولماذا والحالة هذه لا يكتب البيتان معا في سطر واحد :

أيقظت شجر الأرض ثم استحمت بماء الغدير.

ولعل هذا الفصل المتعسف بين المتحرك والساكن، يسلمنا إلى فصل متعسف آخر، يتمثل هذه المرة في جعل التفعيلة الواحدة قسمين اثنين، يسجل أحدهما في آخر البيت بينما يسجل الثاني في أول البيت الموالي، ومثال ذلك قصيدة بعنوان «الغربة» نظمها صاحبها على تفعيلة «فَعِلُنْ» صحيحة مرة ومضمرة أخرى، ومرة ثالثة، وفيها يقول :

في الشارع أنت غريب
في الدرب غريب
وغريب في المعمل في المتجر
في مقعدك المامون وأنت هنا
تسمع أو تقرأ هذي الأشعار
غريب في البيت وأنت تجالس
شاشتك الفاجرة الصوت
الفاسقة الصوره[46]

فلو تأملنا المقطع، وأردنا أن نحافظ لكل بيت منه على إيقاعه وتناغمه، لجمعنا بين «تَ هنا» في قوله وأنت هنا وبين «تسـ» في قوله تسمع، وبين «ر» في لفظة الأشعار وبين «غريـ» في لفظة غريب، وكذلك الأمر بالنسبة لـ «لس» في كلمة تجالس و «شا» في كلمة شاشتك، ونفس الشيء مع «ت» في لفظة الصوت و «الفا» في لفظة الفاسقة ؛ ولعل هذا يتبين أكثر من خلال التقطيع الآتي :

فَعْلُنْ فَعِلُنْ فَعِلاَنْ
فَعْلُنْ فَعِلاَنْ
فَعِلُنْ فَعْلاَتُنْ فَعِلُنْ فَعْلُنْ
فَعْلُنْ فَعِلُنْ فَعْلُنْ فَعِلُنْ [فَعِلاَ
تُنْ] فَعِلاَتُنْ فَعِلاَتُنْ فَعْلُنْ [فَـ
ـعِلُنْ] فَعْلاَتُنْ فَعِلُنْ [فَعِـ
ـلُنْ] فَعِلاَتُنْ فَعِلاَتُنْ [فَـ
ـعْلُنْ] فَعِلُنْ فَعْلُنْ

ومما ينبغي التنبيه عليه كذلك أن التفعيلة في الإيقاع الشعري تتكون من سبب ووتد وفاصلة، وأن الفاصلة إما صغرى أو كبرى، ولكنها في الشعر العربي لا تأتي إلا صغرى أيا كان البحر الذي يركبه الشاعر، في حين أن الفاصلة الكبرى لا يؤتى بها لما تحدثه من قلق واضطراب في الإيقاع الموسيقي للتفعيلة. ولعل بعض شعرائنا الشباب يتجاوزون هذه الخاصية، ويكثرون من استعمال الفواصل الكبرى، أعني أربع متحركات فساكن، بل قد تصل متحركاتهم إلى خمس أو أكثر. وشاهد ذلك مثلا مقطع من قصيدة بعنوان : «طائر الموت» جاء فيه :

من يطير بعيدا عني ؟
لكي لا أدع هذي اليد تخنقني
أقول : الهواء يسيجني
والجليد يتحسس جسدي[47]

وحتى لا أطيل كذلك في طرح مثل هذه التصويبات، ولعلها كثيرة، أختم بالإشارة إلى ما يتمحله بعض شعرائنا الشباب من إضفاء مصطلح «شعر» على ما هو أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، إن لم أقل إنه نثر بالمعنى المتداول لهذا المصطلح، لولا بعض التغييرات الطفيفة التي يعمدون إليها كحذف عناصر الربط بين بعض الجمل مثلا. وهنا أسوق نموذجا من قصيدة بعنوان : «كتاب البحر» جاء فيها :

يفاجئني مخاض القيء
في رحاب داك النزل الفسيح
يفرغ في الأرض قارورة الماء رفيقي
أنبطح متوغلا في عرقي المدوخ بالهلوسات الطرية
مازجا بين سعالي المنهوك ورحلة الزغب المسيح
ساقي، أراه الآن يضحك مثل أمومة عطفت عليها
سواقي المطر قطرة قطرة، يتمدد خيط من نبيذ

46) بوجمعة أشفري، الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 20 ربيع الثاني 1408.

47) أحمد هاشم الريسوني، الملحق الثقافي لجريدة العلم السبت 22 نونبر 1986.

ساحلي يجر جره رفيقي حيث النشيد الأخير لهذي الصلاة، يفرقع باب المحل الشهير بعنف الطفولة / يحبو إليه بذعر شرطي الحراسة يسأله قبسا من نار، يصير المكان دخانا...

☆☆☆

وهكذا إذن يتضح أن هذه القصيدة الشابة في بلادنا لم تخرج عن مثيلتها في المشرق العربي من حيث هي انعكاس لواقع حديد، ودعم لبناء فني جديد جاء ليربطها بواقع تسوده السرعة، وتملأه المتناقضات، وتعم فيه الرغبة الجامحة نحو الاستقلالية والتفرد، ولكنها - أي القصيدة الحرة بالمغرب - محتاجة إلى شيء غير قليل من الاتزان والنضج، حتى لا تجمح بها رغبتها نحو التطور والتجديد إلى مسالك التهور والتحلل من القيود التي ليست قيدا في حد ذاته، ولكنها إطار محدد يحافظ لهذه القصيدة على استمراريتها ودوامها، ويسمح لها، وهي في طور شبابها، أن تعمل على مد عمرها واتصال مراحل حياتها. وعسى أن يهب لها بعض شعرائنا الشباب ما يساعدها على مد هذا العمر، واتصال أسباب الحياة والاستمرار.

الرباط : عبد الجواد السقاط



الرّعاية الاجتماعيّة للشباب

للأستاذ محمد الادريسي

الإسلام دين اجتماعي، والدليل على ذلك ما فيه من فروض جماعية وتعاون على البر والتقوى ودعوة للتعارف والتوادد وأوامر لصالح الجماعة والمجتمع، نذكر على سبيل المثال هذه الآيات البينات : ﴿**حافظوا على الصلوٰت والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾ (البقرة : 238).

﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ (المائدة : 2).

﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾ (الحجرات : 13).

إنه بحكم اجتماعية الإسلام فإننا نقول بحتمية الرعاية الاجتماعية للشباب ابتداء من مرحلة الطفولة ليصلوا إلى فترة المراهقة وهم في صيانة ووقاية، وتحقيق هذا الثنائي يكون بواسطة الأسرة فهي المكلفة بتربية الطفل وتهيئته جسما ونفسا وخلقا للقيام بوظائفه المختلفة في خدمة قومه ووطنه كما قال الأستاذ محمد جاد المولى :

ومسؤولية الأسْرَة الكبرى هي العناية بالأولاد وتربيتهم هذه التربية الصالحة وهي من أكبر واجبات الأبوين التي يفرضها الشرع ونظام الاجتماع عليهما، كما أن إهمالهم والتفريط في تربيتهم من أكبر الجنايات التي يأباها الدين الإسلامي وتعاقب عليها القوانين الوضعية، استمعوا إلى قوله ﷺ وتأملوه كما يجب «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم فإن أولادكم هدية إليكم»[1].

فما أعظمه من توجيه نبوي كله حنان ووفاء ورحمة بفلذات الأكباد، ليت الآباء يلتزمونه والأبناء يقدرونه.

إن الرعاية الاجتماعية للشباب هي الأساس في تكوين الجيل وإعداده الإعداد اللائق والملائم ليكون صالحا، والذي يجعله في المستوى المطلوب من حيث تشبعه بالروح الدينية العميقة ومواكبته وقبوله للتطور المعقول بدون انبهار أو غفلة عن دينه.

وبما أن الأسرة هي إحدى المؤسسات الاجتماعية الأولى في ميدان رعاية الشباب فإن الأمل سيبقى دوما معقود عليها في هذا الشأن لكونها لبنة أساسية في هذه الرعاية فمسؤوليتها عظمى ودورها أعظم.

إن الأسرة هي المدرسة الأولى للطفل ورجل الغد، فهي مسؤولة عن تربيته على أسس سليمة مسؤولة عن توجيهه الوجهة الصحيحة.

وهكذا ستبقى العائلة هي صاحبة الحل لمشاكل الشباب والمسؤولة عن رعايتهم في المجتمع الإسلامي

---

(1) رواه البخاري.

فالعملية التربوية المرضية منوطة بها ولا مناص لها منها لأنها تكليف رباني وأمر نبوي :

﴿**يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾.

(التحريم : 6)

وقال ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها...»[2].

ولن تنجح الأسرة في دورها ولن تقوم بمسؤوليتها على أكمل وجه إلا إذا وعت وأدركت جسامة ما هو منتظر منها وهو الا يفلت الزمام منها : فالأسرة الحكيمة هي التي يستعمل ربها الشدة في الوقت المناسب واللين في الوقت المناسب، هو أن يسود جوها الحب، هو أن يكون الأب متفاهما مع أولاده بأن يتيح لهم باستمرار جو التفاهم، هو ألا يكون ديكتاتورا داخل البيت ومستبدا ومتسلطا فيصير البيت كالسجن أو المعتقل، لا يطابق العيش فيه والأم هي الأخرى يتحتم عليها أن تكون صديقة لبناتها، تهتم بما يساورهن من خواطر وتستمع لبنات أفكارهن وتستقبل مشاكلهن بالحلول لا بأنصاف الحلول، وليس بالرفض أو النهر، وحتى إذا اضطر الأب أو الأم إلى ضرب الأولاد فليكن في المرحلة الأخيرة وضربا غير مبرح لا يشوه أو يؤذي ولا يؤثر على نفسية الابن أو البنت بأن يحولهما إلى إنسان محطم لا إرادة له ولا وجود، والحقيقة أن الضرب هو وسيلة العاجز، والمعروف أن أسلوب القهر وطريقة القسر في تربية الأبناء لا يرضاهما ديننا ولا تقرهما سنة الرسول المربي صلاة الله عليه، فما أحكم التوجيه المبني على التفاهم والاقناع والتودد والتحبيب، وما أحسن الرعاية المدعمة بالمحبة والعطف والاستقطاب ورحابة الصدر من طرف الآباء نحو الأبناء، فإذا تطلع الأب إلى طاعة ابنه فليعنه على تحقيق ذلك، ولنتأمل في هذا الصدد قوله ﷺ : «رحم الله والدا أعان ولده على بره»[3] ولا تتحقق الاعانة هذه وهي بيت القصيد إلا بالتربية الواعية ومعرفة حقوق الآباء على الأبناء وحقوق الأبناء على الآباء وحقوق الأبناء على الآباء وإلى هنا يكون البر بالوالدين واقعا ملموسا وخلقا يلازم أبناءنا.

يقول الدكتور محمد الاخرس : «إن طريقة القس المتبعة في تربية الأطفال لا تعطي مردودا إيجابيا في كل الأحوال، فالأب الذي ينهر ابنه لأي شيء ودون مبرر كاف للعقاب يسيء إلى ابنه ونفسه وإلى المجتمع. وأن العلاقة بين الوالدين والأبناء يجب أن تبنى على عقلية يحكمها المنطق، وتغذيها العاطفة وبعيدة عن الاستثارات والانفعالات العصبية، وهذا ما يشير إليه تطور أسلوب التربية»[4].

وهذا التطور الذي أشار إليه الدكتور الأخرس ليس جديدا على مجتمع المسلمين لأن رسول الإسلام ﷺ طبقه واتبعه مدة حياته وركز عليه في سنته، في معاملاته مع أولاده وأحفاده، ومع خدمه ومواليه، ومع المجيطين به، كما نراه بجلاء في أحاديثه وتوجيهاته للناس، فقد كانت نداءاته ﷺ للآباء هي أن يكونوا رحماء بأولادهم مشفقين عليهم، فالشباب أرق أفئدة وهم سريعو العودة إلى الصواب، إذا وجدوا من يأخذ بأيديهم ويحسن الصلة بهم، وهم يحتاجون أكثر إلى منتهى الرقة منذ نعومة أظفارهم، وهي رقة تجمع بين الترغيب والترهيب بدون هيمنة أو شدة مغالية، وحتى لو فرضنا بأن مشاكلهم مستعصية على الحل فإن مسؤوليتنا نحوهم توجب علينا أن نفعل المستحيل لإنقاذهم من وهدة الانزلاق وتخليصهم من حمأة الرذائل، وما كانت مشاكلهم في غالب الأحيان الا بسبب تقصير الآباء وسوء تدبيرهم وضيق أفقهم وبعدهم عن معاناة فلذات أكبادهم وهروبهم من حلول مشاكلهم.

---

2) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي.

3) أبو الشيخ في الثواب عن علي.

4) عن مجلة العلوم الاجتماعية بالكويت، اكتوبر 1973، العدد 1 السنة 1 صفحة 24 بتصرف.

إذا انحرف الصغير فالسبب هو انحراف الكبير، وذلك يعود لغياب القدوة الصالحة وسط الأسرة التي من المفروض عليها أن تنشئ جيل المستقبل تنشئة اجتماعية صالحة تربطه بوسطه الصغير وتصله بمجتمعه الكبير وهي تنشئة يعرف بواسطتها كيف يتصرف، وكيف يتعامل وكيف يتكيف مع الغير على أساس أخلاق اجتماعية طيبة عمدتها حب الخير للآخرين شعارها «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[5] ولنمثل للانحراف الكبير واثره البعيد المدى على الصغير بظاهرة الكذب المتأصلة في الناس فهو كمرض اجتماعي يعتبر خطيرا ويلازم الكثير من البشر وإذا لم يعالج منذ الصغر بالتزام الصدق ظهرت آثاره في مرحلة الكبر، وحجتنا دراسة نشرتها صحيفة **الواشنطن بوسط** نقلا عن مجلة أمريكية متخصصة في علم النفس، وتركز الدراسة على الدور الذي يلعبه الكذب في حياة الإنسان، تقول الدراسة : «إن الأطفال يلجأون إلى الكذب لنفس الأسباب التي تدفع الكبار إليه مثل تجنب العقوبات على أفعال ارتكبوها أو محاولة إيجاد إعذار أو مبررات لتلك الأفعال أو لأنهم يريدون الحصول على شيء معين»[6] وتوكد الدراسة «أن متوسط عدد المرات التي يلجأ فيها الكبار إلى الكذب لا يقل عن 12 مرة كل أسبوع فما بالك بالصغار.

والصغار الذين ينشأون بين أبوين مبدؤهما الغاية تبرر الوسيلة عادة ما يلجأون إلى الكذب مقتدين بآبائهم الذين لا يترددون أبدا في اللجوء إليه للحصول على ما يريدون كما يقول الدكتور «بول اكمان» الأستاذ بجامعة سان فرنسيسكو بكاليفورنيا، ولكن هناك وجهة نظر أخرى في الكذب يعرفها الدكتور «أورلاند جولد بيرغ» أستاذ علم النفس في جامعة شيكاغو تتلخص في أن الكذب عند الأطفال يعتبر مرحلة طبيعية من مراحل نموهم مثلها مثل الصدق»[7].

وتقول الدراسة «إن التجارب أثبتت أن الأطفال الذين دأبوا على الكذب وأصبح سمة من سماتهم المميزة وقعوا في مشاكل أكبر عندما تقدم بهم العمر ودخلوا في مرحلة الشباب ثم الرجولة»[8].

وكم أمر الله في كتابه الكريم بالصدق ودعا المؤمنين إلى التزامه لأنه خُلُقٌ رفيع ومن مكارم الأخلاق ومن فضائل الدين الحنيف وصفات المجتمع الإسلامي، وصدق الله العظيم : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾.

(التوبة : 119)

إن الدور الإيجابي للأسرة يتمثل دائما في القدوة الحسنة، فليكن الوالدان دوما مثلا يحتذى، يدعو إلى البر تلقائيا ويشجع على فعل الخير عن طواعية والتزام السلوك الطيب في الحياة على الدوام، وهنا أفسح المجال لصاحب مباهج الفلسفة، يقول : «إذا شئت أن يكون ابنك مؤدبا فكن مؤدبا وإذا شئت أن يكون مرتبا فكن أنت كذلك ولست بعد ذلك في حاجة إلى شيء آخر، إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل، حتى تحت ضغط الاثارة الشديدة إنما ترسخ في نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية فآداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر، وهذا شيء صعب يكاد يتطلب منا ان نعيد تربية أنفسنا، وبهذا الطريق يربينا أطفالنا. وكم نزل رجال الأخلاق في العصر الحاضر من هذه المبادئ الرفيعة إلى حضيض التصالح المبتذل وفقدوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف، إنني أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعني حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به»[9].

هكذا يقول ول ديو رانت «حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به». ولكن رسول الإسلام قد طبق ما بعث به وما أمره به من مبادئ وتعاليم وفضائل وأخلاق، وكانت التلبية

---

5) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

6) عن صحيفة عمان، العدد الأسبوعي رقم 2565 بتاريخ 10 شوال 1408 موافق 26 مايو 1988 بتصرف.

7) نفس المرجع بتصرف.

8) نفس المرجع بتصرف.

9) عن كتاب مباهج الفلسفة المشار إليه، ج 1 من 245 ـ 246 لصاحبه ول ديورانت طبعة 1955 ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني.

الفورية للمؤمنين به لأنه ﷺ كان مثالا حيا ونموذجا واقعيا، ويكفينا في التدليل على واقعيته وأخلاقيته الرفيعة التي تستقطب وتحفز الإنسان للتأسي به والاهتداء بهدية قوله تعالى : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (القلم : 4).

كان صلوات الله عليه خير أسوة لأن ربه أدبه فأحسن تأديبه كما قال عن نفسه، وهو تأديب للتطبيق لأن المؤدب بشر مبعوث إلى البشر، وكانت سرعة الاستجابة له لأنه كان قدوة صالحة وهذا ما يحتاج إليه بإلحاح المربون والوعاظ والدعاة والمصلحون، ورعاية الصغار واستجاباتهم للكبار لا يمكن أن تتحقق حتى تكون في الكبار الناحية الخلقية والتربوية مجسمة فيهم، فهذه العملية التطبيقية هي التي تؤكد بصدق رحمة الكبار بالصغار وتدعوالصغار لاحترام الكبار، وهذا ما لمسناه في حياة رسول الله ﷺ الذي كان عمليا وواقعيا في دعوته للاهتمام والعناية بأجيال الغد.

إن الرعاية الاجتماعية التي يحتاج إليها شبابنا من الصغر تجمعها كلها هذه الأحاديث النبوية الرائدة : «أرجعوا إلى أهليكم فكونوا فيهم وعلموهم وبروهم»[10]، «من كان له صبي فليتصاب له»[11]، «بيت لا صبيان فيه لا بركة فيه»[12]، «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل»[13]، «ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء»[14] «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات»[15]، «إن من لا يرحم لا يرحم»[16] وهذا الحديث الشريف التوجيهي الذي يفيض حنانا وحبا خاطب به الرسول المربى الاقرع ابن حابس حينما رأى رسول الله يقبل ولده الحسن، فقال له متعجبا : «إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم» فكان توجيه الرسول الكريم له بأن فعله مع أولاده يدل على عدم الرحمة وفقدان عنصر الحب في قلبه لهم.

والرعاية الاجتماعية لكي تتحقق لابد أن تكون مرتبطة بالقدوة، والقدوة المطلوبة يمكن تحقيقها من جديد بتأمل السيرة الشريفة واستلهام الآية الكريمة : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾ (الممتحنة : 6).

الرباط : محمد الإدريسي

10) رواه البخاري ومسلم.
11) رواه ابن عساكر عن معاوية.
12) أبو الشيخ ابن حبان.
13) ابن النجار عن النعمان ابن بشير الأنصاري.
14) رواه الطبراني والخطيب.
15) رواه أحمد والطبراني عن عقبه ابن عامر.
16) رواه أحمد في مسنده.



للأستاذ الحاج أحمد معنينو

تاريخ إنشائه 4 يوليوز 1956 برغبة من شباب المغرب :

عندما بلغ سمو الأمير مولاي الحسن رئيس أركان القوات الملكية المسلحة وسلطان المغرب حالاً أمد الله في عمره. الذكرى السابعة والعشرين لميلاده، واستجابة لإلحاح الشباب المغربي، ورغبته في الاحتفال بهذا اليوم الأغر واتخاذه عيداً للشباب، ونظراً للرسائل العديدة التي تواردت على كتابة الدولة في الشبيبة والرياضة من جميع أنحاء المغرب في هذا الشأن، التمس كاتب الدولة في الشبيبة والرياضة، سابقا، السيد أحمد بن سودة في حكومة الاستقلال الأولى سنة 1956 من صاحب الجلالة الملك المفدى محمد الخامس طيب الله ضريحه، أن يتفضل جلالته بالإذن الكريم للشباب بإقامة هذا اليوم عيداً للشباب، ذكرى سنوية.. كلما حلت ذكرى ولادته حفظه الله، فاستجاب جلالته وصدر إذنه الكريم باتخاذ هذا اليوم الأغر عيداً للشباب «والشباب عمدة الشعوب»... وتاريخ ميلاد صاحب السمو : فجر يوم الأحد 9 يوليوز 1929.

وهكذا اتخذ هذا اليوم الأغر عيداً للشباب، فكلما حلت هاته الذكرى العظيمة يقام عيدٌ وطني للشباب... وبزوغ فجر يوم 9 يوليوز لسنة 1988م.

يخلد شباب المغرب وشاباته المهرجانات والتجمعات الأدبية والعلمية الرفيعة بالأفراح والارتياح.

ولقد صادف ذلك اليوم العظيم ـ انضمام أعضاء جيش التحرير للقوات الملكية المسلحة : هاته القوة التي تعد بحق الدرع الواقية لأمجاد المغرب العزيز وتتجدد هذه الروح القوية بالإيمان والفتوة بتجديد قوة جيشنا الباسل في الحفاظ على كيان هذا الشعب، والذب عن كرامته وصيانة جميع أطرافه. وحدوده شرقاً وغرباً يميناً وشمالاً كما يتجدد التقدم والعمران وينشر العلم والعرفان والازدهار والرقي المادي والأدبي.

كتاب توجيهي من جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ضريحه لفلذة كبده وولي عهده والخلف من بعده، ورفيقه في كل خطواته وحركاته وسكناته دام له النصر والتأييد، وصايا



تلاحم حقيقي جسّده لقاء الوطنيين الشباب من سلا، والرباط، وفاس، في حفل أقيم إثر إطلاق سراحهم سنة 1932.
نجد في الصورة على الخصوص : علال الفاسي، سعيد حجي، محمد اليزيدي، أحمد بناني، أبو بكر القادري، الحاج عابد معنينو، عبد اللطيف الصبيحي وابن احساين.



حفل استقبال أقيم على شرف الوطنيين الذين أطلق سراحهم بالدار البيضاء في دجنبر 1936، إثر مظاهرات أكتوبر.

ذهبية من أب عظيم إلى ولد بار : «...يابني في هذا اليوم الأغر الزاهي الزاهر، تحتفل الأمة المغربية بذكرى ميلادك، وقد أظهر الله عليك نعمته، فاهتزت الأقطار لهذه الذكرى اهتزازاً، وحج الناس إليك أفواجا وقد أبى الله يابني، ألا أن تولد في أوائل عهدنا السعيد، وتولينا تدبير شؤونها في عهد احتدم فيه الصراع بين الحق والباطل، وتأججت شرارة الكفاح ما بين مستعبد، وشعب مناضل ويأبى الله ألا أن يكون أول احتفال بعيد ميلادك في عهد أضحى فيه الحق أبلج، والباطل لجلج.

ولقد عاهد الله والدك أن يحارب في واجهتين، فكان يكافح لاسترجاع حرية البلاد، ويعمل في آن واحد لتربية أبنائه وبناته، وفي مقدمتهم أنت يابني لتكون نموذجا للعباد ؟

يابني : لقد اخترت لك من الأسماء «الحسن» لأربط بين حاضر البلاد وماضيها : القريب والبعيد، وليكون لك في جدك «المولى الحسن» خير أسوة، وأعظم قدوة، فلم تكن تطل على السادسة من عمرك : حتى قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن، وليغرس في قلبك الطاهر التي حب الدين وعزة العروبة والإسلام، ولما ترعرعت يابني اخترت بقاءك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافي في بيئة مغربية»...

أجل هكذا نشأ محمد الخامس فلذة كبده وولي عهده ووارث سره، وأعز الناس لديه، ونعم ما فعل، فلقد أتت هذه التربية الإسلامية المغربية أكلها كل حين بإذن ربها، وأثمرت هذه النظرة الربانية» شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء» وأن تنبؤات المولى محمد الخامس بمستقبل ولده وولي عهده برزت للعيان في سلوك المولى الحسن في كل خطواته وأعطت البرهان على صدق فراسة الملك...

أجل، فجلالة الحسن الثاني يبرهن كل سنة على حيوية الشباب ونشاطه، والحب للبلاد والشغف بأبناء قومه، يبرهن على أنه خلق للمغرب ولخدمة المغرب. ولصلاح المغرب، ولعزته ورفاهيته، ليبرهن على أنه الشاب أو الكهل المثالي في توجيهاته ومشاريعه الإنمائية. وتطلعاته العمرانية. الأدبية والثقافية والتجارية والاجتماعية والسياسية... وأخيرا الجهادية والدفاعية، ولنا أن نتمثل بما قاله وزير الشباب في ذلك اليوم الأغر :

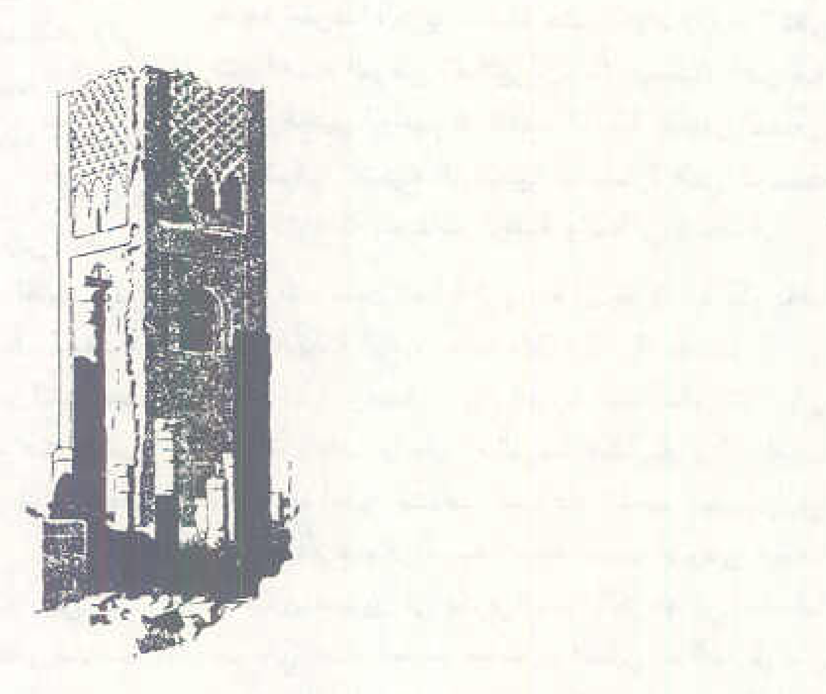
«في هذا اليوم المشرق الرائع حيث يهتز المغرب من أقصاه إلى أقصاه. ويتجمع الشباب المتحمس الفتي في صعيد واحد للاحتفال بذكرى مولدكم السعيد، وأتشرف بخطاب جلالتكم فنحيي ملك البلاد جلالة الملك الحسن الثاني بهذا اليوم الأغر والذكرى الخالدة، ونحيي رئيس أركان القوات الملكية المسلحة التي ترابط اليوم في حدود مغربنا العزيز حاملة علم الجهاد وراية الظفر ضد أعداء الوطن العاقين، تبذل بسخاء أعز ما تملك نحيي الزعيم المكافح. النابغة القدير المغامر والحقوقي الضليع الشخصية الممتازة التي تجمعت فيها كل هاته الصفات الراقية والمعاني السامية.

فلقد شاءت العناية الربانية أن يقترن شبابكم الغض بربيع النهضة الزاهرة، والبطولة المثالية، والخلق الكريم أطيب ثمرة، وأجمل عنوان للمغرب الجديد، التواق إلى العظمة والمجد والخلود، فالتربية المثالية، والاتجاهات المحمودة أعطى صاحب الجلالة للشعب المغربي أروع نموذج، وأبرع مثال للتربية القومية الصحيحة، وعلى غرارها يا مولاي تسيرون في تكوين الأسرة الكريمة في المقدمة سمو ولي العهد المفدى وتقدمون الدليل تلو الدليل على سمو روح الشباب القوية التي تتدفق منها ينابيع الحكمة في السلوك بالدولة وبالشعب وبالأمة. فكل أيامكم كفاح للشباب.

وكل حركاتكم وسكناتكم منهج للشباب. وجميع مبادرتكم إلى يوم الناس قدوة للشباب. دامت سلامتكم وتوالت نعم الله عليكم بالعافية والتوفيق والسداد، وكل ذكرى شبابكم تقترن باليمن والاسعاد، وتمتاز بالنبل ومكارم الأخلاق وتبرهن على نفسكم التواقة للأمجاد

وسلامة الأوطان، واستتباب العدل والطمأنينة وتوالي التقدم والعمران، وهكذا يتكون في مطلع كل ذكرى جلالتكم جيل من الشباب الناهض يجعل همته في الحياة تتبع آثاركم والقدوة بسيرتكم فالمعلم في المدرسة، والأبوان في البيت، والمربي في النادي، والمدرب في الميدان كل يجد في شخصكم أكبر مثال، وأروع نموذج يغرس في نفوس الشباب القوة والعزيمة والتطلع إلى المعالي... حفظ الله مولانا الملك، وأقر عينه بسمو ولي العهد، وبأصحاب السمو الأمراء والأميرات حفظهم الله، وحفظ الأسرة العلوية جمعاء، وأبقاها حصنا حصينا للوطن والشعب، وكل عام وجلالتكم تمدون الشباب بالحيوية وبالعبقرية وبالتقدم والازدهار في دائرة العروبة والإسلام.

سلا : ج. أحمد معنينو



ناظر الوقف

وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي

للأستاذ محمد بنعبد الله

II - ناظر الوقف، وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي...

في الحلقة السابقة، تحدثنا عن وظيفة الناظر في المجال التعليمي، وقلنا بأن وظيفة الناظر، منذ القديم، كانت الوظيفة الإدارية الأولى في المدرسة، وفي كثير من الأحيان كانت وظيفتا المدرس، والناظر تجمعان في شخص واحد...

والناظر هو المدير العام للمدرسة، يتولى شؤونها المختلفة، ويؤجر العقارات الموقوفة عليها، ويتولى صيانتها، ويشتري لوازمها، ويصرف الرواتب والمخصصات والمكافآت للطلبة والعلماء والموظفين، إذ أن مؤسسة الوقف لم تكن مسؤولة عن تدبير الأموال فحسب، بل إنها كانت مسؤولة عن التشريعات التي تنهض بالتعليم في المدارس، كما تدلنا عليه الحجج الوقفية، وكما سنتحدث عنه بالتفصيل في هذه الحلقات...

ولقد قويت الصلة بين المدرسة، ووظيفة النظارة والقضاء، بحكم تفرغ الأولى لدراسة العلم والتشريع والفقه... وقيام الثانية على تنفيذ الشريعة والحكم بين الناس بقانونها...

ومن هنا ظهر نظام الجمع بين وظائف النظر على أوقاف المدرسة والتدريس بها وولاية القضاء، وأصبح ذلك تقليداً متبعاً في الدولة الأيوبية وطيلة الدولتين المملوكتين فيما بعد، فكان القاضي يتولى التدريس، والنظر إلى أوقاف المدرسة في وقت واحد إلى جانب قيامه بالقضاء.[1]

وكانت الأوقاف أهم موارد التعليم عند المسلمين، وكان المشرف على وقف المسجد هو المدير الفعلي له، ومن ثم نشأ نوع جديد من المديرين للجامعات منذ مطلع القرن الثالث الهجري على وجه التقريب، أولئك هم نظار الأوقاف، والمشرفون عليها...

وكانت الدولة الإسلامية تعين ناظراً على أوقاف الأزهر، أو جامع الزيتونة أو جامع القرويين، فالناظر على أوقاف الأزهر وإدارتها والصرف على الأزهر[2] كان في العصر المملوكي والعصر العثماني وشيئاً فشيئاً تدخل العلماء إلى أن أصبحوا يتولون النظارة على أوقاف الأزهر، وعلى كثير من الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس وخاصة في نهاية العصر العثماني...

من أجل هذا، وجدت الأوقاف، أصلاً، لحمل الدعوة وتبليغها، والدعاة الإسلاميون، هم، وحدهم جنود التبليغ، فالوقف قام بدور فعّال في مختلف العصور، ولعب دوراً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، كان له الأثر في تكييف الأجهزة المسؤولة في الدولة، وتخفيف الوطأة إلى حد بعيد على الميزانية العمومية، وكفل للعديد من العلماء أرزاقهم

1) تاريخ الجماعات الإسلامية الكبرى ص : 204.

2) «مصر في القرن الثامن عشر» محمود الشرقاوي، ص : 2/178.

كي يتفرغوا لشؤونهم العلمية، إذ ينبغي لطالب العلم، ألا يشتغل بشيء آخر، غير العلم..

وهكذا استخدمت الجماعة الإسلامية مساجدها معاهد للتعليم، لأن العلم كان دائماً من اختصاص الجماعة الإسلامية، فلم تكن دول الخلافة، أو دول السلاطين، مسؤولة عن التعليم، حتى في عصر الراشدين، وإنما كان التعليم من اختصاص الأفراد والجماعات، فكانت الجماعة تتكفل بأرزاق ومعاش المعلمين، سواء كانوا معلمين صغاراً يعلمون الصبيان القرآن، والكتابة، ويحفظونهم القرآن، أو شيوخاً يقرأون علمهم على طلابهم في المسجد في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب...

ففي الصين، عالم صيني فاضل، ترك بصمات لا تمحى في سيرة التعليم الديني هو «خونغ تشو» الذي يلقبونه بـ : أستاذ الأساتذة، لأنه أول عالم مسلم في الصين، حوّل المساجد إلى مدارس في القرن السادس عشر، وأدخل التعليم الديني ضمن مسؤولية الإمام، ورسالة المسجد،[3] ذلك الإمام الذي يتفرغ بصفة نهاية للتعليم داخل نطاق المسجد...

ولقد كان يؤثر عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : «لو كلفت بشراء بصلة ما حفظت شيئاً من العلم..» فهذه الكلمة المأثورة ليست حكمة تظهر فعالية التفرغ للعلم فحسب، ولكنها تضيء جانبا من الظروف الاجتماعية والثقافية لعصر أبي حنيفة، حيث يبدو المجتمع بمؤسساته، وكأنما يحمل عن الإمام عبء التكليف المعاشي ليصبح الإمام مقياس العصر، وسمته في جانبه الفكري والحضاري، ومثل أبي حنيفة غيره، من علماء الحضارة وفلاسفتها، ولقد تضافرت الإمكانات المادية، بعد ذلك، لتخلف ركب الفكر والثقافة، وتطامنت لأيدي الفنانين في صورة نقوش، وإبداع العقل، وصفاء الروح...

وهكذا كفل الوقف للعديد من العلماء، دعاة الإصلاح، ورواد التجديد، وحراس العقيدة، فرص العيش الكريم. تضمن الاستقرار، وهدوء البال، وراحة الضمير، حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه المطلوب، في عز وشهامة، واعتزاز بالدعوة الإسلامية الصحيحة، التي يضطلعون بتحمل أعبائها، فيصدعون بكلمة الحق، يشغفهم حب الخير، ويستمسكون بروح الله وتوفيقه على عصف الخطوب، وإلحاح المكايد، وخبيث المؤامرات، ويرفعون صوت النصح بقوة ووضوح، وصلابة وشجاعة، بالتي هي أرفق، وأدعى إلى القبول، ويقاومون من يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة... كما يقومون بالدفاع في وجه كل خطأ، وأمام أي بادرة انحراف أو ازورار عن الجادة والصواب.

وهكذا يجب أن يكون للإمام كغيره من الدعاة حماة الشريعة حصانة تكفل له استقلاله الفكري، وتضمن له رأيه الحر، حتى يكون بعيداً عن مواطن الذل والملق، ومساكن الفقر الجهل، ومكامن الموت والخمول... وبذلك يتأتى له أن يتناول مشاكل المسلمين وقضاياهم في إطار الشريعة الإسلامية في شجاعة أدبية مومنة...

☆ ☆ ☆

ولما كان ملوك الإسلام هم أولى الناس معرفة بقدر الخاصة في سائر الأقطار، وأحق بتعظيم العلماء ومعاملتهم بالتكرمة والتجلة والوقار، أجْرَوا لهم المرتبات، قديماً وحديثاً، على مدى الأعصار، ووسعوا عليهم بالعطاء الذي يجل عن المقدار، إعانة لهم على حفظ الشريعة وإقامتها، ورعاية لمنصبها العلي، وسعياً في إذاعتها...

ولذا كتب الشيخ محيي الدين النووي، رحمه الله، كتاباً بعثه لأمير وقته يستعطفه فيه، ويعرفه بما اوجب الله لأهل العلم من التعظيم والاحترام والتوقير الشامل العام، لما أراد أن يقطع المرتبات الوقفية في بعض الأيام، ونصه بعد الحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله : «ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم وثناء الله عليهم وبيانه مرتبتهم على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم،

3) دراسة لا تنشر لباحث صيني مسلم طلب عدم الإشارة إلى اسمه إلا بحرفي(ل.هـ) عن :« «الإسلام في الصين» فهمي هو يدي ص : 82.

فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم حتى الحوت في الماء، واللائق بالجانب المعني إكرام هذه الطائفة، والإحسان إليهم ومعاضدتهم ورفع المكروهات عنهم، والنظر بما فيه رفق بهم، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به...» وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة العلم : «مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، ان رسول الله ﷺ قال : «إن رجالا يأتونكم يتفقهون، فاستوصوا بهم خيراً، والمسؤول أن لا تغير هذه الطائفة شيئاً وتستجاب دعوتهم...» وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم..؟» وقد أحاطت العلوم بما اجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلب العلم، فقال : «أقمت لك جنداً لا ترد سهامهم بالأسحار» فاستصوب فعله، وساعده، والله المسؤول أن يوفق الجناب دائماً لمرضاته، والمسارعة إلى طاعته وأجزل لهم العطايا والصلات...

☆ ☆ ☆

ولما كان ناظر الوقف هو المشرف خلال فترات التاريخ الإسلامية على شؤون التعليم، والاطلاع والاشراف على مناهج الدراسة، والمدير العام للمدرسة والمعهد، يتولى شؤونهما المختلفة، ويشرف على اختيار المعلمين والمرشدين،كان، لابد، وأن تكون له، وفي عهده، مناهج تربوية في مسائل التعليم، واهتمام خاص بأمر الطفولة... وقد وجب علينا أن نتحدث، ضمن هذه السلسلة من الأبحاث عن ناظر الوقف، عن الأساليب التربوية التي عرفتها عهود الإسلام الزاهرة، وتحت إشراف ناظر الوقف...

ولعل من التهم والشبهات التي يغالط فيها شبابنا العربي المسلم، اليوم، زعم بعض المستشرقين من أمثال «كرادڤو»، أنه لم يوجد في الشرق ذوق فطري للتعليم، ولا اهتمام بأمر الطفولة.

وغرضنا من هذه الدراسات التي تتعلق باهتمام «ناظر الوقف» بقضايا التعليم وشؤونه وشجونه هو إزالة الشبهات من أذهان الناس، وإبطال تلك الخرافات والمزاعم التي تدعي بأن المسلمين ليست لهم معرفة بقضايا التعليم، وخبرة فنية وتربوية بشؤونه...

وعلينا أن نعلم بأن هناك تربية إسلامية، وتعليما إسلاميا منذ القرون الأولى، بل إن هناك مؤلفات تربوية وبيداغوجية وضعها مفكرون إسلاميون أمثال أبي سحنون والغزالي والقابسي وابن خلدون وغيرهم... ولم يضعها المسيحيون العرب كما ذكر المستشرق الفرنسي «كرادوڤو»...

وفي هذا الصدد يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق : «إن المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم في ميدان التربية والتعليم، فقد كتب أئمتهم ومفكروهم في موضوع التربية والتعليم منذ القرون الأولى، وكانت لهم أنظار طريفة لم يخلق تطاول الزمن جدتها»...

ويقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه : «التربية في الإسلام» «لا نزاع في أن العرب قد بلغوا في القرون الأولى الإسلامية درجة عظيمة من الحضارة، انتشرت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولا حضارة بغير علم، ولا عمل بغير تعليم، ولا تعليم بغير نظام معين يرتب الصلة بين المعلمين والتلاميذ، ويفصل المناهج وطرق التربية وسائر ما يتصل بالتعليم من أدوات».

وهناك سوابق تربوية وتعليمية في «رسائل إخوان الصفا»، وكتاب : «تهذيب الأخلاق، وتطهير الأعراق» لأحمد بن مسكويه، وكتاب «السياسة» لابن سينا، وكتاب «تذكرة السامع والمتكلم، في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة، و«اللؤلؤ النظيم، في روم التعلم والتعليم» لزكريا الأنصاري، و«تحرير المقال، في آداب وأحكام، يحتاج إليها مؤدب الأطفال» لابن حجر الهيثمي، و«منهاج المتعلم» المنسوب للغزالي، وكتاب : «تعليم المتعلم» للزرنوجي، وفي مقدمة ابن خلدون... كما سيأتي بيانه...

ويتحدث الدكتور الأهواني في كتابه عن رسالة القابسي في تعليم الأطفال، فيؤكد أنها من الحجج التي تذهب بالوهم الذي علق الاذهان، وهو أن المسلمين لم يهتموا بتعليم الأطفال، وتثبت أن المسلمين ابتكروا في

التربية آراء جديدة لم يصطنعوها عن العرب المسيحيين، أو ينقلوها عن التراجم اليونانية واللاتينية...

ورسالة القابسي هذه ترفعه إلى قائمة قادة التربية، وتضعه في سجل المبرزين... فهي ترسم منهجا تربويا رائعا، يشمل واجب الآباء نحو أبنائهم، ومؤهلات المعلمين ومسؤولياتهم، وطرائق تعليم الأطفال، ومراقبة سلوكهم، وتحديد العقوبات التي ينبغي أن تنزل بالمخالفين منهم من النهي عن عقوبة الانتقام، وتعويد الأطفال على الاستقلال الشخصي، والرفق في معاملتهم، وقد دعا القابسي في رسالته إلى تعليم البنات في حدود طبيعتهن ووظيفتهن، كما نادى بالتعليم الالزامي... فدل بذلك على تقدم الفكر الإسلامي التربوي وعلى سبقه للحضارة العصرية...

ولقد سبق ابن سينا إلى القول بمسايرة ميول الطفل، ثم توجيهه إلى الصناعة والمهنة التي تتفق مع ميوله... فقد ألزم معلم الطفل أن يسبر قريحته، ويزن طبعه، ويختبر ذكاءه... ثم يختار له الصناعة التي تتفق مع استعداده، وهو رأي كما يقول الدكتور الأهواني، من الآراء الحديثة في التربية وعلم النفس...

☆ ☆ ☆

مراكز التعلم :

كان التلاميذ والطلبة يتعلمون بطرق مختلفة، ومناهج متنوعة بحسب الوسائل والامكانات، فيتعلمون القرآن والقراءة والكتابة في بيوت المعلمين أو في بيوت مخصصة للتعليم والتلقين... فكانت مراكز التعليم هي الكتاتيب لتعليم القرآن، وهي بيوت وغرف مخصصة لتعليم الولدان كتاب الله...

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر في باب العبادلة[4]، عبد الله بن أم مكتوم الأعمى القرشي العامري، فقال نقلا عن الواقدي : قدم المدينة مع مصعب بن عمير بعد بدر بيسير، فنزل دار القراء[5]...

وان الحلقات العلمية التي أسست في عهد النبي ﷺ بالمدينة ومكة والطائف وصنعاء والبحرين، قد توسعت وازدهرت في عهد الخلفاء الراشدين... وأسس بعض الصحابة مراكز علمية جديدة في عواصم البلاد المفتوحة كالبصرة وحمص والكوفة ودمشق والفسطاط، إما بأمر عمر، أو من عند أنفسهم...

ولم يكتف النبي عليه السلام بالأوامر والوصايا، بل أفرغها في قالب عملي، فأرسل المعلمين إلى كل بلد من البلاد التي بلغتها دعوة الإسلام ليعلموا الناس هناك، ومنهم أربعون معلما، قتلوا في حادثة بئر معونة، ومنهم من أرسلوا إلى نجران واليمن، وقد بدأ النبي عليه السلام يبعث المعلمين إلى أقوام مختلفة قبل الهجرة، ومن هؤلاء المعلمين مصعب بن عمير، وعبد الله بن أم مكتوم...

وكان جزء من مسجد النبي ﷺ بالمدينة قد خص ليكون مدرسة. وعين فيها عبد الله بن سعيد بن العاص معلما يعلم الأولاد الكتابة[6]...

ونقرأ في سيرة النبي عليه السلام أن بعض أسارى بدر أطلقوا، على أن يعلم كل واحد منهم القراءة والكتابة عشرة غلمان من غلمان المدينة[7]...

فالكتابة لم تنتشر بين العرب، بصورة عامة وعريضة، إلا في عصر النبي عليه السلام للحاجة إليها في كتابة الوحي والرسائل التي كان ينفذها ﷺ إلى الملوك[8]... وقد أمر بعد غزوة بدر من لم يكن له فداء من الأسرى أن

---

4) «الاستيعاب» ص : 347.
5) دار القراء هي دار مخرمة بن نوفل، (طبقات بن سعد ص : 4/150.
6) الإصابة، في تمييز الصحابة لأبي حجر العسقلاني القاهرة : 1358 ـ 1939 رقم 1777، وذكر الحافظ عماد الدين بن كثير أن علماء بغداد منعوا في بعض السنين تعليم الأطفال في المساجد. (لطائف المنن ص : 2/50).
7) طبقا بن سعد، ص : 2/14 و2/22، بيروت 1957.

8) انظر : «منشأ الخط العربي، وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين» للأستاذ ناصر النقشبندي مجلة : «سومر» مج 3/ج : 1947/1، وكذلك : «أصل الخط العربي، وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام» بقلم : د. خليل يحيى نامي، مجلة كلية الآداب في جامعة القاهرة 3 ـ القاهرة : 1935 ع :1 «وأول من وضع الكتابة» لابن عبد ربه ضمن كتابه : العقد الفريد.

يعلم عشرة من غلمان المدينة الكتابة... وكان أهل مكة يكتبون، فإذا حذقوا فهو فداؤه، كما رواه ابن سعد من مرسل الشعبي كما في شرح المواهب، وكانت قبل ذلك قليلة في العرب[9].

وقد ذكر بعض المؤرخين أنه جاء الإسلام، وليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنسانا، وهم علي أبي أبي طالب كرم الله وجهه، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجهيم بن الصلت ابن مخرمة[10]... ولعل المقصود أن هؤلاء كانوا أشهر من كان يجيد الكتابة قبل عصر الرسالة المحمدية...

ولقد جاء الإسلام، فكان تاجا لنهضة علمية وأدبية وسياسية واجتماعية وأخلاقية في الحدود التي كان يستطيعها العرب، فقد نزل القرآن بلغة العرب، ففهموه أصدق الفهم، ووصل إلى قرارة نفوس المومنين، فملأها روحا ويقينا، واستثار الدفائن من صدور المشركين، فأعلنوا ما في قلوبهم من غيظ، وما في رؤوسهم من عناد، ولقد ذهب الدكتور زكي مبارك رحمه الله بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلي، وأنه دليل على أن العرب كان لهم أدب ونثر فني قبل عصر النبوة بأجيال، يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام، ودونها القرآن...

وفي «المطالع النصرية في الأصول الخطية» لأبي الوفاء نصر الهوريني المصري الشافعي : «لم تكثر الكتابة العربية في المدينة إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلا من صناديد قريش وغيرهم في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة، جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال، أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة، فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم، فبذلك كثرت فيهم الكتابة... وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته عليه السلام وبعده، حتى بلغت عدة كتابه عليه السلام اثنين وأربعين رجلا، كما أشار إلى ذلك الزين العراقي في الفية السيرة[11]...

قال الشيخ عبد الفتاح عبادة، في : كتاب «انتشار الخط العربي» : فكان ذلك أول مدرسة عرفت لتخريج الكتبة من المسلمين... وأرسل الخليفة عمر بن الخطاب في النصف الثاني من خلافته جماعة من الصحابة إلى البصرة مع أبي موسى الأشعري الذي كان واليا عليها ليعلم أهلها القرآن، وأيضا في عام 21 هـ أرسل عمر عبد الله بن مسعود إلى الكوفة ليعلم القرآن لأهلها...

وازداد النشاط العلمي في عهد الخليفتين، عثمان وعلي، لأن الموالي أقبلوا على تعلم العربية وقراءتها وكتابتها ليؤهلوا أنفسهم للمناصب كالمعلمين وأمناء الخزانة والحساب والكتبة في الدواوين وكتاب الرسائل والمعاونين في ديوان الحكومة...

وقد وردت في كتب التاريخ أسماء بعض النصارى الذين كانوا يعلمون الأطفال بالمدينة في خلافة عمر، وهم أسارى، أخذوا في غزوات الشام، ومنهم رجل اسمه جفينة وبعض نصارى بيزنطيين[12]... فلقد كانت صناعة التعليم من الصنائع الشريفة التي دخلت بين العرب بفضل النصرانية... كما كان شيوع المدارس، أولا، بين الأمم المجاورة للعرب كالكلدان والسريان في العراق وما بين

9) «الخط العربي. وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام»، و«أول من وضع الخط، ومن هو واضع الخط العربي، ومن نقله عن الكوفي إلى ما هو عليه الآن «للقلقشندي، أحمد بن علي، (ت : 821 هـ 1418، ضمن كتابه : «ضوء الصبح المسفر» تحقيق : محمود سلامة مط : الواعظ ـ القاهرة 1906 ص : 181 ـ 191.

10) «العقد الفريد ص : 4/212. تحقيق سعيد العريان.

11) «صبح الأعشى» ص : 14/115.

12) طبقات ابن سعد ص : 3/356، فتوح البلدان، للبلاذري ص : 149.

النهرين، وكالروم في جهات الشام وفلسطين، فلما تنصر العرب أخذ أحداثهم يترددون على المعلمين المنصوبين للتعليم في الجهات المجاورة لمساكن قبائلهم في مدارس كانوا يدعونها بالاسكولات، وهي كلمة دخيلة استعارها السريان من اليونانية، اشتهر منها مدارس الرها، ونصيبين والمدائن والحيرة ودمشق... ومع أن التعليم في هذه المدارس كان في السريانية أو اليونانية لم يعدم العرب فيها وسائل لدرس لغتهم[13]...

ومما يؤيد الأمر أخبار بعض شعراء العرب، فمن ذلك ما ورد في كتاب «الأغاني» عن المرقش الأكبر حيث قال : «وكان مرقش يكتب، وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة، وكانا أحب ولده إليه، إلى نصراني من أهل الحيرة، فعلمهما الخط» وروي في «الأغاني» أيضا، عن عدي بن زيد أن أباه زيد طرحه في الكتاب مذ نشأ، ثم أرسله مع «شاهان مرد» إلى كتاب الفارسية حيث «تعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها، وأفصحهم بالعربية» إلى أن صار كاتبا للملك النعمان، وقد ذكر صاحب الأغاني في محل آخر فضل معلم نصراني على سواه في البصرة في عهد بني أمية وولاية الحجاج، وقد ذكرنا سابقا كما ورد في طبقات بن سعد أن في عهد عمر بن الخطاب كان جفينة النصراني من أهل الحيرة يعلم الكتاب في المدينة، وذلك بعد أن أمر عمر بخروج النصارى من جزيرة العرب، وفيه دليل على حاجة المسلمين في أوائل الإسلام إلى المعلمين[14]...

وفي قائمة المعليمن التي سردها قدماء الكتبة كالجاحظ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة في كتاب «المعارف» وابن رسته في «الاعلاق النفيسة» أسماء ذميين وموال من نصارى ويهود كانوا يتعاطون مهنة التعليم...

وتعلم أهل مكة الكتابة من بشر بن عبد الملك النصراني أخي أكيدر الكندي صاحب دومة الجندل[15] وفي فضل بشر على قريش قال أحد شعراء كندة منشدا :

لا تجحدوا نعماءَ «بشرٍ» عليكم
فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجَزْمِ[16] حتى حفظتم
من المال، ما قد كان شتى، مبعثرا،
وأتقنتم ما كان بالمال مهملا،
وطمأنتم ما كان منه مُنَفّرا،
فأجريتم الأقلام عَوْداً، وبَدأةً،
وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا،
وأغنيتم عن مسند الحي حميرا
وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

لقد كانت صناعة التعليم، كما تدل على شيوعها هذه الشواهد، منتشرة بين العرب في جاهليتها، وقد اشتهرت قبيلة إياد بمعرفة الكتابة، فقال فيهم أمية[17] ابن أبي الصلت الثقفي يفتخر بقومه إياد لعلمهم بالكتابة :

قومي إياد إنهم أمّمٌ
أو : لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق، إذا
ساروا جميعا، والقط[18] والقلم

ومثلهم الحميريون، ولا سيما نصارى نجران، وإنما كانوا يكتبون الخط المعروف بالمسند. قال ابن خلدون في مقدمته :[19] «وكان لحمير كتابة تسمى «المسند» حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم، ومن حمير

---

13) «النصرانية وآدابها» للأب لويس شيخو اليسوعي ص : 389/ القسم II
14) المصدر السابق ص : 390/ق 2.
15) المزهر : للسيوطي ص : 1/39.
16) كان العرب يسمون الكتابة بالجزم، أي الفصل، سواء فصلوها عن خط حمير المعروف بالمسند، أو بالحري لفصلها عن الحروف الكلدانية، وهي أقرب إليها (انظر : المزهر، للسيوطي /39).
17) سيرة ابن هشام ص : 1/67، ط : دار الفكر.
18) القط : ما قط من الكاغد والرق ونحوه، وذلك أن الكتابة كانت في تلك البلاد التي ساروا إليها وقد قيل لقريش : ممن تعلمتم القط ؟ فقالوا : «تعلمناه من أهل الحيرة وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار» (الروض الأنف للسهيلي ص : 1/68).
19) «مقدمة ابن خلدون» ص : 3/952 تحقيق على عبد الواحد وافي...

تعلمت مضر الكتابة العربية» وإلى حذاقة حمير في الكتابة يشير أبو ذؤيب بقوله :[20]

عرفت الـــديـــار كخـــط الـــدُّويّ

حبَّره الكـــــــــــاتبُ الحميري

لقـد كـان العرب يختلفـون إلى الكهنـة والرهبـان النصـارى في صـوامعهم وأديرتهم ليتعلمـوا القراءة والكتـابـة، كما ذُكر عن أبي نصر البراق بن روحان أنه كـان يتردد إلى راهب، فيتعلم منـه تـلاوة الإنجيـل... وانظر : «الجـامـع لأحكـام القرآن»، للقرطبي في شرح قوله تعـالى : ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر**﴾[21].

وقد ذكر المؤرخون أن ممن سعى في نشر التعليم من أساقفه النصارى في عهد بني أمية «فثيون»[22] أحـد جثـالقة الكلدان، قال عنه ابن مـاري[23] في تـاريخ بطـاركـة كرسي المشرق من كتـابـه المجـدل[24] إنـه : «نصب في كرسيـه أسكولا، فتشبه به الأساقفة في عمارة البيع والاسكولات».

☆ ☆ ☆

لقد كانت الكتابة جد نادرة في معظم بلاد العرب، إذ كانت الأمية تقريبا، غالبة على الأمة العربية، فأما في بلاد الحجاز ونجد وتهامه فما كانت الكتابة إلا ضعيفة في أفذاذ منهم، ولكن الأمـة كـانت تشعر بهـا، وتستكتب من يكتب لهم متى اضطر أحد إلى ذلك، وقد وصفها لبيد في معلقته بقوله :

وجـلا السيـولُ عن الطلـول، كـأنهـــا

زُبُرٌ تُجِـــدُّ متـونَهـــا أقـــلامُهـــا[25]

فكتـابة العرب في الجـاهليـة ممـا دل عليـه لغتهم وشعرهم...

وكانت اليهودية منتشرة في اليمن، والنصرانية منتشرة في قبائل من العرب على مشارف الشام وبلاد الحيرة، فأما اليهود، فإنهم ما كانوا يكتبون إلا بالخـط العبري، ومـا تفرع عنـه، فـلا علم للعرب بكتـابتهم وخطهم، قـال أبو دحيـة النمري :

كمـــا خَـــطَّ الكتـــابُ بكفِّ يـومـــا

يَهُـــوديٌّ يُقَـــارِبُ أو يُـــزيـــلُ

وقال الشماخ :

كمـــا خـــط عبرانيـــةً بيمينـــه

بتيمــــــــــاء، حبر، ثم عرَّض أسطرا

وهناك دليل في المعلقات، التي قالوا إنها كتبت على الحرير، وعلقت على أستار الكعبة، ففي كتابتها برهان على شيوع فن الخط بين العرب، ومن الأدلة على ذلك، مـا جـاء في قول حاتم الطائي :

أتعرف آثـــار الـــديـــار تـــوهمـــا

كخطـــك في رقٍّ كتـــابـــا منمنمـــا

وقال المرار بن منقذ يصف أخربة دار :

وترى منهـــا رســـومـــا قـــد علت

مثـــل خـــط الـــلام في وحي الـــزُّبُر

ويقـول امرؤ القيس مخصصا زبـور الرهبـان ويـدعـو رفيقيـه إلى استعـادة ذكريـات أحبـائـه، والوقوف بمنـازلهم، والتعرف عليهـا، وقـد تغيرت ودرست معـالمهـا، تعـاورتهـا السنون، وبعد بهـا الزمن، فتحولت رسومهـا، وعفت آثـارهـا، وأصحبت الكتـاب خفاء ودقه :

قفـــا نبـــك من ذكرى حبيب وعرفـــان

ورسم عفت آيـــاتـــه منـــذ أزمـــان

---

20) لسـان العرب.

21) سورة «النحل» آية 103/ تفسير القرطبي ص : 10/177.

22) «فثيون بن أيوب» (القرن : 9) ترجمان، كان يجالس المسلمين في المناظرات الدينية في «دار الروم» في بغداد، نقل إلى العربية بعض الأسفار المقدسة.

23) «ماري بن سليمان» مؤلف نسطوري، جمع أصول اللاهوت في مصنف سماه : «المجدل للاستبصار والجدل»، وقدمه للبطريرك عبد يشوع : 3 (ق 1148).

24) المجدل : كتاب تواريخ بطاركة النساطرة إلى عام 317 ألفه ماري بن سليمان العالم النسطوري (القرن 12) طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسمندي عام 1899.

25) جلا : كشف زبر : ج : زبور : الكتاب. تجد : تجدد، بمعنى : كشفت السيول عن أطلال الديار، فأظهرتها بعد ستر التراب إياها. فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها، شبه كشف السيول عن الأطلال التي غطاها التراب بتجديد الكتاب الدارس، وظهور الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها...

أتت حجج بعـــدي عليهــا، فـــأصبحت
كخـــط زبـــور في «مصـــاحف» رهبـــان

بـل إن الشعراء قـد عبروا، في شتى المجـالات، عن التلازم بين فن الخط، وجماليات الشعر وصوره، وبلاغيات اللغـة والأدب... وكـان امرأ القيس من أول من التفت إلى عنصر الحركة وآثارها الغرافيكية على البيئة، كما تردد في إشاراته إلى الرسوم الدوارس، ونحو ذلك، وكقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يشبه آثار الديار بالسطور :

عرفت ديـــــار زينب بـــــالكثيب
كخــــط الــوحي في الـــورق القشيب

والوحي في البيت هنا الكتابة...

وقد اكتشف الباحثون عددا من النقوش العربية التي ترجع إلى مـا قبل الإسـلام في شمال الجـزيرة العربيـة، وأطراف بلاد الشام، كما قاموا بدراسة هـذه النقوش، ومحاولة قراءة كلماتها، ويغلب على صورة رسم الكلمات فيه شكل الكتابة العربية، وفيها جمل تامة مكتوبة بلغة عربية خالصة[26]...

☆ ☆ ☆

لقد شهدت الحضارة العربية، منذ عصورها المتقدمة، وفي مختلف مواقعها استخدام الكتابة لتسجيل واردات المعابد، وتدوين العقود والمعاملات التجارية، ثم تطور استخدامها لأغراض أخرى...

وتاريخ الكتابة[27]، مرهون بتاريخ أدواتها التي تمثل على بساطتها، في بدايـاتهـا الأولى، قفزة في تـاريخ الاختراعات، فالقلم، والمحبرة، والدواة، والمداد، والمسطرة، والورق، كـانت أدوات وأوعية لنقل مكونات الحضارة من جيل إلى جيل، كما كـانت امتيـازا للصفوة المختـارة، والنخبة الراقية من المجتمع... من أجل ذلك كان الإسلام ثورة اجتماعية شاملة... والثورة لا تؤدي غاياتها إلا اعتمادا على توصيل الفكر بأوعيته المعروفة[28]...

أدوات الكتابة :

لقد كان بعض العرب، سكان المدائن، في جاهليتهم يعرفون القراءة والكتابة، ويستعملون لها الأدوات التي نستعملها...

وعلى الرغم مما كان عليه العرب قبل الإسلام من جهل بالأمور، فقد أظهروا، منذ أقدم الأزمنة، عناية بالفكر، واهتماما بالعقل والأدب، وما لفظ الجاهلية إلا اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام، وأطلق على حال قبل الإسلام تمييزا وتفريقا لها عن الحالة التي صار عليها العرب...

إن تسمية ذلك العصر «بالجاهلي» تسمية دينية صرف، أما في الأدب والفكر فكان عصر نور وعرفان كما تشهد بذلك آثار القدماء... فإن العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية، ولكنهم فيما يرجع إلى الأدب كانوا يرونه من أرقى العصور، وكانوا يتأثرون شعراءه وخطباءه وحكماءه في كثير من أبواب القول...

وقد انحرف كثير من المسلمين، اليوم، عن طريق الشرع، وتعارفوا ما ينكره الدين، ورجع بعضهم في بعض بلاد الإسلام إلى أخلاق الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو شر منها، لأن الجاهلية الأولى، كان فيها الشرك، وهو رأس الذنوب، وأكبر الخطايا، ولكن فيها الصدق والشهامة والمروءة والنجـــدة والغيرة على الأعراض... هل قرأتم أو سمعتم بحفلة يختلط فيها النساء متكشفات، بالرجال الأجانب، فيراقص فيها أبو لهب زوجة أبي جهل ؟ هل

26) «تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 1/190، ص : 7/279.

27) انظر : «أصل الخط العربي وتطوره» للسيدة سهيلة الجبوري، بغداد، 1977، ص : 19 ـ 28، وكذلك : «الخط، وتعليم الكتابة في صدر الإسلام» للأستاذ فيليب طرازي (ت 1956 م، ضمن كتابه : «خزائن الكتب العربية في الخافقين» (بيروت : 1947 ص : 3) وانظر أيضا : «حكمة الاشراق، إلى كتاب الآفاق «تأليف محمد مرتضى الزبيدي» تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن مجموعة : «نوادر المخطوطات» : 5 القاهرة : 1954 ص : 51 ـ 98، وهي الرسالة العشرون، تتناول هذه الرسالة : القلم ـ الحبر ـ الدواة...

28) انظر : الكتابة في العهد النبوي والكتابة في عهد الخلفاء الراشدين «تأليف الخطاط : يوسف ذنون مجلة : «عالم الكتب» 3 الرياض ـ اكتوبر نوفبر : 1982 ع : 3/ ص : 354 ـ 362.

سمعتم عن نساء الجاهليين من كانت تبدي للرجال عورتها، أو تنزل البحر لتسبح أمامهم ؟ وما في جسمها مستور، إلا السوأتان، والثديان ؟!!

لم يكن هذا في العصر الجاهلي بكل تأكيد... ولا تجده في أشعار الجاهليين... وقد ينطبق علينا ما قاله شاعرنا العربي نزار قباني : لقد لبسنا قشرة الحضارة... والروح جاهلية.

☆☆☆

والمدائن الكبيرة، في العصر الجاهلي كانت فيها حضارة تتمثل في مظاهر مادية من المنازل والقصور، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال، وهذه وتلك توجب، ثروة من الترف العقلي والوجداني.

لقد استعمل العرب الكتابة عصرئذ، في أعمالهم التجارية وفي تسجيل أحداثهم اليومية[29].... ومن المؤرخين القدامى من أشار بوضوح إلى انتشار الخط السرياني بين كثير من الناس[30]...

وما أن بزغ القرن السادس للميلاد، إلا وللعرب خط جديد أطلق عليه علماء الساميات الخط العربي بين حوران وشمال الحجاز[31]...

وللدين الإسلامي بشكل عام، وللنبي الكريم بشكل خاص، أثر كبير في انتشار الكتابة في فجر الإسلام، نتيجة للاهتمام الزائد حينئذ في تعليم ونشر الكتابة بين الناس...

☆☆☆

إن هناك ألفاظاً دالة على صناعة الكتابة وأدواتها عندهم، وقد وردت خصوصا، في آثارهم مما يدل على حضارة علمية راقية في ذلك العصر، إذ وضع اللفظ على الشيء دليل على وجوده، ولعمري أنه لا يكون التمدن اللغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راق في حقيقته، وان لم يرق في شكله، عام في أثره، وإن لم يعم في أهله وقد قال الكاتب الفيلسوف الانجليزي المفكر «ولز» الذي يعد في طليعة مفكري هذا العصر : «انه في القرون التي سبقت ظهور محمد كان الفكر العربي أشبه بالنار تحت الرماد... فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الإسلامي لمع لمعانا لم يعهد أن فاقه فيه إلا الفكر اليوناني. وهذا في أسنى أدواره، فجاء الفكر العربي بشكل جديد وبقوة جديدة، وعالج علاجا شريفا تنمية العلوم الصحيحة، نظير ما عالج اليونانيون، ولقد كان اليوناني أبا للعلم، فجاء العربي وحل محله في هذه الأبوة وكانت طريقة العربي، هي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة، وبكل بساطة، وأن يجليها بكل وضوح، وبكل تدقيق، غير تارك منها شيئا في ظل الإبهام، فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الأروبيين من اليونانيين وهي نشدان النور، إنما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط إلى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين (1/137، حاضر العالم الإسلامي...» ومن أجل ذلك نرى ذكر أدوات الكتابة مقرونة في أشعارهم بذكر الزبور، وكتب الوحي التي كان الرهبان يتناقلونها في جزيرة العرب، ويتأنقون في كتابتها، ولقد ذكر الصولي في «أدب الكتاب» كل ما تعلق بهذه الصناعة.

فمن أدوات الكتابة عندهم :[32]

القلم :[33] وهو أداة ناجحة لتخليد العلوم والتجارب والمشاهدات ومآثر السابقين التي خلفتها لنا صدورهم... فهو ينقل الأفكار والآراء المختلفة إلى الورق مكسوة لباس الألفاظ والكلمات، وقد عرف العرب في حضارتهم الراقية

---

29) «مصادر الشعر الجاهلي»، لأسد الدين ناصر ص : 67.

30) «مروج الذهب، ومعادن الجوهر» ط : 2 مطبعة السعادة ص : 1/207.

31) انظر : نشأة الكتابة العربية، وأثر الإسلام والنبي الكريم في نشر الخط وتحسينه د. سهيلة الجبوري، نائبة رئيس جمعية الخطاطين العراقيين، ج : 2/1 مج : التاسع والثلاثون : 1983.

32) انظر : «منهاج الاصابة، في معرفة الخطوط وآلات الكتابة» لمحمد بن أحمد الزفتاوي المصري (ت : 806 ـ 1403 م) وهو شيخ القلقشندي صاحب صبح الأعشى... حققه هلال ناجي على نسخة فريدة بمكتبة خاصة في تونس، ونشر في مجلة : «المورد» العراقية.

33) «رسالة في علم القلم والحبر والورق...» تأليف : على بن هلال المعروف بابن البواب البغدادي (ت 423 هـ) منها نسخة خطية ضمن مجموع برقم 227 جديد... مجاميع (ص : 177 ـ 180، في خزانة عارف حكمت بالمدينة المنورة راجع : عمر رضا كحالة : المنتخب من مخطوطات المدينة المنورة، (دمشق : 1973، ص : 99، الرقم 13، (4).

القلم، وتناولوه في اشعارهم قال معاوية الجعفري يصف منازل دارسة :

فإن لها منازل خاويات
على نَمَلَى، وقفت بها الركابا
من الأجزاع أسفل من نميل
كما رجعت بالقلم الكتابا

ومثله لكعب بن زهير :

أتعرف رسما بين زهمان فالرقمْ
إلى ذي مراهيطٍ كما خط بالقلم

وقد بوب النور الهيثمي في «المجمع» بقوله : باب فيمن كتب بقلمه أو غيره، ثم ذكر عن عطاء، قال : كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل، فقال : يا ابن عباس : ما تقول فيّ ؟ قال : «وما عسى أن أقول فيك ؟ فقال : إني عامل بقلم، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يوتي بصاحب القلم في تابوت من نار قفل عليه بإقفال من نار، فإن أجراه في طاعة الله ورضوانه، فك عنه التابوت، وان أجراه في معصية الله، هوى به التابوت سبعين خريفا، حتى باري القلم ومصلحه ولائق الدواة[34]...

الدواة :[35] وقد عرفوا، أيضا، الدواة التي هي من أدوات الكتابة، قال سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنمَّقِ
خلا عهده، بين الصليب فمُطرق
أكب عليه كاتب بدواته
وحادثُه في العين جدة مهرق[36]

المداد :[37] كما عرفوا، المداد أي الحبر الذي يقول فيه المتلمس يذكر الكتاب الذي أعطاه عمرو بن هند لعامله في البحرين، يسر إليه بقتله :

وألقيته بالثَّنْي من بطن كافر
كذلك أفني كل قِطٍّ مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها
يجول بها التيار في كل جدول

وقال عليه السلام : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء، ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[38].

وقد عرفوا من الخط والكتابة : **السطر**، روى في تاج العروس لبعضهم :

إني وأسطار سطرن سطرا
لقائل يا نصر : نصرا نصرا...

وقال الشماخ :

كما خط عبرانية بيمينه
بتيماء حبر، ثم عرض أسطرا

وكانوا يكتبون على **العسيب**، وهو جريد النخل، وفيه يقول امرؤ القيس متسائلا، لمن الطلل دارسا خفيت آثاره، فلا يرى منه إلا ما يرى من حروف كتبت في عسيب يماني ؟ إني أعرفه، ويثير أشجاني :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط زبور في **عسيب** يماني

وقال ابن الجوزي في : «تلبيس إبليس» : لما علم الشارع أن حفظ القرآن والسنة يصعب، أمر بكتابة المصحف وكتابة الحديث، فأما القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه الآية دعا بالكاتب، فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العسب والحجارة وعظم الكتف.

34) رواه الطبراني في الأوسط... راجع الكتاني ص : 2/240.
35) ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى» ص : 6/189 كتابا بعنوان : القلم والدواة «تأليف محمد بن عمر المدائني ونقل منه نصا، وهو من الكتب الضائعة.
36) «صناعة الورق والحبر والمقالم والمحابر، وتجليد الكتب والنقش ورسم الخط العربي» بقلم د. ناجي معروف (ت 1977 م)، (مجلة الأقلام، 5/بغداد - كانون الثاني 1969 ج : 5 : ص : 74 - 71).
37) هناك رسالة : «الإمداد، بصناعة المداد» تأليف أبي تراب الظاهري ولد عام : 1924، (مجلة «العرب» التي كان يصدرها الأستاذ : حمد الجاسر... 4 - الرياض : غشت : 1970، ج : 11/ ص : 1054 - 1055... كما أن هناك «مخطوطا في عمل المداد» وهو في المكتبة المركزية العامة في الموصل برقم : 201، الباب الحادي عشر منه وكذلك : «الحبر وأدوات الكتابة في التراث العربي» بقلم سهيل قاشا، مجلة : «التراث الشعبي» ع : 5 بغداد : 1978 ص : 5 - 36 - ولمحمود خليفة بن سليمان بن عبد الرحمن بن مصطفى أفندي رسالة في : «صناعة الورق والحبر» في أربع ورقات في دار الكتب المصرية كتبت عام 1139 - 1727 م.
38) رواه الشيرازي عن أنس، وأخرجه ابن عبد البر عن أبي الدرداء...

«وفي المطالع النصرية، للمطابع المصرية في الأصول الخطية» : وكان الصحابة ومن تبعهم قبل أن يكثر الكاغد، أي الورق الذي كان يجلب من الهند يكتبون آيات القرآن، وغيرهــا على عسيب السعف، وهـو الأصـل العريض من جريـدة النخل، وعلى الألواح من أكتاف الغنم وغيرهـا من العظام الطاهرة والخرق والأدم، أي الجلود مثل رق الغزال، فقد جمعت بعض آيات قرآنية[39]... وبذلك تمت كتابة القرآن في وقت نزوله، لكنه كان مفرقا في القطع التي كتب عليها، ولم يجمع في كتاب واحد... وقد ذكر الطبري في تفسيره أن المحدث التابعي الكبير محمد بن شهاب الزهري قال : «قبض رسول الله ﷺ، ولم يكن القرآن جمع في شيء، وإنمـا كـان في العسب والكرانيف[40]...

وكـان العرب، أيضـا، يكتبـون في جـاهليتهم على **الأديم**، وهو الجلد الذي كـانوا يصقلونـه ويرقفونـه، فيكتبون عليه، قال المرقش :

الـــدار قفر، والرســوم كمـــا
رقش في ظهر **الأديم** قلم

وقد ترجم في الاصابة لمالـك بن أحمر الجـذامي العوفي، فذكر أن ابن شاهين أخرج بسنده عنه، أنه لما بلغهم مقدم النبي عليه السلام تبوك، وفد إليه مالـك بن أحمر، فأسلم، وسأله أن يكتب له كتابا يدعوه إلى الإسلام، فكتب له في رقعة من **أدم**، قالوا في طريق آخر؛ عرضها أربعة أصابع، وطولها قدر شبر، وقد انمحى ما فيها...

وكذلك **الرق**،[41] قال المبرد : الرق ما رقق من الجلد ليكتب فيه، وكذا قال الجوهري في الصحاح، قال : والرق بالفتح ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق، وجمعه رقوق، وكل صحيفة فهي رق، لرقة حواشيها، ومنه قول المتلمس :

فكـأنمـا هي من تقـادم عهـدهـا
رق[42]، أتيــح كتـابهـا مسطــور

وقال خالد بن الوليد المخزومي :

هـل تعرف الـدارَ أضحت آيُهـا عجبـا
كـالرق، أجرى عليهـا حـاذق قلمـا

وكانوا في جاهليتهم يدعون الأدم الرقاق : **ورقا**، قبـل أن يصطنعـوه من القطن، تشبيهـا بـورق الشجر في تصفيحه، قال جرير :

لمن الـديـــار بعـــاقـل، فـــالأنعم
كـالـوحي في **ورق** الـزبـور المعجم...

وقد عرفوا **الصحيفة**، وهي الكتاب، قال لقيط الإيادي، وقد أرسل لقومه صحيفة ينذرهم فيها بما يتهددهم من الأخطار من جانب كسرى :

ســلام في الصحيفـــة من لقيـــط
إلى من بـــالجـــزيرة من إيـــاد

ومن أشهر ألفاظ العرب في جاهليتها لفظ **القرطاس**، كانوا يكتبون عليه، كما كتبوا على جريد النخل والعظام والجلود وألواح الرصاص، وأكثروا من تشبيه آثار الديار بالكتاب بعد ما مضى الزمان عليه، قال المرار بن سعيد الفقعسي :

عَفَتِ المنـــــازلُ غيرَ مِثْـــلِ الأنْقُسِ
بعـد الـزمـان عرفتـه بـالقَرْطَسِ[43]

فهنا الشاعر يقول بأنه لم يبق من المنازل الا مثل المداد على القرطاس بعد مضي الزمان، كما وردت القرطاس في الشعر الجاهلي، قال المخش العقيلي يصف رسوم دار شبهها بخط الزبور على القرطاس :

---

39) التراتيب الإدارية ص : 1/242.

40) الكرانيف : أصول السعاف الغلاظ العراض، الواحدة : كرنافة ـ العسب : ج : عسيب : وهو من السعف فويق الكرب لم يثبت عليه الخوص (ابن منظور : لسان العرب 207/11، مادة كرنف، و89/2).

41) انظر : «الجلود والرقوق والطروس في الإسلام» بقلم : حبيب زيات (ت 1954، مجلة : «الكتاب» 2 (القاهرة يوليوز 1947، ص : 1358 ـ 1365).

42) انظر : «البردي والرق والكاغد في إفريقية التونسية» بقلم حسن حسني عبد الوهاب، مجلة معهد المخطوطات العربية» 2 القاهرة : 1956 ـ ص : 34 ـ 45. وكذلك : «الرقوق» بقلم : د. يوسف أسعد داغر... (ت 1981 مجلة : «الكتاب» السنة : 4، المجلة : 8، الجزء : 7، القاهرة 1949 ـ ص : 190 ـ 196.

43) الأنقس : ج : نقس، وهو المداد، والقرطس : القرطاس.

كــأن بحيث استودع الــدارَ أهلُهــا

مخـــــط زبـــور من دواة وقرطس

فــالقرطــاس : الصحيفـة، فقرطس فـلان، إذا رمى، فأصاب الصحيفة الملزقة بالهدف، قال تعالى : ﴿**ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس**﴾[44]، وقال سبحانه : ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، نورا وهدى للناس، يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا...**﴾[45].

ومن أدوات الكتـابـة عنـدهم **القضيم**، وهو الأديم والصحيفة البيضاء والحصير المنسوج خيوطه سيور، قال النابغة في وصف الرسوم :

كــأن مجر الرامــــات ذيـولهـــا

عليــــه قضيم نمقتــــه الصــوانــــع

وكذلك لفظ **الرقيم**... وهو اللوح من الرصاص، قال أمية بن أبي الصلت يذكر اللوح الذي كان مع أصحاب الكهف حين رقم نسبهم وأسماؤهم ودينهم :

وليس بهــــا إلا الرقيم مجـــــاورا

وَصيـدَهم[46]، والقــومِ في الكهف هجــد

وهو مـأخوذ من الرقم، ومنـه : «كتاب مرقوم»، ومنه الأرقم لتخطيطه، قال العجاج : ومُستقرُّ المُصحف المرقَّم...

ومن أدوات العرب في عصورهم الأولى والتي كانوا يستعملونها في الكتابة : **المهرق** وهو الصحيفة أو القرطاس الذي يكتب فيه، ويكون مع الدواة عادة، فقد عرفوا «المهرق» وفسره اللسان بأنه ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل، ثم يكتب فيه[47]، وفيه يقول الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذي المجـــاز ومــــا

قُــدّم فيــه العهــود والكفــلاء

حَــذَرَ الجـورَ والتعــدي، وهــل

ينقض مـــا في المهـــارق الأهـــواء

ويقول الأعشى، يذكر الأدعية المرقومة في المهارق :

ربي كريم، لا يكـــدر نعمــــة

فــإذا تنـوشـد في المهـــارق، أنشـدا

وكانت العرب تشبه المنزل إذا خلا، ودرجت الريح، وصار أرضا، بالمهرق، وفي هذا يقول الأعشى أيضا :

ــــلا دارَ ليلى. هــل تبين فتنطقُ

وأنّى تردُّ القــولَ بيضـــاءُ سملـــق[48]

وأنّى تردُّ القـــولَ دار كـــأنهـــا

لطـول بـــلاهــــا، والتقـــام مهرق

ويقال للكتاب أيضا : **القط**، ج : قطوط، وهي في الأصل : الجلد الذي يكتب عليه، ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب قط، وللكتاب المكتوب بالجائزة قط، وقال أبو عبيدة والكسائي : القط الكتاب بالجوائز، ومنه قوله تعالى في سورة : ص : ﴿**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا، قبل يوم الحساب**﴾.

قال أمية يذكر قومه بني إياد :

قــوم لهم ســــاحــــة العراق، إذا

ســـاروا جميعــــا، والقـــط، والقلم،

ومثله للأعشى في قصيدته التي يمدح بها المحلّق :

ولا الملـــك النعمـــان، يـوم لقيتــه

بـإمّتــه يعطي القطـوط ويـــأفـق[49]

أي يمنح الصكوك للجوائز...

واستعملوا، أيضا، في كتاباتهم **الألواح**، وهي كل صحيفة عريضة من خشب، أو عظم كالكتف، كانوا يكتبون عليها، ومنه قوله تعالى : «في لوح محفوظ» وفي البخاري : لما نزلت آية : «لا يستوي القاعدون من

44) سروة الأنعام رقم الآية : 7.

45) سورة الأنعام رقم الآية : 91.

46) الوصيد : الفناء.

47) «اللسان» لابن منظور : س : 12/247.

48) سملق : القاع الصفصف، والمستوية الملساء.

49) النعمان : أراد به النعمان الثالث أبا قابوس - الإمة : لها معان عديدة أكثرها موافق لمقتضى الحال، من ذلك : النعمة، الدين، الحالة، غضارة العيش - القطوط : ج : القط : النصيب أي الصك بالجائزة - يافق : بلغ النهاية في الكرم أو في العلم، أو في الفصاحة...

المومنين» قال عليه السلام للبراء بن معرور : ادع لي زيدا ليجيء باللوح والدواة والكتف، وأخرج ابن سعد في الطبقات عن سلمى، قالت : رأيت ابن عباس معه ألواح يكتب عليها، عن ابن رافع، شيئا، من فعل رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ هو الذي سن كتابة القرآن، ورغم أن وسائل الكتابة في بلاد الحجاز، آنذاك، كانت بدائية، لم يصرف ذلك النبي ﷺ عن كتابة القرآن، إدراكا منه لأهمية الكتابة العظيمة في حفظ نص القرآن...

فكان رسول الله عليه السلام، إذا نزل عليه الوحي، يقول : ادع لي زيدا، وليجئ باللوح والدواة[50]. إذ أن زيد ابن ثابت الأنصاري كان ألزم الصحابة لكتابة الوحي في حياة رسول الله ﷺ...

وفي بعض روايات البخاري : أن المصطفى عليه السلام، قال قبل موته بأربعة أيام : ائتوني بكتف أكتب لكم كتابا، لا تضلوا بعدي...

ولما اشتد وجعه عليه السلام، قال : ائتوني بالدواة والكتب، أكتب لكم كتابا لا تضلون معه، بعدي، أبدا[51]، كما ورد في حديث أبي بكر رضي الله عنه، أنه دعا في مرضه عليه السلام بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده[52].

ومن أسماء الأوراق المكتوبة عند العرب : **الكتاب**، وفيه يقول زهير ابن أبي سلمى في معلقته عما يخفى في قلوب البشر، فيدينه الله في الآخرة :

يؤخر، فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب، أو يعجل فينقم

وقال عدي بن زيد في الإنجيل :

ناشدتنا **بكتاب** الله حرمتنا
ولم تكن **بكتاب** الله ترتفع

وقد ترجم البخاري في كتاب العلم من الصحيح : «باب كتابة العلم» ثم ذكر فيه قول المصطفى عليه السلام في مرض موته : «ايتوني **بكتاب**، اكتب لكم كتابا» قال في البحر الساطع : أي بأدواته من قلم ودواة وكتف، فيه مجاز الحذف...

50) «الجامع الصحيح» للبخاري ص : 6/227.
51) «فتوح البلدان» للبلاذري ص : 1/562.

ومن أسماء الكتاب عندهم **المصحف**، والصحيفة الكتاب، وهو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه أصحف، أي جعل جامعا للصحف المكتوبة بين الدفتين[53]، وهما اللوحان اللذان يكتنفانه... وقد وردت هذه الكلمة في شعر امرئ القيس للدلالة على كتب الرهبان :

قفا نبك، من ذكرى حبيب وعرفان
ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدي عليها، فأصبحت
كخط زبور في **مصاحف** رهبان

ومن أسماء الكتب، أيضا، عند العرب كلمة **المجلة**، وفيها يقول ابن دريد في الاشتقاق : المجلة الصحيفة يكتب فيها شيء من الحكمة، كذلك روي بيت النابغة بالجيم :

مجلتهم، ذات الإلاه، ودينهم
قويم، فما يرجون خير العواقب

أي صحيفتهم التي فيها وصاياهم مثبتة على طاعة الله، ودينهم مستقيم يرجون به ثواب الله؛ ولأنهم كانوا نصارى، فعنى الإنجيل... قال أبو عبيد : كل كتاب عند العرب : مجلة... وفي حديث سويد بن الصامت قال لرسول الله ﷺ : لعل الذي معك مثل الذي معي... فقال : «وما الذي معك ؟ قال : «مجلة لقمان»... ومنه حديث أنس : ألقي إلينا مجال، هي جمع مجلة، يعني صحفا...

ومن أسماء الصحيفة «**المغلغلة**»، قالوا : إنها الرسالة المنقولة من بلد إلى بلد، وفيها يقول صخر الغي في الهذليات :

أبلغ كبيرا عني مغلغلة
تبرق فيها صحائفٌ جُدُدُ
فيها كتاب ذبر لمقترئ
يعرفه البهم، ومن حشدوا

وكانوا يستعملون في تعاملهم الفكري والثقافي، السفر، والسجل... وكلمة **غفل** كقولك دابة غفل : إذا لم يكن موسوما...

52) تاج العروس ـ الزبيدي، ج : 3/ ص : 236، مادة «زبر».
53) «لسان العرب» لابن منظور ص : 37/186.

كما عرفوا، واستعملوا في كتابتهم كلمة : **العنوان**، فكانوا يتخذون للكتاب سمة وديباجة حسنة، قال أبو داوود الرواسي :

لمن طلل **كعنوان** الكتاب...

فكلما استدللت بشيء تظهره على غيره فهو عنوان له، كما قال حسان بن ثابت منشدا يرثى عثمان رضي الله عنه :

ضحوا بأشمط **عنوان** السجود به،
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا[54]

وأنشد اللحياني :

وأشعث **عنوان** السجود بوجهه
كركبة عنز من عنوز بني النضر

وسمي عنوانا لأنه يعن الكتاب من ناحيته.

وتعرف في عنوانها بعض لحنها
وفي جوفها صمعاء تحكي الدواهيا

وقال سوار بن المضرب :

وحاجة دون أخرى قد سمحت بها
جعلتها للتي أخفيت **عنوانا**

وقد ذكروا أن الكتب لم تزل مشهورة، غير معنونة ولا مختومة حتى كتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها ختمت الكتب، وعنونت، وكان يوتى بالكتاب، فيقال من عني به، فسمي عنوانا[55]...

وكان الكتبة يضاعفون العناية في كتابة صورة العنوان، وفي هذا يقول الأخنس بن شهاب :

لابنة حطان بن عوف منازل
كما رقش **العنوان** في الرق كاتب

وقال أبو الأسود على خلاف ذلك :

نظرت **إلى عنوانه**، فنبذته،
كنبذك نعلا، أخلقت من نعالكا

وكانوا يعنون بوشي الخط وتنميقه، وتجويده وتحسينه، قال علقمة بن عبدة :

وذكرنيها، بعدما قد نسيتها،
ديار، علاها وابل متبعق
بأكتاف شمات، كأن رسومها
قضيم صناع في أديم منمق

وقال المرقش الأكبر، وبه لقب مرقشا :

الدار قفر، والرسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم

وقال حاتم الطائي :

أتعرف آثار الديار توهما
بخطك في رق كتابا **منمنما**

ثم إنهم عرفوا، وسموا ما يصان فيه الكتاب[56] **بالقمطر**، وأنشدوا :

ليس بعلم ما يعي القمطر،
ما العلم إلا ما حواه الصدر،

وقد ترجم في «صبح الأعشى» لما نطق به القرآن مما يكتب فيه، فذكر «اللوح» وذلك قوله تعالى : «بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ» الثاني : الرق، قال تعالى : **﴿والطور وكتاب مسطور، في رق منشور﴾** والرق : ما يرقق من الجلد ليكتب فيه الثالث القرطاس والصحيفة وهو الكاغد...[57] ثم عقد فصلا آخر لما كانت الأمم السالفة تكتب فيه، فذكر أن أهل الصين كانوا يكتبون في ورق[58] مصنوعة من الحشيش، وعنهم أخذ الناس صناعة الورق، وأهل الهند يكتبون في خرق الحرير الأبيض، والفرس

---

54) ديوان حسان بن ثابت ص : 410، ط : البرقوقي...
55) «العقد الفريد» لابن عبد ربه ص : 4/213.
56) لسان العرب ص : 21/117.
57) لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني (ت 529 هـ) «رق الكاغد» ضمن الرسالة المصرية التي نشرها عبد السلام محمد هارون في المجموعة الأولى من سلسلة «نوادر المخطوطات»، القاهرة : 1951/ ص : 87 ـ 48.
«والورق والكاغد صناعته في العصور الإسلامية» تأليف : كوركيس عواد مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق 1948/23، ص : 409 ـ 438. و«صناعة الورق» آدم ميتز ضمن كتابه : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ط : 3 القاهرة 1957 ص : 359 ـ 362.
58) «صبح الأعشى» ص : 2/485.

يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وكذلك كانوا يكتبون في اللخاف، وهي حجارة بيض رقاق، وفي النحاس والحديد ونحوهما، وفي عسب النخل، وهي الجريد الذي لا خوص فيه، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم، وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم، واستمر ذلك إلى أن بعث النبي ﷺ، ونزل القرآن، والعرب على ذلك، وربما كتب النبي عليه السلام بعض مكاتباته في الأدم[59]...

وأجمع الصحابة على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ إلى زمن الرشيد[60]، فأمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد...

وقد أجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن[61] في الرق لطول بقائه، وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق، وفشا عمله بين الناس، فأمر الا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها، تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متى محي منه فسد، وأن كشط ظهر كشطه، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب ومن بعد، واستمر الناس على ذلك إلى الآن[62]...

وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن، ابتداء «من أنفسهم، أو بأمر من النبي ﷺ، فيخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من العسف والكرانيف واللخاف والرقاع، وقطع الأديم، وعظام الاكتاف، والأضلاع من الشاة والإبل، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم، يكتب كل منهم ما تيسر له، أو يسرته أحواله... فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن : «فجعلت أتتبع القرآن من العسب واللخاف»، ومن حديث الزهري : «قبض رسول الله ﷺ والقرآن في العسب...

ويرى «ابن فارس» أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمزة والمد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الكتابة...

ومع أن النبي عليه السلام كان لا يكتب، ولكنه أوتي علم كل شيء، حتى روت آثار بمعرفته حروف الخط، ثم حسن تصويرها، كقوله : «لا تمد بسم الله الرحمن الرحيم، رواه ابن شعبا، من طريق عن ابن عباس... وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه، فقال له : ألِقِ الدواة، وحرف القلم، وأقم الباء، وجرس السين. ولا تعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، وجرد الرحيم[63]...

وبعد هذه المرحلة، استعيض عن الرقاق التي كانت مستعملة في العصر الجاهلي، وصدر الإسلام بالورق الذي أدخلت صناعته في سمر قند أول الأمر، على غرار صناعة الورق الصيني... ثم لم تلبث صناعته أن انتشرت في مصانع العالم الإسلامي، وحدث تطور مهم في مسيرة الحضارة العربية والإسلامية.

وهكذا كان القلم العربي سفيرا متجولا لنشر الدين الإسلامي الحنيف، فقد ورد في المدونات التاريخية أن رسول الله ﷺ قد أرسل عددا من الرسائل إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام.

وقد استتبع هذا التفتح الذي عرفه العرب قبل الإسلام وبعده في ميدان الكتابة والقراءة اهتمامهم بمعرفة اللغات الأخرى التي كانت سائدة في ذلك العصر، فلقد كان رسول الله ﷺ يراسل الملوك، ويخاطبهم بلغاتهم، وممن ذكره التاريخ في معرفة العرب للألسن واللغات، زيد ابن ثابت الذي كان يكتب إلى الملوك، مع ما كان يكتبه من الوحي...

---

59) انظر : «أدوات ومواد الكتابة في العصر العباسي» د. نضال عبد العلي، رسالة ماجستير ـ بغداد عام 1983، ص : 102 ـ 149.

60) «الحبر والكاغد» بقلم أبي سعد عبد الكريم السمعاني (ت : 562 هـ) وهو فصل في كتابه : «أدب الإملاء والاستملاء» تحقيق المستشرق مكس ويسويلر» ليدن : 1954، ص : 162 ـ 1980.

61) «صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة» بقلم : د. محمد حميد الله (ت 1982 م) مجلة : «فكر وفن» ع : 3 ـ 1964.

62) «صبح الأعشى» ص : 2/475.

63) الطبري : تفسير الطبري ص : 1/66، و«حكمة الاشراق، إلى كتاب الأفاق» للزبيدي مرتضى.

وقد ذكروا بأنه كان قد تعلم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبي[64]، وبالحبشية، من خادم النبي ﷺ، وبالقبطية من خادمه عليه الصلاة والسلام[65]...

وفي زيد ابن ثابت رضي الله عنه يقول حسان بن ثابت :

فمن للقوافي بعد حسان وأبنه ؟

ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت ؟

وفي العمدة للتلمساني، أن زيد بن ثابت الأنصاري النجاري كان يكتب للملوك، ويجيب بحضرة النبي عليه السلام، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن[66]، وكذلك كان يتقن العبرية كما في صحيح الإمام البخاري...

ومن أغرب ما يتعين ذكره في هذا الباب، ما في «مرآة الزمان، في تاريخ الاعيان»[67] للشيخ ابن المظفر المعروف بسبط ابن الجوزي (ت 654 هـ) حين تكلم على موالي عبد الله ابن الزبير، قال : قال هشام : كان له مائة غلام، كل غلام يتكلم بلغة، وكان ابن الزبير، يكلم كل أحد بلغته[68].

وقد ذكر المؤرخون للفترة النبوية في حركتها العلمية في العصر النبوي الذي عرف بعض المؤلفين الذين تناولوا مواضع في الفقه والقضاء وغيرها، فقد ذكر البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمرو كان يكتب الحديث... وذكر مسلم في صحيحه كتابا ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي...

وقد تحدث الشيخ الكتاني في كتابه[69] أن صديقه البحاثة الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي ذكر في كتابه : «توفية النظر، إلى أصول الاثر» ص : 8، قال : «توهم أناس أنه لم يقيد في عصر الصحابة، وأوائل عصر التابعين بالكتابة شيء غير الكتاب العزيز، وليس الأمر كذلك، فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتابا في علم الفرائض...

وكان للمرأة حضورها في الكتابة منذ الجاهلية وصدر الإسلام، فيذكر لنا المؤرخون مجموعة من النساء ممن عرفن باتقان الكتابة في تلك الفترة كعائشة بنت سعيد بن أبي وقاص، وكريمة بنت المقداد، والشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية التي تعلمت الكتابة من معاوية ويزيد ابني ابن سفيان، كانت تكتب في الجاهلية، وقد روت عن النبي ﷺ اثني عشر حديثا منها قول النبي ﷺ : «علمي حفصة رقية النملة كما علمتيها الكتابة» وكذلك حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أخذت الكتابة عن الشفاء العدوية، وهند بنت أبي سفيان، وأم كلثوم بنت عقبة[70].

☆ ☆ ☆

وعود على بدء... فلقد كانت دراسة العلم متفرقة، في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، في الكتاتيب والبيوت والمساجد والربط التي كانت من جملة مراكز المعرفة والثقافة...

لقد كان الخط العربي والكتابة منتشرة بين عرب العراق وغيرهم في تلك الحقبة من الزمن، وقد ساق المؤرخون العرب دلائل كثيرة على ذلك، منها ما جاء في أخبار الفتوحات العربية الكبرى، إذا وجد القائد العربي خالد بن الوليد في قرية من قرى «عين التمر[71]»، اسمها النقيرة، صبيانا يتعلمون الكتابة، وكان من بين هؤلاء حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله؛ وربما كانوا

---

64) اسمه، أبو أنسة مولاه (العقد الفرية لابن عبد ربه ص : 7/ج :5).

65) «العقد الفريد» ص : 4/216، تحقيق سعيد العريان...

66) «التراتيب الإدارية» ص : 1/202.

67) في أربعين مجلدا، قال الذهبي : «تراه يأتي فيه بمناكير الحكايات، وما أظنه بثقة فيما ينقله، وقد اختصره قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي المؤرخ (ت : 726 هـ).

68) «الحكومة النبوية ص : 2/207.

69) الحكومة النبوية ص : 2/256.

70) «فتوح البلدان» ص : 454، للبلاذري...

71) عين التمر : بلدة قديمة قريبة من الأنبار («العقد ص : 6/45)، وقد افتتحها المسلمون أيام أبي بكر عام 17 هـ على يد خالد ابن الوليد (ابن هشام، ج : ٦/ص، ياقوت، في معجم البلدان ج : 759/3).

يتعلمون في الكتاتيب، إذ يذكر صاحب الأغاني بأن عدي بن زيد العبادي كان قد طرحه أبوه في الكتاب حتى حذق العربية...

وفي ترجمة جابر بن عبد الله أن له حلقة في المسجد النبوي، يوخذ عنه العلم كما في : «در السحابة» لجلال الدين السيوطي، نقلا عن مصنف وكيع...

وأول من جمع الصبيان في المكتب عمر بن الخطاب، وأقام عامر بن عبد الله الخزاعي أن يلازمهم للتعليم، وجعل له رزقا من بيت المال، وأمره أن يجلس للتعليم بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي، ومن صلاة الظهر إلى العصر، ويستريحون بقية النهار[72].

ولما رجع عمر من تفقده بلاد الشام، رتب للصبيان المتعلمين الاستراحة يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.

ويقول التاريخ، كما يذكره الواقدي أن عمر رضي الله عنه، خرج إلى الشام عام فتحها، وأطال الغيبة فيها، واستوحش الناس لفقده، فلما رجع، خرج الناس شوقا إليه للقائه على بعد من المسافة، وكان خروجهم يوم الخميس غدوة، وأول من اتصل به الأولاد لخفتهم ونشاطهم، وفرحهم به... وبات الناس معه ليلة الجمعة في بقية سفره (أي قبل الوصول إلى المدينة) فأصبح به على المدينة، ودخل قبل الصلاة، فقال للأولاد : أنتم خرجتم وتعبتم يوما في الخروج، ويوما في الرجوع وقد جعلت لكم يوم الخميس راحة، وكذلك من جاء بعدكم إلى يوم القيامة...

ولقد كان رسول الله ﷺ يتخول أصحابه في الموعظة في الأيام، كراهة السآمة عليهم، كما رواه ابن مسعود. وقد ترجم البخاري في صحيحه بقوله : «باب من حفظ لأهل العلم أياما معلومة» فأسند إلى ابن وائل، قال عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن : «لوددت أنك تذكرنا في كل يوم، قال : أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وأني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا... قال الحافظ في الفتح : يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل، أيضا، خشية الملل، وإن كانت المواظبة مطلوبة، لكن على قسمين، أما كل يوم مع عدم التكلف، وأما يوما بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، وأما يوما في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط الحاجة مع مراعاة النشاط[73].

وتعطل الكلية يوم الخميس والجمعة، وقد ذكر «دلفان» عن الحرشاوي وابن ثابت، وهما عالمان جزائريان تخرجا من جامع القرويين أن يوم الثلاثاء كان يوم عطلة في هذه الجامعة، وذكر النعيمي في «الدارس» أن الدروس كانت تعطل يوم الجمعة والثلاثاء في دمشق الشام.

☆ ☆ ☆

وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وكان من الاتساع، أحيانا، بحيث يضم الكتاب الواحد مآت وآلافا من الطلاب.

ومما يذكر في تاريخ ابن القاسم البلخي أنه كان له كتاب يتعلم فيه ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحا جدا، بحيث يحتاج إلى أن يركب حمارا ليتردد بين طلابه، وليشرف على شؤونهم[74]...

وقد أعتبر المؤرخون، إذا أرادوا قياس عدد المتعلمين، أحصوا عدد المحابر التي يحملها من كان في المسجد أو المجلس، وفي ذلك قال ابن جعفر بن مسلم :[75] «لما قدم علينا أبو مسلم الكجي، أملى الحديث في رحبة عنان، وكان في مجلسه سبعة مستملين، ويبلغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قياما، بأيديهم

72) أليس الصبح بقريب.
73) التراتيب الإدارية ص : 2/233.
74) «من روائع حضارتنا» لمصطفى السباعي، ص : 145.

75) حبيب زيات : الوراقة والوراقون في الإسلام «مجلة : المشرق، بيروت 1947، ص : 9 ـ 10.

المحابر[76]، ثم مسحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة، فبلغ ذلك نيفا وأربعين محبرة».

وقال محمد الحسن الوزان : «ولهؤلاء الأطفال شأن طلاب المعاهد يومان في الأسبوع للراحة، لا يكون في أثنائها تعليم ولا دراسة[77].

☆☆☆

وقد ذكر ابن عذاري في البيان المغرب : أن الحكم خليفة قرطبة المستنصر، اتخذ المؤذنين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع بكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا[78]...

وقد سئل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد ؟ فقال : «لا أرى ذلك يجوز، لأنهم لا يحتفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم[79]... وذكر الحافظ عماد الدين بن كثير، أن علماء بغداد منعوا في بعض السنين تعليم الأطفال في المساجد[80]...

وفي معالم الإيمان قال : روى غياث بن أبي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ (تـ 80 هـ) يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان، في الكتاب، فيسلم علينا...

ولما فتحت طنجة عام 88 على يد موسى بن نصير، أولى المغرب مولاه طارقا بن زياد عام 92، وأمر موسى بن نصير طارقا أن يتولى من فيه مقدرة من جيشه تعليم البرابرة القرآن، وقواعد الإسلام، وأسلم كثير من البربر.

وقد وصف ابن العربي في رحلته رباط المنستير بتونس ومن فيه من العلماء...

ولعل أول مدرسة بنيت بالمغرب يرجع عهدها إلى القرن الخامس، حيث أسس واجاج بن زلو اللمطي تلميذ أبي عمران الفاسي دار المرابطين لطلبة العلم[81]...

وكان الجامع بفاس قبل إحداث جامع القرويين جامعا بناه إدريس الثاني، وجعل قربه قرية لدفنه... ولما بني جامع القرويين عام 245 صار المسجد الجامع، لأنه أتقن بناء، وأرحب مسافة...

وقد خلف لنا الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار دمشق في القرن الثامن، وأقام فيها بعضا من الوقت، وصفا مطولا للمسجد الجامع، ومناهج التعليم فيه، فقال : ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان، ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح، تنزيها لكتاب الله تعالى، وإنما يقرأون القرآن تلقينا...

ومعلم الخط، غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الاشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره[82]...

وما بنيت المدارس بالأندلس إلا في القرن الثامن بغرناطة، بنيت مدرسة واحدة في سلطنة أبي الحجاج يوسف ابن الأحمر... قال ابن الخطيب في اللمحة البدرية : «هي مدرسة عجيبة، بكر المدارس في حضرته، وكملت أوقافها[83]...

وفي عهد الحسن الوزان كان يوجد بمدينة فاس قرابة مائتي مدرسة للأطفال الذين يرغبون في تعلم القراءة، ويحوي كل كتاب قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال، وهنا يعلمهم المعلم القراءة والكتابة، وليس في كتاب معين، بل الاستعانة بألواح خشب كبيرة يكتب عليها الأطفال، ويقتصر درس كل يوم على آية من القرآن... ويختم القرآن في سنتين، أو ثلاث سنين، ثم يستأنف ذلك

---

76) المحبرة، الأداة التي تقوم بحفظ مادة الحبر.
77) «وصف إفريقيا» ص : 224.
78) أليس الصبح بقريب» ص : 76.
79) المصدر السابق ص : 48.
80) «الأنيس المطرب» ص : 2/10. انظر : تحفة الراكع والساجد، في أحكام المساجد ص : 210 لتقي الدين أبي بكر بن زيد الجراعي الحنبلي تحقيق الشيخ طه الولي.
81) الأنيس المطرب ص : 2/10.
82) تحفة النظار ص : 212 ـ 213.
83) «أليس الصبح بقريب» ص : 76.

عدة مرات إلى أن يجيد الطفل تعلمه بصورة متقنة جدا... ويحفظه عن قلب، أو يدرك ذلك بعد انقضاء مدة سبع سنين، ومن تم يعلم المعلم الأولاد قليلا من الخط[84].

وكانت تقوم في القصبة التي توجد بمدينة مراكش مدرسة جميلة جدا، أو على الأصح مؤسسة للدراسات، ولكنى طلاب متنوعين... وتحوي ثلاثين غرفة، وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تعطى الدروس فيها في الماضي، وكان كل تلميذ مقبولا في هذه المدرسة يعفي من مصاريفه، ويكسى مرة في كل عام[85].

☆ ☆ ☆

والفقهاء والعلماء والدعاة تحرروا. قديما. وفي مختلف العصور. عن طريق الأوقاف من قبضة المرتبات الرسمية. مما جعلهم يتحررون من التبعية والقيود، ويتمكنون من القيام على حرمة الكلمة بأمانة وحرية، لأن من واجبات حرية الإمام أن يكون دخله المعلوم غير مرتبط بالمرتبات الرسمية، وهذا يقتضي أن يكون دخله المعلوم من الأوقاف الخيرية مباشرة حتى يستطيع أن يقول كلمة الحق بملء فيه. ويكون ملء السمع والبصر والفؤاد والوجدان...

وقد ظل هذا الجهد الشعبي المسلم الذي يتمثل في الأوقاف طوال تاريخ الإسلام يحمل رسالة الإسلام، ويعمقها في الداخل، وينشرها، ويوسع نطاقها في الخارج، إذ مؤسسة الأوقاف كانت تعتبر أهم موارد التعليم الإسلامي على الاطلاق؛ وأكثرها دخلا وادرارا، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره قرونا طويلة، وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكلياته...

على أن انتشار حركة الأوقاف الخيرية منذ مطالع القرن الثالث الهجري، وما تلا ذلك من ظهور المدارس الأهلية، ثم الحكومية كانت نقطة تحويل في حياة الطلاب، وبداية عهد جديد لهم، تهيأ لهم فيه نوع من الضمان الاجتماعي يقيهم شرور العوز والفاقة والحرمان، بما خصصته لهم الأوقاف من الأرزاق الدائمة والجرايات المرتبة...

☆ ☆ ☆

لقد كانت أولى مراحل التعليم هي «الكتاب» يحفظ الطلاب القرآن غيبا[86]، ويتعلمون أحيانا، مبادئ القراءة والكتابة... وقد تكاثرت الكتاتيب بصورة خاصة في عصر الموحدين، وانتشرت في بلاد البربر على الأخص بتشجيع من الدول، وبتأثير الانطباع الذي تركه الأندلس على حكام الموحدين[87]، وظلت الكتاتيب منتشرة في جميع أنحاء المغرب، وفي أحياء المدن، وتحت الخيام حتى عهد الحماية[88]...

ويمكن أن نعتبر العصر المريني بالمغرب الأقصى أزهى عصور المدارس في المغرب، فقد كان السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (ت 685 هـ) أول من أنشأ المدارس في المغرب، يقول الناصري : «وبنى المدارس لطلبة العلم، ووقف عليها الأوقاف، وأجرى عليهم بها المرتبات[89]»...

وقد لاحظ ابن مرزوق أن إنشاء المدارس ووقفها، ومساكن الطلبة، كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ أبو الحسن المريني مدرسة الحلفاويين بمدينة فاس[90]، ثم أبو سعيد مدرسة العطارين، ومدرسة البيضاء، ثم مدرسة الصهريج، ثم مدرسة الوادي، ثم مدرسة مصباح،[90 مكرر] ثم أنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة تازة، ومكناسة، وسلا وطنجة، وسبتة، وأنفا، وأزمور وآسفي، وأغمات، ومراكش والقصر الكبير، والعباد بتلمسان والجزائر...

84) «وصف إفريقيا» ص : 264، ط : السعودية.
85) المصدر السابق ص : 143.
86) لقد جمع بعض الصبيان في زمن مالك بن أنس القرآن، وهو ابن سبع سنين.
87) مراكز الثقافة في المغرب، لعثمان الكعاك ص : 51.
88) A. Cllier : 258 258
89) الاستقصاء ص : 2/32.
90) هي مدرسة الصبارين المؤسسة عام 670هـ.
90 مكرر) تنسب المدرسة المصباحية إلى محمد بن مصباح بن محمد بن عبد الله اليالصوتي (ت 750 هـ) بمدينة فاس.

ويقال بأن يوسف بن تاشفين أسس مدرسة الصابرين، وعرفت في القرن الثاني عشر بمدرسة بومدين[91]...

وقد قام ضد بناء المدارس محمد الأبلي العبدري شيخ ابن خلدون، فلاحظ أن العلم قد أذهبه بناء المدارس، وأيده بابا السوداني، حيث ذكر أن ذلك أدّى لذهاب العلم بهذه المدن كفاس، حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة، فضلا عن غيرها، بل من لم يفتح كتاباً للقراءة قط، حيث صارت بالتوارث والرياسات.[92]

ويسكن الطلبة في إحدى المدارس الأربعة عشرة، الشراطين، المصباحية، باب الجيسة والصفارية والعطارين، ويتقاضون خبزة في اليوم، كما أن جامع الأزهر كان يوزع أرغفة على الطلبة، وقد رفعها الشيخ محمد عبده من خمسة آلاف رغيب يوميا إلى خمسة عشر ألفا...

وقد جرت العادة منذ أواخر القرن الماضي بأن يشتري الطالب غرفته في المدرسة، وله أن يبيع المفتاح عند انتهاء مدة الدروس[93].

ومن المآثر الوقفية التي بناها أبو الحسن المريني رحمه الله بناؤه المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع بن يوسف، وقد تحدث عنها العلامة اليفرني في النزهة حيث قال : «إن الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المريني» ومن وقف على هذه المدرسة، وكامل تنفيذها وتنميقها قدر قدر هذا السلطان، وعلم عظم أهميته، ومحبته للعلم وأهله[94]

ومن أوقاف أبي الحسن المذكور المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الأعظم منها، بناها رحمه الله على هيئة بديعة، وصنعة رفيعة، ووقف عليها عدة أوقاف...

وهذا أبو سعيد المريني رحمه الله يأمر في عام 720 ببناء المدرسة التي بفاس الجديد، فبنيت أحسن بناء وأنقسه، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله، ورغبة فيما عنده...

كما بنى الأمير أبو الحسن المريني عام 721 هـ المدرسة التي بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس، فجاءت على أكمل الهيآت وأعجبها، وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندوقا لسكنى الطلبة، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس... وأنفق على ذلك أموالاً جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وشحنها بطلبة العلم وقراءة القرآن، ووقف عليها رباعا كثيرة، ورتب فيها الفقهاء للتدريس، وأجرى عليها الأوقاف والكسوة...

وفي أيام أبي عنان المريني كان العلماء أعز الناس، وأكثرهم عددا، وأوسعهم رزقا[95]...

ولما وفد الطاغية «سانجة» الاسباني إلى الملك يعقوب بن عبد الحق المريني، ومعه هدايا كثيرة تضم ثلاثة عشر حملا فيها جملة مصاحف من القرآن الكريم، وتفاسيره كابن عطية، والثعلبي، ومن كتب الحديث وشروحها كالتهذيب والاستذكار، ومن كتب الأصول والفروع واللغة والأدب وغير ذلك، فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها لطلبة العلم...

ولما استقام للسلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الأمر، بنى المارستانات للمرضى والمجانين، ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم، وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال، وكذا فعل بالجذمى والزمنى والعمى والفقراء، رتب لهم ما لا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود، وبنى المدارس لطلبة العلم، ووقف عليها الأوقاف، وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى[96]...

وقد اقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من

91) الاخوان، في شرفاء وزان، لعبد السلام القادري...

92) «نيل الابتهاج» ص : 246.

93) «دعوة الحق» عبد العزيز بنعبد الله ع : 1، س : 4، ص : 54.

94) انظر «جدول مراكز التربية الدينية، والكتاتيب القرآنية النموذجية التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي أصدرته مصلحة تكوين الأطر الدينية التابعة لقسم التوجيه الديني.

95) «نيل الابتهاج» ص : 260.

96) الاستقصا : ص 3/65.

بعده، فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والربط والزوايا، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم، وأحيوا مراسمه، وأخذوا بضبعه...

وهكذا كان الملوك والأمراء وكثير ممن بسط الله رزقه، ينفقون على العلماء من أموال الوقف، ويغدقون على الطلبة من مداخيله، وكانت للمدارس أوقاف تدر غلات، وعددا وافرا من الدكاكين والدور والجنات والأرحية والأرويات والحمامات وغيرها في جل مدن المغرب... ويتولى أمر هذه الأوقاف نظار أو قضاة، فيقدمون، للطلبة الخبز يوميا، ويعطونهم من حين لآخر مبالغ مالية يستعينون بها على قضاء مآربهم...

وقد كانت الأوقاف التي حبست على الأزهر، في مختلف العصور، والأرزاق التي أجريت على علمائه وطلبته من مختلف الجنسيات والشعوب الإسلامية، والمساكن التي خصصت لهم، عاملا من العوامل الفعالة التي كفت هؤلاء جميعا مؤونة التفكير في اكتساب الرزق والسعي إليه... ومساعدتهم على الانقطاع إلى تلقي العلم، أو التفرغ للبحث، مما أدى إلى تخرج مآت من الطبقات المتتالية من كبار العلماء والأساتذة الذين برعوا في مختلف العلوم والفنون سواء في ذلك ما كان يمت منها بصلة إلى العلوم الدينية، أو ما كان منها متصلا بالعلوم المعاشية، أو الفنون المختلفة... وقد كانت المصادر المالية التي كان يعتمد عليها الأزهر في حياته كمسجد وكمعهد للدرس، فهي الأحباس العامة والخاصة، وكانت الأحباس في ظل الدولة الفاطمية تحت إشراف قاضي القضاة، ولها ديوان خاص، وقد نما هذا المصدر واتسع فيما بعد في ظل دولة المماليك حتى غدا أخصب مورد للجامع الأزهر...

ولابأس أن نشير إلى أن الصفة الجامعية للأزهر نشأت أيام العزيز بالله الذي يعد أول من أقام الدرس فيه بمعلوم، أي قبل المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك عام 547...

97) «نزهة دائرة الأنظار، في علم التوريخ والأخبار» ج : 2/ ص : 173؛ فهرس الفهارس ص : 2/448.

وكان من رواتب شيوخ الأزهر، وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها، وقد بلغ ما يأخذه من ريع هذا الوقف باسم البغلة مائة جنيه في السنوات الأخيرة، ثم أضيفت إلى راتبه الشهري...

وممن تولى مشيخة جامع الأزهر فخر الجزائر أبو زكريا يحيى النايلي الملياني، يحيى الشاوي ت 1096 هـ وذكر تلميذه الشهاب أحمد بن قاسم البوني في ثبته أنه كان يحفظ ستين كتابا من الكتب الكبار كمختصر ابن عرفة الفقهي في ستة أسفار كبار، والذي أشار إلى ولايته مشيخة الأزهر هو محمود ابن سعيد الصفاقصي في كتابه[97]

ومن التونسيين ممن تولى مشيخة جامع الأزهر الشيخ خضر حسين... وممن تولى مشيخة الأزهر من المغاربة : حسن العطار بن محمد بن حمود المصري المغربي تولى مشيخة الأزهر عام 1246 ـ 1830[98]

ومن شيوخ الأزهر شمس الدين أبو أمامة محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي المصري (763).

☆ ☆ ☆

وقد تحدث أبو القاسم الزياني مؤرخ الدولة العلوية أثناء زيارته للدولة العثمانية عن ترتيب العلماء، باسطنبول ومراتب المدرسين عندهم، فأعلاها رتبة مدرس السليمانية، وفيها خمس مدارس، له في كل شهر من وقفها خمس وخمسون قرشا، ثم مدرس «موصلة» السليمانية، فيها خمس وأربعون مدرسة، أعني مضافة للسليمانية، له في كل شهر من وقفها خمسون قرشا... ثم مدرسة رتبة التمثل مضاف له ثلاثون مدرسة، له في كل شهر من الوقف خمس وثلاثون قرشا، ثم مدرسة رتبة الصحن، مضاف له ثمانية مدارس، له من الوقف في كل شهر عشرون قرشا، وهذه المدارس الثمانية، هي التي بناها السلطان محمد الفاتح، لما فتح الاسطنبول، وبنى مسجده، وأدارها به رحمه الله... ثم مدرس موصلة الصحن، له من الوقف في كل شهر عشرون قرشا، ومضاف إليه ثمانين مدرسة... ثم مدرسة «حركة الداخل» مضاف له ستون مدرسة له في كل شهر من الوقف

98) الاعلام للزركلي ص : 2/236.



المساجد ودورها في الدعوة الاسلامية بمنطقة شينجانغ

للأستاذ الحاج محمد صالح
مدير المعهد الاسلامي بمنطقة شينجانغ

منطقة شينجانغ الإيغورية ذات الحكم الذاتي تقع على شمال الصين الغربي، يعني تقع في أواسط آسيا الوسطى. هذه منطقة متعددة القوميات يقيم فيها ابناء قوميات لأيغور والقازاق وهوى وغرغيز وتاجك وتاتار وأوزبك الذين يعتنقون الدين الإسلامي، بالإضافة إلى أبناء قومية هان ومغول وغيرها، حسب الاحصائيات المسجلة في عام 1972 إن اجمال عدد المسلمين فيها أكثر من 7579775 نسمة. تحتل فيها القومية الأيغورية المكانة الأولى، إذ يبلغ عددهم 5949655 نسمة، وكل المسلمين في المنطقة سنيون احناف، يرجع دخول الإسلام في المنطقة إلى ما قبل ألف وثلاثمائة سنة. إن الإسلام قد دخل إلى شينجانغ أول ما دخل في أوائل القرن الهجري الأول، وعلى وجه التحديد في سنة ست وتسعين هجرية. ولكنه قوى شأنه وازدادت شوكته وانتشر انتشارا واسعا في عهد دولة القرا خانيين بإسلام سلطان ستوق بغرا عبد الكريم خان، الذي أسلم سرا ثم أظهر إسلامه، فنشر الإسلام في ربوع المنطقة بجهد متواصل في أواسط القرن الرابع من الهجرة النبوية، فبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا يدفعهم الحماس الشديد لهذا الدين الحنيف، وقد دخل الإسلام هذه المنطقة كما دخل في مناطق الصين الأخرى عن طريق التجارة والدعاة الوافدين من الخارج. لا يكاد الإسلام يدخل بلدا من البلاد وينتشر فيه حتى يكون المسجد رمزه الذي يدل عليه، بازدياد عدد المسلمين يزداد عدد المساجد التي تبنى فيه، فكان للمساجد دور بارز في تعميم دين الله وإرساء قواعده، لأن المساجد هي بيوت الله في أرضه ومهابط رحمته ومهوى أفئدة المؤمنين، المساجد هدى ونور وصومعة الناس، ومدرسة الدارس، تشع المساجد بنور الله فيستنير به قلوب جموع المصلين، فتزداد صفاء وبهجة فتمتلئ من السكينة والاطمئنان ويذكرون الله فيها كثيرا ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾، المساجد كانت مثابا للعبادة ومعاهد للعلم وأماكن لذكر الله ومراكز للإيمان ورموزه يعتبر المسجد أكبر مركز للاشعاع الإسلامي في المنطقة كلها.

لم يزل المسجد مشعل هداية ومناراً للإسلام تشع منه أنوار الحق، لمنطقة شينجانغ مظهر إسلامي واضح حيث يكثر عدد المسلمين فيها مع كثرة مساجدها التي يؤمها المسلمون الذين يتمسكون بشعائر دينهم إلى درجة كبيرة وفي المنطقة ما يزيد عن ستة عشر ألفا من المساجد على وجه التقريب ما بين قديم وحديث، وفي الوثائق التاريخية أول ما بنى من المساجد بالمنطقة هو مسجد

طلب العلم، أو تلقينه، مهما بعدت بهم الدار، أو شط بهم المزار.

وإن تراثنا الإسلامي والمغربي منه بصفة أخص، لخليق أن يحملنا على الاعتزاز به، ومن أجل ذلك فنحن مدعوون للمحافظة عليه، وشمله بمزيد العناية التي تقيه خطر العفاء والاندثار، مع جعله في ذات الوقت مسايرا لمتطلبات القرن العشرين، ومواكبا سير الحضارة العصرية».

ثم أضاف جلالته يقول :

«ونحن موقنون بأن الدروس العلمية التي عرفتها حلقات الدراسة في أول جامعة عالمية هي جامعة القرويين، التي حج إليها الرواد من جميع أنحاء المعمور وحتى من أوروبا، كانت في بعض عصورنا الذهبية عصارة ما انتهى إليه الفكر البشري، الذي تلاقح بمختلف نتائج الحضارات، بيد أن عملا تجديديا كان لابد أن يصاحب ذلك التراث ليتطور وينمو، ويثبت على مر الزمان أمام مختلف التيارات الفكرية والاكتشافات العلمية.

ولكي يستمر هذا العمل وضمانا لانتشاره وازدهار، ندشن في هذه الليلة المباركة **«دار الحديث الحسنية»** التي ستضم ثلاثين طالبا سيتخصصون في الدراسة الإسلامية، وسيلمون بفن الحديث متنا وسندا ورواية، ويتخصصون في كل ما يقوي مداركهم، وينمي معلوماتهم في هذا الفن الأصيل، ليكونوا علماء؛ لن تكون مهمتهم الوعظ والإرشاد، ولكن علماء يكونون الإطارات التي تعادل في كفاءتها واطلاعها، من عرفه المغرب من علماء مرموقين في هذا الميدان، أصبح عددهم يتضاءل بكل أسف، ونأمل أن يسد خريجو دار الحديث فراغهم.

وقد تقدم الأستاذ السيد الحسين وكاك خريج دار الحديث الحسنية برسالة جامعية تحمل عنوان : «دور الحديث في الإسلام اختارت العمل في الإطار الإسلامي العام في عقد يربط مشرقه بمغربه، غير متصدرة للتعمق في الاقليميات، ولا للبحوث الخاصة في الجزئيات.

وقد استطاع الأستاذ الحسين وكاك خلال هذه الرسالة أن يبذل في سبيلها جهودا متواصلة، ويحصل على إحدى وخمسين دارا للحديث، أربع منها يحمل اسم «دور القرآن والحديث» والباقي يحمل اسم «دور الحديث» وقد خصص الأستاذ وكاك بعض الفصول للحديث عن الزوايا الحديثية العشر المشهورة في مختلف مدن المغرب وقراه بالإضافة إلى بعض العائلات المغربية الحديثة وإلى جانب المدارس والزوايا هناك عائلات حديثية تواكبها في نشاطها العلمي والحديثي، مثل عائلة كنون والعراقي وابن سودة في فاس، وعائلة الأمير عبد القادر الجزائري بالجزائر، وعائلة الشيخ ماء العينين بالساقية الحمراء والتي لا يضاهيها في جهادها إلا العائلة السنوسية بالقطر الليبي وعائلة أحمد بابا بتنبكتو، والعائلة العلوية، والكنتية، وشرفاء آل شمس الدين المعروفين بالماسدة، وأسرة آل محمد سالم في شنقيط، وآل ابن الأعمش بتندوف، وعائلة ابن الصديق بطنجة، وغيرها من العائلات التي نشرت العلم والحديث بين الرجال والنساء، وخاصة في النواحي الصحراوية الشاسعة الأطراف.

الرباط : محمد بنعبد الله

☆ ☆ ☆

عشرة قروش، ثم مدرسة «رتبة الداخل» مضاف له خمسون مدرسة له في كل شهر من الوقف عشرة قروش، ثم مدرسة «حركة الخارج» مضاف له خمسون مدرسة، له في كل شهر من الوقف عشرة قروش[99].

دور الحديث :

ولقد كانت دور الحديث تتميز عن غيرها من المدارس بظاهرة الأوقاف الخاصة بتمويلها، إذا كانت هذه الدور تعتمد أساسا في نفقاتها على الأوقاف الخاصة التي يحبسها عليها الواقف سواء كان أميرا، أو غيره من المحسنين، ويستفاد من نصوص الوقفيات شروط المحسنين الواقفين أن هذه الدور كانت مستقلة في ميزانيتها، وذات تخصص محصور في منهاجها الدراسي... ذلك لاستقلال أوقافها من جهة، وتخصصها بأهل الحديث من جهة أخرى...

وقد ذكر أبو شامة[100] أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية، والحنبلية وعلى أئمتها ومدرسيها وفقهائها أوقافا كافية، ومن مناقبه أنه عين للمغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافا كثيرة منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمام، ودكانان بالعطارين وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفا على هذه الأوقاف[101].

وبنى الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي بالقاهرة دار الحديث المعروفة بالكاملية عام 622 هـ وجعلها للمذاهب الأربعة، وكان الحافظ عمر بن الحسن المشهور بابن دحية أول أساتذتها المشهورين... وقد سكن بها، كما أنشأ نور الدين محمود بن سعيد زنكي أول دار للحديث بدمشق عام 569 هـ وكان من ألمع شيوخها وأساتذتها، ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق...

وفي عام 626 هـ تأسست بدمشق دار الحديث «الأشرفية» الذي عين فيها الحافظ ابن الصلاح أول أساتذتها، وكذا الإمام محي الدين النووي الذي له شرح على صحيح مسلم، وقد سكن بها تقي الدين السبكي...

وهكذا تأسست عدة دور للحديث في مختلف ربوع العالم الإسلامي كالمدرسة الشبيهية والسلمانية، والظاهرية، والمستنصرية، والسكرية التي كان يسكن بها ابن رجب، وابن تيمية، كما كان يسكن في دار الحديث «الشقشية» الحافظ المزي، والإمام النووي ومن أهم الدور الحديثية التي تأسست في العصر الحاضر، وكانت أحد التطلعات الطموحة للحسن الثاني «دار الحديث الحسنية» التي أعلن عن تأسيسها في إحدى المجالس الحسنية في شهر رمضان عام 1384 هـ - 1964 م.

فلنقرأ لجلالته، وهو يحدد في خطابه التاريخي تلك الأهداف والمرامي التي دعت إلى تأسيس هذه الدار قال حفظه الله :

«لقد كانت أمنية عزيزة علينا هاته التي نحققها اليوم بتدشين دار الحديث الحسنية، في هذا الحفل الذي يضم طائفة من علمائنا، ونخبة من حملة مشعل الهداية بيننا، منذ أن ولانا الله مقاليد هذه الأمة، ونحن بحكم التربية التي أنشأنا عليها والدنا المقدس، نعمل لتستمر الهداية الإسلامية تنير بإشعاعها الخالد هذه الديار، باذلين في سبيل ذلك كل نصح وتوجيه، ومحصنين مقوماتنا الروحية التي نعتز بها من كل زيغ وتضليل وتحريف، مؤمنين بأن لا صلاح للأمة الإسلامية إلا بما صلح به أولها.

وقد أثبت التاريخ أن المغرب حافظ على أصول ذلك الهدي، واحتضنه وحمله في أمانة إلى مختلف الآفاق، ثم انتصب عليه قيما حنيفا حين ابتلي العالم الإسلامي بالنكسة، التي تلقاها لحسن الحظ أجدادنا المقدسون في هذا الوطن العزيز.

وإن فتوحاتنا العلمية لا تقل شأنا عن فتوحاته السياسية، فما أكثر أولئك العلماء المغاربة الذين أسهموا في الحضارة العربية الإسلامية بالنصيب الأوفى، وما أوفر من ظلوا منهم عبر التاريخ الطويل يضربون أكباد الإبل في

---

99) الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني ص. 1؛2.

100) الروضتين ص : 1/16.

101) رحلة ابن جبير ص : 285.

سلطان ستوق الذي يرجع عهده إلى القرن الرابع الهجري، كان أولا معبدا بوذيا ثم حول مسجدا جامعا بعد ما أسلم السلطان ستوق عبد الكريم، وبجوار هذا المسجد ضريح السلطان المذكور، فمازال المسجد قائما حتى اليوم يؤمه الناس في صلواتهم ويتسع لثلاثة آلاف شخص، فمن أشهر المساجد الأثرية القديمة جامع عيد كاه في كاشغر هو جامع كبير المساحة، فآخر البنيان، يقوم في وسط مدينة كاشغر، يرجع إنشائه إلى أكثر من سبعة قرون مضت. في فناء الجامع أشجار باسقة تبدو للناظرين كأنه تحيط به الحدائق الغناء والمروج الخضرا له مأذن ثلاثة كبرى ذاهبة في الجو وهو جامع فسيح. يسع حوالي عشرين ألفا من المصلين يتقاطر عليه المسلمون للصلاة فيه. وبخاصة في أيام الجمع والأعياد وذلك لاتساع مساحته وهو أكبر مساجد المنطقة على الإطلاق. تهفو إليه قلوب المسلمين في هذا القطر، ترى الإسلام إذا يممته في عز منيع وجاه عظيم.

ومسجد آخر في كاشغر يسمى «جامع عتيق» الذي شيد في القرن التاسع الهجري في زمن السلطان أبي بكر مرزا، وله شهرة فائقة بين أوساط علماء الدين. إذ يروى أن الشيخ المفكر سعدي الذي عاش في العصر السابع من الهجري وصنف كتبا شهيرة في الدين والأخلاق أمثال كلستان، بستان وغيرها صلى في الجامع المذكور صلاة الجمعة حينما قدم إلى كاشغر.

فنعرف من هذه الرواية أن هذا الجامع كان في ذلك العهد أكبر مسجد يصلى فيه الجمعة والأعياد في المدينة. فلم يزل يحافظ على مكانته المرموقة إلى عصرنا هذا. في ولاية كاشغر يتجلى الطراز القديم من المباني كما تظهر بها معالم الإسلام واضحة في عدد مساجدها التي تبلغ أكثر من 3665 مسجدا.

ويوجد في ولاية ختن 2900 مسجد من المساجد القديمة والحديثة أكبرها وأقدمها «جامع عيدكاه» الذي يرجع عهده إلى ماقبل ثلاثمائة سنة يتسع لأكثر من عشرة آلاف من المصلين وقد تم ترميمه منذ سنتين بمساعدة الحكومة.

وتوجد في ولاية آقصو آلاف من المساجد وفي مدنها وأريافها عشرات من الجوامع الكبار فمن بينها جامع قديم بمدينة كشار بجوار ضريح العالم الكبير والداعي الشهير عرش الدين ولى الله الذي أسلم بين يديه خلق كثير كما أسلم بدعوته السلطان توغلوق تيمور حاكم هذه الديار سنة 753 من الهجرة النبوية، فبذلك كان توغلوق تيمور آخر الحكام قبولا للإسلام في منطقة شينجانغ.

وأما ولاية طرفان فمعروفة بمساجدها العامرة وكرومها الشاسعة كما هي حافلة بالقلاع والتحف القديمة، ففيها من المساجد ما يربوا على 770 مسجدا وأكبرها مساحة هو جامع «منارة» الذي يتميز بمنارته المرتفعة إلى عنان السماء، وعلو المنارة أكثر من أربعين مترا.

ما زالت الحكومة الصينية تولي المساجد نصيبا كبيرا من عنايتها، كم من المساجد بنيت على نفقة الحكومة، إذ يلقى المسلمون في المنطقة رعاية طيبة من حكومتها فتمدهم الحكومة بالمعونة وتساعدهم على إقامة مساجدهم. وفعلا أنشأت الحكومة مساجد فخمة في أماكن عديدة لم تكتف بذلك بل عمرت ورممت وأصلحت وجددت مساجد كثيرة لا سيما الجوامع الكبيرة وفيما يلي لمحة عن بعض المساجد المشيدة والمجددة.

وقد بنى بجانب المعهد الإسلامي الذي أسس في السنة الماضية مسجد فخم رائع على أحدث الأساليب المعمارية، مكيف الهواء يتميز بطابعه الذي يعد مزيجا من الطراز الإسلامي وطراز البناء القومي المحلى، ترتفع مأذنه عالية في السماء إلى جانب قبته المستديرة العظيمة. يؤدى فيه الطلاب والأساتذة الصلوات الخمس ويقصده المسلمون للصلاة فيه فيعتبر من أروع المساجد الحديثة في أورومجي لجمال هندسته، والمسجد مؤثث تأثيثا فاخرا وبه عدد من الثريات الكهربائية الفاخرة. النقوش الإسلامية والآيات القرآنية ما زالت تزين جدرانه.

وجامع في وسط مدينة أورومجي حاضرة المنطقة يسمى «جامع بغدا»، بنى حديثا وهو مسجد ضخم يعتبر من أروع مساجد شينجانغ الحديثة فخم البناء جميل المنظر مؤلف من ثلاثة طوابق يتسع لأكثر من ثلاثة آلاف من

المصلين. وقد تم بناؤه وافتتاحه لإقامة الصلاة فيه في العام الماضي.

ومن أشهر المساجد وأقدمها بمدينة أوروموجي هو مسجد شنشى الذي بنى قبل مائتي سنة، فتراه جامعا كبيرا مبنيا بهندسة صينية ذات طابع إسلامي فجدران الجامع وأبوابه وشبابيكه زينت بنقوش رائعة جميلة وفي السنوات الأخيرة رمم الجامع بعناية الحكومة ترميما كاملا. ففيه مبنى الجمعية الإسلامية لمدينة أوروموجي.

ذكرت هنا عديدا من المساجد الكبار على سبيل المثال، بالإجمال لا الحصر، أما المساجد الأخرى المنتشرة في المدن والقرى فأكثرها بسيطة لكن لابأس بها من حيث الحجم، وقد أقامها المسلمون على نفقتهم الخاصة. المحسنون يسعون سعيا حثيثا لإنشاء المساجد بنية خالصة، إذ يعلمون أن دعم المساجد والمساهمة في إيجادها عمل خيري عظيم، ذاكرين قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «من بنى مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة» كذلك أفراد المسلمين يتبرعون بما تيسر بأيديهم وما قدروا عليه لبناء المسجد لو بنى رجل ذو سعة في بعض الأحيان مسجدا فلا بد أن يحمله عموميا فلا يبقى نظارة المسجد الذي بناه في يده حده بل يشارك بها سائر الناس. هناك بعض المساجد تحت الإنشاء بجهد الأهالي وتبرعاتهم ومساهماتهم البدنية. يتميز أكثر مدن المنطقة بكثرة مساجدها. بمآذنها العديدة. تكسب المدينة مظهرا إسلاميا بحتا. أما المساجد الصغيرة فيقام فيها الصلوات الخمس. وأما الجوامع فيؤدى فيها صلاة الجمعة وصلاة العيد. يزدحم الجوامع بالمصلين في أيام الجمع وكثير ما يؤدى المسلمون صلاتهم خارج الجامع في الأعياد من كثرة الزحام.

وفي عادة هذه الديار كثيرا ما يقام إلى جوار أضرحة الأولياء والصالحين مساجد يؤدي فيها زوار القبور الصلوات المفروضة ويقومون بتلاوة القرآن فيهبون ثوابها على حسب زعمهم إلى أرواح أصحاب القبور.

وفي قومية قازاق لم تنتشر بينهم المساجد منذ دخولهم في الإسلام لكونهم قوما رحالين فكانوا يؤدون الصلاة في الخيام وفي الفلوات، ولكن منذ عهد قريب ظهر في مواطنهم مساجد وأماكن خاصة للصلاة تناسب حياة التجوال.

وأما المشرفون على شئون المسجد فيتألف من خمسة أشخاص، من إمام وخطيب ومؤذن ومتولى وخادم النظافة. ووظيفة الإمام أن يكون إماما في الصلاة في الأوقات الخمسة، وزد على ذلك أن يقوم بالأمور الدينية في بيوت المسلمين. والخطيب يخطب في يوم الجمعة لا غير، والمؤذن يؤذن إذا حان وقت الصلاة، وخادم النظافة يقوم بالأعمال التي تتعلق بالنظافة والمتولى يقوم بأعمال المسجد اقتصاديا. ومنذ سنوات أخيرة أسس عند كل مسجد لجنة تتألف من أهل محلته المصلين فيه وتكون مهمتها رعاية مصلحة الجماعة والمسجد.

فأما ميزانية المساجد بالمنطقة تتوقف غالبا على ثلاث جهات. أولا. من مورد الأوقاف التي أوقفها المحسنون على المساجد. وقد خصص المسلمون أوقافا كثيرة للمساجد عملا بالحديث الشريف. «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث. صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»، ثانيا من تبرعات جماعات المسلمين. ثالثا من مساعدة الحكومة.

☆ ☆ ☆

مساجد المنطقة ليست أمكنة للصلاة والدعاء فقط. بل هي قطب الذي عليه مدار المسلمين. وعلاقة المسلمين بالمساجد كعلاقة السمك بالماء. تجد المساجد مفتوحة تقام فيها الشعائر الدينية في كل يوم. فترى المسلمين يسعون إلى المساجد ناشدين ثواب الله موقنين بأن صلاة الجماعة قربة. وأن عددا كبيرا من الشبان فضلا عن الشيوخ يحضرون الصلاة جماعة في هذه المساجد.

وتبدو المساجد والجوامع أكثر حيوية ونشاطا بدخول شهر رمضان المبارك إذ المساجد غاصة بالمصلين الذين وفدوا إليها لأداء صلاة التراويح، فيدعى مشاهير القراء، فهم يختمون القرآن الكريم من أوله إلى آخره تلاوة في صلاة التراويح، فيزيد عدد الحاضرين لصلاة التراويح حينما يختم القرآن.

وتتجلى حماستهم الدينية في احتفالاتهم بالقرآن الكريم إذ تجد مسلمي المنطقة يعتنون اعتناء فائقا بالقرآن الكريم تلاوة وحفظا. تتميز المنطقة بكثرة قرائها لا تخلو المدن والأرياف من قراء يرتلون آيات الله البينات في كل المناسبات الدينية عامة، وفي الصلوات المكتوبة في المساجد خاصة، فيستمع جمهور المصلين إلى كتاب الله في خشوع وتدبر.

لم تكن المساجد تقتصر دورها على إقامة الصلاة فحسب، بل كانت المساجد تعتبر موئل الغرباء والمسافرين الذين يفدون إلى بلد لا يجدون فيه صديقا ولا قريبا فيقصدون هذه المساجد حيث يلتقون بإخوانهم الذين يحبون الغريب إذا قدم إليهم ويبتهجون برؤية الضيف، فيقومون بالواجب نحوه فتنحل بهذا مشكلة إقامته وطعامه في البلد.

لا يخفى علينا أن أهم دور لعبه المسجد في حقل التعليم هو دور الجهاز التعليمي، كانت المساجد أماكن هامة للتعليم الديني قبل ظهور المدارس فبعد ظهور المدارس لم تفقد المساجد مكانتها الأولى في تربية النشء الجديد وتعليم الطلاب، كان التعليم في المساجد يشمل على ثلاثة مراحل، كانت المرحلة الأولى قاصرة على تعليم الصغار القرآن الكريم في الكتاتيب الملحقة بالمساجد. والمرحلة الثانية تشتمل على مبادئ العلوم من صرف ونحو وأحكام تتعلق بالعبادات ومسائل ضرورية في عقائد الإسلام. والمرحلة العليا تشتمل على الفقه والتفسير والحديث والتوحيد والأخلاق وهكذا واتخذت هذه المراحل من المساجد أماكن لها حيث كانت تعقد حلقات الدروس، فكثير من العلماء ترعرعوا على ضوء تربية المساجد فقدموا مساهمات عظيمة في الدعوة الإسلامية. لم تكن الدراسة والتحصيل في المساجد محصورة على طبقة طلاب العلم بل كان في حلقات هذه الدروس جم غفير من سواء الناس الذين حضروا لأداء الصلاة جماعة فيستمعون إلى العلماء ويستفيدون منهم، ولقد كان لأئمة المساجد حق الصدارة والتوجيه بين جماعة المسلمين، ولقد قام الأئمة بالدعوة والإرشاد فساهموا مساهمة عظيمة في هذا الواجب وفقا لقوله تعالى : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ ولقد عمر المساجد الزاهدون والعارفون والذاكرون الله كثيرا عامة، والفقهاء والعلماء والأئمة خاصة بحلقات الدرس من فقه وحديث وبرفع صوتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾.

فإمامة المساجد وظيفة هامة في نظر مسلمي المنطقة كما لها مكانة مرموقة في قلوبهم.

كانت الخطابة والوعظ من اختصاصات الأئمة الهامة، ومن أهم وسائل الدعوة إلى الله يعتبر كل مسجد من مساجد المنطقة مكانا خاصا ومركزا هاما، يقوم فيه الأئمة بالدعوة الإسلامية. كانت الأئمة يلقون وعظهم باللغة القومية لكي يتسنى للمستمعين فهم ما يلقى إليهم من المواعظ.

ودائما ما يلقى الوعظ قبل صلاة الجمعة وصلاة العيدين وبعد صلاة الفجر في المساجد ويلقى الوعظ أحيانا بعد الصلوات المكتوبة أو قبلها إذا اقتضى الحال ذلك، تشتمل محتويات الخطب على توضيح أحكام الشرعية والموعظة الحسنة والتذكير والترغيب والترهيب. ويتحمل الخطيب مهمة الوعظ الديني في كل جمعة، أولا يقرأ الخطيب الخطبة المدونة بالعربية من أولها آخرها دفعة ثم يشرح معانيها بالتفصيل باللغة القومية، أو يلقى وعظا مستقلا بعد تلاوة الخطبة العربية يحث المسلمين على التمسك بكتاب الله وسنة نبيه والتعاون على البر والتقوى وعلى حفظ القرآن وتعليم أبنائهم أصول الدين ويبين لهم أمورا تتعلق بالصلوات والفرائض حتى تكون أعمالهم نقية من كل شائبة وتكون في شخصية المسلم كل الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، فالخطيب يطول الخطب أو يقصرها نظرا لأحوال المستمعين. ففي العادة، وقت الخطبة والوعظ نحو ساعة أو نصف ساعة، وصفوة القول أن أئمة المساجد والخطباء يدركون حق الإدراك مهمة الإرشاد، هي في الأصل وظيفة الأنبياء والمرسلين ثم

إن هذه المهمة العظيمة قد ائتمن الله عليها من كانوا لها أهلا من ورثة الأنبياء فلذلك يجتهدون أن يؤدوا رسالتهم في الوعظ الديني على أحسن وجه.

ومما يستحق الذكر هنا أن المساجد كانت في حاجة ملحة أن نبذل جهودنا لاعداد ائمة أكفاء. تحت رعاية الحكومة الشعبية تمت تربية كمية كبيرة من الأئمة الذين لعبوا دورا هاما في النشاطات الدينية بمنطقة شينجانغ، كما أرسلت المنطقة عددا من الطلاب للدراسة في الدول الإسلامية، منها باكستان ومصر وليبيا، ومن أجل رفع مستوى أئمة المساجد فتحت دورات دراسية لمدة قصيرة لدراسة تفسير القرآن و«الحديث النبوي» و«الفقه» و«التوحيد».

قد لعبت تلك الدورات الدراسية دورا لا يستهان به في رفع مستوى الأئمة في العلوم الدينية، وقد أسند معهد العلوم الإسلامية الرأي إلى اعداد أئمة المساجد وعلماء الدين في شينجانغ، وبدأ التدريس فيه في الصيف الماضي، فتح هذا المعهد في يونيو الماضي أول دورة تدريبية لأئمة المساجد، وقد تخرجوا بعد أشهر من الدراسة المنظمة ثم قوبل لأول مرة ستة وأربعون طالبا، فسيبلغ عدد الطلاب مائة وستين في هذه السنة، وفي خطة المعهد أنه سيربى ألفا من أئمة المساجد في السنوات الخمس القادمة إن شاء الله تعالى.

زودت أئمة المساجد والعلماء باعداد كبيرة من نسخ القرآن الكريم والكتب الإسلامية التي طبع تحت رئاسة الجمعية الإسلامية الصينية كما طبع معاني القرآن الكريم باللغة الإيغورية المعاصرة أكثر من مأتي نسخة منذ عامين، فأقبل عليه جمهور المسلمين إقبالا زائدا فأصبحوا يقرؤونه كل يوم بعد صلاة الفجر في المساجد جماعة فضلا عن أن يقرأه كل فرد في بيته، وكذا طبع جواهر البخاري ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين مترجمين باللغة الإيغورية كل منهما مائتا ألف نسخة، والأمل كبير أن يؤدى المسجد دوره المرجو في نشر الإسلام وأن يكون منارا للإرشاد ومركز إشعاع إسلامي يوجه المسلمين إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة.

شينجانغ : الحاج محمد صالح
الصين - مدير المعهد الإسلامي

تأملات حول إشكالية الطوائفية بالأندلس

للأستاذ المهدي البرجالي

مرت الأندلس الإسلامية في مجرى التاريخ الذي عاشته إلى حيث كان منتهاها ـ بثلاثة أطوار رئيسية :

أولها : الطور الذي عرفته على عهد الفتح الإسلامي، وامتداداته خلال الحقبة ما قبل الأموية.

الطور الثاني : الذي استمر على مدى العصر الأموي وما تلاه حتى مجرى الثلث الثالث من القرن الهجري الخامس، حيث دعا الداعي يوسف بن تاشفين لعبور المجاز. والاضطلاع بوقف ثم بصد الكسح الإفرنجي للعدوة، وهو كسح كان مرشحا للإطباق عليها بكيفية حاسمة.

أما الطور الثالث : من هذه الأطوار المتتالية، التي عاشتها الأندلس، فيشمل كل هذه الفترة الطويلة ـ عبر عهود لمتونة وبني عبد المومن، والمرينيين، إلى حين تصفية الوجود الإسلامي تصفية كاملة في المنطقة : وهي حقبة شاسعة من الدهر، توالت فيما بين القرن الهجري الخامس، والقرن التاسع، وتميزت ـ أساسا ـ إلا في غضون استثناءات معينة ـ بإشراف المغرب ـ سواء اللمتوني أو الموحدي أو المريني ـ على شؤون الدفاع عن العدوة، وتقويم مسار الأحوال السياسية فيها، وارتباطا بذلك، تحمله جانبا من أعباء تسيير الحياة العامة في بعض مناطقها، ومهام التخطيط الستراتيجي لها، سواء في مداه المباشر أو البعيد.

وكما يرى، فإن المساحة الزمنية التي انقضت على الأندلس في ظل الإشراف والدعم العسكري المغربي، كانت ـ بالمقارنة مع كل شوط من أشواط التاريخ الأندلسي ـ من أطولها زمنا، وأغزرها أحداثا، وأشدها مجابهات على الصعيد الجهادي، ومن أرفعها كذلك مستوى فكريا وحضاريا.

☆ ☆ ☆

وانطلاقا من الإفادات التاريخية الوادرة بهذا الخصوص، وبكل مقاييس التحليل والتقييم المعتمدة فيها، فإن ميزان الربح والخسارة في حسابات المهمة المغربية هذه بالأندلس، لم يكن له من الاعتبار مثل ما كان للحوافز التضامنية التي قادت عمل المغرب في هذا السبيل، باعتباره آنذاك، القوة الدولية الأساسية والوحيدة المؤهلة للتدخل المطروح في خلال الظرف ـ القيام به، والموفور لها طول النفس في قدرتها على تحمل تبعاته.

لقد كان المغرب المرابطي حينما شرع في تحركه التاريخي ـ عبر المضيق ـ مستغرقا بمشاغل جمة وحيوية، وجد مكلفة له، منها :

العمل على تركيز وترسيخ بنياته وقدراته وستراتيجياته بعد أن انقضت على المغرب فترة ما بين

الأدارسة والمرابطين، التي غشيه خلالها ما غشيه من زوابع وأنواء.

ومن تلك المشاغل أيضا، ما كان مطروحا على المغرب في أثناء الظرف من التزامات تخص روابطه مع غرب إفريقيا السوداء، وما يقتضيه منه الحال حينئذ ـ من جهد يبذله بشأن رعاية تلك الارتباطات التي اتخذت منطلقا واسعا مع بداية العهد المرابطي، وحماية النطاق الجغرافي، الذي اتسع للإشعاع المغربي في هذا القطاع من القارة.

ومن المشاغل من هذا القبيل كذلك، جملة الملابسات الجيوسياسية والجيوستراتيجية، والتوازنات في عامة البحر المتوسط آنذلك، وهي ملابسات، على قدر من التشعب ساعتئذ ـ كحال المنطقة في مختلف العصور، يتمثل ذلك ـ أثناء الفترة المتحدث عنها ـ فيما كان يشهده الحوض المتوسطي عموما من مجاذبات مختلفة بين ضفتيه الشمالية والجنوبية، وما كان يحيط بالوجود العربي في بعض جزره (جزر البليار مثلا، وصقلية) من متغيرات يحسب لها حساب في موازين التقدير العربية ـ الإسلامية.

وقد كان أمن المضيق وهو بوابة البحر المتوسط واقعا فعلا صميم اهتمامات ابن تاشفين عند عزمه على العبور إلى الأندلس، ومن ثم فهو لم يشرع في تحركه نحو العدوة، حتى ضمن استخلاص سبتة وقد كانت المنطقة تحت نفوذ يحيى بن سكوت البرغواطي. وهذا مظهر يقظة سياسية و«ستراتيجية» في نفس الحال.

على أن كافة المشاغل هذه، لم يكن من شأنها ـ بالنظر لطبيعة المقومات المتوفرة للمغرب ـ أن ترجح على ثقل الدواعي التي حملت المرابطين على عبور بحر الزقاق، واقتحام الخضم الأندلسي بكل حدته وتوتراته وتعقيداته، ومما لابد أن كان له وزن في إلهامات هذه الدواعي :

1) افتراض أن تتكاثف مختلف القوى السياسية بالأندلس في مضمار الجهد المغربي الأندلسي المشترك، للجم المد الاكتساحي الإفرنجي الآتي من الشمال، وتحجيم اندفاعيته.

2) تصور أن يؤدي الأمر ـ في حالة نجاح هذا الجهد الإسلامي المتضافر ـ إلى بلورة مثال نموذجي يحتذيه خط السير الأندلسي في مراحل لاحقة على صعيد المواجهة الدائمة بين الأندلس الإسلامية، وبين المحيط البشري غير الإسلامي، المنغمر في الصراع معها.

3) الظن بأن ظروف العزلة القارية التي كانت تحيط بوجود المجتمع الأندلسي حرية بأن تعمق في منظور الفكر السياسي في العدوة، الشعور بالا معوض عن هذه العزلة إلا الالتحام الإيجابي بالمغرب، والتنسيق معه، اعتبارا لمزايا التكامل بين الميدان ـ في المجال الحربي ـ وبين العمق الستراتيجي المتصل به، وما يتيحه ذلك من إمكانات للمعنيين بالأمر، على الصعيد اللوجيستي والعملياتي وغيره.

☆ ☆ ☆

أثمر التحرك المرابطي لنجدة الأندلس، نصر معركة الزلاقة، وما أفرزه من دقائق جديدة، كانت لها انعكاساتها على مجمل الأوضاع السياسية والجهادية بالعدوة، مما جعل ما قبل الزلاقة وما بعدها حالتين مختلفتين جذريا وشموليا عن بعضهما في مسار التاريخ الأندلسي جميعه : إلا أن ما أعقب هذا التطور، كان مدعاة لملاحظة أن الفكر السياسي الأندلسي ـ من خلال بعض القوى المتصدرة آنئذ على الأقل ـ لم يكن قادرا على فرز خلاصات مفيدة من قبيل ما ذكر، خلاصات هي حصيلة استبطان دقيق للمنعطف التاريخي الذي كانت تعيشه الأندلس، وتواجه في سياقه «مفاجأة» اكتشاف أن كل كثافة قدرات العصر الأموي الأندلسي، لم تكن كافية، لأن تتبلور في أثنائها بذور حل مستقبلي لإشكالية مصير المجتمع الأندلسي في أفق التاريخ البعيد، من حيث استقرار هذا المجتمع، ومناعته النفسية، ورسوخ قواعد ارتكازه الفكري والسياسي، وتجذر إمكانات تعاطيه ـ عبر تفاعل متبادل ـ مع النطاق الجغرافي والبشري المحيط ـ أوروبيا ـ به.

والواقع أن مثل هذا التحول، كان أبعد بكثير من أن يؤمل حصوله في حقبة محدودة تاريخيا كالحقبة التي

أشرنا إليها، إلا أنه من المفترض، أن يكون التاريخ حينذاك قد سار خطواته الأولى في هذا السبيل، مثلما سار خطوات من قبيل هذا في جهات أخرى من القطاعات العالمية، التي تجذر فيها الحضور العربي - مباشرة أو بكيفية غير مباشرة - على نحو دلت القرون اللاحقة على متانة ثباته واستمراره.

لقد كان انحسار الامتداد الإسلامي في أوروبا عقب وقعة «بلاط الشهداء» إيذانا ببداية العزلة الجغرافية - قاريا - التي ما برحت تأخذ بتلابيب المجتمع الأندلسي منذ بداية وجوده، وكان من الضروري أن يكون لهذه العزلة أثرها في تحديد سلوك هذا المجتمع، بما يتفق مع ظروفه الخاصة، المتميزة عن ظروف غيره من المجتمعات الإسلامية المتماسكة - بحكم منطق الجغرافية - مع بعضها، إلا أن قصور الفكر السياسي الأندلسي، قد كان منه أن حال دون استيعاب المجتمع في العدوة، حقائق أساسية من هذا النمط. وموضوعية استنتاجه منها : ومن ذلك، ضعفت إن لم يكن قد انعدمت قدرة التلاؤم الذاتي داخل هذا المجتمع، بمجرد تسرب عوامل الضعف إلى الإطار الجامع، الذي كان يستقطبه (إطار الدولة الأموية) وفي اتصال بذلك، طفت على السطح - بأقصى قدر من الشراسة - النزعة اللاوحدوية داخل الكيان الأندلسي، واندرج بالنتيجة في نفق الوضع الطوائفي الذي كان - لو استمر - داعيا لتحلله في النهاية آنذاك وتفتته.

والحق أن ظاهرة الانحلال السياسي والمجتمعي التي تميز - في العادة - فترة الضعف الذي يلحق بدولة ما، إذا كانت على مشارف الانتقال من عهد إلى آخر - هذه الظاهرة متواترة وعادية في مألوفات التاريخ، بصرف النظر عن البواعث النوعية الخاصة، ذات التأثير الجوهري في مثل هذه الحال، إلا أنه من المتواتر ومن الطبيعي كذلك، أن تتجدد - فيما بعد - الدولة المعرضة لظاهرة من هذا النوع، وتنبعث في ظروف معينة - على نحو أقوى، مستمدة ذلك من ديناميكيتها الذاتية، ومن قدرتها، كقدرة الجسم على استرداد عافيته، تحت تأثير الحصانة الطبيعية الموفورة له، بيد أن الأمر بالقياس لمجتمع ذي ظروف خاصة، كالمجتمع الأندلسي، يبدو مختلفا اختلافا جذريا عن مثل هذا في مقدماته ونتائجه.

لقد كان توقع مجتمع العدوة، موقع طليعة متقدمة، في قلب عالم مغاير لها إلى حد بعيد (أوروبا) ويفترض فيه - أي في هذا العالم الأوروبي - أنه مرشح ليكون مجالا لتلقي الإشعاع المحملة به الطليعة المذكورة، والمرتبط مستقبل فاعليتها، وبالتالي مصيرها بحسن اضطلاعها بهذا الإشعاع، وهذا وضع ثقيل الوطأة، بحكم ما يطرحه من أعباء، تتحمل مثيلها في العادة كل قوة طليعية أو ما في مدلول هذا الوصف، ومن هذه الأعباء، أن تكون الطليعة هذه قادرة على الاحتفاظ بمناعتها ضد عوامل الوهن التي يمكن أن تتسرب إليها على نحو أو غيره، أو أن يكون في وسعها بالأقل تجاوز حالة الوهن هذه، ومغالبة السلبيات التي تنجم عنه، ذلك أن اللحظة التاريخية محسوبة على كيان كهذا، أكثر مما هي محسوبة على غيره؛ وبالنتيجة، فإن المطلوب دائما من هذا الكيان، أن يكون باستمرار معبأ ضد التيارات الخارجية المضادة له، وأكثر أهمية من ذلك، أن يكون معبأ لتدارك نقائصه الذاتية وتصحيحها، قبل أن تصبح ثغرات فاغرة الفاه، يقع النفوذ منها إلى مقاتله.

وتشكل ضرورة وجود هذه «الاستعدادات الخاصة» حالة استثنائية لا تقارن بها حالة مجتمعات أخرى، تعيش أوضاعا تاريخية «عادية»، ومن زاوية النظر هذه، يجد المرء أن النظام الطوائفي الذي حل في صدر المائة الخامسة الهجرية، محل النظام المركزي الأموي بالأندلس، كان حالة مناقضة لمعطيات المنطق العادي للأشياء، المرئي من خلال تحليل الظرف التاريخي الموجود، وقراءة مترتباته، والمظهر الرئيسي لهذه المناقضة، أنه - بدلا من أن يثير هذا التواقت الذي جمع - تاريخيا - في نفس الحال - بين انحلال السلطة المركزية الأموية، وبين فترة التقهقر في المغرب قبل ظهور المرابطين، بدلا من أن يثير ذلك حوافز تعبوية بالأندلس لمواجهة عواقب العزلة التي أصبحت تعيشها حينئذ في إطار المنطقة، فإن وضعا مضادا لروح

التعبئة كان هو «الرد» الأندلسي غير الملائم على ما حصل، الأمر الذي لم يكن من شأنه إلا أن يستدعي وقوع التراجعات الأندلسية التي وقعت، وكادت تؤدي حينها إلى نهاية الأندلس الإسلامية كليًا، لو لا التطوع المرابطي لإنهاضها من كبوتها.

☆ ☆ ☆

ظاهرة تعدد المحاور السياسية بالأندلس، أو ما يعرف تاريخيا بنظام الطوائف شغلت ـ كما يعلم ـ حيزا واسعا من نطاق التفاعلات التي ما برحت تؤثر في تغيير أوضاع الخريطة السياسية بالعدوة، وصاحبت العديد من الفترات التي استوعبها الوجود الإسلامي في الضفة الأخرى من المضيق إلى النهاية.

ولو أننا أدخلنا في اعتباراتنا الأساسية التي بنينا عليها تقسيم أطوار التاريخ الإسلامي بالأندلس، المدد التي سادت الجزيرة أثناءها ـ كلا أو بعضا، الوضعية الطوائفية، لجاز لنا في هذه الحالة، عد أطوار التاريخ الأندلسي أربعة، لا ثلاثة، ذلك أن النظام الطوائفي بالعدوة، قد استغرق فعلا ـ مسافات زمنية غير يسيرة، تحسب بعشرات السنين، ساد الأندلس خلالها سيادة شاملة تقريبا، وبالتحديد، خلال ما بين العقد الأول إلى الثاني من القرن الهجري الخامس، وما بين العقد التاسع (سنة 484) حيث بلغت نهايتها إمارة المعتمد بن عباد بإشبيلية، وقد استمرت رواسب الوضع الطوائفي بعد ذلك قرونا تحت أقنعة مختلفة، وعادة ضمن حدود جهوية تتقلص أحيانا وتمتد أحيانا، تبعا لتغيرات الأحوال الأندلسية الداخلية، ومعادلات الصراع مع القوى الإفرنجية المتعددة.

على أنه من الوارد أن يلاحظ المرء من جانب معاكس ـ أنه ـ باستثناء الفترة التي أعقبت انهيار دولة الأمويين، حيث استأثر نظام الطوائف حينذاك بالأندلس استئثارا يكاد يكون كليا، وأيضا باستثناء المراحل الختامية للوجود العربي في العدوة، وقد كانت الطائفية السياسية الأندلسية، قد تقاسمت أثناء ذلك هي والإفرنج، مناطق نفوذ متعددة، قبل أن تؤول الأندلس برمتها إلى هؤلاء، باستثناء ذلك، فإن الوضع الطوائفي في عموم الأحوال التي ظهر فيها، لم يتعد ـ من حيث العمق ـ كونه مجرد عرض مرضي موجود على هامش القاعدة الرئيسية للاستقطاب والمحورة والتركيز والتأصيل في النطاق الأندلسي العام، هذه القاعدة المتمثلة في تماسك الجهد المغربي الأندلسي المشترك، للأخذ أخذا ناضجا وفعالا بزمام الأمور في العدوة، وتأطير سكانها، وحشد المقدرات العامة لضفتي المجاز، ضمن نطاق العمل الدفاعي الإسلامي، الذي قاده العهد المرابطي، وما تلاه من عهود؛ ومع كل هذا، فيتعين القول، على أي حال، أن بقاء مظاهر ولو محدودة للطائفية السياسية بالعدوة خلال العهد الموحدي والمريني، رغم جهود التوحيد الفكري والسياسي التي بذلها العهد المرابطي، وابن تاشفين بالذات على الساحة الأندلسية، إنما كان يعكس حالة يمكن وصف مسبباتها وملابساتها بالاستعصاء والإزمان، مما يبدو معه أن الظاهرة كانت بمثابة لازمة من لوازم التفكير السياسي في المجتمع الأندلسي، موصولة أحيانا ـ كما يلوح ـ بجملة ترسبات نفسية واجتماعية، قد تكون منحدرة في بعض جوانبها ـ من جذور العقلية «القبائلية» التي عرفها المجتمع العربي الأندلسي في خلال الفترات الأولى التي انقضت قبل أن يستكمل تكوينه وتبلوره، بل في الوسع مع شيء من التجاوز ـ طبعا ـ أن نلتمس بعض الجذور المفترضة لمثل هذه الظواهر الانشقاقية التي غص بها المجتمع الأندلسي عبر نظام الطوائف ـ أن نلتمس هذه الجذور في مجال أوسع نطاقا، هو المجال «الإيبري» بعض النظر عن المكونات الإثنية والثقافيه والحضارية والإديولوجية للجماعات المتواجدة في شبه الجزيرة أثناء الحقبة التاريخية موضوع نظرنا، فإذا ساغ لنا هذا، نخلص منه إلى إمكانية اصطناع نوع من الربط غير المباشر بين الحوافز الانفصامية التي ما برحت تفرز الأوضاع الطوائفية المتعددة في الأندلس الإسلامية، وبين نزوعات انفصامية مماثلة في المحيط الإفرنجي، انجر عنها ـ في أحوال عدة ـ ظهور أنظمة ذات ملامح إقليمية محددة، متميز بعضها عن بعض في التوجه السياسي والتخطيط الستراتيجي، وفي نوعية المصالح والأهداف، والعلاقات، ومختلف الحوافز المتصلة بذلك. بل إن نمطا من السلوك، اعتبر دوما ـ سواء عند

المسلمين أو الإفرنج ـ نمطا سلبيا انحرافيا ـ كل بحسب منظوره الخاص به ـ كان كثيرا ما يحصل من خلال تشعب الأحداث وتشابكها في الأنحاء الإيبرية، ويتمثل ذلك فيما كان يستسيغه البعض من طائفيي المجتمع الإسلامي الأندلسي، الاستعانة بالإفرنج على خصومهم السياسيين من شركائهم في الدين، بعيدا عن أي فكر تضامني أو تكافلي تقتضيه الأواصر الجامعة، وتماثل المصالح العليا بين هؤلاء وأولئك، تماما مثل استعانة بعض الإفرنج بالمسلمين ضد إفرنج مثلهم، متأثرين في ذلك هم أيضا، بحوافز واقعة في نطاق الطائفية السياسية وما في حكمها.

وإذا كان نمط السلوك هذا، مشاعا سواء عند الافرنج أو لدى المسلمين خلال الحقبة بشبه الجزيرة الإيبرية، فإن انعكاسات المضار المترتبة عن مثل هذا السلوك، كانت أدهى وأشد على المجتمع الإسلامي منها على المعسكر الآخر، وذلك لاعتبارات، ينم عنها السياق فيما ذكر آنفا عن الصعوبات الحتمية الملازمة آنذاك للوجود الإسلامي بالعدوة، ومما كان من شأنه أن يضاعف من حدة الصبغة السلبية لهذه الانعكاسات :

1) الشكل والإطار الذي اتخذته الأوضاع الطوائفية، لم يكن من قبيل ما يمكن إدراجه في نطاق صيغة من صيغ الجهوية أو اللا مركزية أو نحوها، إذا استعملنا ـ للتقريب ـ اصطلاحين مستحدثين كهذين، لقد شكلت كل وحدة من هذه الوحدات الطوائفية ـ في منظور القائمين عليها، محورا مركزيا للحكم وبناء العلاقات «الخارجية» قائما بذاته ولذاته؛ وفضلا عن هذا، فإن أيةفكرة يمكن إقامة اعتبار لها ـ عن التكامل بين هذه الوحدات في دائرة مركزية جامعة، لم تكن مطروحة كما يبدو في الأعم الغالب، وكان البديل عن كل ذلك في أكثرية الحالات، الانسياق وراء إغراء التنافس إن لم يكن التشاحن والتناحر.

2) لم يكن هناك من بين هذه الطائفيات، من كان مؤهلا ـ فيما يرى من منظور الواقع الذي شهده التاريخ ـ لـ «ترقية» مجال نفوذه الطائفي، إلى نفوذ مستقطب لمعظم أراضي وسكان العدوة، ومن ثم، بقيت الأندلس خلال الفترة، تفتقد الزعامات المؤطرة للمجتمع كافته، فيما كانت العدوة تغص بالزعامات ذات الأفق المحلي الضيق.

3) لا يبدو من خلال عملية تحليل دقيق لأصول هذه الطائفيات وانتماءاتها السياسية والاجتماعية ـ مجال معقول لاستخلاص وشائج موضوعية كفيلة بتقريب بعضها من بعض، خارج إطار الاعتبارات التكتيكية والمرحلية الصرفة، فمراجع هذه الطائفيات واستمداداتها كانت متغايرة إلى حد التناقض، ومثل ذلك مفاهيمها وقناعاتها، وكمثال، فقد كان البعض من هؤلاء الطوائفيين، من مخلفات الدولة الأموية (ابن صادح بالمرية) فيما كان آخرون يمارسون طائفيتهم من منطلق كونها بناء سياسيا قائما على أنقاض الأمويين، وكبديل ـ في النطاق المحلي ـ عنهم؛ وهكذا دواليك، ومن الجلي أنه إذا كانت هناك مراحل في تاريخ الأندلس، خفتت فيها ـ بقدرما ـ النوازع الطوائفية في المحيط الأندلسي الإسلامي، واختفت انعكاساتها إلى حدما ـ كما تم في غضون فترات طويلة من عهود الزعاية المغربية للعدوة، فقد كان مرد ذلك في الواقع، مفعول التقويم السياسي والتنظيمي،المرتبط بهذه الرعاية، ولا سيما، ما توفق فيه المغرب ـ وهو ينهض بالعبء الأندلسي الباهظ ـ من تأطير لفاعليات المجتمع في أرجاء العدوة، وتوجيه لها على درب الدفاع، وشحذ لهممها باتجاه الاندماج في المجهود المغربي الشامل، المبذول من أجل القضية.

إن هذا التأطير الذي كان واقعا في صميم اهتمامات القيادة المغربية، لم يفتأ يشكل عنصرا جوهريا من عناصر التخطيط السياسي والعسكري، الذي اعتمدته تلك القيادة في أدائها لمهامها بصدد العمل على حماية العدوة، وقد كان المبدأ الذي صدر عنه ـ أساسا ـ التدخل المغربي لإنجاد الأندلس على عهد ابن تاشفين، تحقيق هذا التأطير بالذات، ووضع قاعدة سليمة ـ من منطلقه ـ لدفع المجتمع الأندلسي، متكامل القوى، متجانسها، إلى إثبات وجوده في أرضية الصراع القائم هناك، وتأكيد مناعته أمام التيارات التي كانت تتقصد اجتثاث هذه المناعة وإلغاءها.

وصحيح أن الجو النفسي بالأندلس، الذي نجم عن سقوط طليطلة، إذ أصبح الطوائفيون آنئذ يلمسون لمس اليد، خطورة التهديد المشترك المحيق بهم، كان ملائما لحصول تجمع جهادي أندلسي لمواجهة الوضع، نظير ما

حصل فعلا عندما أقر الطوائفيون بعد استفحال التهديد الإفرنجي لهم جميعا (تهديدات الادفونش) مبدأ اطراح المنازعات بينهم، ومواجهة الإفرنج صفوفا متراصة، إلا أن هذه اليقظة التي حصلت للقوى السياسية المتنابذة في العدوة ذلك الحين، لم تكن - موضوعيا - في مستوى المس بجوهر الوضع الطوائفي السائد عندئذ، كما أنها لم تكن كافية لخلق محور مركزي، يستطيع استقطاب الطاقة الجهادية الأندلسية في اتجاه حسم مادة الاكتساح الافرنجي، الذي أعقب سقوط طليطلة.

ومن ثم، كان أمام المجتمع الإسلامي الأندلسي - ساعتها - اختياران أساسيان معروض عليه أن يأخذ بأحدهما كطريقة لمعالجة الموقف : اختيار انصهار القوى السياسية الأندلسية في بعضها، ضمن نطاق تجمع قوي ومتماسك، يتبلور في صورة متجددة للعهد الأموي، الذي كانت قائمة به البنية الدولية للعدوة، أو الاختيار الآخر، الماثل في امتداد المهمة التاريخية للمغرب بالأندلس، لتتصل بحلقاتها الأولى التي شهدها التاريخ قبل ذلك ببضع قرون، يوم أن تصدر المغرب عملية الفتح الإسلامي للضفة الشمالية من بحر الزقاق، وكان لموقعه ولرجاله ولإمكاناته العديدة، أثر رئيسي في ذلك يذكر له، ويعرف به.

ولا جرم أن الأخذ بالاختيار الثاني، أي سلوك سبيل امتداد المهمة المغربية، كان يعني - بالضرورة - أن يمسك المغرب بناصية الأمور في العدوة، ويتحمل همومها، ليتمكن من تركيز الوضع التاريخي والحضاري القائم فيها انطلاقا من عهد الفتح، وليسعه تأطير الطاقات التي كان يتعين حشدها باستمرار لتوطيد ذلك الفتح، وتمتين مناعة الحال الناجمة عنه.

لقد كان استصراخ الطوائفيين لقوات لمتونة غداة سقوط طليطلة، استصراخا من الأندلس للمغرب بإطلاقيته، استصراخ للمهمة التي اضطلع بها المغرب منذ البداية حينما انتشرت من سواحله المراكب التي وضع منها المسلمون أقدامهم على البر الإيبري.

والواقع أن الطوائفيين عندما آثروا في مجرى القرن الهجري الخامس، الحل المغربي لمواجهة المعضلة، فإنهم اختاروا بذلك الممكن على غير الممكن، والسهل الميسور، على الممتنع المستعصي، وتنبئ قولة أحدهم[1] عندما تداولوا في أمر الاحتماء بالمغرب المرابطي - عن إدراكهم لسلامة هذا الاختيار وموضوعيته، علما بما تنم عنه القولة من شعور بشدة حاجتهم إلى هذا الاحتماء كوسيلة وحيدة للخلاص، وهذا الشعور بإلحاح الحاجة، يمكن فهمه من زاوية الاعتبارات السياسية الخاصة بالطوائفيين، أما إذا وضع الأمر خارج هذه الزاوية فستجده موصولا وصلا موضوعيا بمجرى الرسالة التي أخذها المغرب على عاتقه بأرض العدوة منذ اللحظات الأولى من تاريخها الإسلامي (لحظة العبور والفتح بقيادة ابن زياد).

☆ ☆ ☆

لقد تموضع ذلك الفتح الذي تم قبل أواخر القرن الهجري الأول (92) في دائرة التحري العربي الإسلامي، لربط ضفتي المتوسط ببعضهما، ضمن محيط المفاهيم والقيم التي صنعت الصيغة الحضارية الجديدة، التي عرفتها المنطقة في العصر الوسيط ! كان الفتح انتقالة نوعية ذات أبعاد تاريخية ضخمة، عبر من خلالها المفهوم العربي الإسلامي للحضارة، حواجز الزمان والمكان، ليستوعب عالما مختلفا تماما عن كل ما تعرف إليه العرب والمسلمون من عوالم في مشرق ومغرب ! وباعتبار هذا، استمرت مسؤولية حماية مترتبات الفتح بهذا المعنى واقعة على المغرب من حيث المبدأ، وإن كانت هناك أحوال لاحقة، نشأ عنه فيما بين أوائل القرن الهجري الرابع وأواسط الخامس - ضعف المغرب عن القيام بهذه المهمة الثقيلة، واضطلاع الأندلس نفسها بها على عهد الأمويين.

غير أن المبدأ، مبدأ ضرورة استئناف المغرب لرسالته الأندلسية، كان لابد أن يفرض نفسه في نهاية المطاف، أثناء القرن الهجري الخامس تحت تأثير الظروف الطارئة

1) الإشارة لقولة المعتمد بن عباد الشهيرة : «...رعي الجمال خير من رعي الخنازير» (انظر الاستقصاء للناصري ج 2 ص 31 طبعة الدار البيضاء.

على المنطقة، خاصة ظروف الأندلس بالذات؛ وإذ حمل المغرب على كاهله ـ هكذا ـ أمر العدوة في هذه الحقبة الجديدة من التاريخ، فإنه لم يكن بذلك قد استعاد بالضرورة حقا له، بل اضطلع بواجب كان متعينا عليه ـ لحيثيات شتى ـ أن يضطلع به؛ وسند أهم هذه الحيثيات، موقع العدوتين الأندلسية والمغربية بالنسبة لبعضهما البعض وموقع منطقة غرب المتوسط ـ حيث توجدان ـ من العالم العربي الإسلامي من جهة، ومن العالم الأوروبي من جهة ثانية.

لقد كان موفوراً للإفرنج خلال القرن الهجري الخامس ـ وهم يلحون في ستراتيجيتهم الهجومية على الحواضر الأندلسية لإسقاطها بالتتابع ـ إلى حيث توصلوا إلى إسقاط طليلطة، الأمر الذي شكل منعطفا له خطورته البالغة على مجمل معادلات الصراع وملابساته في أرض العدوة ـ كان للإفرنج في خلال ذلك ـ عمق ستراتيجي مهم جدا ذو أبعاد سيكولوجية وسياسية وستراتيجية وغيرها، تهيأ لهم بفعل تواجدهم على اتصال مباشر ـ عبر جبال «البرانس» مع عامة غربي أوروبا... واستطرادا، توفرت لهم بموجبه إمكانية مبدئية لوجود مجالات أرضية ومدد بشري محتمل يستطيعون ـ في حالات معينة ـ أن يتعضدوا به ويتأزروا عند الحاجة، ولو من الناحية النفسية فقط، وهي ذات أهمية كبرى في أحوال كهذه.

أما الأندلس الطوائفية، فعلى افتراض أنه كن من الجائز أن تستطيع ـ عند الاقتضاء ـ استجماع قواها، ولم شعثها لتوفير شروط تعبئة وتأطير جاد في حالة مواجهة حاسمة، فإنه كان ينقصها ـ مع ذلك ـ حتى في صورة هذا الافتراض ـ وجود عمق استراتيجي يعادل إمكانات العمق الستراتيجي عند الإفرنج؛ ولم يكن للأندلسيين في خلال الظرف، من عمق كهذا، سواء من منظور سياسي أو استراتيجي أو لوجيستيكي أو غيره، إلا المغرب وليس غيره.

ببداية تقهقر العهد المرابطي بالمغرب، وانعكاس الحال على صورة الأوضاع بالأندلس، أخذت تتضح أكثر فأكثر، هشاشة التزام الفكر السياسي الأندلسي بروح التعاضد الذي انبثق عنه بقيادة المغرب ـ نصر الزلاقة؛ التعاضد بين العدوتين وعلى صعيد الدفاع عن الأندلس، وحمايـة مستقبلها؛ وكما سيقع كذلك في حقبة لاحقة ـ عندما سيضعف أمر الموحدين بعد تألق نفوذهم عشرات السنين، فإن الطائفة الأندلسية قد كانت مستعدة في كلتا الحالتين، وفي الحالة المرينية أيضا، لأن تسفر عن وجهها في الأفق الأندلسي بمجرد ما تبدو لها ثغرة من الثغرات، تمكنها من التجاوب مع حنينها الدائم إلى معاودة ممارساتها المألوفة، والدفع بهذه الممارسات أكثر ما يمكن.

لقدكان لهذا الخلل على صعيد التكافل الدفاعي الأندلسي المغربي ـ آثار بعيدة على مستوى توازن القوى بين طرفي الصراع الإسلامي الإفرنجي، وحظوظ كل طرف في إطار هذا الصراع؛ وبطبيعة الحال، فإن مترتبات معركة «الأرك» الموحدية التي عززت نتائج «الزلاقة» المرابطية، قد وفرت ظرفا ملائماً لتدارك سلبيات هذا الخلل الذي كان أمره قد تفاقم خلال أواخر المرابطين وأوائل الموحدين، وأعادت ـ ضمن ذلك ـ كثيرا من التوازنات إلى مستوى معقول؛ إلا أن استمرار فاعلية النزعة الطائفية ـ وإن لم يكن قد بلغ حد عرقلة النتائج الأساسية للجهاد المغربي في العدوة، فإنه ـ مع ذلك ـ كان من بين الدواعي الجوهرية التي يظهر أنها حالت دون أن تبلغ الجهود المغربية بهذا الشأن، درجة التأثير الحاسم في تقويم الاختلالات الذاتية الأندلسية المزمنة، وبالتالي،. فقد قصرت هذه الجهود عن ضمان مناعة مستديمة للمجتمع الأندلسي، تغنيه عند الحاجة إلى الاحتماء بالعدوة المغربية، وهي الحاجة التي ظلت دوما ـ وبإلحاح ـ ملازمة له.

وقد بلغ مسار التاريخ بعد ذلك أوائل القرن الهجري السابع، ليؤكد أكثر من أي وقت مضى ـ هذه الحقيقة، حقيقة استمرار هذا التآكل في الحصانة الذاتية للمجتمع الأندلسي، وتوالي تلقائية تأثره ـ سلبا ـ بالتحولات التي تجري في منطقة غرب المتوسط حوله، وتهافت مواقفه ـ نتيجة ذلك ـ سواء من حيث موضوع دفاعه عن نفسه، أو موضوع التناسق مع المغرب، الذي كانت تطرحه الظروف كضرورة حيوية؛ ومما يلاحظ بهذا الصدد، فيما تعبر عنه

ظواهر السلوك السياسي الأندلسي آنئذ :

1) عدم الاكتراث عند القوى السياسية الأندلسية بمحاولة ملء الفراغ السياسي والعسكري - محليا - الذي نتج - مباشرة أو بصورة غير مباشرة - عن حالة التقهقر الموحدي في أعقاب موقعة العقاب (609) هجرية، وذلك على منوال جاد ومتناسق، لو أنه كان قد تحقق، لكان المفترض أن يتقمص به البديل الأندلسي بعض فاعلية الوجود الموحدي بالعدوة، والوجود المرابطي قبله.

2) انصراف قطاعات من أهل الأندلس، إلى المشاركة في صراعات فترة الانتقال من العصر الموحدي إلى العصر المريني بالمغرب !

وواضح أن الصيغة الطبيعية، التي كان الأجدر أن تأخذ بها القوى السياسية بالأندلس، هي أن تعنى تلك القوى بتجربة مقدرتها - في ظرف الفراغ السياسي والعسكري الحاصل - على سد ذلك الفراغ بممكناتها الخاصة، وموالاة المهمة التي كان المغرب مضطلعا بها بصدد المواجهة مع الإفرنج، وذلك - بالأقل - في انتظار استعادة المغرب زمام المبادرة الجهادية في عين المكان، بعد انجلاء غبار رجة الانتقال فيه إلى العهد المريني.

3) تأرجح مواقف مجتمعات الحواضر الأندلسية خلال الظرف - بين التبعية لتيار أو لآخر، من متناقض التيارات المحلية التي عرفتها العدوة مجددا، أثناء أواخر الموحدين، مثلما عرفتها في فترات أخرى من قبل.

4) تجدد ظاهرة التنابذ التقليدي بين الفئات السياسية المتواجدة على الساحة، واتخاذ الحالة - ساعتها - شكل حرب داخلية، على غرار ما كان من حروب من هذا المعنى في تاريخ العدوة، واشتداد الحوافز التي كانت تقليدية أيضا عند المتنابذين - على اعتماد لا معقولية المحالفات الانتهازية مع بعض الجهات في معسكر الإفرنج.

5) تهافت الشيع السياسية المختلفة في العدوة - تأثرا بحوافز اعتباطية غير مضبوطة بضابط - على التماس الاستظلال بظل دولة أو أخرى من الدول الإسلامية القائمة حينئذ، كالخلافة العباسية (المستنصر العباسي)، دون أن تكون الدول المخطوب ودها بهذا الخصوص - ذات قدرة ما - ولو جزئيا - على حماية الأندلس، بل ولا حتى حماية فصيل من الفصائل السياسية، طالبة ذلك الاستظلال.

ومن أبرز الطوائفيات التي أفرزتها النزعة الانشقاقية الأندلسية في عهد الإشراف الموحدي على الأندلس، طائفية ابن «مردنيش» في الشرق الأندلسي وما إليه، والذي تفاقم أمره أحيانا حين استحوذ على جيان وبياسة وأبذة، وجاس عبر أواسط الأندلس حتى مشارف إشبيلية، ثم هناك طائفية «ابن هود» الذي مدد نفوذه حتى قرطبة ومالقة وغرناطة وغيرها، هذا إلى طائفية «ابن همشك» بـ «جيان» وأعمالها، وبداية طائفية «ابن الأحمر» بوسط العدوة وسوى هؤلاء.

ومن خلال طائفيتي «ابن مردنيش» و«ابن هود» تتجلى إحدى الصور المعبرة عن مبلغ «تمدد» بعض «الحالات» الطوائفية عبر الأزمنة التي عاشتها الأندلس، ومواكبتها - بحكم ذلك - أكثر من حقبة واحدة من حقب التاريخ بالمنطقة، ومثال «بني هود» ذو دلالة في هذا المقام، فقد كان هؤلاء من بين وجوه المرحلة الأولى في تاريخ الطوائفية الأندلسية التي أنهاها ابن تاشفين المرابطي، وقد عاود «بنو هود» هؤلاء، الكرة بعد ذلك في أثناء العصر الوحدي ليصيروا من أبرز الطوائفيين الأندلسيين خلاله، أما المثال الثاني فيتعلق بـ «بني الأحمر» النصريين الذين هم أبرز ممثلي الطوائفية الأندلسية أثناء العهد المريني بالمنطقة، إلا أن الطفرة الأولى التي أبرزتهم على الساحة الطوائفية بالعدوة، تقع قبل ذلك بكثير في غضون الحضور الموحدي بالأندلس، وقد خاضوا خلال ذلك غمرات أبقت لهم في ظل ظروف معينة - قدرة على الاستمرار دون غيرهم، إلى حين حلول نهاية الوجود العربي بالأندلس سنة 897 هجرية.

وعلى العموم، فإن الظواهر التي ارتسمت من خلال سلوك الطوائفيين أثناء العهد الموحدي، لم تكن تختلف في العمق - إلا في بعض التفاصيل - عن ظواهر الطوائفية الأندلسية أثناء المرابطين. إلا أن تعقد الأوضاع بالأندلس، على إثر موقعة العقاب، قد انعكست بسلبيات أكثر، على صعيد السلوك الطوائفي، الأمر الذي نجم عنه مزيد من اتساع الخرق على الراقع أمام الموحدين بصدد رغبتهم في

الحفاظ على حد أدنى من التناسق المغربي الأندلسي في مواجهة الوضع الناجم عن خطورة التحالفات السياسية والعسكرية الإفرنجية ضد المناطق الإسلامية.

ولم يكن لهذا الحد الأدنى أن يستكمل شروطه بعد أن اتخذت التطورات على الساحة الأندلسية أبعادا مثيرة، من بين مظاهرها ازدياد تهافت بعض الطوائفيين (طائفية ابن مردنيش مثلا) على موادة الإفرنج والتآزر بهم إلى حد اصطناع مرتزقة منهم للاستعانة بهم في متاهات الحروب الطوائفية، ولقد تصاعدت التعقيدات الأندلسية على هذا الخط بصورة أكثر في خلال القرنين الهجريين الثامن والتاسع حيث كان على المغرب المريني أن يواجه ظروف المرحلة الأخيرة من الوجود الإسلامي بالعدوة، وبكل ما يحتشد في إطار الظروف تلك، من معضلات، في صميمها المعضلات الطوائفية.

☆ ☆ ☆

ومما لا جدال فيه، أن عزيمة المغرب المريني على موالاة العمل الجهادي بالأندلس، وتركيزها عليه، لم تكن بأقل من عزيمة مغرب المرابطين والموحدين. فالإرادة بهذا الخصوص، كانت إرادة مغربية موصولة عبر الأجيال والدهور، والاستعدادات والقدرات المنبثقة عنها كانت هي ذاتها، بحكم عمق الجذور والحوافز الفكرية والنفسية لهذا التوجه الذي طبع سلوك المغرب على مدى أكثر بكثير من ثلاثة قرون.

غير أن المنعطف الذي كان التاريخ الأندلسي ـ في تفاعله مع التيار العام للتاريخ العالمي ـ قد اتخذه انطلاقا من القرن الهجري السابع ـ لم يكن في حقيقة الأمر مما يسمح بعودة ما إلى الخلف في مسلسل الأحداث على أرض العدوة، بحثا عن استعادة أمجاد «الزلاقة»، و«الأرك» وإعادة إقامة المعادلات والتوازنات هناك على نحو ما كانت عليه أثناء تلكما الملحمتين :

وفي مضمون الانحسار المثير الذي تميز به الحضور الإسلامي الأندلسي، خلال الفترة، كانت خريطة هذا الحضور قد تقلصت من مختلف أطرافها بصورة شاملة، وقد غمر هذا التقلص دررا متألقة في منظومة الحواضر الأندلسية الكبرى كـ «قرطبة» التي سقطت سنة 633 و«بلنسية» سنة 636 و«إشبيلية» سنة 647 و«مرسية» سنة 665 هذا إلى المواقع الحضرية الأخرى كـ «شلب» و«قادس» وغير هاته كثير.

☆ ☆ ☆

نرى من هنا، أن التفكير الطوائفي، كان حالة مرضية مزمنة في الفكر السياسي الأندلسي لم تستطع سنوات التجميع والتوحيد التي أشرف عليها المغرب في العدوة خلال المرابطين والموحدين أن تجتث جذوره أو تخفف ـ بالأقل من غلوائه ومؤثراته، كما لم تستطع ذلك الحقبة الأموية ولو أنها تعتبر من حيث المبدأ ـ حقبة تشكل شخصية الكيان الأندلسي، وانصهار المكونات الأساسية لبنيته الاجتماعية والسياسية وغير ذلك، بعضها في بعض، بل نجد أكثر من هذا، في سياق رصد أعراض هذه الحالة السلبية، أن اتجاه الطوائفيين الجدد، الذين برزوا على الساحة الأندلسية أواخر عهد الموحدين، إلى منح ولائهم بسخاء في تلك الفترة العابرة ـ لدول إسلامية غير المغرب، رغم بعدها الجغرافي عنها، وعدم كفاءتها للدفاع عن الحمى الأندلسي، قد يكون من أهم دواعيه،- محاولة التخلص من فكرة التجميع والتوحيد التي كانت قوام نهج العمل المغربي في العدوة وذلك عن طريق ربط المنطقة بجهات غير مؤهلة ـ عمليا ـ لخوض الملحمة الأندلسية المفتوحة على شتى المتاهات.

ومن ثم، يستطيع الطوائفيون من طراز هؤلاء أن «يستفيدوا» ضمنيا ـ من السند المعنوي للجهات التي وجهوا لها ولاءهم دون أن يتعرضوا لنتائج عملية تجميع جديدة على منوال ما حصل في غضون العصر المرابطي.

وفي تتبعنا للأوجه الصلات المغربية الأندلسية خلال الظرف، يسعنا أن نتبين مزيدا من الملابسات الخلفية من هذا الصنف، ضمن نطاق المجاذبات الكبرى التي وجد التاريخ الأندلسي نفسه واقعا في خضمها، قبل أن يبلغ هذا التاريخ ـ غداة التصفية النهائية للمجتمع الإسلامي الأندلسي ـ آخر أشواطه.



للأستاذ عبد القادر زمامة

لعله من المناسب والمفيد في صدر الحديث عن الإمامين : البخاري ومسلم. والمقارنة الموضوعية بين صحيحيهما. أن نقف لحظات للتعمق والتأمل في الملامح العامة لظروف عصر هذين الإمامين الكبيرين. والمميزات : الفكرية والثقافية التي برزت بخصوصياتها في ذلك العصر، ولا سيما منها ما يتعلق باهتمامات أعلامه. وإنتاجاتهم في الميادين المختلفة...

لقد كانت الخلافة العباسية في هذا العصر. ما تزال محتفظة بمقوماتها. ومركزها السياسي. والديني. القوي. ونفوذها الواسع الأبعاد في الحكم والتوجيه والارتباط العملي، بالمستجدات : الفكرية. والثقافية في بلادها...

وأغلب خلفائها في هذا العصر. كانوا من أهل المعرفة والثقافة. المهتمين بقضايا الدين والفكر والسياسة والأدب. ولهم اتصال مباشر بعدد من أعلام العصر. فيهم : الفقهاء والمتكلمون والمحدثون واللغويون والمؤرخون والأدباء والشعراء، ورجال المذاهب والآراء...

والمصادر التاريخية حافلة بأخبار المجالس والملتقيات والمناظرات التي كانت تعقد لهم باستمرار. ويحرصون على إثراء ما يدور فيها من : حوار ونقاش وجدال في موضوعات متعددة. ويشارك فيها أعلام من اتجاهات شتى : دينية وفكرية وأدبية وعقائدية...

ولكل اتجاه أعلامه وأنصاره ومجالاته. في البحث. والدرس. والرواية. والتأليف. وقد توزعت الأمصار الإسلامية في الحجاز واليمن. والعراق. والشام. ومصر. وبلاد العجم، المترامية الأطراف عددا كبيرا. من أعلام المعرفة المتنوعة في هذا العصر.

ولم يكن من شأن المسافات الشاسعة. الفاصلة بين هذه الأمصار. أن يحول بين أهل المعرفة. وبين الرحلة والاتصال والإفادة والاستفادة. في عصر كانت الرواية فيه هي الوسيلة المفضلة لاقتباس المعارف. وربط الأسانيد وتوثيق المصادر. والاطلاع على المذاهب والاتجاهات...

وإذا تأملنا في أسباب تعدد الاتجاهات العقلية الدينية والمذهبية في هذا العصر. وجدنا أن بعض هذه الأسباب يرجع إلى معطيات سابقة. ظهرت بين من كانوا يسمون بأهل الرواية. وبين من كانوا يسمون بأهل الرأي... ثم تطورت وتسلسلت... وأن بعضها الآخر يرجع إلى سياسة العباسيين الخاصة. والإقليم الذي أقاموا فيه عاصمة خلافتهم بغداد. وما كان له من مميزات حضارية وثقافية. واقتصادية... في حين نجد أن معظم هذه الأسباب يرجع

إلى نتائج المواجهة بين عقليات وثقافات متباينة : وسائل. وغايات. واتجاهات. ومناهج...

وأفضى الأمر - في العصر الذي نتحدث عنه - إلى هذا الفيض من أسماء الرجال. والكتب. والرواة. والمؤلفين والقضايا الدينية والفكرية والأدبية التي شغلت العقول والأقلام والألسنة. وألفت فيها الكتب والرسائل واستطاعت الاتجاهات العقلية المتمثلة في مدرسة المعتزلة أن تسيطر مدة من الزمن بنفوذها : المادي والمعنوي في الدولة أيام : المأمون. والمعتصم والواثق. وأن تثير - لتأييد نزعتها - قضايا متعددة حول صفات الله تعالى. وكلامه. والرؤية في الجنة. وأفعال الإنسان. وموضوعات أخرى جاءت في نصوص القرآن والسنة. اختلفت فيها الآراء...

وكانت هذه المدرسة متمسكة بمبادئ معينة. تبحث عن الدليل العقلي في هذه القضايا. وفي غيرها. وتؤول. وتسرف في التأويل، كل نص لا يوافق مبادئها. ولم يكن من شأن هذا التأويل أن يرضي غيرها من المدارس والمذاهب القائمة إذ ذاك...

وقضية خلق القرآن هي القضية التي اختلطت فيها الأوراق. وتبلبلت الأفكار. وتعرض بسببها عن قصد مبيت - عدد من أعلام ذلك العصر للمضايقة والإحراج والسجن وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل شيخ المحدثين... قبل أن يطوي الخليفة المتوكل صفحة هذه القضية. ويلغي الجدال فيها.

فالقرن الثالث الهجري - وهو عصر الشيخين - يمكننا أن نقول في ملامحه ومميزاته. إنه العصر الذي نضجت فيه مذاهب الفقه... وإذا قلنا الفقه فإننا نعني الفقه المعتمد على نص ورأي كما كان يفهم أهل ذلك العصر. فلا فقه عندهم بدون رأي. كما يظهر من نصوص مؤلفاتهم...

ونضجت اتجاهات الاعتزال بمبادئها المعروفة ومناهجها المدروسة، واستدلالاتها العقلية ذات الطابع الفلسفي الاستيعابي...

وكان التفكير الظاهري يجد أنصارا ومؤيدين يقفون من نصوص الشريعة موقفهم المعروف... وإلى جانب هؤلاء وأولئك نجد مدرسة المحدثين التي أنجزت في هذا العصر عملها العظيم في تأليف كتب : الصحاح. والمسانيد. والجوامع والسنن... وكان المحدثون يرمون من وراء هذا العمل إلى هدفين اثنين :

الأول : أن يثبتوا أمام أهل المذاهب الفقهية وأمام أهل الاتجاهات الاعتزالية. وغيرهم. أن هناك فقه المحدثين. الذي يعرض الأحكام والقضايا والمبادئ العامة للدين. مقرونة بأدلتها التي تعتمد على القرآن. وعلى ما صح من السنة النبوية باعتبار أن هذه السنة هي المصدر الثاني للتشريع.

الثاني : أن يجردوا رواية الحديث النبوي مما لحق بها من ضعف وزيف - عند بعض الرواة - بسبب الخطأ أو الغفلة أو النسيان أو الكذب أو الدس..! وتم الأمر لهؤلاء المحدثين بعد عناء شديد. أخضعوا فيه سيرة الرواة لعمليتي : التعديل والتجريح...!

وبذلك أصبح للمحدثين في هذا العصر شأن كبير. من أجل إحاطتهم بالرواة والرواية والإسناد وتتبعهم للأحاديث المتصلة السند الصحيحة المتن...

والحقيقة العلمية التاريخية التي ينبغي أن نوليها كامل التقدير والعناية ونحن نذكر ملامح هذا العصر هي أن المحدثين ابتكروا طرقا ومناهج للتمحيص والتحقيق والتوثيق هي في العمق قمة من قمم المناهج العلمية الرائدة. التي احتذاها سابقون، ويحتذيها الآن لاحقون...!

ولا ظل من الصدق ولا من الحقيقة لما يقال ويكتب - عند بعض النقاد - من أن المحدثين في هذا العصر وهو العصر الذهبي لجمع السنة. كانوا يهتمون بالبحث في السند. ويهملون البحث في المتن...! ولهذه القولة خلفيات ومقاصد معروفة. لا مجال لمناقشتها الآن... فإن تتبع عمل المحدثين ولا سيما منهم أصحاب الصحاح والسنن والجوامع يقنعنا أن بحثهم في السند لم يشغلهم عن البحث في المتن... ومقاييسهم ومناهجهم في هذا الموضوع مفصلة في كتب مصطلح الحديث... حيث إنهم يوثقون من الأحاديث ما يستكمل عناصر التوثيق : متنا وسندا... ويزيفون ما عداه...

وإذا تجاوزنا الحديث عن ملامح العصر ومميزاته وجدنا أنفسنا أمام : الشيخين... وصحيحيهما... فيجدر بنا أن نقف أمام الملامح والمميزات والاتجاه، والمنهاج، ثم المقارنة...

فالإمام البخاري محمد بن إسماعيل، شاهدت مدينة بخارى ميلاده سنة 194 هـ من أب عالم محدث ثري، تركه طفلا صغيرا يوم ودع هذه الحياة... إلى جانب أمه، وأخيه...

والمعروف من ملامح هذا الطفل الأولى أنه أقبل على حفظ القرآن، وحفظ كتب وجدها في بيته هي : موطأ مالك بن أنس... وكتب عبد الله بن المبارك... وكتب وكيع بن الجراح...

فإقبال البخاري على هذه الكتب بعد حفظ القرآن كان دافعا أوليا، دفعه إلى اتجاهه الذي لازمه طول حياته، وهو الاتجاه نحو : العلم والفضيلة... ففي إقامته، ورحلاته المتعددة وفي علاقاته برجال عصره : شيوخا، وتلاميذ، وأقرانا، وحكاما ومحكومين، كان ملتزما باتجاهه المزدوج : علما وفضيلة، وهذا محل إجماع المؤرخين...

والرحلة كانت سمة من سمات البخاري... وقد رحل إلى : بلخ، ومرو، ونيسابور، والري، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، ومصر، ودمشق، وقيسارية، وعسقلان، وحمص وغيرها بحثا عن العلم والعلماء، والحديث والمحدثين، وكان عمله هذا يدل على صبر وتحمل وإخلاص، كما يدل على الثمن الغالي الذي بذل في سبيل تكوين تلك الموسوعة التي وعاها صدره، من علوم : التفسير، والحديث، والسيرة والمغازي، والفقه، واللغة، والمعتقدات والنحل وانعكست آثارها على مؤلفاته المفيدة.

وإذا كان هدف البخاري الأساسي هو البحث عن الحديث الصحيح، فإن هذا الهدف لا يتحقق إلا بعد عمليات معقدة، من البحث في تاريخ الرواة وما كانوا عليه : معرفة، وسلوكا، ومعتقدا واستقامة وانحرافا... والبحث في مضامين الأحاديث وألفاظها وما إلى ذلك من عمليات : الاختيار والانتقاء، من أجل تجريد الأحاديث الصحاح المعتمد عليها في الأحكام والقضايا والمعتقدات والآداب، عملا واستدلالا...

وكان البخاري يملك ذاكرة جيدة وفراسة قوية... وقد بدأ منذ شبابه المبكر يجمع مواد كتابه المعروف : بالتاريخ الكبير، ليكون على خبرة برجال الأسانيد وأحوالهم وطرق روايتهم عن مشايخهم في عصر كان العلماء يقولون فيه لطلابهم : معرفة الرجال نصف العلم، والنصف الآخر هو التفقه في الحديث...!

والنقاد يعطون أهمية بالغة لهذا الكتاب، لا لكونه جمع العديد من تراجم الرواة والشيوخ فقط، ولكن لكونه جمع إلى ذلك : التحري، والصدق والانصاف في عمليته : التعديل والتجريح مع أسلوب مهذب يعبر عن أخلاقية البخاري ومنهاجه واتجاهه..!

فنجده يقول في الراوي الذي لا يرتضي روايته، لما ثبت عنده من أسباب تجريحه :

- فيه نظر...! أو : سكتوا عنه...!

كما نجده يقول في الراوي الذي جرحه المحدثون قبله :

- جرحه فلان...! أو : رماه فلان...!

وأصرح ما يستعمل من التعابير، فيمن عرف بالكذب، والوضع، والتدليس...! قوله :

- هو منكر الحديث...!

والمحدثون - بعد البخاري - اعتمدوا أحكامه على الرواة، كما جاءت في كتاب : التاريخ الكبير...

وحيث إننا لا نكتب الآن نكتب الآن ترجمة للبخاري وإنما نقدم بعض ملامحه وسماته، فإننا نلاحظ فيما كتبه المؤرخون عن سيرته وأخباره، أنهم لم يعطونا تفصيلات عن حياته الخاصة، ومراحل هذه الحياة، طفولة، وشبابا وكهولة.. وإنما تناولوا رحلاته ومؤلفاته ومحفوظاته وما له من شيوخ، وتلاميذ وأقران، وما صادفه في حياته من حسد الحاسدين، ومكر الماكرين، وكيد الكائدين...!

والعادة التاريخية متوفرة لدينا في هذه النقطة الأخيرة بالخصوص، وهي ما صادفه من حسد، وكيد، ومكر...! حتى صح أن يوصف - عند بعضهم - بالإمام

المحسد...! ولا بأس أن نستعرض جوانب من هذه المادة التاريخية لأنها تصور ملامح من شخصيته وأخلاقه وتعامله مع الحياة والاحياء سلبا وإيجابا...

فهناك قصته مع علماء بغداد. وقد سبقته شهرته إلى مجالسها وحلقات دروسها. وأثار ذلك حسد بعضهم. فاتهموا حفظه ومعرفته وصدقه وأرادوا امتحانه عن طريق مجموعة وافرة من المغالطات والتخليطات في نصوص الأحاديث وأسانيدها ليوقعوه في شرك التعجيز ويطفئوا جذوة نبوغه وشهرته...! ولكنه تفطن لهذا كله. وأدرك ما في عمليتهم هذه من الدس والكيد والمغالطة والتخليط فتملص منها بذكاء. ومهارة. ولباقة...

وهناك قصته مع حاكم بخارى الذي ظن خطأ أنه يستطيع بأمره الخاص وسلطته القوية أن يجعل من البخاري رجلا عاديا ينفذ الأوامر ويحقق الرغبات بسهولة. ولكنه اصطدم برجل له كرامته وقيمته الذاتية. ومكانته الدينية والاجتماعية...

فأسرها حاكم بخارى في نفسه إلى أن أمكنته منه الفرصة فأمر باقصائه عن هذه المدينة...!

وخرج البخاري من مدينة بخارى على إثر ذلك ونزل بقرية صغيرة من قرى مدينة سمرقند تدعى خرتنك وبها قضى بقية حياته إلى أن التحق بربه سنة 256 هـ ومازال قبره معروفا ومقصودا هناك إلى الآن...!

وهناك قصته مع شيخ نيسابور ومحدثها : محمد بن يحيى بن عبد الله الدهلي. وهو شيخ جليل ومحدث كبير سمع منه البخاري ومسلم وجماعة من المحدثين وفيهم بعض رجال السنن. وله ترجمة واسعة في كتب الطبقات...! وكذلك لولده يحيى الذي خلفه في مشيخة نيسابور بعد مماته.

هذا الشيخ المحدث بلغه عن البخاري أنه ألف كتابا بعنوان : (أفعال العباد). وأن بعض ما في هذا الكتاب لا يوافق مذهب الشيخ الدهلي...! وأن الناس سمعوا في البخاري نفسه في دروسه ما لا يرتضيه الشيخ... فما كان منه إلا أن غضب واتهم تلميذه بالانحراف عن المنهج السليم...! وأمر الناس بمقاطعة البخاري وكتبه...! وأمر التلاميذ بهجر حلقات دروسه...! الشيء الذي جعل البخاري يغادر مدينة نيسابور. خوف قيام الفتنة...!

ومن الطريف في هذه القضية وذيولها. أن الإمام البخاري في صحيحه. وفي أبواب معينة منه من : الصوم. والطب. والجنائز. والعتق. وغيرها يروي عدة أحاديث عن شيخه الدهلي هذا... ولكنه. نظراً لموقفه منه في نيسابور. لا يسميه باسمه الخاص. كما يفعل عادة عند ذكر شيوخه الآخرين فلا يقول : حدثنا محمد بن يحيى الذهلي... وإنما يقول تارة : حدثنا محمد... ويقول تارة أخرى : حدثنا محمد بن عبد الله...!

فمرة يذكر اسمه فقط. ومرة لا ينسبه إلى أبيه. وإنما ينسبه إلى جده عبد الله...!

هذا كل ما فعله البخاري جوابا عن الموقف المتشدد الذي وقفه منه شيخه الذهلي في مدينة نيسابور...! فانه لم يجرح شيخه. ولم يهمل روايته في الصحيح. ولكنه سكت عن تعيينه باسمه واسم أبيه. سكوتا فهم المحدثون سببه. من قرائن الأحوال ومن موقف الدهلي من تلميذه البخاري...

كما أنه من الطريف أيضا أن يتعرض شيخ نيسابور بسبب موقفه من البخاري إلى عدة انتقادات عند المحدثين. وعند الكتاب والشعراء. ومن جملتها تلك الأبيات التي جاءت في قصيدة الشاعر المغربي أبي عبد الله الجزولي... المسماة : ذكرى البخاري ومن ملامح البخاري. وملامح المجتمع الإسلامي في عصره تلك الاستقبالات الحافلة التي كان يستقبل بها في الأمصار الإسلامية التي يمر بها : البصرة والكوفة. وبغداد. ونيسابور. وبخارى. والتي تترجم - في كلام الرواة والمؤرخين - تزكية فئات المجتمع الإسلامي لاتجاه البخاري السليم في فهم النصوص القرآنية وأصول العقيدة الإسلامية. فهما معتمدا على منهاج دقيق في دراسة الكتاب والسنة. تلتقي فيه أدلة العقل والنقل من غير إخلال بالتوازن المطلوب عند الاستدلال... ومن غير إفراط ولا تفريط في القواعد والأصول.

وتلك سمة اتجاه البخاري في تفكيره وآرائه وتآليفه ومذهبه الخاص الذي لازمه طول حياته ومازلنا نلمس هذه السمة فيما كتبه في مؤلفاته... وما كتبه عنه الآخرون...

وإذا كانت مدينة بخارى قد استقبلت في مواليدها الإمام البخاري وإليها نسب وفيها تألقت مكانته وشهرته... فإن مدينة نيسابور قد استقبلت في مواليدها سنة 206 هـ الإمام مسلما. وهو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصحيح الذي شرق وغرب.

والمسافة شاسعه بين نيسابور وبخارى. وكلتاهما تقع في إقليم متميز عن الآخر بمميزات متعددة لا مجال لتتبعها الآن...

ونحن نعلم أن ما كان المؤرخون والجغرافيون القدماء يعبرون عنه بإقليم خراسان في جهة. وما كانوا يعبرون عنه بإقليم ما وراء النهر في جهة أخرى. قد أصبح الآن يحمل أسماء أخرى ويخضع لتقسيمات أخرى...!

ومترجمو الإمام مسلم ـ شأنهم في ذلك شأن مؤرخي البخاري ـ لم يمدونا بمعلومات تاريخية مفصلة ودقيقة عن حياة مسلم ومراحلها. إلا أننا نعلم نشأته الصالحة. وطلبه العلم منذ بواكر شبابه. كما نعلم أن رحلاته كانت واسعة. وأنه اشترك مع البخاري بواسطة هذه الرحلات في الأخذ عن كثير من الشيوخ في أقاليم مختلفة مترامية الأطراف وأنه كما يقول الذهبي في كتابه (العبر) كان صاحب تجارة. وكان محسن نيسابور. ولدا ملوك وثروة..

ومنذ عرف الإمام البخاري تمسك بصحبته وصداقته والأخذ عنه واقتناء آثاره في البحث والدرس والتأليف وسعة الآفاق...

وكان البخاري يقيم أحيانا في نيسابور فيجد من تلميذه مسلم المبرة والرعاية والتقدير. وقد وقف منه موقفاً مشرفا عندما تعرض لغضب الدهلي ـ شيخهما ـ ودافع عنه وبذلك نشأت بينه وبين الدهلي وحشة تحدث عنها المؤرخون...

وشخصية مسلم في ملامحها العامة. وسلوكها الخاص وآفاقها العلمية والفكرية وصلاتها بأعلام العصر. لم تثر في الناس ما أثارته شخصية البخاري. من : حسد ومكر وكيد... أو على الأصح. لا نملك فيما بين أيدينا من مصادر قديمة ما يدلنا على عكس هذا الاستنتاج ويبدو لنا الإمام مسلم من خلال تتبع ملامحه وما سجله المحدثون عنه. أنه كان مقتفيا آثار استاذه في الاتجاه العلمي والخلقي. متشبعا بالروح التي كانت مهيمنة على أعلام المحدثين في عصره. من مؤلفي المسانيد والصحاح والسنن... وهي تقديم السنة النبوية إلى الأمة الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها العقلية والمذهبية في حلتها المشرقة من : التنظيم والترتيب بعد التحري والتحقيق والتصحيح. وفي هذا الميدان نجد مسلما يتعدى ذلك إلى الاستفادة من تجارب أستاذه البخاري وينهج منها ما آخر في كتابة صحيحه كما سنرى فيما بعد... وقد اهله عمله هذا إلى أن يصبح نظير أستاذه في نيل الثقة والتكريم والشهرة الواسعة. إلى أن وافاه أجله المحتوم سنة 261 هـ وقبره بمحلة نصر آباد بظاهر مدينة نيسابور...!

ومن المستغرب عندنا أن نجد ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان. لا يذكر الإمام مسلما في مادة نيسابور من كتابه هذا. ويذكر شخصيات أخرى نسبت إلى هذه المدينة... وكذلك فعل عندما ذكر مادة نصر آباد. ولم يعرج على قبر الإمام مسلم بها... وبذلك خالف منهجه المعروف...

وكما كانت مؤلفات البخاري متعددة. ومتنوعة. كانت مؤلفات مسلم متعددة. ومتنوعة... تسير في نفس الخط. الذي سار عليه أعلام السنة وفقهاء المحدثين. في ذلك العصر...

ولكي عمل البخاري في صحيحه. وعمل مسلم في صحيحه كانا قمة. وكانا قدوة. مما أوجب على الدارسين في مختلف العصور. الموازنة. والمقارنة بينهما...

فماذا تعني المقارنة والموازنة...؟

إنها تعني ـ عند التجرد. والموضوعية ـ إظهار ما نهجه كل من الشيخين. وما اعتبره من شرط للصحة. وما رتب به أحاديث صحيحة. وما كان يرمي إليه من استدلال على القضايا. والأحكام. والأخبار. والفضائل. وما إلى ذلك... ولا تعني مفاضلة. ولا تفضيلا...

فكل من البخاري. ومسلم. كان حافظا. وكل منهما كان ملتزما بانتقاء الصحيح. من محفوظاته. وكل منهما لم يدع أنه استوعب في صحيحه كل الأحاديث الصحيحة...

بدليل أن هناك مستدركات معروفة على الشرط الذي شرطه البخاري... وكذلك على الشرط الذي شرطه مسلم... نجدها في كتب السنن... وفي مستدرك الحاكم... وغيرهما...

وإذا كان البخاري يشترط في الراوي أن يثبت لقاؤه مع من يروي عنه... ويكتفي مسلم بشرط المعاصرة... فإن ذلك لا يعني أن مسلما - يتساهل - في قبول رواية الرواة... ولكنه يعني أن قبوله لرواية الراوي الثقة كان على أساس أنه معروف عند المؤرخين بهذه الثقة...! ومن المعروف أن المشهود بثقته. لا يروي إلا ما سمعه من شيخه. وبالضرورة لا يروي عمن لم يسمع منه...

والبخاري لم يكتب مقدمة لصحيحه... شأنه في ذلك شأن الإمام مالك في الموطأ... بخلاف مسلم فقد كتب مقدمة. بين فيها أشياء من منهاجه. وشروطه واختياراته، وترتيباته. وانتقاداته...

والبخاري رائد. وتلميذه مسلم. استفاد من هذه الريادة. وانتهج نهجاً خاصاً به. حيث جمع طرق الحديث الصحيح. في مكان واحد بأسانيده المتعددة. وألفاظه المختلفة. فسهل على المطالع. والدارس. تناول كل حديث على حدة... من غير توزيع على الأبواب... ولا تقطيع للنص... كما سهل عملية تعداد أحاديث صحيحه وملحظ البخاري مستهد من التسمية التي سمى بها صحيحه. وهي: الجامع. الصحيح. المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه....

فالجامع: يجمع القضايا والأحكام الفقهية. إلى جانب الفضائل الأخلاقية. والأخبار. والآداب التي جاءت بها الشريعة الإسلامية... كما يشير إلى أشياء من التفسير واللغة والعقائد...

والصحيح: يحترز به عن كل ما ضعف لمتنه. أو لسنده مما نطقت به الألسنة. أو خطته الأقلام على أنه حديث...

والمسند: يقصد به ما اتصلت روايته من التابعين إلى الصحابة. إلى رسول الله ﷺ، من قول أو فعل. أو تقرير..! وكل ما وقع تدوينه في الصحيح من غير ذلك... فإنما جاء به البخاري بقصد التبعية. لا بقصد الأصالة... رامياً بذلك إلى مرامي متعددة. منها: الاستيفاء. ومنها الربط. ومنها الافادة والتوضيح. ومنها التفسير والتقريب إلى غير ذلك...

فمقاصد البخاري متعددة. وفوائده. وإفاداته في تكرار الحديث الواحد. وتقطيع نصه. وتوزيعه على الكتب والأبواب. شيء مدهش. وقف إزاءه الشراح. والحفاظ. وقفة التقدير والاستغراب حتى قال بعضهم عن عمل البخاري في الصحيح... أنه أنسى من قبله... وأعيا من بعده..!!

وكل ذلك يدل على أن البخاري كان يملك إلى جانب تضلعه من الحديث قدرة على الاجتهاد والاختيار واستيعاب المذاهب والآراء... والرد الظاهر والخفي على من يسرفون في تأويل النص. أو يسرفون في الاعتماد على الرأي... أو يبيحون استعمال الحيل الشرعية...

وفي هذه النقطة الأخيرة بالذات... وهي مسألة الحيل الشرعية التي كانت لها أصداء عديدة عند أصحابها. القائلين بجواز استعمالها... وعند خصومهم المانعين استعمالها... نجد البخاري يقف منها موقفا متشددا متصلبا...! كما كان يقف من المسرفين في استعمال التأويل والقياس والرأي...

ويتجلى موقف البخاري من مسألة الحيل الشرعية في عدة أبواب من الصحيح. وهي الأبواب التي نجده يكرر فيها الحديث الشريف.

«إنما الأعمال بالنيات....».

حيث ان البخاري لا يفصل - في مذهب - قضية الاجتهاد والاستنباط. وتفريع الفروع الفقهية عن القضية الأخلاقية. فالعنصر الأخلاقي عنصر أساسي في اجتهادات البخاري واختياراته. وفقهه...

وقد نص شراح الصحيح على أن البخاري إذا قال: قال بعض الناس... فإنما يعني المسرفين من الفقهاء في استعمال الرأي... ومن جملة الإسراف في استعمال الرأي... مسألة الحيل الشرعية عند من يقول بها... ولا تدعو الحاجة هنا إلى تفصيل ملابسات هذه القضية...

وإذا كان صحيح مسلم أكثر تنظيما وترتيبا، وأسهل تناولا... فإن صحيح البخاري أغزر إفادة وأكثر استيعابا لأبواب من الفقه، والتفسير، والسيرة وغيرها، لأن البخاري كان صاحب رأي في التفسير والفقه والعقائد... وغيرها كما قلنا.

وفي باب الصحة رتب الحفاظ الأحاديث الواردة في الصحيحين على هذا النسق :

1 ـ الحديث المتفق عليه، هو ما رواه الشيخان...

2 ـ الحديث الذي انفرد به البخاري...

3 ـ الحديث الذي انفرد به مسلم...

وهذا ما جعل المحدثين ومنذ القرون الغابرة يفكرون في الجمع بين الصحيحين، وقد قام بذلك عدد من الاعلام تذكر منهم الحافظ الحميدي تلميذ ابن حزم م ت 488 هـ = 1095م.

وعبد الحق الإشبيلي ت 581 هـ = 1185 م. واهتم بالموضوع بعدهما كثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس.

وقد جرت عادة المحدثين في الحديث المتفق عليه إذا ذكروه قالوا :

رواه الشيخان، واللفظ لمسلم... وربما قالو : واللفظ للبخاري...

وعوالي البخاري كما هو معلوم ثلاثياته...

وعوالي مسلم رباعيته...

و لا ننسى في باب المقارنة بين منهاجي البخاري ومسلم قضية التراجم التي ملأ البخاري بها كتابه، فهو يقدم ترجمة قبل أحاديث الباب، وكأنها حكم شرعي، أو قاعدة تشريعية، أو إشارة تاريخية، أو فضيلة أخلاقية... تتصدر الموضوع، ثم يتبعها بما صح لديه من أحاديث ترتبط بها من قريب أو بعيد، وربما يكون الربط دقيقا...! يحتاج إلى تأمل، ومعاناة، وبحث...!

وقد اشتهر عنه المحدثين قول بعضهم :

«خذ فقه البخاري ورأيه من تراجمه...!».

وقول بعضهم :

«إن فقه البخاري في تراجمه».

وكون البخاري يستعمل هذه التراجم لهذا الغرض، أمر لا يتم له إلا باستيعاب، وتركيز، وتناسب، ومهارة في الاستدلال بالنصوص، الشيء الذي جعل المحدثين والمهتمين بمصطلح الحديث يقفون أمام تراجم البخاري وقفة الدهشة والتقرير، ويؤلفون في فهم مغزاها، وشرح مناسباتها الكتب والرسائل ويستخرجون منها دقائق ولطائف ينفرد بها منهاج البخاري... كما ينفرد البخاري بذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالأبواب... وكأنه يؤكد الصلة القوية في باب التشريع، بين الكتاب والسنة ويعتبرهما محورين أساسيين للشريعة، لا انفصام بينهما.

أما صحيح مسلم فقد خلا من هذه التراجم، لأنه يرتب الأحاديث ترتيبا غاية في الإتقان والضبط، حسب أبواب الفقه المختلفة، ويجمع الأحاديث بطرقها الخاصة في كل باب.

ولعل الإمام مسلما كان يرمي من منهاجه هذا في الصحيح إلى أن يترك لقراء صحيحه اختيارهم في الاستنتاج والاستنباط، فلا يأتي برأيه ولا برأي شيوخ ولا برأي الصحابة والتابعين...

وكما خلا صحيح مسلم من التراجم خلا من التفسيرات والتعقيبات التي نجدها عادة عند البخاري، موزعة على الأبواب لمقاصد معينة أشرنا إليها مقدما...

وهكذا يختلف المنهاجات، وتتضح سحات كل منهما... فالبخاري حافظ، له آراء متعددة، واختيارات كثيرة برزت واضحة في تراجمه وتعقيباته واستنباطاته أما مسلم فهو حافظ قدم في صحيحه كل مادة صحيحة على شرطه من الأحاديث النبوية، مرتبة على الأبواب، ولم يتدخل بتعليق ولا تعقيب ولا استنتاج...

فالصحيحان في عمق الدراسة والمقارنة عملان متكاملان شكلا ومضمونا...

فصحيح مسلم دليلنا الدائم لا نستغني عنه لمعرفة النص الكامل للحديث الصحيح بطرقه وأسانيده وألفاظه...

وصحيح البخاري دليلنا الدائم، لا نستغني عنه لمعرفة هذا النص الصحيح، موزعا على أبواب الفقه لكونه دليلا

فيها... مع إفادات وإشارات وتعقيبات تهمنا في فهم فقه المحدثين. وفقه غيرهم. والاستدلال عليه...

وعن قصد يتجنب كثير من المحققين الخوض في عملية إحصاء أحاديث البخاري في الصحيح... والأحاديث التي اتفق الشيخان على روايتها في صحيحيها... لأن هناك عمليات : التقطيع والتوزيع على الأبواب. والتكرار الكلي والجزئين... وإلى جانب هذا. هناك فيما يرجع للأحاديث المتفق عليها... ما اتفق كليا. وما اتفق جزئيا... فإعطاء رقم دقيق مع هذه الاعتبارات من الصعوبة بمكان...!!

هذه بعض الملامح المقدمة بإيجاز واقتضاب عن العصر. والشيخين. والصحيحين. ارتسمت في الذاكرة نتيجة مرافقه دائمة. ومراجعة متكررة. لهذا النبع الإسلامي النبوي الذي ينهج بنا في الدراسات الإسلامية : تشريعا. وتفكيرا... وتذكيرا... منهجا لا يغيض ماؤه..! ولا ينضب فيضه...! منشدا في الختام. قول أبي زيد عبد الرحمن اليمني المعروف بابن الربيع. ت 944 هـ = 1537 م.

قالوا : لمسلم فضل
قلت : البخاري أعلى
قالوا : المكرر فيه
قلت : المكرر أحلى

فاس : عبد القادر زمامة

من المصادر والمراجع :

- الإمام البخاري محدثا وفقيها
الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم
- إعلام الموقعين
ابن القيم
- تاريخ بغداد
الخطيب البغدادي
- التاريخ الكبير
الإمام البخاري
- تذكرة الحفاظ
الذهبي
- تهذيب التهذيب
ابن حجر العسقلاني
- صحيح البخاري
الإمام البخاري
- صحيح مسلم
الإمام مسلم
- طبقات الحفاظ
السيوطي
- العبر في خبر من تمير
الذهبي
- لسان الميزان
ابن حجر العسقلاني

دَوْرُ الشَّبابِ في الحياة العامة

للأستاذ لطفي مولدي عبد الرحمن

من المعلوم تاريخيا أن العالم العربي - والإسلامي - كان مركز إشعاع حضاري في الوقت الذي كانت فيه أوربا الحالية تغط في نومها العميق تحت كابوس الكنيسة وتحت وطأة الجهل والفقر والظلم والطغيان.

والعامل المساعد على تقدم المسلمين وتحضرهم هو التعاليم الإسلامية المأخوذة من مصادرها الصافية : القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف : وبفضل النهل منهما حتى الثمالة نبغ علماء مسلمون، وفقهاء، وأدباء، وشعراء، وفلاسفة، ومخترعون ومكتشفون وبذلك قصب السبق حازوا قصبالسبق في مختلف المجالات : السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية مما جعل بعض المنصفين من غير العرب والمسلمين يعترف لهم باليد الطولى في ميدان التقدم الحضاري بينما تنكر لدورهم الحضاري بعض المتعصبين الذي نسب ذلك كله إلى الأوربيين وحدهم.

ووراء كل تقدم وتحضر الشباب المسلم بفكره الثاقب وعلمه وعمله الجدي، وطموحه اللا محدود، وإيمانه القوي هذا الشباب الذي أبدع واخترع واكتشف ولعب دورا كبيرا في مجالات العلوم، والتشريع والحرب معية الرسول أو بعده وإلى قيادته - الشباب - وزعامته يرجع الفضل في القضاء على الامبراطوريتين العظيمتين اللتين تشبهان في الوقت الحاضر روسيا، وأمريكا من حيث القوة المادية واقتسام العالم ألا وهما امبراطورية كسرى، وامبراطورية قيصر.

ومن واجبنا أن نفتخر بشبابنا وبتاريخنا المجيد الحافل بالأمجاد والبطولات، والمفاخر، والانتصارات والتي كان للشباب فيها نصيب الأسد كل ذلك حفاظا على ديننا، وكياننا ووطننا وسيادتنا ضد الأعداء.

وللشباب المسلم دور كبير في الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى أقوم السبل باللين واللطف وطول النفس مما سهل على كثير من الناس أن يعتنقوا الإسلام عن اقتناع إضافة إلى القدرة الحسنة التي كان يتسم بها الشباب المسلم تطبيقا للقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

وللشباب المسلم دور هام في تحرير البلاد من براثين الاستعمار وفي بنائها والنهوض بها نتيجة نكران الذات في سبيل المصلحة العامة والرسالة الخالدة : رسالة الإسلام.

ولو رجعنا إلى التاريخ الإسلامي لوجدنا فيه أن كثيرا من الشباب العربي المسلم سخر كل إمكانياته وطاقاته لصالح أمته ونذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

1) سيدنا عليا كرم الله وجهه الذي كان أول من آمن من الأطفال بعد ظهور الإسلام ولما يتجاوز عمره الثانية عشرة وكيف سخر شبابه - بل وكهولته - دفاعا عن الإسلام والمسلمين والذي كان حضوره دائما مسجلا في ساحة الوغى مع الرسول ﷺ خلا الغزوة الأخيرة : غزوة تبوك ضد الروم إذ تركه الرسول الكريم في المدينة المنورة خليفته على رأس الدولة الإسلامية الفتية في انتظار رجوعه ﷺ.

2) أسامة بن زيد الذي عينه الرسول ﷺ على سرية متجهة نحو «ابنى»[1] مقتل والده زيد بن حارثة - وفي هذه السرية كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة وسعد يأتمرون بأوامر أسامة الذي لم يتجاوز عمره السابعة عشرة الأمر الذي أثار انتقاد جماعة من المسلمين والذي حسمه الرسول الكريم بقوله : «أما بعد : أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في تأمير أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ؟ وايم الله إنه كان لخليقا بالإمارة وأن ابنه من بعده لخليق بها وأنه كان لمن أحب الناس إلي وإنهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم» ومما تجدر الإشارة إليه أن النبي ﷺ حين مخاطبتهم لهؤلاء كان في حالة غضب شديد.

على أن هذه السرية لم تنفذ ما كلفت به بسبب شدة مرض الرسول الكريم الذي التحق فيه بالرفيق الأعلى نعم نفذتها أيام أبي بكر الصديق بعد توليته مباشرة.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو لماذا عقد الرسول الكريم اللواء لأسامة رغم وجود أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد كما ذكر أعلاه أليس في الجيش الذي على رأسه كفء غيره ؟؟

الجواب - الله ورسوله أعلم - يكمن في كون الرسول الكريم أراد بذلك إتاحة الفرصة للشباب ليتمرس على تحمل المسؤولية وهو في عنفوان شبابه على أساس أنه عماد المستقبل وثروة غالية دونها ثروة الذهب الأسود والأصفر.

وتتجلى أيضا إتاحة الفرصة للشباب من طرفه ﷺ حينما أخبر باقتراب المشركين من المدينة المنورة وعددهم ثلاثة آلاف قال عندما استشار أصحابه : «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وأن هم دخلوا علينا قاتلناهم» ذلك هو رأيه الخاص لكن لما رأى إصرار الشباب على الخروج لملاقاة العدو دخل منزله ولبس لباس الميدان : درعين وسيفا وترسا وفي فترة توجهه إلى منزله استلباسه لباس الميدان - كما سبق - خاطبه الشباب بقوله : «يا رسول الله تتبع رأيك فأجابه ﷺ بقوله : «ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه...»[2].

وللشباب دور أساسي في النهوض بالبلاد وتحريرها من ويلات الجهل والفقر والمرض لأنه على عاتقه تقع المسؤولية الكبرى التي تفرض عليه أن يعمل ليل نهار لكي يتبوأ بلده المكانة اللائقة به بين الدول.

وللشباب دور مهم في الحياة العامة : سلما وحربا : اقتصاديا، واجتماعيا، وثقافيا وعسكريا وعليه فيجب أن تستغل قدراته وطاقاته وإمكانياته في كل ما يفيد المجتمع لأن طاقاته تلك أشبه شيء بالنار المتأججة فإذا لم تقع المبادرة باستغلالها فمن المحتمل جدا أن تهب رياح هوجاء فتطفئها بسرعة كما قال الشاعر :

إن الشبيبة نار إن أردت بهـــا
أمرا فبادر فإن الدهر مطفيهـــا

وعلى الشباب أن يدرك جيدا أن فتوته طاقة ثمينة أن أهدرها لا تعوض ولا تعود وإنما تعود الحسرة والندم عليها ولات ساعة مندم كما قال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يومـــا
فأخبره بمـــا فعل المشيـــب

وإن طاقة الشباب أغلى من الذهب لأن الذهب إذا ضاع لسبب أو لآخر يمكن تعويضه والحصول عليه آونة أخرى أن عاجلا وإن آجلا بخلاف الشباب.

وعلى الشباب أن يستثمر هذه الطاقة ويؤدى دوره الحيوي في مختلف المجالات بإخلاص، وتفان ونكران ذات آخذا بعين الاعتبار آراء الشيوخ الذين لهم تجربة رائدة في ميدان الحياة وآراء صائبة لا ينقصها إلا وسائل التنفيذ التي يتوفر عليها الشباب : أمل البلاد والعباد كما قال الشاعر :

---

1) محل قريب من مؤتة (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للخضري بك/270، 171).

2) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين / 134، 135.

إنما التجارب للشيوخ وإنمـــا

أمل البلاد يكون في شبانهـــا

ومن الملاحظ أن كثيرا من الشبـاب - مع كـامـل الأسف - يهدر شبابه في اللف والدوران، وفي المقـاهي والحانات، وفي أماكن اللهو وبؤرة الفساد فلا هو استفاد ما ينفعه حاضرا ومستقبلا؛ ماديا وأدبيا. ولا هو أفاد الآخرين وكأن الوقت الذي يضيعه عدوه اللدود جاهلا أو متجاهلا أن الحياة عبارة عن دقائق وثوان كما قال الشاعر :

دقات قلب المرء قائلـة لـــه

إن الحيـاة دقائـق وثـــوان

وصدق الشاعر حين قال بأن الشباب والفراغ والغنى يفسد المرء إفسادا كبيرا قال :

إن الشباب والفراغ والجـــده

مفسدة للمـرء أي مفســـده

ومن جهـة أخرى فعلى الشبـاب أن يقهر الشيطـان ويحفظ دينه وذلك بالزواج عند ما تتوفر شروطه مصداقا لقوله ﷺ «أيما شاب تزوج في حداثة سنه عج شيطانه : ياويله عصم في دينه.

وقوله أيضا تنفيرا من مساوئ العزوبـة «شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم»[4].

ومن واجب الشباب أن يبتعـد عن كـل مـا يضعف جسمه وعقله ويغضب ربه، ويستنزف ما لـه ويقلق راحتـه، وينغص حياتـه وذلـك كـالخمر - أم الخبـائث - والقمـار، والمخدرات والزنى الـذي بـدأت نتائجه السيئة في الوقت الحاضر تقض مضجع العالم وتبدل أمنه خوفا وراحته تعبا بعد ظهور داء «السيدا» والـذي أصيب بـه في الـولايـات المتحدة زهاء 40 ٪. هذا الداء الذي كان نتيجة عدم تطبيق نواهي الله الـذي يـدعونا إلى الابتعـاد عن الـزنى لأن من رعى حـول الحمى يوشك أن يقع فيه حيث قـال : «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا»[5].

ومن واجب الشباب أيضا أن يتمسـك بدينه ولغتـه، وتقاليده الصالحة ويبتعد عن التقليد الأعمى بـالنسبـة للأجانب، نعم يفيد تقليدهم في ميدان العلم والمعرفـة والإخـلاص والاتقـان، والابتكـار، والاختراع والاكتشـاف بحيث مثلا لو رجعنا إلى لائحة الـذين غزوا القضاء شرقا وغربا لوجدنا أعمارهم لا تتجاوز الثلاثين سنة غالبا.

ومن واجب الشباب أن يترك جـانبا الكسل والخمول ويعمل لدنياه كـأنـه سيعيش أبدا، ولآخرته كـأنه سيموت غدا.

ونظرا لما لفتوة الشباب من أهمية بمكـان وصف الله بها سيدنا إبراهيم محطم الأصنام قال وهو أصدق القـائلين : «قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقـال لـه ابراهيم»[6] وكمـا وصف بهـا سيدنـا موسى عليه السلام في قصة بنات شعيب قـال : «يـا أبت استـأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»[7].

وكمـا وصف بها أصحاب الكهف حيث قـال : «إنهم فتية - آمنوا بربهم وزدناهم هدى»[8] وكما نجد نفس الوصف لـدى يوشع بن نون خـادم ورفيق سيـدنـا موسى في رحلتـه العلمية بحثا عن سيدنا الخضر ليتعلم على يديه قال تعالى : «وإذ قـال موسى لفتـاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا»[9].

وبمناسبة حلول ذكرى عيد الشباب الـذي يخلـد هـذه السنة الذكرى التـاسعة والخمسين لميلاد رمز الشباب وعزيمة الشباب جلالة الحسن الثاني نتقدم بتهانئنا الحارة إلى السدة العـاليـة بـالله راجين من الله جل شـأنـه أن يطيـل عمره، ويسـدد خطـاه. والـذي مـا فتئ يرعى ويـوجـه ويرشـد - ويخطط - الشباب تذليلا للعقبات ووصولا به إلى الأهـداف المنشودة، والمطامح المرجوة ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون**﴾.

صدق الله العظيم.

---

3) لأبي يعلى في مسنـده عن جـابر (حـديث ضعيف) الجـامـع الصغير 456/1.

4) لأحمد في مسنده عن أبي ذر ولأبي يعلى في مسنده عن عطيـة بن بسر (حديث حسن) نفس المصدر السابق ص 76.

5) سورة الأسراء /32.

6) سورة الأنبياء /59، 60.

7) القصص /26.

8) الكهف /13.

9) الكهف /59.

أصداء المقاومة لتحرير سبتة في الشعر المغربي خلال العصر العلوي

للأستاذ عبد الله بنصر العلوي

تعرض هذه المداخلة لثلاث نقط :

1 - تساؤلات حول الموضوع.

2 - عرض لبعض شعر المقاومة.

3 - النتائج التي نستخلصها من الدراسة.

- 1 -

تواجهنا في دراسة هذا الموضوع عدة تساؤلات.

لماذا سبتة ؟

ولماذا المقاومة ؟

ولماذا نخص الدراسة في إطار العصر العلوي ؟

وأخيرا، ما هو المنهج **الذي تنهجه هذه الدراسة** ؟

☆ ☆ ☆

لماذا سبتة ؟ لأنها أرض مغربية لها ماض مشرق في الفكر الإسلامي منذ عهد الأدارسة إلى عهد بني مرين، وبمجرد خروجها من دار الإسلام اختفت كمدينة من العالم المتحضر المثقف الواعي ليستمر حضورها في الفكر الإنساني فكانت الندوات واللقاءات العلمية العديدة... وليؤثر ضياعها في ذاكرة المغاربة فكانت قصائد التحرير والاستصراخ والرسائل الجهادية... ولتثير بقوة حماس المغاربة فكانت الحملات الجهادية.

ومن ثم كانت المقاومة واقعا وأملا لتخليص المدينة من الاحتلال؛ من جهة، وموضوعا شائعا في الأدب المغربي.

من جهة أخرى إن احتلال سبتة وكثير من الثغور المغربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي كان سبيلا للمقاومة والتحرير والنضال والجهاد، ولم يتوان المغاربة - استجابة للواقع ووعيا بمتطلباته - أن حافظوا على سمة الشخصية المغربية ألا وهي الحرية.. وقد ساهم الأدباء

والعلماء انطلاقا من الرؤية والمعاناة في النضال لإثبات الكيان والسيادة، وفي الجهاد للحفاظ على العقيدة، وفي تحرير ما احتل من الثغور، وفي مقاومة كل من ناوأ المغرب الخداع والعداء. وقد تمثل ذلك كثير من النصوص الإبداعية شعراً ونثراً حتى شكل ظاهرة عامة في الأدب المغربي عبر تاريخه. ذلك أن الأجنبي ـ باعتباره صليبيا ومحتلا ـ كان دائما بأبواب الثغور يقرع بالتي هي أشد وأقوى. وقد وقف المغرب من سقوط مدن الأندلس موقفا جهاديا كما في معركة الزلاقة والأرك على عهد المرابطين والموحدين وحاول المرينيون الدفاع عن الأندلس. وفي العصر السعدي ـ وخاصة أيام المنصور ـ أصبحت الدعوة إلى اجتياز الأندلس مطلبا ملحا لدى الشعراء. أما في العصر العلوي فنجد أدب المقاومة يشكل ظاهرة قوية وبارزة. ويمكن الرجوع إلى الحركة الأدبية التي شهدها فتح العرائش وأصيلا ومحاولات استرجاع سبتة ومليلية ومعركة إيسلي وحرب تطوان والمناوشات الاستعمارية لاحتلال المغرب وغير ذلك من المواقع التي دافع المغاربة فيها عن استقلالهم وهويتهم.

ولماذا الأصداء فحسب ؟ لأن من إشكاليات البحث في التراث المغربي مواجهة عوائق يصطدم بها الباحث، فأمام قلة النصوص أولا، وتشتتها في عدد من المصادر ذات ألوان معرفية متعددة ومختلفة ثانيا، وتوزع المخطوطات في عديد من المراكز والزوايا والمكتبات العامة والخاصة ثالثا، وندرة النصوص المحققة والمنشورة رابعا، وانعدام بيبليوغرافية أخيرا... مما يجعل الباحث يقف في منتصف الطريق. لذلك كان عملي في هذه الدراسة يقتصر على رصد بعض أصداء تحرير سبتة من خلال النصوص التي استطعت الحصول عليها. ولعل ذلك يمثل موقفا منهجيا.

أما لماذا نخص الدراسة في إطار العصر العلوي فلأنه العصر الذي عرف عدة حملات لتحرير سبتة؛ من جهة، والعصر الذي شهد حركة أدبية أسهمت بحظ وافر في الإبداع المغربي وتركت أصداء في تحرير كثير من الثغور المغربية، من جهة أخرى. وقد وجهت بعض الانتقادات إلى موروثنا الشعري بالمغرب بأنه أصبح مجرد هيكل عظمي يفتقد أبسط المقومات التي تحفظ له حرارة البقاء. ومثل هذا الانتقاد لايخلو من مجازفة، ونرد عليه من وجهين :

الأول، إن التراث المغربي يشكل ـ كما يقول د.عباس الجراري ـ أداة حاسمة في الصراع والمواجهة، ظهرت فعاليتها أيام المحنة والكفاح، وما زالت هذه الفاعلية قادرة على التأثير باعتبار التراث ملاذا تؤول إليه الأمة عند الشدائد يضم صفوفها ويشحنها بالطاقات اللازمة عند التعبئة، ثم هو بعد هذا ملك جماهير الأمة وخيط الاتصال بها على الدوام ولا حق لأحد أن يسلبها إياه.

والثاني، إن التراث الشعري بالمغرب يشكل أحد المعطيات الفكرية لأن الأدب المغربي يجسد معاناة العالم المغربي في تطلعه إلى التعبير عن الذات وآمال الواقع فيتجاوب مع رؤاه المتأثرة بالعلوم الإسلامية والمتسمة بالنزعة الروحية.

ونشير أخيرا في مقاربتنا الإجابة عن التساؤلات السابقة بأن إشكالية المنهج من أهم معضلات البحث. فالباحث لاشك أن عليه أن يحمل همّ الأصالة والمعاصرة وأن يستوعب أبعاد النص الإبداعي الذاتية والمحلية والقومية والإنسانية. ونضيف إلى ذلك ـ أيضا ـ مراعاتنا للسياق التاريخي قصد إبراز عدة اعتبارات :

ـ تقدير جهود ملوك الدولة العلوية لتحرير سبتة.

ـ تقييم الوضع الأدبي على عهودهم.

ـ تتبع الحوليات ومدى استجابة الشعر المغربي لمعطياتها.

وهذه الدراسة مشروع لدراسة اتجاهات المقاومة لتحرير سبتة من خلال طبيعة المرحلة ونسقها الفكري، ومن ثم فهناك ثلاثة اتجاهات :

ـ المقاومة في إطار جهادي (منذ الاحتلال إلى ما قبل الحماية).

ـ المقاومة في إطار وطني (عصر الحماية).

ـ المقاومة في إطار ثوري (عصر الاستقلال).

ولعل تحديد هذه الاتجاهات مقاربة لا تخلو من إشكاليات نظراً لتداخلها تاريخيا ودلاليا.

ونكتفي في هذه الدراسة بالشعر العربي الفصيح فقط. وعسى الأيام تسعفنا بدراسة الشعر الشعبي ـ وخاصة الملحون ـ والرسائل الشعرية اللذين ساهما في الدعوة إلى تحرير سبتة.

ـ 2 ـ

وقبل عرض نصوص بعض شعر المقاومة لتحرير سبتة لابد أن نحدد الإطار العام لهذه النصوص، فهي تشكل :

1 ـ صراعا حاداً بين الصليبية والإسلام.

2 ـ إرهاصا قويا إلى ما يصيب العالم الإسلامي والثغور المغربية من الأخطار.

3 ـ نقا فكريا في التراث المغربي الإسلامي النزعة.

4 ـ جهادا مستميتا للدفاع عن الإسلام والبلاد.

لاشك أن إرهاصات أندلسية ـ عن الصراع بين الإسلام والصليبية ـ سادت في الشعر الأندلسي حيث عبرت عن الأخطار المحدقة بالأندلس بل بالعالم الإسلامي وفي قصيدة أحمد الدقون دعوة إلى الجد والحذر :

يـا أهـل فـاس أمـا في الغير مـوعظـة
إن السعيـد لمـوعـوظ بـأمثـال

فقـل تعـالـوا إلى نصـح وتـذكرة
فـالأمر جـد فـلا تصحب لمكسـال

كيف الحيـاة إذ الحيـات قـد نفخت
على السـواحـل أوهمت بـإرسـال...

ويتحقق الإرهاص، فبعد أن تعاون بنو الأحمر مع القشتاليين لدعم مملكة غرناطة ضموا سبتة إليهم وقوضوا بها الوجود المريني عام 1387/789 مما جرأ البرتغال على احتلالها عام 1415/818 واستنجد سكانها بعبد الحق المريني، ووجهوا إليه كتابا ذيلوه بأبيات منها :

يـا مـالكـا قـد صـان بيضـة مغرب
بضـوارم وصـوارم وجنـود

هتـك النصـارى علينـا حرمـة سبتـة
غـدراً بنقض مـواثـق وعهـود

فأمر نديمه بجواب كان منه قوله :

فلقـد عجـزت عن الـدفـاع كمن مضى
من غير آبـاء وأسمى جـدود

وبعد ذلك تمكن الإسبان من ضم البرتغال وممتلكاتها إليه، فآلت سبتة إليه عام 1580، واستمرت مقاومة أهاليها على أشدها. وكان عرض الأسارى بفاس في عهد المنصور السعدي مناسبة للشعراء لتحريضه على فتحها. ولعله لم يفعل لسببين :

1 ـ لم يكن يسر المنصور أن تخترق المضيق الأساطيل التركية التي كانت تهدده وتهدد من سبقه.

2 ـ إن المنصور لم يهتم بالشمال اهتمامه بالجنوب وربما في ذلك تحصين لمراكز الدولة الاستراتيجية.

وفي عهد مولاي اسماعيل وجهت حملات إلى سبتة وحوصرت حصارا شديدا دام 26 عاما بل 33 عاما. وقد سجل شعراؤه هذه الحملات في أشعارهم. فمن القصائد المادحة قصيدة عبد الواحد البوعناني يخاطب أهل سبتة :

ألا يـا أهـل سبتـة قـد أتـاكم
بسيف اللـه سلطـان وقـور

إذا ما جاء سبتة في عشي
تناديه إذا كان البكور

وقصيدة عبد السلام جسوس كلها تطلع إلى تحرير سبتة :

رفعت منازل سبتة أصواتها
تشكو إليكم بالذي قد هالها

...عار عليكم أن تكون أسيرة
بجواركم وجنودكم تعْزى لها

...ارفع لهذا الغرب رأسا إنه
في الضعف ما دام العدى نزالها

...واقبل هدية من أتى بنصيحة
يبغي الثواب ولا تقل من قالها

ومن القصائد الواصفة قصيدة ابن زاكور وقد لاحت سبتة من رأس الطرف بتطوان منادية : التحرير... الجهاد :

وقد بدت سبتة منه منادية
يا أهل دين الهدى هل عندكم عطفه

هل عزمة تذر الصليب منكسرا
حتى يظل الرشاد لامحا عطفه

هل غيرة تقتضي طهري من نجس الـ
ـشرك بمطلق دين الملة الصرفه

ومن القصائد الإخوانية أبيات لمحمد بن الطيب العلمي يقول فيها :

دخلت تطوان لما
ضاق اشتياقي وشتا

وها أنا ذا مقيم
مشتت العقل شتا

عندي من الصبر نزر
ومن همومي شتى

أريد سبتة لكن
لن أبرح الأرض حتى

ومن قصائد التوسل قصائد محمد بن علي الرافعي - وهو شاعر المقاومة لتحرير سبتة - يقول في إحدى قصائده متحدثا عن بعض حملات المقاومة :

وكم مدافع في البيداء قد وضعت
ترمي البلاد فينسي صقعها الرعدا

فارددهم بسلام بعد فتحهم
ما أملوا من ديار الشرك دار عدى

مرادهم سبتة البيضا ومنيتها
سهّل لهم فتحها يا خير من قصدا

فلا صلاة تقام في مساجدها
ولا قرآن بها يتلى كما عهدا

وبموت مولاي إسماعيل فك الحصار. وفي عهد سيدي محمد بن عبد الله انصرفت الهمم إلى فتح مليلية ليسهل استخلاص سبتة بعد ذلك، لكن حادث الصلح حال دون تحريرهما. كما حاول مولاي اليزيد أن ينقض الصلح مع الإسبان واستنفر المغاربة للجهاد، وفي عهد مولاي سليمان لم تستغل الأوضاع الدولية من خلال الصراع الفرنسي الإنجليزي حول إسبانيا وقد تمثل شعراء هذه العهود واقع الاحتلال ودعوا إلى المقاومة والجهاد. فحمدون بن الحاج في سليمانياته كان يدعو إلى جمع العدة ويتوعد النصارى بالهزيمة يقول :

وما الخيل إلا الخير أجمع قادم
عليك وإن الخيل جانسها الخير

وويـــل لعبـــاد الصليب وجمعهم
ففي يـومنـا خمر وفي غـده أمر

كذلك في شعر سليمان الحوات إذكاء لروح الجهاد. يقول في إحدى مولدياته :

ربي أعــز المسلمين بيمنكم
وأذل أهــل الكفر أين تـللـوا

وأعــد عــامل الثغور بحـزمــه
مــا أرهب الأعــداء حتى أجفلـوا

وخــلا لكم حجر النكــور وأبشروا
بخـلاء سبتــة بعــده سيحصـل

وتتأزم ظروف المغرب في عهد مولاي عبد الرحمان ابن هشام بمعركة إيسلي لرفض الاحتلال الفرنسي للجزائر. وحينئذ يسجل الشعر المغربي إسهاما كبيراً في الدعوة إلى الجهاد. يقول محمد بن إدريس العمراوي :

يــاساكني الغرب الجهــاد الجهــاد
فــالكفر قــد شــارككم في البـلاد

والشرك قــد نصب أشراكــه
مستعبــدا بكيــده للعبــاد

وفي عهد مولاي محمد بن عبد الرحمان تقع حرب تطوان بسبب رفض التوسع الإسباني في حدود سبتـة، ويستجيب الشعراء للواقع وللنفوس وأهوائها ويتفاعلون مع مواجهة العدو مثلما نجد في أشعار المفضل أفيلال ومحمد القيسي وأحمد الجنـدي وغيرهم كثير، ونقتصر على بعض أبيات من قصيدة مطولة لمحمد القيسي :

تصبر لحكم اللــه في القــوم إذ جرى
عليهم بــأنــواع الــوبــال المحتم

...وكــان بهــا بعض تجبر بــالغنى
فــأضحى على ذي فــاقــة يتهكم

بــه سلــط المـولى النصــارى عليهم
بعــدّ وعــدّة وجيش مقــدم

...فـأوقـدوا نـار الحرب في أرض سبتـة
وزادوا بهــا برا وبحرا تقــدمــوا

وفي عهد مـولاي الحسن يصبح الحـديث عن الجهـاد والمقـاومة مظهرا فكريا تجاذبت حوله الآراء والفتاوي. ولعل في تبصر أهل الحل والعقد بالواقع ما حال عن الاستمرار في الرباط لتحرير سبتة. ومع ذلك نجد لدى شعرائه إلحاحا على الشجاعة والإقدام. ولم يكن ذلك مجرد معان مـدحية فحسب... بل استشراف وتطلع إلى مستقبل تتحقق فيه الآمال. يقول محمد بن محمد غريط :

سيف اعتصــامــك بــالإلــه مجرد
ومهنــد وممهــد ومــؤيــد

سيف الحقيقــة بــالشريعــة يـزدهي
ونجــاده بضمــان نصرك يعقــد

قلـدتــه للفتـح إرثـا خــالصــا
مــع مــا سـواه من السيـوف معــدّد

ويـدخل المغرب في عهد مولاي عبد العزيز وضعا دوليـا معقدا تتطاول فيـه الـدول الأجنبيـة على سيـادة المغرب. وفي قصيـدة الطـاهر بن محمد الإيفراني - شاعر المقاومة الشعبية بالجنوب - استصراخ لما يهدد المغرب من الاحتلال :

فقــد أنشب الكفر المــداهن نــابــه
ومــد إلى سرح الهــدى كف مفسـد

وكــاد بــأنــواع المكــايــد أهلــه
وصــار ينــادي : خــامري وتلبــدي

أسر احتســـاء في ارتغـــاء ومـــالــــه
ســوى الـــدين من مرمى يرام ومقصــد

وقـــد بلـــغ النيـــل الـــزبى بظهــوره
وإن لم يـــــداو العر بــــالكي يـــزدد

وفي أمداح الشاعر لمولاي عبد الحفيظ نغمة جهادية. يقول :

وافى وقـــد مـــد الضـلال إلى الهـــدى
كف الردى قـــد عـــابـــه مستنصرا

...وبـــدا بتطهير البـلاد مـــدافعـــا
عنهـــا عـــدوا قـــد طغى وتكبرا

ومثـل هـذه القصـائـد دعوة صريحـة إلى الجهـاد والاستشهاد لمقاومة الكفر والاحتلال وصورة نابضة بالقوة والحياة.

وأمام مواجهة الشعر المغربي لهذه الأحداث لم يكن ليعبر عن واقع سبتة وحدها بل شكل موقفا عاما تمثل في مقاومة الكفر والاحتلال.

- 3 -

ونصل - أخيراً - إلى النتائج العامة التي نستخلصها من هذه الأشعار :

1 - إن هذه الأشعار تعبير عن الوقائع والأحداث وتعبير عن المواقف والمشاعر، وهي تشكل وثيقة أو شاهد إثبات لاشك أن كلا من الباحث الأدبي والمؤرخ سيجد فيها ما يبلور رؤية الإبداع والحدث.

2 - إن هـــذه الأشعـــار تعبير عن إقرار الشعور بالوحدة الوطنية في نفوس العامة والخاصة. ذلك الشعور الذي حاول بعض الأجانب إنكاره مثل Andié Leblanc في أطروحته. فمنذ القرن الخامس عشر والبرتغال والإسبان لم يتخلوا مطلقا عن مشروع غزو المغرب، ومنذ ذلك الحين والمغرب يحارب ويقاوم ويجاهد ويناضل للمحافظة على مكتسباته وسيادته بالرغم من كثيرة العوامل التي أرهقت واقعه.

3 - إن النسق الفكري بالمغرب كان يستمد من الإسلام مقوماته الثقافية والاجتماعية والسياسية. ولم يكن الإسلام مجرد رابطة اجتماعية فحسب بل اتجاها سياسيا يحفز على العمل ويدعو إلى الجهاد. ومن ثم كانت هذه الأشعار تحمل في صورها ومعجمها الكثير من التأثر بالثقافة الإسلامية وفي طليعتها القرآن الكريم.

4 - إن هذه الأشعار تتفاوت فيما بينها من حيث المقومات الفنية والجمالية ويمكن تلمس بعض التقييم لهذه الأشعار من خلال مدرستي الشمال والجنوب فمدرسة الشمال مدرسة حضرية تعتني برونق اللغة وجمال الأسلوب كأشعار ابن زاكور ومحمد بن الطيب العلمي، وقد تصل إلى حد التقريرية كما في غالب شعر حرب تطوان. أما مدرسة الجنوب فهي مدرسة بدوية تعتني بجزالة اللغة وقوة الأسلوب مما يجعلها تقارب شعر الفحول في الشعر العربي مثل قصائد الطاهر بن محمد الإيفراني. ومن ثم كانت هذه الأشعار تجسد نهضة يقول عنها محمد المختار السوسي إنها نهضة متوجسة في أدب العصر العلوي إلى ما قبل الحماية.

5 - إن بعض هذه الأشعار - وإن لم تجانس بين التجربة الإنسانية والصياغة الجمالية - فإن لها دورا هاما في شعر المقاومة بالمغرب كان محل تقدير واهتمام وكان باعثا للهمم حتى لا تستكين للاستسلام وفي ذلك إبداع - دون شك - لواقع الذات والجماعة.

6 - إذا كان جرمان عياش يقول عن كتابات القرن التاسع عشر بأنها غير كافية لإقناعنا بأنها تترجم حقا التيارات السائدة وسط الرأي العام... فإنه يمكن تلمس هذه التيارات في هذه الأشعار، وخاصة فيما يتعلق بأشعار حرب إيسلي وحرب تطوان والمناوشات الاستعمارية. فهناك التيار المقاوم وهناك التيار اليائس وهنا التيار المتوجس والمتربص... مما يعكس حقا المواقف الشعبية والرسمية لهذه الأشعار.

الحسن الثاني

ملك خلقه القرآن والسنة

للأستاذ عبد القادر رفهي العلوي

تحل بنا ذكرى عيد الشباب التي تخلد ميلاد حضرة صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني أطال الله عمره وخلد في الصالحات ذكره وهي ذكرى تعبر فيها الأمة المغربية وشبابها النشيط عن مدى تعلقها وولائها وإخلاصها لقائد النهضة وموحد الأمة.

وتتعدد وسائل التعبير عن الفرحة بهذه الذكرى وأختارها معتمدا على آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول المصطفى الأمين وتأثيرها في تربية الحسن الثاني وتصرفه وسلوكه وإخلاصه لدينه ووطنه واجعل عنوانها الحسن الثاني ملك خلقه القرآن والسنة.

وإنني إذ أتطرق للذكرى من هذه الزاوية فإنني أومن كل الإيمان أن ذلك واجب يفرضه قوله سبحانه : ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾ (الرعد 19 ـ 20) واعتراف وامتنان فرضه قول الرسول ﷺ : «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له».

لقد نشأ الحسن الثاني في وطن عزيز عليه وتربى بين أحضانه وترعرع في رياضه وتذوق مرارة النفي والإبعاد بسببه، فكان من الطبيعي أن يخلص لأمانته ويذوذ عن حوزته ويتقيد بوصية والده المغفور له محمد الخامس وهو يسميه ولياً للعهد ويذكره بقول الله تعالى : ﴿**يابني أقم الصلاة وآمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ (لقمان 17) فاتخذ من هذه الآيات وغيرها من محكم الكتاب نبراساً يستضيء به ونوراً يهتدى بإشعاعه ويسير على إرشاده وهو يعلم أن من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم، وان من استمسك بالقرآن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وكيف لا وهو الذي فتح عينه على كتاب الله يتعلمه في الكُتّاب مع أبناء وطنه ويتنور بشرحه في فترة شبابه ويتبع هديه أثناء مسؤوليته.

لقد تربع الحسن الثاني على عرش أجداده وعلى عاتقه مسؤولية أمة عظيمة برهنت للعالم عن استماتتها لرفع أيادي الاستعمار وأثقاله التي حط بها في فناء المغرب العزيز لمدة طويلة جعلته لا يفكر في الرحيل. ولم يعر في بادئ الأمر أي اهتمام لرغبة الشعب في التحرر والسيادة على أرضه، فأرغم على الانسحاب يجر وراءه ذيول الخيبة والخسران فكان لزاماً على شبل هذا العرش أن يقدر ما عليه من واجبات وما ينتظره من تبعات ويستخير الله في أن يهون عليه الصعاب ويكون له عوناً وسنداً، وهو يقول : ﴿**قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾ (ءال

عمران 26) وقول الله تعالى : ﴿**رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه**﴾ (الاحقاف 15).

وتابع الملك الشاب مسيرته الميمونة ووصايا والده الغالية وحقق لأمته أملاً غالياً كانت تصبو إليه ومطلباً ثمينا تعلقت به، وقدم لها برلماناً يعبر عن رأيها ويخطط لمسارها ويضعها في مصاف الدول المتقدمة التي حققت لشعوبها الديموقراطية والكرامة الإنسانية وحمل أفراده أمانة الصدق في القول والإخلاص في العمل ووضعهم أمام قول الله تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**﴾ (الأحزاب 71/70) وطلب منهم أن يكونوا عاملين مخلصين وللعدالة مؤيدين وعلى الحق مدافعين وفي محبة الله متآخين تزينهم رابطة الإسلام وتقويهم محبة الوطن وتظللهم نصائح الملك الرائد وترشدهم دعوة القرآن : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ أشداء على أعدائهم رحماء في إخوانهم فكانت لبنتهم بنياناً مرصوصاً وصوتاً مدوياً وإعلاناً عن التخطيط السليم والمنهج القويم وتحققت إرادة الله في التعاون على البر والتقوى وقاد الحسن الثاني أمته وشعبه في خطوات ثابتة وبسياسة رزينة وأخلاق عالية متبعاً قول الله تعالى : ﴿**فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾.

وتطلع الملك الهمام إلى الأفق الزاهر والأمل الرائد فخطط في عزم وثبات المنهج الصحيح لإنشاء جيل نافع لوطن نافع وأعطى أوامره السامية لتعميم التعليم في الحواضر والبوادي وهو يتأمل قول الله تعالى : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ (الزمر 9) ثم حقق الطموح وأذكى العزائم وتابع المسيرة فكانت الثانويات والمعاهد ثم الجامعات ليرتوي الشباب وتستنير بصائره ويساهم في تحقيق الازدهار ويتحمل مسؤولية البناء والتشييد ويصدق فيه قول الله تعالى : ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً**﴾ (الأعراف 58) وأعطاه الحسن الثاني من اهتمامه وعنايته ما سهل أمامه سبل السير وقوض كل العوائق وجلالته ينظر إلى شباب أمته في قول الله تعالى : ﴿**كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها**﴾ (ابراهيم 25/24) فأصبحت بلادنا بفضل عزيمته وعناية الله ـ تتوفر على جامعات في مختلف الاتجاهات لا يقتصر عطاؤها على أبناء وطننا ولكنها طعمت كل الوافدين المتعطشين من أبناء الوطن العربي والإفريقي والأوربي أحياناً شعارها دائماً : ان العلم لا يعرف الحدود ولا يتقيد باعتبارات.

وعَمَلُ جلالته ليس من باب الصدفة والارتجال ولكنه درس من الدروس التي تربى عليها في محيطه الإسلامي والتي أدرك منها أن الإسلام انبنى على العلم وانطلق منه وأنه منة تفضل بها الله على خلقه ففتح له الطريق للإدراك والاستفادة والاستنباط.

واكتشاف الأسرار الإلهية في الكون، فقال تعالى في أول خطاب يحمل به الرسول أمانة التبليغ : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم**﴾ فأراد أن تكون أمته من الأمم التي أحسن الله إليها فأمدها بالعلم وحرص حفظه الله على الاستفادة من ذلك اقتداء بما جاء في الأثر : ﴿**من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يكن يعلم**﴾.

ولم تمر مناسبة أو فرصة دون أن يسلك فيها الملك الرائد مسلك المرشد الأمين وبين فيها لرعاياه وشباب أمته أن حضارة الإسلام مثالية في كل شيء وانها تستمد قوتها من العلم والمعرفة وتتطور معها وتلك موعظة استقاها من جده المصطفى عليه السلام وهو يقول : (العلم فريضة على كل مسلم، ويقول : أطلب العلم من المهد إلى اللحد، بل انه ﷺ بفراسته المعجزة وبإدراكه القوي حث على طلب العلم مهما كانت الصعاب والمشاق ومهما كانت منابعه وعداؤها لأمة السلام فقال : «أطلب العلم ولو بالصين» التي ستكون في عداء تقليدي مع الإسلام سيفرضه مذهبها الشيوعي).

إن حرص الرسول ﷺ على طلب العلم واستخلاص نتائجه وتطبيق معطياته، جعلت من الحسن الثاني يعمل بجد على أن تتحقق هذه المكاسب في أمته وشبابه وجند لذلك كل الوسائل والإمكانيات ليجعل العلم والعمل خطين متوازيين يسيران في سبيل الحضارة والازدهار والرقي الاجتماعي لبلده الأمين وشعبه العزيز، ولقد حقق الله له ما أراد فأصبح شباب المغرب مفخرة يسابق في الإنتاج والإنجاز والتخطيط والإبداع، وأعطى المثل على أنه شعب التحدي والمكرمات وأنه بفضل الله وإرشاد ملكه سيصل بالبلاد إلى أعلى المراتب وأرقى الدرجات.

وتدبر الحسن الثاني قول الله تبارك وتعالى : **﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾** (الشورى 28) وقوله : **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾** (الأنبياء 30) فحث أمته على أن تستفيد من نعمة الله وتجعل من أرضها جنات تدرف الخيرات وتغني عن الاستعطاف وتضمن العيش السعيد للغني والفقير وسهر بنفسه حفظه الله على الاستفادة من مياه الأمطار وبنى لها سدوداً ومخازن ووزعها على المناطق الفلاحية المحتاجة مستفيداً من قول الله تعالى : **﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** (الروم 50/49) ولم يقف جلالته عند هذا الحد بل ضرب للتاريخ موعداً مع الإنجازات العظمى ومشاريع النماء ببناء سد كل سنة يضمن للفلاحة الازدهار، يقيناً من جلالته أنها المورد الأساسي الذي لا غنى للإنسانية عنه وان تشاغل العالم الصناعي عنها سيجعله يرجع مطأطئ الرأس إلى مواردها يرجوا عونها على العيش خصوصاً وقد ظهرت في العالم في السنوات الأخيرة آثار المجاعة ومخلفاتها السلبية على مناطق جف معينها وساءت حالها؛ وما نراه اليوم من ازدهار فلاحي وخصب في الأراضي وتكاثر في الخيرات يعد معجزة من معجزات الحسن المومن بالله المتوكل عليه حق توكله وهو يردد قول الرسول ﷺ : **﴿لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً﴾**.

وانتهز جلالته انعقاد دورة المجلس الأعلى للماء في شهر مايو 1988 ليوجه العناية إلى دور الشباب في تزيين وطنه وتشجيره وإغنائه بالروابي الخضراء وذكّر بأن مساهمة شباب اليوم إفادة لجيلهم القادم وحافز لاستمرار العطاء المتواصل الرابط بين الأجيال.

المسيرة الخضراء

واستخار الحسن المسلم ربه وطلب عونه وتوفيقه واتجه بشعبه إلى أرضه السليبة وصحرائه المغتصبة في مسيرة خضراء شعارها صلة الرحم ولم الشمل وسلاحها كتاب الله وهو الحبل المتين والسراج المنير والهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ليتوقف العالم مبهوراً أمام ذكاء هذا الملك الشاب والإمام المحنك والزعيم المقتدر وتأكد بما عرف فيه من عزم وحزم انه محقق قصده وبالغ أمره فبارك خطواته وصفق لقراره وأيد حقه في استرجاع صحرائه، وعادت لنا صحراؤنا وتحقق بفضل الله رجاؤنا ورددنا مع عاهلنا الهمام : **﴿ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** (محمد 7).

وألهمه الله لساناً شاكراً وقلباً ذاكراً وتوبة نصوحاً فكان يردد حمداً وثناء قول الله تعالى : **﴿رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن اعمل صالحاً ترضاه واصلح لي في ذريتي إني ثبت إليك وإني من المسلمين﴾** (الاحقاف 15) فصدق فيه قول الله تعالى : **﴿أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾** (الأحقاف 16).

وتحركت أحقاد الحاقدين وعداوة الحاسدين ومكر الماكرين فساءهم أن يلتقي الاخوة وترجع الأرض لأصحابها وفضلوا أن تبقى في يد المستعمر، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ومكروا كأشد ما يكون المكر وظنوا أن حلم الحسن الثاني وصبره سيكون لهم عوناً على تركيز عدائهم وعنادهم وخلقوا ما يحلو لهم من العراقيل والمشاكل وطوروا عداءهم أحياناً إلى المس بحدودنا وأرضنا فلم يستعجل الحسن المؤمن الرد عليهم وتضرع بقول الله

تعالى : ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾ (الطور 48/49) وترك الأمور تسير سيراً عادياً يتمعط منه الغافلون ويخيب ظن المفسدين ويتحقق قول الله تعالى : ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ (فاطر 43) واعتبر جلالته أنها سحابة ستنجلي وأن ظلام الليل يمحوه النهار وأن إيمان المرء لا يتأثر بالنكبات لأنها دليل الثبات وعون على النجاح مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (ءال عمران 143).

ويبارك الشعب هذا الثبات وهذه التضحية وهو يرى في سبط الرسول ﷺ الموعظة الحسنة ويشاهد سيرة جده تطبع على قلبه وتنير بصيرته، وقد آنسه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ (الرعد 42).

وكيف لا وقد أظهره الله في مواطن كثيرة ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (النجم 18).

إن محاسن الحسن الثاني أجل من من أن تحصى ومزاياه أكثر من أن تستقصى وهي في سجل الخالدات تزين صفحاته وتعطي نَفَسَ التحدي للأجيال المقبلة، وهي لا تنحصر في محيط المغرب العزيز وإنما أفاد الله بها أمة إفريقية وعربية وإسلامية وجمع على حبها قلوب الصادقين ونطقت بها ألسنة العارفين والمطلعين.

لم يطل الانتظار ولم يخب الظن بل حلت فرحة عيد الفطر المبارك لتحمل بين طياتها تعقل العاقلين ورجوعهم إلى الحق المبين وإعلانهم صلحاً أخوياً بين المغرب وجارته الجزائر ليكون بلسما للجروح وعوناً على المشاكل التي تحدق بالأمة العربية والإسلامية وليكون صلحاً صادقاً يكوّن الحجر الأسعد في توحيد بناء المغرب العربي ويطفيء نار الخلاف ويلتحم به جمع الشمل الأخوي بين الجارتين ويكون مكسباً يساعد على تحقيق الصلح العربي والإسلامي في كل مكان وصدق الله العظيم ﴿فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم﴾.

في المجال الإفريقي

إذا كانت الأطماع والأحقاد قد لعبت دورها في أن نعتز لكرامتنا ونغادر منظمة الوحدة الإفريقية بعد أن أصبحت تسيرها اعتبارات خاصة وتحيط بقراراتها حالات استثنائية تخضع لإديولوجيات ومغريات، فإن الضمير الحي والمتبصر في الأمة الإفريقية لم يرد أن ينساق أمام اللعبة ويتأثر بكيد الكائدين الذين لا رغبة لهم - في الحقيقة - إلا أن يترك لهم المغرب مجال التربع على زعامة هذه القارة بعد أن تبين لهم في جميع الأحوال أن وزنه الثقيل وسمعته الإفريقية وأثره في حضارتها واستقلالها لا يسمح لهم ببلوغ غايتهم ولا يجمع له من الأصوات ما يبلغون به آمالهم، فالتزمت الدول الإفريقية الابقاء على العلاقات التاريخية والأصيلة مع المغرب إدراكاً منها انه عمدة من الأعمدة الإفريقية لا تقيم أركانها إلا مع وجوده ولا يمكن الاستغناء عن استشارته وآرائه، وهكذا توطدت الروابط الثنائية مع الدول الإفريقية بشكل غار منه الأعداء وأعطى النتائج المفيدة أكثر من ذي قبل وعبر العديد منهم عن رغبته في الحفاظ على علاقته وتعاونه مع المغرب وتوالت المسيرة وبرز التعاون على أعلى مستوياته وصدق الله العظيم : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر 10)..

علاقاتنا العربية والإسلامية

إن مصير الأمة العربية مرتبط إلى حد كبير رغم تباعد المسافات - بحكم الحضارة المشتركة ووحدة اللغة والدين إذ انها عوامل أساسية لتكوين هذا الارتباط ومن هنا كانت علاقات الأخوة والمحبة المتبادلة تهيمن على سمائها وتتحكم في نظمها وتصرفاتها ومن هذا المبدأ ركز الحسن الثاني علاقاته مع إخوانه العرب في كل مكان وشرح صدره لمحبتهم والتعاون معهم وهو يحكم كتاب الله وسنة المصطفى فلا يتأثر بالظانين ظن السوء ولا يلوم المعرضين على الحق وينهج في كل تصرفاته ما علمه القرآن في قوله تعالى : ﴿ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت 34) ويتحمل

مسؤوليته بين الاخوة في الدفاع عن العروبة والوطن ويقدم الدعم قولاً وفعلاً كلما أدلهم الخطب وتأزمت الأمور فلا ينتني عن عزمه أو يخذل في وعده أو يتخلى عن واجبه وكفى دليلاً أن تجد جنود وطنه شهداء في سيناء والجولان بعد أن لبوا نداء قائدهم فكانوا في الوغى مستبسلين، وعن العروبة مدافعين وفي سبيل الله مجاهدين ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ (الفتح 29) وإذا تنكر البعض لشهامة المغرب وجحد المعروف والتضحية فإن الحسن الثاني الذي تربى في بحبوحة الوفاء وشرب من معين الثبات والاستقامة لم يكن ليأخذ ذلك مأخذ المنتقم بل اعتبره هفوة من هفوات السياسة ستلعب الأيام دوراً هاماً في محوها مرتلاً قول الله تعالى : ﴿**خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف 199) وقوله تعالى : ﴿**سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ (ءال عمران 134). وقول الرسول ﷺ فيما رواه الحاكم عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يشرئب له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه، ويعطي من حرمه ويصل من قطعه».

ومسعاه لجمع الشتات والتئام الشمل نساه كل التقلبات ودفعه إلى مزيد من الحرص على تحقيق التضامن ولم يدع فرصة تمر دون الحث على ذلك وبيان فوائده مستشهداً بكتاب الله إذ يقول : ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ (ءال عمران 102 ـ 103) كيف لا والآية نزلت في قبيلتي الأوس والخزرج وهما من العرب، وكيف وهو يدرك بما أفاء الله عليه من عقل راسخ وفكر ثاقب وتربية إسلامية أن الاتحاد حصن حصين وعون لتحقيق الأهداف وهي وصية من وصايا الرسول ﷺ مما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : «ان الله يرضى لكم ثلاث ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.

والدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه الحسن الثاني وشعبه للشعب الفلسطيني لا يمكن أن يجحده أحد أو ينكر وجوده وكثافته ـ بل أنه جعل القضية الفلسطينية من أخص خصوصياته وأهم مشاغله وعلى بسطها دولياً وإقليمياً بأسلوب المدرك الواعي من غير أن يكترث برد الفعل السلبي الذي يحلو للبعض أن يتبناه.

قدم للأخوة العربية من أوقاته وراحته الشيء الكثير وخلق بينهم جوا من التطلع والأمل في المستقبل الحسن خصوصاً وقد كانت فترة رئاسته للقمة العربية طويلة وحافلة تحققت من خلالها آفاق التعاون ومرامي غالية وأهداف نبيلة ذكرها القادة العرب والمسلمون بالشكر والامتنان أثناء مؤتمرهم الأخير بدولة الكويت.

علاقاته بالدول الإسلامية

ونشاطه داخل مؤتمر الدول الإسلامية لا يقل عنه في المحيط العربي إقراراً منه بأن الإسلام اعتمد على التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله**﴾ (ءال عمران 110) وان الأخوة أهم مقوماته وأجل أهدافه، وإن محيطه لا يقبل العنصرية ولا القبلية، ولا يسلك لها سبيلاً. وأن العمل الصالح مبدأ أساسي لبلوغ الأهداف وتحقيق الآمال كما نطقت بذلك آيات القرآن كقوله تعالى : ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (النحل 97).

وتحت تأثير هذه الآيات وما أنعم الله عليه به من حرص على الاهتداء بسنة جده عليه السلام سلك مسلكاً حكيماً وتصرف تصرف المتبصر وجعل للأخوة مغزاها ومعناها واعتمد التشاور والتباحث أساساً لكل تعامل

والتناصح وحسن التدبير مرجعاً عند المستجدات واتخذ القول اللين وسيلة لبسط المشكلات وحكم كتاب الله وسنة رسوله عند التخاطب والمناقشات مستفيداً من قول الله تعالى : ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ (فصلت 34).

ومن حسن نيته ويمن طالعه ألهمه الله التوفيق والرشاد ورزقه لساناً صادقاً لاينطق عن الهوى، فدعا إلى عقد مؤتمر إسلامي لدراسة ما ألم بالأمة الإسلامية يوم امتدت أيادي الصهيونية الغاشمة إلى القدس الشريف وأعلنها صرخة ضد أعداء مقدسات الإسلام فاجتمع من حوله إخوانه دقادة المجتمع الإسلامي وقد وجدوا في دعواه بلسما يضمض جروحهم وفرصة تعبر عن امتعاضهم وتذمرهم من كل كيد يلحق المسلمين في كل مكان ومن وراء هذا المؤتمر والمؤتمرات الإسلامية الموالية تأكدت النية الصادقة في الدفع بالمجتمعات الإسلامية إلى مزيد من التضامن والتعاون ليتحقق النصر الموعود في قوله تعالى : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**﴾ (النور 55). وكما هي عادة القائد المسلم تحمل القسط الأكبر في كل التزام وقدم الدليل على التضحية في سبيل الإسلام وهو يقول في دعائه قول الرسول ﷺ : «اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت وقني سيء الأعمال وسيء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت» لم يسجل عليه التاريخ يوماً أنه كان فاحش القول أو ثائراً في غير حق أو داعياً إلى عداوة أو بغضاء بل كان يقول قول جده عليه السلام «اللهم ألف بين قلوبنا واصلح ذات بيننا» فجمع من خلال تصرفاته قادة الشعوب الإسلامية وأممها على محبته فاستمعوا إلى نصحه واستعانوا برأيه فكانت بفضل الله آراء سديدة ونتائج مفيدة خلقت بين الدول الإسلامية رغم بعد المكان واللغة الالتحام الراسخ والعهد الوثيق فالتزموا بإعطاء الجهاد الإسلامي العناية الكثيرة والدعم اللازم وخصصوا المزيد من الجهد المتكتل لاسترجاع القدس السليبة وجعلوا لها لجنة خاصة عهدوا برئاستها لجلالته فتحمل الأمانة وأدى الرسالة وعرف بالموضوع في جميع المجالات وخاطب بلسان الصدق من لهم الحل والعقد في المجالات السياسية والاجتماعية وأبلغ بلسان المؤمن كلمة المسلمين وقادتهم ليعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وبالأمس القريب والشعب الفلسطيني يعلن انتفاضته في أرض التحرير ومسرى الأنبياء ويواجه بطش الصهاينة البغاة يرتفع صوت الحسن الثاني لتجتمع من حوله لجنة القدس وإخوانه المسلمون في كل مكان، وهو يقول : ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ (محمد 7) ويتحدث بلغة التحدي والصمود فيزيد الشعب المنتفض قوة وعزماً ويبين مخاطر اعتداء المعتدين ـ ومن يناصرهم ـ ويذكر قادة العالم الآخر بأن مبدأ الحرية الذي رفعوا شعاره في الأزمات والمحافل أخطأ طريقه في معركة الشعب الفلسطيني بفعل تجاهلهم وتعاونهم مع المغتصب، وحث أمة الإسلام على مقابلة الجبروت بالتضحية المؤدية إلى النصر ولم يكن جلالته في كل ذلك ليخرج عن توجيهات القرآن وأمره إلى أمة الإسلام كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لايحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز**﴾ (الحج 40/39/38).

ومن باب تحصيل الحاصل أن أشير إلى أن جلالة الملك الحسن الثاني يجعل تقوى الله نصب عينه في كل ما يأتي وما يدر ويعتبر الخشوع والدعاء رابطة تقوى الدعم الإلهي مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم**﴾ (الفرقان 77) ومن عادته أن يردد قول الرسول ﷺ : «إن الله يحب العبد الملحاح» فإنه حفظه الله أوصى في آخر اجتماع للجنة القدس المنعقد بيفرن، أن تقام صلاة الغائب يوم الجمعة في كل مساجد العالم

الإسلامي تأكيداً للدعم المطلق لانتفاضة الشعب الفلسطيني في الوطن السليب، واعتماداً على قول الله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة 153 ـ 157) ومن وراء هذا الاقتراح أن خير ما يستعين به المسلم على إجلاء المصائب وتخفيف آثارها الوقوف بين يدي الله في أحسن عبادة وأقربها من الخالق وهي الصلاة وبها يستمد عونه وهداه، واستجابت الأمة الإسلامية ووقفت وقفة ابتهال وتضرع وحسرة في وقت واحد بعد صلاة الجمعة فأدرك العالم كله ان المسلمين قد عرفوا طريقهم وعقدوا العزم على محو ما علق بهم من تراخ وتواكل وتذكروا قول قرآنهم المكنون : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ (آل عمران 101).

إن الحديث عن الحسن الثاني كرجل ملأ قلبه الإيمان وفتح الله بصيرته، لا يمكن أن ينحصر في صفحات أو يحيط بكل الجوانب فهو حفظه الله عاهد القرآن وتعهده فأنار سبيله وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما شاء وصدق فيه قوله تعالى : ﴿يوتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة 269) ولست في حاجة إلى الدليل على ماذكرت وأمام العالم الإسلامي وغيره، مواقف الحسن المسلم وأهمها الدروس الرمضانية التي استقطبت بال الفكر الإسلامي في كل مكان وسعد بولوجها من أفاء الله عليهم بالعلم وحسن اللسان وشارك في إلقائها فطاحل العلم وعباقرة البيان. فكانت حلقات اجتهد محاضروها وعلماء الإسلام فيها ما وسعهم إدراك ليكونوا لرسالة الإسلام مدللين ولأهدافه ومراميه مبلغين رغبة في إعلاء كلمة الله وإرساء دعائم دعوته وصدق الله العظيم ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ (فصلت 33).

ويكفيه عناية بكتاب الله أن تجد في كل مسجد أو زاوية أو مدرسة عتيقة مجموعة من حفظة القرآن يتلون منه ما تيسر كل يوم بتوجيه وأمر من جلالة الملك الحسن الثاني الشاب الذي يؤخذ قدوة ومفخرة للشباب المسلم في كل مكان.

☆ ☆ ☆

مولاي إن اللسان يعجز والقلم يجف عندما يحاول أن يتجرأ بالحديث عن جلالتكم مهما كان الموضوع الذي يريد أن يرسمكم منه، وكيف وان ما أردته يتعلق بأصالتكم الإسلامية وتربيتكم السامية ونشأتكم الدينية وهي جوانب حاول غيري أن يطرقها فلم يستطع أن يفي الموضوع حقه ولكني التمست عذري من مناسبة عيد الشباب وذكرى مولدكم الميمون وأردت أن أخالف فلا أتحدث عن الحسن الثاني الوطني الغيور أو الفدائي الفذ أو الزعيم المحنك أو الشاب المقتدر بل جعلت موضوعي عقدا مرصعاً بكتاب الله الذي قال فيه تبارك وتعالي : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ (الزمر 23) ووضعت من بين أصدافه نفحات عطرة من درر جدكم ﷺ، وكلي أمل أن أكون قد وفيت بعض الواجب وخلدت ما أشعر به من فرح في الذكرى، أحياكم الله وأحيا بكم وخلد في المكرمات الخالدات ذكركم وأدام عليكم نعمة الصحة والعز والسؤود وحفظكم في ولي عهدكم الأمير سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي الرشيد وكافة الأسرة الملكية الكريمة وأدام بوجودكم الهناء والتحرير والتوحيد والحرية لشعبكم وبلدكم، وكل عام وأنتم بخير.

الرباط : عبد القادر فهمي العلوي



مع الأستاذ سعيد أعراب في كتابه الجديد:

"مع أبي بكر بن العربي"

للدكتور عمر الجيدي

تلقيت بامتنان من أستاذي الجليل سيدي سعيد أعراب كتابه الجديد عن القاضي أبي بكر ابن العربي، وقبله كان قد أهدى إلي - حفظه الله - الأجزاء التي حققها من كتابي : (التمهيد) للحافظ ابن عبد البر، (وترتيب المدارك) للقاضي عياض...

وقد كنت عقدت العزم آنئذ على إبداء الشكر والتنويه بالجهد الكبير الذي يبذله أستاذنا في ميدان البحث في التراث، وما يتجشمه من عناء في سبيل إخراجه إلى القارئ العربي، وهو على أتم ما يكون من الدقة والتمحيص، سواء على مستوى الخطة، أم المنهج، أم التناول، ولكنني كنت دائما - كلما هممت - أتهيب الكتابة، فرجل مثل الأستاذ سعيد أعراب بأخلاقه العالية، وبمستواه العلمي الرفيع، يتهيب الكتابة عنه عالم جهبذ في مستواه، فكيف بمن هو مثلي : قلة في العلم، وضحالة في التفكير، غير أن الذي شجعني على رسم هذه الكلمات القصار، هو ما أعرفه في الرجل من سلامة في الطوية، وسماحة في الطبع، ونبل في الأخلاق، وان كنت أعرف سلفا أنه سينفعل عندما يقرأ هذه السطور، لأنه، وكما أعرفه، يؤثر البقاء بعيدا عن الأضواء، ويفضل أن يعمل في هدوء، وتلك صفة الفضلاء... إن ما يمتاز به أستاذنا سعيد أعراب من سجايا حميدة، يجعل المرء في حيرة من أمره، هل يقتحم الصعب، ويجازف بالقول، ويظهر الإعجاب ؟ أم يخفي ذلك في نفسه، ويلوذ بالصمت، تاركا الرجل وشأنه...

لقد جمع الله لهذا الرجل العلم والتواضع والتقوى والصلاح، وكره إليه التظاهر والتفاخر والرياء... ديونه على أن يشغل وقته بما ينفع ويفيد، منقطعا إلى العلم، متفرغا له، عاكفا عليه، أتاه الله من الصبر على البحث والقراءة، ما لم يوته إلا للقلائل أمثاله، يتحرى الدقة فيما يكتب، ويلتزم بالمنهج العلمي الصارم يطبقه في ميدان البحث تحقيقا وتأليفا، لا يمل من الكتابة، ولا يفتر عن القراءة، يبذل النصح لمن استنصحه، يشجع المترددين، ويوجه الحائرين، ويأخذ بأيدي المبتدئين، تزوره في بيته، فيعطيك من علمه وطعامه، ويفرح كلما شعر أنه أفاد مما أفاء الله عليه من علم، ويشعر بالرضا والسرور عندما يرى طلابه وعارفيه، قد أنجزوا عملا يفيد العلم، ويخدم البحث، ولقد غدا منزله في السنوات الأخيرة موئلا لطلاب العلم وعشاق المعرفة، يستقبل أفواجا ممن يهيئون أبحاثهم ورسائلهم، يسترشدون في ذلك برأيه وعلمه، ويستفيدون من خبرته وتجربته، ويستعينون بتوجيهاته ونصائحه، كل ذلك وهو منشرح الصدر، عريض الابتسامة، طلق المحيا، ما

علمت أنه تغير يوما في سلوكه وطبعه، على كثرة زيارتي له، الوجه الذي يقابلك به اليوم، هو الذي يقابلك به الغد، لا يبخل بشيء، ولا يستأثر لنفسه بعلم، ورجل بهذه الصفات وهذه المواقف، يجد المرء نفسه حتما في حرج، وهو يتحدث عنه، إنه أجل من أن يختصر في سطور ذات كلمات...

أنا لا أريد أن أدون سيرة هذا الطود الشامخ، فذاك شيء يبقى الآن فوق مطمحي، وأبعد من طاقتي، وفي العزم إن شاء الله أن أفعل مستقبلا، لأنني بحكم مخالطتي إياه، وأخذ العلم عنه، أزعم أن لي معرفة به، تخولني فعل ذلك، وحسبي هنا أن أبرز بعض الجهد الذي بذله في تحقيق التراث - وما يزال -، قبل أن أخلص إلى الحديث عن كتابه الجديد...

لقد حقق أستاذنا لحد كتابة هذه السطور - على ما أذكر - المصنفات الآتية :

1) ديوان أبي الربيع.

2) الجزء الرابع من أزهار الرياض بالاشتراك مع الأستاذ محمد بن تاويت.

3) الجزء الخامس من أزهار الرياض بالاشتراك مع الدكتور عبد السلام الهراس.

4) كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف للبادسي.

5) درر السمط في خبر السبط لابن الآبار بالاشتراك مع الدكتور عبد السلام الهراس.

6) الجزء 3 من المعيار للونشريسي.

7) الأجزاء : 2 + 7 + 14 من البيان والتحصيل لابن رشد وفهرسه بالاشتراك مع الدكتور محمد حجي.

8) الأجزاء : 6 + 7 + 8 من ترتيب المدارك للقاضي عياض.

9) الأجزاء : 4 + 5 + 6 + 9 + 10 + 12 + 13 + 14 + 15 + 16 + 18 + 19 + من التمهيد لابن عبد البر، والجزء 17 بالاشتراك مع الأستاذ محمد بوخبزة، ولا يزال يشتغل بما تبقى من هذه الموسوعة الحديثية الجليلة القدر.

10) الجزء الأول من أحكام القرآن (الصغرى) لأبي بكر ابن العربي... ويغلب على الظن أنه فاتني بعض ما حقق...

على أن أستاذنا أعراب لا يشغل وقته فقط بتحقيق التراث، بل يجمع إلى ذلك كثيرا من الاهتمامات، فبالإضافة إلى الإنتاج الضخم الذي نهض بتحقيقه، قام بإنجاز أبحاث جادة ونافعة نشر منها القليل في المجلات المتخصصة، ويحتفظ منها بالكثير... قلت له مرة وأنا بمنزله : هلا نشرتم ما تحتفظون به من أبحاث تتصل بتاريخ المغرب وحضارته ؟ فأجابني - والحسرة تملأ قلبه - يلزمني لذلك، بيع منزلي لتغطية مصاريف الطبع... ومع هذا الاهتمام المتعدد الجوانب، إلا أنه يوثر التعامل مع التراث أكثر، قال لي مرة : لن يرتاح لي بال حتى أرى كتابين قد نشرا وأخرجا للناس : التمهيد لابن عبد البر، والبيان والتحصيل لابن رشد، وها قد حقق الله رجاءه، واستجاب لرجائه...

«مع القاضي أبي بكر ابن العربي»

ابن العربي من العقول الكبيرة في الفكر المغربي، استطاع أن يجادل كبار العلماء، ويناقش أفكارهم وآراءهم، وينازل الفلاسفة وأتباع الملل والنحل، كما استطاع بما أوتي من علم وسعة اطلاع، أن يشهر ويضعف ويقبل ويرد، ويختار لنفسه، بل ويرق به قلمه إلى أئمة المذاهب يرد عليهم بقوة الحجة، وبما بان له من رجاحة الدليل، ومن يقرأ كتبه يراه فيها يصول ويجول، ويجهد الفحول، تسعفه في ذلك بلاغة أسلوبه، وسعة اطلاعه، وقوة عارضته، وتجره في كثير من مجالات العلم وجوانب المعرفة، فهو فقيه محدث مفسر أديب لغوي...

ومن ثم فهو جدير بأن يعرف به وبإنتاجه، وإبراز الجهد الذي بذله في سبيل خدمة العلم ونشره تدريسا وتأليفا، ولقد وفق شيخنا كل التوفيق إذ قام بهذه المهمة الجليلة، واختار هذه الشخصية الفذة موضوعا لكتابه... لقد سار أستاذنا أعراب في دراسته لشخصية ابن العربي سيرا موفقا فاختار منهجا دقيقا، وحلل بأسلوبه الرائع بعض الجوانب الغامضة في حياة ابن العربي، وألقى الكثير من

الأضواء على سيرته في مختلف أطوارها طفلا وشابا وكهلاً...

هيكلة الكتاب :

يقع كتاب «مع القاضي أبي بكر ابن العربي» في قسمين رئيسين : القسم الأول : خصصه للتعريف بالقاضي أبي بكر ابن العربي ويتضمن أربعة فصول تستغرق 180 صفحة، والقسم الثاني خصصه لتحقيق مختصر ترتيب الرحلة للترغيب في الملة، ويغطي 44 صفحة تحدث المؤلف في الفصل الأولى عن نشأة ابن العربي وحياته التعليمية فضبط نسبه وأصله، والأماكن التي نزلت بها الأسرة المعافرية مستندا في ذلك إلى أقوال المؤرخين الثقة، ثم تحدث عن نشأته وتعليمه، مصورا بدايته التعليمية على يد والده وجمع من شيوخ بلده، مستعرضا المؤلفات التي درسها في بلده، والشيوخ الذين كانوا يتولون تدريسها قبل أن يرحل إلى المشرق، موردا السبب الذي دفعه إلى الهجرة صحبة والده، والبلدان التي مرا بها، والتي أقاما فيها، وما صادفه خلال الرحلة من متاعب... وهكذا يذكر أنها بدءا رحلتها من إشبيلية إلى مالقة، ثم غرناطة فالمرية، ومنها إلى بجاية فبونة وسوسة والمهدية حتى وصلا إلى الأسكندرية فالقاهرة ومنها إلى القدس فدمشق فبغداد فالحجاز... وفي كل بلدة أقاما فيها كان ابن العربي (الابن) يأخذ عن الشيوخ، ويختلف إلى مجالس درسهم، وقد عدد منهم الكثير، واصفا طريقتهم في التدريس، سواء عندما كان في بلاد المغرب العربي، أم في المشرق وأفاض في الحديث عن مجالس الدرس في العراق بصفة خاصة، على اعتبار أن هذا البلد كان مقصده بالأساس من جهة، ولطول إقامته به من جهة ثانية، وتعدد المشايخ به، وتنوع ثقافتهم، وعلو درجتهم العلمية من جهة ثالثة، واستطرد بذكر الحكايات والمغربات التي صادفها، والمشاهد التي شاهدها أثناء الرحلة، ولم يقتصر المؤلف في حديثه على الجانب العلمي والثقافي، ولكنه أضاف إلى ذلك إبراز الجانب السياسي من الرحلة، واتصالات ابن العربي برجالات الدولة في الشام وبغداد، مشيرا إلى الرسائل والمراسيم التي حملوه إياها، والدعاية التي كان يقوم بها في سبيل توحيد الخلافة الإسلامية، والنتائج التي أسفرت عنها الرحلة...

ثم ينتقل إلى الفصل الثاني الذي عنونه بعودة ابن العربي ووظائفه، وفيه يتحدث عن رجوع ابن العربي من المشرق وتوليه بعض المناصب في الدولة المرابطية، واتصالاته برجالاتها خاصة زعيمها يوسف بن تاشفين الذي استقبل ابن العربي استقبالا يليق به كعالم فذ، وسفير موفق، فاختير لمنصب الشورى، ثم ولي بعد ذلك قضاء اشبيلية مسقط رأسه، وشارك في جهاد الصليبيين الذين بدأوا ـ إذذاك ـ يكتسحون أراضي الإسلام في عدة جهات من شرقي الأندلس، وأضحى الخطر الصليبي يتهدد الثغور إلا أن هذه الأمور ما كانت لتصرفه عن هدفه الأسمى وهو التدريس إذا التف حوله الطلبة من سائر جهات الأندلس، ياخذون عنه، ويستفيدون من علمه...

ويذكر المؤلف أن ابن العربي امتحن بنكبات نتيجة تشدده في أحكامه، والمعروف عن ابن العربي أنه كان متصلبا في مواقفه، صارماً في أحكامه، ومن مظاهر هذه الصرامة : أنه اتخذ له «شرطاً يتتبعون خطوات الشاربين، ويرقبون كل حركة أو بادرة من طرف السكارى والمخمورين»، كما كان يكسر آلات اللهو ويعاقب أصحابها عقوبات شنعاء، ويحلق شعر الغلمان ويعلنها عليهم حرباً شعواء، وابن العربي نفسه يعترف بذلك فهو يقول : «وكنت أيام الحكم بين الناس أضرب وأحلق، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً على المعصية، وطريقاً إلى التجمل به في الفساد، وهذا هو الواجب في كل طريق إلى المعصية».

وهذا في ميدان الأحكام، أما في غير ذلك، فقد كان رفيقاً بالضعفاء رحيماً بالأرامل والمساكين على نحو ما يحدثنا عن نفسه قائلاً : «وقد كنت في أعوام المجاعة أدعو الأغنياء والولاة إلى ذلك، فيأبون علي، لأن الله أبا عليهم أن يفلحوا، فكنت أرجع إلى تقدير الأغنياء والمساكين فآخذ من جملتهم قدرما يمكن أن يلزمني على التقسيط فأضمهم إلى نفسي، وأجعلهم من معارفي».

كما يذكر أيضاً «كنت بأيْلاَن في مجاعة سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة، وقد ضاقت الأرض برحبها على المساكين ومادت بعطفيْ شرقها وغربها على المحتاجين، فحشر إلينا زمر منهم وعمهم البلاد، وكنت بدار غربة في حال كربة، فرأيت أن الذي يلزمني واحد منهم، فأخذت اثنين، وكنت أقوتهم كل يوم رغيفين إلا أن تأتيني زائدة من فائدة، فيكون عليهم منها عائدة»...

ويشير المؤلف في هذا الفصل إلى بعض المشاريع والإصلاحات التي قام بها ابن العربي منها : بناء سور مدينة اشبيلية، الذي أنفق عليه من ماله الخاص، حتى إذا نفذ ماكان بيده، اغتنم فرصة عيد الأضحى فدعا الناس إلى التبرع بجلود أضحيتهم لإتمامه، وبسبب ذلك ثار الحسدة عليه، ودفعوا العامة إلى الشغب، وحرضوهم على التمرد والعصيان، وهاجموه في داره، ونهبوا كتبه وماله، وكادوا يفتكون به لولا تستره بحريمه، وهي من جملة النكبات التي أصابته (ص 87).

ويعزي ابن العربي موقف خصومه هذا إلى نفورهم من الحق، وعدم الخضوع لأحكام الشرع لا إلى ما ألزمهم به من النائبة، وتراه في ذلك يقول : ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على أهل الفسق الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا إليّ فاستسلمت لأمر الله، وأمرت كل من حولي أن لايدفعوا عن داري، وخرجت إلى السطوح بنفسي فثاروا علي، ولولا ما سبق من حسن المقدار، لكنت قتيل الدار».

ويظهر أن صلابته في تطبيق الأحكام هي التي عجلت بانصرافه عن القضاء بحيث لم يمض فيها إلا سنة وبضعة أشهر، وإن كان الدكتور حسين مؤنس يذكر أن الموحدين عزلوه لما أغضبهم بجوابه عن أخذ المهدي ابن تومرت عن الغزالي (انظر شيوخ العصر في الأندلس ص 88).

بعد هذا ينتقل المؤلف إلى الفصل الثالث الذي يخصصه لذكر تلاميذه وأسرته ووفاته، ففيما يتصل بتلاميذه، استعرض منهم مائة وواحداً وعشرين تلميذاً، كما تطرق إلى الحديث عن شهرة ابن العربي العلمية وموقف خصومه منه، والحديث عن أسرته وحفدته، ومكان وفاته.. وينتقل بعد هذا إلى الفصل الرابع والأخير، ليخصصه لإنتاج ابن العربي العلمي فيستعرض من مؤلفاته اثنين وتسعين مؤلفاً في مختلف مجالات المعرفة : فقهاً ولغة وتفسيراً وحديثاً وأصولاً وأدباً، ولم يكتف فقط بسرد هذه المؤلفات، وإنما وقف طويلاً عند بعضها يحللها تحليلاً علمياً بقصد تقريبها إلى ذاكرة القارئ، موضحاً المنهج الذي سار عليه في تآليفه وقيمتها العلمية...

ثم يختم الدراسة بفهارس للموضوعات والأعلام والكتب والقبائل والشعوب والطوائف والبلدان والأماكن ومصادر التحقيق...

وأخيراً، فإن على قدر الكاتب يأتي الكتاب، وبما أن أستاذنا متمكن من علمه، لغة وأسلوباً وقواعد، فلا ننتظر مما كتب إلا أن يكون في الذروة والسنام، وجزى الله شيخنا على الجهد الذي يبذله خدمة للعلم ويديم النفع به.

بقيت الإشارة إلى أن الكتاب طبع في دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ومعظم فصوله سبق نشرها في مجلة دعوة الحق الغراء.

الرباط : عمر الجيدي

تاسع يوليوز
الشباب
طاقة خلاقة.. وتجدد مستمر

للأستاذ علال البوزيدي

«لنجعل شبابنا يساهم في بناء البحيرات التلية ونجنده ليعمل لبلده ويرتبط بأرضه».

من أقوال جلالة الملك

قبل أن أكتب هذه الكلمات بدأت لي عدة أفكار وجال فكري في مجالات عدة لها علاقة بالقلب النابض للأمم والشعوب والمحرك الأساس في بناء الأوطان ومعاول النهوض والنماء وضمانة الاستقرار والاستمرار «الجيل الجديد»، كما راجعت ذاكرتي إسهامات عدة سبق أن أسهمت بها في دنيا الشباب بحكم اهتماماتي بالكتابة حول قضاياه ومشكلاته المختلفة، غير أن المناسبة تختلف والظروف غير الظروف، ذلك أن الحديث عن الشباب من خلال عيده الوطني مسألة تقتضي تعميق البحث وتدقيق الدراسة وتوضيح الرؤيا، خاصة وأن شباب اليوم أصبح على بينة من حقيقة أمره وجلية من واقعه ووضعه ومكانته في الأسرة والمجتمع، كما أن مسايرته لما يحيط به ويتربصه من تيارات ومذاهب ومغريات تقحمه أحيانا في مزالق وإشكاليات يصعب عليه انتشال نفسه منها، بالفعل أنها حالة تقتضي الاحتكاك بهذا الشباب لقراءة ما يروج في فكره وما يشغل باله في هذا العصر الذي أصبحت المعلومات تسبق الإنسان مهما كانت له من إمكانيات، فإذا كانت للشباب فعاليات وطاقات خلاقة تبعث فيه روح التجدد والحيوية والنشاط كما قال في حقه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره في خطابه بمناسبة ذكرى عيد الشباب المجيد بتاريخ 8 يوليوز 1986 :

«ذلك أنه من مميزات الشباب التجدد المستمر، وفعلا أظهرت لي ولنفسك ولأصدقائك وأحبائك وللعالم بأسره أنك شعب قادر على أن تجدد نفسك كلما طلب منك التجدد، وأنك قادر على أن تجند نفسك كل ما دعيت إلى التجنيد وأنك قادر على أن تصمد كلما دعيت إلى الصمود وأنك قبل كل شيء قادر على أن تختزن الآمال والأماني كلما طلبت الضروة ذلك».

في ضوء هذه الدرر الحكيمة عصارة فكر صائب وعقل مدبر يقدر الأمور حق قدرها ويعطي للأشياء حجمها الحقيقي.

وبالفعل فإن همم الشباب تتألق بما أوتيت من قوة الإرادة والعزم والطموح والتطلع نحو الارتقاء وتشوق إلى التجدد المستمر.

ففي الشباب تتجسد القيم بكل معانيها، بل فهو ينعكس على القيم بقدر ما تنعكس عليه، وعبر أطوار التاريخ عرف الشباب باقتحامه للمصاعب إذ «فكل صعب

على الشباب يهون» كما أن الوقائع التاريخية تفيد بأن الإسلام أول عهده كان حكرة شباب، حيث إن الطلائع الأولى من جيش المسلمين كان معظمها من الشباب.

وبدون أن نعتمد في هذا الحديث على الروايات والمواقف والوقائع التاريخية فإن لنا في عصرنا الحديث ما يرشدنا إلى المكانة الهامة التي يحتلها الشاب في الاهتمامات القيادية والبرامج والمخططات الاقتصادية والاجتماعية والمناهج التربوية والتعليمية. وفي هذه الوثيرة، أسوق فقرة من خطاب سامي لصاحب الجلالة بتاريخ 10 اكتوبر 1986 قال فيها :

«يجب أن نكون متحلين بالشجاعة وأن نبني المستقبل لا هدف لنا إلا آن يكون المغربي أو المغربية عملة يتعامل بها في السوق العلمية والتقنية العالمية».

وفي هذا التوجيه الحكيم تبرز أهمية الشباب والآمال الكبيرة المعلقة عليه في بناء الوطني وترسيخ أمجاد البلاد وتأطير المؤسسات والمرافق وحماية المكتسبات، كما يتضح بأنه على عاتق الشباب مسؤولية كبيرة وأمانة عظمى عليه أن يعي جيدا قيمة المسؤولية وثقل الأمانة، ولا يتأتى له ذلك بطبيعة الحال إلا باستيعابه لأسس التربية الإسلامية الصحيحة التي لاتستقيم الحياة إلا في ظلها. تلك الحياة السليمة التي تهيمن عليها نفحات الإيمان والتي لا تشوبها شوائب القلق والتوتر والانفعال لا لأتفه الأسباب، ومعالم هذه التربية تشير إليها التوجيهات القيادية الرشيدة لجلالة الملك الحسن الثاني في مجال إعداد وتكوين ورعاية وتربية الشباب ونقتطف منها الفقرة التالية :

«حافظ على كرامتك شعبي العزيز وعلى حريتك وعلى اطمئنان ضيرك من ناحية دينك ومعتقداتك واعلم أن مذهبك وسنة نبيك ﷺ ودين ربك كل هذا يكون لك إطارا وثيرا عش فيه وتربع عليه ولا تخف في ظله من أي شيء كان لأن من تشبث بحبل الله نصره الله وأعانه».

هكذا ينبغي للشباب أن يدرك بتعميق الاستيعاب وبالاستقرار والاستنتاج لحقائق التوجيه السليم المستمد خصوصياته ومناهجه من الفكر الملهم أسباب اليقين وعناصر الاقتناع لمواجهة كل التحديات وإزاحة العراقل والمصاعب التي تقف في طريقه وتحول بينه وبين تحقيق أهدافه في الحياة الخاصة والعامة ولا يتسنى له ذلك إلا بالتسلح بالمعرفة والتحلي بالأخلاق والفضائل.

والالتزام بالاستقامة والسير في المحجة البيضاء. مستنيرا في تصرفاته وسلوكه بالأدب النبوي الذي يرسم السبل التربوية المتكاملة وتجسد الأسلوب المثالي في حسن المعاملة والصدق وحب الخير وشباب تكون هذه صفاته لا يرى في ديناه إلا كل خير.

وكما جاء في الآية : ﴿**إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً**﴾. لايمكن أن ترهبه أو تخيفه عناصر الشر وخلفيات الباطل. ولابد للشباب من البذل والتضحية. إذا فالحياة ليست كلها سهلة بسيطة، بل هي كما قالوا عنها : **تعب كلها الحياة» والحياة عقيدة وجهاد.**

وللشباب الإسوة الحسنة والمثل الحي في ماضيه المجيد وفي حاضره السعيد ومرة أخرى يطيب لي أن اقتطف ذرة من الذرر الغالية لصاحب الجلالة قال فيها :

إنني فخور بعيد ميلادي لأنه كان في الإمكان أن أزداد في حقبة أخرى من الزمن سعيد لأنه كان في الإمكان ألا أعيش هذه الظروف أو هذه الحقب من الملامح، سعيد لأنه لو تقدمت أو تأخرت ما شاهدت ما شاهدته ولما شاركت فيما شاركت فيه، ولما أعطيت من نفسي وجهودي وشبابي وقوتي ما أعطيت وما بذلت فخور بأن ولدت في المغرب وأن أكون فردا من الأسرة الكبرى الأسرة المغربية.

بهذه الروح الوطنية ينبغي أن يتحلى الشباب وبها يستطيع ولا ريب أن يتغلب على كل المعوقات والشدائد وبهذه الروح بالتالي يمكن للشباب أن يثبت للتاريخ هويته الحقيقية ويحافظ على أصالته ويتمسك بعقيدته ويكسب الرهان ويمارس دوره الحقيقي في دينا التحدي.

وإذا كان الحديث عن الشباب ذو شجون كما يبدو

لكل من يحاور الخواطر والأفكار في دنيا الشباب، فإنني أرى بأن في بعض الكتابات والتحاليل تحاملا أحيانا على القلب النابض للأمم والتظلم في حقه واتهامه بالتمرد والعقوق إلى غير ذلك من الاتهامات التي لا تليق بالقيادات المستقبلية بل قد تم بعض الكتابات الهادفة لمعالجة قضايا الشباب عن المبالغةفي سرد وقائع وحوادث تمارس في المغرب وخارج إطار التربية الإسلامية.

المعروف عن الشباب حب التجدد والتغيير والتصحيح والإصلاح والهيام والعشق للحرية والديموقراطية ففي هذا المناخ تتفجر مواهبه وتتنوع عطاءاته وإبداعاته. وهذا المناخ يتوفر للشباب في ظل الملكية الدستورية وخير ما نستدل به على ذلك قوله لصاحب الجلالة جاءت في خطاب سامي لجلالته بتاريخ 10 أكتوبر 1986.

فالمغرب دينه الإسلام ولغته العربية كما هو منصوص عليه في الدستور فعلينا إذن أن ننطلق من هذين المنطلقين حتى نحافظ على أصالتنا وحتى نبقى متشبثين بديننا.

ولما أصبح الشباب يتمتع به من وعي بأهمية الحياة الديموقراطية فإن ذلك ساعده على الاندماج في المجتمع بشكل إيجابي حيث تعددية الجمعيات والحركات والمنظمات الشبابية التي تشبع المتتبعين والمنتمين بما هم في حاجة إليه من الأنشطة الرياضية والثقافية والفنية ويواكب هذا التنشيط الالتزام بكل مفيد نافع وفي هذا الإطار من التوجهات المستقبلية تتبلور أنشطة الشباب المختلفة ومن هذه المنطلقات جاء التصور الديموقراطي ووضع الاختيارات الملائمة والمتجاوبة مع طموحات الشباب ولنستدل على ذلك بقولة لصاحب الجلالة في إحدى خطبه السامة بتاريخ 1986/6/27.

تصورنا للديموقراطية على أنها في المقام الأول سلوك خلقي ينبني على الغيرة الوطنية والفضيلة.

وإذا كانت أساليب تربية وإعداد الشباب على أساس هذه المبادىء فإن الاختيارات ستحقق ولا شك ما تستهدفه من غايات سامية وآمال وأماني كبيرة تعود على البلاد والعباد بالخير العميم.

ذلك أن الذي يتوفر على شباب سليم الطوية والهوية يقدر كل موقف قدره ويعطي لكل مقام مقاله شباب من هذا النوع لا تنال منه انحرافات العصر وأمراضه الشائعة ولا يمكن أن تزج به المراكب في طريق الزلل. بل الشباب الذي يعتمد عليه عصامي صبور في مواجهة المعوقات والأزمات كما كان شباب الوسط مثالا للصمود والتضحية في الأزمة الوطنية أيام الكفاح من أجل الاستقلال. ذلك الشباب الذي دوخ الاستعمار وقظ مضجع الإقامة العامة الفرنسية وكان في طليعته الشاب الأول الحسن الثاني الذي رافق والده محرر المغرب في مسيرة التحرير وعاش معه أيام المنفى السحيق.

هذه الأفكار ارتسمت في ذهني وسقتها ربما بكيفية عفوية لم يكن بإمكاني الخوض في تحليل مواقف الشباب من الجيل الجديد ولم أقف طويلا عند مواقف الشباب من الجيل الوسط وهي كثيرة جدا ورائعة لكونها ذكريات ذات طابع تاريخي ولعل في الآتي من الزمن فرصة تجود علينا بالكتابة مرة أخرى في هذا الموضوع وتمنحنا وقتا لنبش حقيقة من الحقائق وموقف من المواقف له علاقة بالشباب وإلى ذلك الحين أقول للشباب كل عيد وأنت بخير.

سلا : علال البوزيدي

الشباب والتطور

للأستاذ محمد بخات

كم كان حكيما وصائبا الإمام علي كرم الله وجهه حينما قال : «**علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم**» وفي رواية ثانية «**أدبوا أبناءكم**»[1]. فكأنه رضي الله عنه بفكره الثاقب يعني شباب عصرنا الحاضر ليتسلحوا بسلاح العلم والأدب الإسلامي الرفيع، والعلم كلمة مطلقة، هذه الوصية الخالدة منه كانت حتى يستطيع الأبناء مواصلة مسيرتهم في فترة شبابهم في أمن وأمان، فالعلم الصحيح بواسطته يمكن للشباب أن يواكب التطور ويميز بين تطور معقول وتطور ممسوخ فلا ينبهر ولا ينخدع بقشور الحضارة أو بهرج التكنولوجيا، وبذلك يتيقن بأن الحضارة إن لم تكن سموا للإنسان وحفاظا على قيمة الإنسان وخدمة لوجوده وتحقيقا لسعادته فليست بحضارة وإنما هي تقدمية إلى الخلف. إن الذي يجب أن تزرعه في أعماق صغارنا شباب الغد أن العلم مع الأدب بمثابة الرأس من الجسد بالنسبة للإنسان فلابد منهما للبشر مع المراقبة، قوت القلوب التي تعتبر من معالم الطريق والدليل إلى الهدف الشريف فهي أمل للمؤمن وبها تتحقق روعة الإيمان فيعيش الإنسان على هدى وبصيرة في واقع الناس. وعلى هذا الأساس فلا يليق بالآباء أن يعتقدوا بأن هذا الزمان هو زمن الشباب فليفعل فيه بحرية ما شاء ولينغمس في ماديته كما شاء أو «أن الدين لا يتناسب مع زمان التقنيات المتطورة والمذهلة فهذا تصور خاطئ وفهم لا يليق بأولياء أمور الأبناء لأن حضارة الغرب لاقيمة لها إذا لم يصاحبها دين وتدوين لأهلها لأن المادة بلا روح كالنار المشتعلة بين يدي الريح فهي وأن أضاءت ما حولها لا يؤمن حريقها ولا تدميرها كل شيء ما لم تكن محاطة بسور حصين يمنعها من إحراق ما حولها، والدين هو ذلك السور المنيع والقوي المتين.

ولا ينكر أحد ما للعلم من منافع كثيرة في شؤون الحياة جميعها ولكن هذه المنافع تكون أشد وأكثر نفعا للبشر لو صحب العلم الإيمان لأن ثمرة الإيمان حسن الخلق وهو غاية مايتطلب المجتمع الإنساني كما قال الأستاذ خلف محمد الحسيني، وهذا ما أشار إليه شوقي رحمه الله إذ قال»[2] :

رأيت العلم لا يبني رجــــالا

ولا يغني عن الأخلاق شيئـــــا

انطلاقا من هذا الإدراك الواعي لأبعاد التطور ومفهوم الحضارة كما ينبغي يتحتم على الآباء والأمهات أن يكونوا في مستوى تربية أولادهم وأن يعرفوا قيمة وضرورة المراقبة بالنسبة لأولادهم ليعيشوا بها كخلق يلازمهم طيلة حياتهم لما فيها من حصانة ووقاية لهم من الانحراف أو الانجراف عبر التيار الفاسد، فهي كالأضواء الكاشفة في حياة الناس

1) يوجد من يعتبره حديثا نبويا ولكن الثابت أنه من قول الإمام علي.

2) عن كتاب «البيان في منهاج الإسلام» لخلف محمد الحسيني من 112 بتصرف.

تجعل المرء يفرق بين الحق والباطل ويهتدي لمعرفة الخطأ من الصواب، ولهذا كان السلف الصالح يحرصون على تنشئة ملكة المراقبة في نفوس أولادهم منذ نعومة أظفارهم فقد جاء عن أبي القاسم الجنيد «**إنه أراد أن يختبر تلاميذه في مراقبة الله عز وجل فقال لهم غدا سنقوم برحلة خلوية إلى الصحراء، وعلى كل منكم أن يأخذ من أبويه فرخا وأن يذبحه في مكان لايراه فيه أحد، وأن يأتي به لنقوم بإعداده وإنضاجه، ثم ناكل سويا، فغابوا وجاءوا في اليوم التالي وكل قد ذبح فرخه إلا تلميذا واحدا جاء بفرخه حيا دون أن يذبحه، فسأله الشيخ لماذا لم تنفذ وصيتي ؟ فأجابه لقد شرطت علينا أن نذبح الفرخ في مكان لا يرانا فيه أحد وعندما حاولت التنفيذ وجدت هذا الأحد معي وإذا ذهبت إلى الفلاة وجدت هذا الأحد معي فسأله شيخه من هذا الأحد ؟ فأجابه : الله. فعانقه المربي وقال له : أنت ابني حقا**»[3].

إن مثل هذا النموذج من الجيل الصالح يمكن أن يتكرر في عالم الواقع إذا وجد الأب الواعي والمربي الناجح في بيئة الطفل، وما المراقبة إلا نتيجة من نتائج الرعاية الخاصة للطفل والمتابعة المستمرة من ولي الأمر لابنه وهي متابعة يجب أن تتحقق أساسا من الأسرة لأنها مسؤولة مسؤولية كاملة عن متابعة أبنائها باعتبار أن المنزل هو الأساس والأسرة هي نقطة الانطلاق، والمجتمع مكمل لهما والحياة هي الأمل.

إن النشاط الزائد للصغير يجب أن يكون نافعا ويستغل لصالحه بالتقويم والتوجيه ولقد اندهشت كثيرا عندما علمت بدراسة أمريكية ميدانية عن النشاط الزائد عند الأولاد والتي تقول بأن له نتائج إيجابية في مستقبل حياتهم إذا أحسن توجيههم مع استغلال نشاطهم لفعل كل عمل صالح.

يقول في هذا الصدد الدكتور «**سلفادو ماتوزا**» عالم النفس في معهد الطب النفسي بولاية نيويورك الذي ساعد في إجراء الدراسة «**إن الاعتقاد الشائع بين الخبراء والمربين هو أن الصبيان ذوي النشاط المفرط سيكونون أقل نجاحا من الصبيان الآخرين في المستقبل، والمتوقع في كثير من الأحيان أن يفشل هؤلاء في حياتهم الدراسية وأن ينتهي بهم الأمر إلى شغل وظائف لا مستقبل لها وأن يكونوا من مثيري المتاعب بل من المجرمين**»[4]، وأضاف قائلا : «**إن نصف مجموعة تتألف من مائة صبي وصبية تعرضوا للتشخيص لأنهم أصحاب نشاط مفرط عندما كانوا بين سن السادسة والثانية عشرة، وقد انقلبوا عاديين تماما عندما وصلوا إلى سن المراهقة بداية الشباب حتى إنه لم يكن في الإمكان تفريقهم أو تمييزهم عن مجموعة للمقارنة لم يكن أفرادها من ذوي النشاط المفرط**»[5].

وقد خرجت الدراسة بنتيجة وهي أن الصبيان أصحاب النشاط المفرط فازوا عندما كبروا بعدد أكبر من الجوائز الأكاديمية ونجحوا في دراساتهم كالطلاب الآخرين.

وكان سبب اندهاشي أن الرسول الكريم صلوات الله عليه سبق أن نبه إلى هذا النشاط الزائد للطفل وكأنه يبشر الأب بألا يتشاءم بأحد أولاده وألا ييأس من صلاحه ورجوعه إلى جادة الصواب إذا رآه عنيدا شرسا أو مشاكسا فقد يتحول كل هذا النشاط فيه إذا أحسنا تربيته إلى أخلاق فاضلة كالشجاعة والثبات وقوة الإرادة وكبر العقل والشم والطموح والنجاح الكبير في دراسته، وقد جاء توجيه الرسول المربي في هذا الشأن في حديث أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول «**عُرام الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره**»[6]، صدق رسول الله ﷺ.

---

3) عن كتاب «توجيهات نبوية على الطريق» للدكتور سيد محمد نوح، ج أول ص 20 ـ 21.

4) عن جريدة عمان، العدد 2459 بتاريخ 21 جمادى الآخرة 1408 موافق 9 فبراير 1988.

5) نفس المرجع.

6) كتاب «الخلق الكامل» لمحمد جاد المولى، ج 3 طبعة أولى لسنة 1936 صفحة 187 بتصرف.

دُعَاء

... فاحفظ اللهم الآصرة الواصلة بيني وبين شعبي قوية لا تنحل ولا تنفصل، وسدد خطاي وأيد مسعاي فيما أبتغيه لشعبي، واكتب لي ولشعبي توفيقاً منك يهديني ويهدي شعبي إلى الأعمال والأقوال المقبولة لديك، المحفوفة برضاك، المنصورة بتعزيزك، المستنيرة بنورك، وأدم اللهم علي وعلى شعبي الاعتصام بكتابك المبين، وسنة رسولك ونبيك الأمين، وثبت الإيمان في قلوبنا وقلوب المسلمين، ولا تحرمنا جميعاً من فضل الخشية ونعمة التقوى، فقد قلت وقولك الحق:

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ » صدق الله العظيم.

وإلى الله نتضرع أن يقي بلادنا كل سوء ومكروه، ويعصمها من كل ضير وشر. وإليه سبحانه نتضرع كذلك، أن يديم علينا نعمة التوفق والائتلاف، ويبقي الآصرة الموشجة بيننا وثيقة العرى لا تنحل ولا تنفصم، ويحفظ ديننا الذي هو حصننا الحصين، وملاذنا الركين؛ ويمكن في قلوبنا الاستمساك بكتاب الله العزيز، وسنة نبيه الغراء، فما ضل من استمسك بهما، ولا تاه من استنار بنورهما وسار على هديهما.

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » صدق الله العظيم.

الحسن الثاني

Kâdissia, en Irak, à propos de la circonspection raisonnée, de la vigilance soutenue, du facteur de mouvement, repos hébdomadaire, équipement adéquat de l'armée en chevaux et munitions et développement de pionniers chargés d'épier l'ennemi, et de fournir à l'état-major des renseignements précis sur le mouvement des troupes adverses ; une tactique agissante et ferme, pour assurer la sécurité, prévenir toute manœuvre de surprise et déployer, en temps voulu, des forces minimes d'action, dans le but d'asseoir la sûreté, de divertir ou détourner l'attention de l'ennemi ou repousser une attaque inprévue. Ce sont là les principes directeurs de la « petite tactique » et de « l'économie des efforts » qu'Omar appliquait minutieusement, tout en prévoyant le déploiement de garnisons permanentes, constamment renouvelées.

Les hautes directives du Khakife, commandant suprême des armées sont strictement observées. Les chefs récalcitrants sont immédiatement limogés. Omar entendait par démarches tactiques les grandes lignes d'actions, élaborées par les divers commandants, dans un secteur de mouvement donné, en vue de diriger des combats de ce secteur, quitte à les développer sur tout un front(3). Les champs d'action comportaient, du vivant d'Omar, les secteurs régionaux d'Irak, ech-Châm (grande Syrie), Perse et Egypte, avec dans chaque secteur des points de fronts divers. Chaque zone de combat avait son commandant en chef, comme Saad en Irak. Omar participait à l'élaboration de toute tactique, dans son cadre général. Quant à la méthodologie stratégique dite Sawqiah سوقية, elle était établie sous l'égide directe, dans le quartier général du Khakife chef d'Etat-major à Médine.

Le planning stratégique comportait des vues et directives précises sur les grands mouvements de troupes, les modalités d'exécution des ordres supérieurs, l'équipement général des armées pour mieux soutenir l'effort de guerre, le choix des responsables dans chaque secteur de bataille, le tout à partir d'une étude serrée et minutieuse des plans du terrain et des diverses éventualités dont la responsabilité d'affrontement est laissée à chaque commandant.

Ce grand processus visait l'équilibre et le plein emploi de toutes les énergies des armées islamiques. L'analyse critique des méthodes de guerre omariennes décèle le secret des victoires remportées par Omar, sur les deux grandes Puissances de l'époque, La Perse et Byzance.

Mais le véritable atout de ces victoires résidait moins dans la force de la machine de guerre dont disposait l'armée islamique, que dans la rectitude des croyants, la cosolidarité agissante de la cmmunauté tout entière, la symbiose initiatrice entre administrants et administrés, et enfin, le dévouement exemplaire du Khalife, à la fois émir des croyants et chef suprême de l'armée qui agit comme premier citoyen, serviteur de la Oumma (communauté).

(3) Chît Khattab p. 85.

nité succéda un affrontement franc et courageux. Le fameux compagnon du Prophète Ibn Messaoud, dépeignant l'Ethique omarienne agissante, dit : « L'Islam d'Omar fut une victoire, son émigration (à Médine) un succès, son émirat une marque de clémence ».

« Dieu a insufflé à la langue et à la conscience d'Omar, l'expression du vrai » (hadith du Prophète).

A cette finesse morale, à cette sagacité pénétrante, Omar joignait une capacité physique, à toute épreuve. Son ascétisme incomparable n'était guère en contradiction avec sa virilité, son sens sportif, ses élans d'homme courageux et gymnaste qui se taillait, en véritable compétition, depuis l'époque antéislamique, avec les grands ahtlètes en yoga, course ou hippisme.

Son tempérament combatif trouvait sa relance dans la recherche du vrai et de l'équité. Il s'humiliait devant l'innocence, la pauvreté et l'impuisance. D'un caractère musclé, mais souple, il exigeait de son peuple, d'être toujours à la hauteur de sa virilité ; c'est-à-dire de sa dignité en tant qu'homme. Le citoyen ne doit céder en rien à l'excentricité, dans les deux extrêmes. On lui a présenté, un jour, un croyant obèse, avec un embonpoint excessif. « Qu'est-ce demanda-t-il ? » « C'est une bénédiction de Dieu » (lui répondirent-ils) – « Non ! répliqua-t-il, c'est un châtiment ».

Ces adages omariens sont devenus les leitmotiv de toutes les couches de la communauté musulmane. Nous voudrions en esquisser une fresque vivante qui suffirait, à elle seule, à dépeindre l'éthique islamique par excellence où le cultuel humain s'allie harmonieusement au rationnel et au spirituel.

Sâlim, petit fils d'Omar raconte avoir vu son grand-père, passer ses main sur une chamelle domaniale malade et dire : « Je crains fort d'être responsable de ce qui t'advient ». On l'a vu, un jour, frappant un chamelier, qui avait trop surchargé sa monture. Un autre jour, il vida à des animaux affamés, la sacoche regorgeant de nourriture d'un mendiant qui ne cessait de quémander.

Une autre anecdote démontrait l'immédiate intervention d'Omar, à l'encontre de ses préfets, dans les provinces lointaines, telle l'Egypte. Là, le fils de l'Emir 'Amr Ibn Al-'Ass, se prévala un jour de sa noble filiation contre un citoyen, en s'adjugeant un coursier gagnant qui n'était pas sien, et en osant, de surcroît, soumettre son pauvre adversaire à la bastonnade. Avisé, le Khalife réagit vivement contre le jeune dévoyé qui s'est vanté de sa haute noblesse, en ordonnant, à son encontre un mandat d'amener jusqu'à Médine, en compagnie de son illustre père, pour le châtier. Le fils des nobles reçut les mêmes coups des mains de sa victime. Ce fut l'occasion, pour le Commandeur des croyants, de lancer son célèbre adage :

« Depuis quand osera-t-on asservir des hommes nés libres ! ? ».

« Omar – affirme Anas Ibn Mâlik – portait des habits rapiécés au cours de son mandat d'émirat ».

En temps de guerre, Omar s'est avéré un chef averti et chevronné : il préconisait trois principes, dans le cadre d'un rassemblement plein et entier des énergies, ceux de la sécurité et de la souplesse[2], le même nom fut donné, après la 2e guerre mondiale à la capacité d'action, c'est-à-dire le pouvoir d'agir avec célérité. Le 3e principe, est la nécessité de maintenir un moral élevé, parmi les combattants, ce qui selon Omar – ne pouvait se réaliser que grâce à l'ardeur d'une foi qui, chez le vrai croyant, serait à même de secouer les montagnes. Ce sont là les axiomes de base, étayés par des prémisses recommandées à Saad Ibn Abi Waqqass commandant de l'armée dans la bataille de

(2) D'après notre cher ami le général irakien Mahmoud Chit Khettab, dans son célèbre ouvrage sur le Khalife Omar, qu'il a bien voulu nous offrir (1re édition 1985 p. 80).

blème débattu devenait clair, nulle hésitation n'était permise, car un responsable qui hésite outre-mesure n'est guère moins fautif qu'un opiniâtre aventurier. Maints échecs sont fatalement provoqués ou par suite de décisions fallacieuses ou intempestives. Le Khalife se souciait des petits détails afférant à la dignité et à l'honneur de ses sujets, à plus forte raison leurs droits ou intérêts légitimes. L'Islam consistait d'après Omar – dans le respect de l'intérêt général qui est l'ensemble des intérêts particuliers. Le cultuel venait en second rang pour un responsable qui doit veiller sur son peuple, en scrutant les moindres coins et recoins de la vie communautaire. Quand Omar envoyait ses hommes en expédition, il les remplaçait personnellement dans la gérance des affaires de leurs familles. Des exploits sans pair sont relatés en l'occurrence. Les droits de l'homme tels qu'ils sont conçus aujourd'hui, dans le concert international, en sont une miniature aux reflets contradictoires.

La protection des animaux et de toute faune en général, entrait dans les préoccupations du Khalife qui aspirait à l'édification d'un royaume où tous les règnes trouvaient leurs comptes. Le standard de vie d'un homme d'autorité ne doit trancher en rien sur celui de ses administrés; Omar répétait sans cesse un adage qu'il cherchait constamment à pratiquer: « Un citoyen n'est intègre que si ses administrants le sont aussi. ».

D'où une série de maximes et sentences qui constituèrent, tout le long du mandat d'Omar, un leitmotiv impératif:

« Celui qui embauche un employé ou désigne un fonctionnaire pour raison d'amitié ou de parenté, trahit Dieu, son Messager et les croyants ».

« Qui affecte un dévoyé à un poste, sachant bien son excentricité lui ressemble ».

« Dans le cas où un préfet, parmi mes hauts fonctionnaires porterait atteinte à un de mes sujets, sans réaction de ma part, pour y pallier, j'en assume personnellement la responsabilité ».

« L'administration est une épreuve, pour administrants et administrés à la fois: elle ne saurait réussir sans une douce fermeté, dégagée de tout arbitraire ou faiblesse ».

« Si je charge un agent intègre d'une quelconque mission, sans en contrôler les moindres gestes, ma supervision sera vaine et sans objet ».

« Dans tous les cas, un responsable doit étayer ses constatations par une vive perspicacité ».

Les initiatives du Khalife Omar tendaient à réformer tous les aspects de la vie de toute la communauté qu'il régissait. Il fut le premier à avoir assaini l'économie nationale, établi la Caisse de l'Etat (Beit al-male), institué des organismes étatiques, le cadastre des campagnes et les fondations de bienfaisance. Pour superviser tout ce processus créateur, Omar édifia un système de contrôle judiciaire concrétisé par des cadis, dans les coins les plus lointains de l'Empire.

Tout le long de la route, entre la Mekke et Médine, des centres d'accueil étaient érigés, doublés d'un « dépôt de grains » où tout nécessiteux trouve son compte.

La circonspection était le caractère dominant chez le Kahlife Omar, car un vrai responsable, digne de sa mission, ne saurait se fier aux autres, en toutes circonstances, sans défaillir. Ainsi Omar était trop sagace, son jugement trop pénétrant, pour être induit en erreur. Il se maîtrisait, dans un autocontrôle constant, tendant à se réformer et se perfectionner. Il avait regreté, à la fin de sa vie, par suite d'une série de dures retouches à ses faits et gestes, quelques défaillances. Il aurait voulu entre autres, puiser dans le superflu des riches, pour doter les pauvres[1].

L'adoption de l'Islam par Omar, du vivant du Prophète, marqua une ère nouvelle dans l'avènement de la mission mohammédienne. A une pénible clandesti-

(1) Al Mohalla d'Ibn Hazm T. 6 p. 158.

Héros de l'Islam

Le Khalife Omar Ibn el Khattâb*

Abdelaziz Benabdellah
membre de l'Accadémie du Royaume du Maroc et des Académies Arabes

L'Islam, sa civilisation et sa culture

Nous avons le plaisir d'élaborer, dans cette rubrique en langue française, des études sur l'Islam, son processus civilisationnel et les divers aspects de l'évolution socio-culturelle du monde Islamique, dont le Grand Maghreb.

Tout système de gouvernement doit avoir pour infrastructure – d'après Omar – la consultation. Le Khalife ou commandeur des croyants se fit alors entourer par l'élite des grands compagnons du Prophète qu'il dégageait sciemment de toute responsabilité administrative dans les préfectures. Le pélerinage, congrès annuel qui réunissait à la Mekke, toutes les autorités régionales, était une occasion pour réviser et contrôler les actes et faits des Wâli, à partir des rapports élaborés par des envoyés dignes de foi qui pérégrinaient dans tout l'Empire. L'ensemble est confronté avec les réclamations et plaintes que les intéressés présentaient directement au Khalife. Une telle confrontation, marquée de haute tenue, était libre et avait pour but essentiel l'assainissement des rapports entre administrateurs et administrés. Les incursions d'ordre militaire ainsi que les grandes décisions prises à l'échelle nationale sont aussi les thèmes fondamentaux de ce symposium. Dans les cas graves, l'émir (= commandeur) se proposait toujours de se porter lui-même sur le terrain, si lointain fut-il, pour éclaircir les situations et décréter en profonde connaissance de causes. Dans ce contexte, il consultait aussi bien ses sympathisants que ses adversaires, du moment que la découverte de la vérité était la seule fin. Cet esprit intégral de militance dans la recherche du vrai est la caution concrète et rationnelle d'un succès adéquat.

Pour mieux asseoir cette consultation, aucune source d'information n'était négligée. Dans les cas majeurs d'expéditions défensives ou punitives, des plans secrets sont dressés, scrutés par les experts, sous la direction personnelle du Khalife. Ce fut une sorte d'états-majors où un minimum de clarté et de précision était exigé. On était loin des études académiques qui dominent aujourd'hui ces colloques. Quand le pro-

(*) Le 2[e] Khalife du Prophète est Sidna Omar Ibn Khattâb.

فهرس العدد الخاص بعيد الشباب

• ديوان المجلة :

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



بيت مغربي بفاس